

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله -
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

الإرساليات التبشيرية ببلاد الشام أهدافها وأثارها خلال القرن 19م

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ:

. أرزقي شويتام

إعداد الطالبة:

. الكاملة فرحات

أ. د عبد الرحمان أولاد سيدي الشيخ	رئيسا	جامعة الجزائر - 2
أ. د شويتام أرزقي	مقرا ومشرفا	جامعة الجزائر - 2
د. ة قطوش وهيبة	عضوا	جامعة الجزائر - 2
د. ة سعودي ياسمين	عضوا	جامعة الجزائر - 2
أ. د سعدي مزيان	عضوا	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د بودريعة ياسين	عضوا	جامعة البويرة

السنة الجامعية: 2018 / 2019م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

- ❖ اهدي ثمرة هذا العمل المتواضع إلى :
- ❖ أروع واعز من في الوجود أُمي وأبي العزيزين .
- ❖ إلى من جمعتني معهم ظلمة الأرحام إخوتي وأخواتي الأعزاء .
- ❖ إلى الغالي ووحيدي ونور حياتي ابني علي .
- ❖ إلى من جمعني بهم مشعل العلم .
- ❖ إلى كل من يعرفني .

الكاملة

شكر وعرفان

❖ الحمد لله والشكر لله الذي وفقني لإتمام هذا العمل .

❖ أتوجه بجزيل الشكر وخالص الثناء إلى الأستاذ المشرف أرزقي شويتام الذي أتخف هذه الدراسة بتوجيهاته وإرشاداته القيمة، وعلى صبره معي حتى تخرج هذه المذكرة على أحسن وجه.

❖ دون أن أنسى أن أتقدم بالشكر والعرفان لكل من ساهم وساعدني في انجاز هذا البحث خاصة الأساتذة: وهيبة قيطوش، وفاطمة الزهراء جوادي، ورتيبة غرائسة، وحرورية بابا، مسعودة غدير إبراهيم، والأستاذ محمد حناي، والأستاذ صهيب شنوف.

❖ ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه بالشكر إلى كل من ساعدني ولو بكلمة من قريب أو بعيد .

الكاملة

قائمة المختصرات

الرمز	المعنى
تص	تصحيح
تح	تحقيق
تر	ترجمة
تع	تعليق
تق	تقديم
ج	جزء
د ط	دون طبعة
جم	جمع
د س ن	دون سنة نشر
د م ن	دون مكان نشر
ط	طبعة
ع	عدد
م	ميلادي
مج	مجلد
مر	مراجعة
ص	صفحة
هـ	هجري
P	صفحة
S. Ed	دون طبعة
Op. cit	مرجع سابق
Ibid	نفسه
S. L	دون مكان نشر
S. d	دون تاريخ

مقدمة

شهد العالم خلال القرن 19م الكثير من المتغيرات، فعلى الصعيد الأوربي ظهر ما يعرف بالثورة الصناعية، التي كانت وراء تغير المشهد السياسي والاقتصادي العالمي، وهي التي كانت وراء ما يعرف بالاستعمار الأوربي الحديث. أما عند المسلمين، فالقرن 19م كان بمثابة عصر الضعف، حيث كانت الدولة العثمانية الإسلامية المترامية الأطراف تحتضر، وظهر ما يعرف في تاريخها بالمسألة الشرقية وتقسيم تركة الرجل المريض. ومن ثمة ظهرت الأطماع الغربية وأخذ التنافس يحتدم من أجل توسيع النفوذ والظفر بموقع قدم على حساب الدولة العثمانية. وبما أن التدخل العسكري كان غير وارد في سياسة الدول الغربية آنذاك لما له من مأخذ على الدول الغربية نفسها، فارتأت سبلا بديلة للتغلغل داخل جسم الدولة العثمانية، وتزامن هذا التغيير مع نشاط تبشيري حثيث من طرف الدول الغربية. فكانت الإرساليات التبشيرية من شتى الدول الغربية على اختلاف مذاهبها، تتنافس لتحقيق مآرب دولها. ومن بين ولايات الدولة العثمانية التي حطت بها الإرساليات التبشيرية رحالها، هي بلاد الشام، التي عرفت نشاطا تبشيريا كثيفا خلال فترة القرن 19م أدى دورا مفصليا في تاريخ المنطقة. وعلى هذا الأساس جاء عنوان بحثنا كالتالي "الإرساليات التبشيرية ببلاد الشام، أهدافها، وأثارها خلال القرن 19م".

ويتمثل الموضوع في عملية استقراء وتتبع نشاط الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام خلال القرن 19م، من خلال تحديد أهدافها ومآربها وتتبع أثارها على المنطقة، لهذا عالجت الموضوع وفقا للإشكالية التالية: ما هو واقع الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام خلال القرن 19م؟ وما مدى تحقيقها للأهداف التي سطرته؟

وتتدرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية أسئلة فرعية وهي كيف كانت استراتيجية الإرساليات التبشيرية في تنفيذ مخططاتها في بلاد الشام؟ وما مدى نجاح ذلك؟

واخترت الخوض في هذا الموضوع لعدة مبررات أهمها: أولا ميولي لدراسة تاريخ بلاد الشام فلطالما كانت محط اهتمامي خلال سنوات الدراسة السابقة، وثانيا: هو التعريف

بالإرساليات التبشيرية في بلاد الشام خلال القرن 19م وإبراز دورها في المنطقة. كما أن هناك دراسات متفرقة نوعا ما حول هذا الموضوع، فكان غرضي جمعها والتوسع في مضامينها، بالإضافة للرغبة الجامحة في معرفة جزئية هامة من تاريخ بلاد الشام في هذه الحقبة التاريخية العثمانية، لأنه وحسب رأي أن الإرساليات التبشيرية ساهمت كثيرا في صنع وتشكيل بلام الشام خلال القرن 20م، ولإبراز ما فعله الغرب في المنطقة بواسطة التبشير سياسيا وثقافيا، وما إلى ذلك من تغير ما زالت المنطقة تشهد آثاره إلى وقتنا الحالي، وبالإضافة إلى دعم المكتبة التاريخية بدراسة أكاديمية متخصصة.

أما عن حدود الدراسة، فقد خصصت القرن 19م، إذ يعد مرحلة هامة وفاصلة من تاريخ بلاد الشام، ففي هذه الفترة توافدت الإرساليات التبشيرية عليه من شتى أصقاع الدول الغربية، والتي باشرت نشاطها بجدية وبشكل ملحوظ، فتعتبر هذه الفترة منعطفًا تاريخيًا على المنطقة لما لها من تداعيات على الإرساليات التي اشتدت تنافسها بعد القرن 19م فيما بينها، ووصل التنافر إلى حد التناحر. وامتدت الدراسة حتى للقرن 20م لأن معظم آثارها ظهرت وبشكل جلي خلال هذا القرن.

وقد اعتمدت في دراستي هذه على المنهج التاريخي من خلال سرد الأحداث والحيثيات المتعلقة بنشاط الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام، وكذا تحليل الأحداث بالوقوف عند أسبابها وتتبع آثارها، بالإضافة إلى البحث عن الأهداف والغايات الحقيقية من وراء إرسال البعثات التبشيرية في تلك الفترة نحو بلاد الشام بالتحديد، ومحاولة إظهار نتائجها.

وللإجابة عن اشكاليات الدراسة، فقد اعتمدت في بحثي على خطة مكونة من مقدمة، وأربع أبواب وخاتمة بالإضافة إلى مجموعة من الملاحق جاءت موضحة لمضمون الدراسة.

أما عن الباب الأول تطرقت فيه للأوضاع السائدة في بلاد الشام في مستهل القرن 19م، وكيف ساهمت هذه الأوضاع بالتطافر مع عوامل أخرى في ظهور حركة تبشيرية في

بلاد الشام، وذلك من خلال فصلين، الأول تحدث فيه عن الأوضاع السياسية، الإدارية، الاجتماعية والثقافية لبلاد الشام، والفصل الثاني عدّدت فيه العوامل المساهمة في ظهور التبشير.

وخصّصت الباب الثاني للحديث عن الإرساليات التبشيرية التي نشطت في بلاد الشام خلال القرن 19م وموقف العثمانيين وأهل الشام منها، وقسمت الباب الثاني بدوره الى فصلين الأول كان للحديث عن الإرساليات التبشيرية بمختلف مذاهبها، وكذا تناولت علاقه هذه الإرساليات ببعضها البعض، والثاني عالجت فيه موقف الدولة العثمانية من هذه الإرساليات. وكذا أهل الشام باعتبارهم المستهدف الأول من هذه الحركة.

وفي الباب الثالث مخصص للحديث عن الأهداف المرسومة من قبل الإرساليات التبشيرية والوسائل المتبعة من قبلها لتحقيق هذه الأهداف، وذلك من خلال تخصيص الفصل الأول للأهداف والفصل الثاني للوسائل.

وأخيرا الباب الرابع الذي تتبعت فيه الآثار التي خلفتها هذه الإرساليات على بلاد الشام، واندراج تحته فصلين، الفصل الأول تحدث فيه عن الآثار السياسية، والفصل الثاني عرضت خلاله الآثار الثقافية والدينية التي خلفتها الإرساليات التبشيرية.

وختمت هذه الدراسة بجملة من الاستنتاجات، كما اعتمدنا على بعض الملاحق المكمل للموضوع حتى يتسنى للقارئ فهم بعض العناصر الخاصة به.

وبالرجوع إلى المصادر والمراجع المعتمدة في الدراسة، فقد لاحظت أن هناك كمًا هائلاً من الكتابات التي تناولت تاريخ بلاد الشام، خاصة فيما تعلق بفترة الحكم العثماني عليها، لكن المأخذ عن هذه الكتابات أنها اهتمت أكثر بالجانب السياسي والإداري وخاصة العسكري ومنه كانت الجوانب الأخرى من الحياة العامة في بلاد الشام أقل تتاولا، خاصة فيما يتعلق بالجانب الديني والثقافي، وموضوع الإرساليات التبشيرية من بين المواضيع التي قلّ التحدث

عنها، وإن ذكرت أحيانا فما بين السطور بدون تفصيل، ومع ذلك فهناك بعض الكتابات التي اهتمت بمسألة التبشير في بلاد الشام.

ومن هذه الكتابات التي استعنت بها لتحرير موضوعي نجد كتاب "التبشير والاستعمار في البلاد العربية" لعمر فروخ ومصطفى خالدي، إذ من خلال هذا الكتاب تمكنت من رسم الخطوط العريضة للموضوع، فجل معلوماته أخذت من كتب المبشرين الغربيين أنفسهم، ولذا يعتبر مصدر هام يكشف حقيقة التبشير ومخططاته، كما يعتبر من أهم الكتب التي عالجت ظاهرة التبشير في الوطن العربي ومن ذلك بلاد الشام، كما أن مؤلفي الكتاب من طلاب الجامعة الأمريكية ببيروت التي أسسها المبشرون الأمريكيون.

كذلك اعتمدت على كتاب آخر بعنوان "التبشير الأمريكي في بلاد الشام 1834 - 1914م" لصاحبه عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى الذي بدوره عالج جزئية كبيرة من الموضوع وهي الإرساليات البروتستانتية الأمريكية، والتي تعتبر من أهم الإرساليات التي ظهرت في المنطقة خلال الفترة المدروسة، وكانت سببا في ظهور الإرساليات الأخرى وتنافسها فيما بينها، إذ غطى هذا المؤلف معظم حيثيات هذه الإرسالية من خلال عملية استقراء المادة المصدرة الأرشفية الخاصة بها كالتقارير والجرائد التي عاصرتها.

كما اعتمدت على كتاب آخر بعنوان "البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان" لصاحبه طلال عتريسي، والذي تناول الإرساليات الكاثوليكية وخاصة اليسوعية منها في لبنان، بالإضافة إلى أنه تطرق في معرض حديثه إلى بعثات كاثوليكية أخرى ظهرت في بلاد الشام فتحدث عنها، لكنه فصل في البعثات اليسوعية من حيث التعريف بها وعن وسائلها المستخدمة، إذ ركز على التعليم، ضف إلى ذلك النتائج المترتبة عن تواجدها في المنطقة.

وفيما يخص الإرساليات الأرثوذكسية فاعتمدت على مقالين الأول بعنوان "البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام سوريا ولبنان 1840 - 1914م لحبيب محمود صالح نشر في مجلة دراسات تاريخية العددان 65 - 66 لسنة 1998م، والمقال الثاني تحت عنوان "حركة التبشير الروسية الأرثوذكسية في القدس" لمشعل مفرح ظاهر الشمري المنشور في مجلة كلية التربية الأساسية بجامعة بابل العدد السابع لسنة 2012م، إذ عالجا كلاهما نفس الإرسالية التبشيرية وهي الأرثوذكسية في بلاد الشام، وكان تركيزهم منصبا على نشاطها في منطقة فلسطين وذلك راجع إلى أن توажدها كان بشكل مكثف في هذه المنطقة مقارنة بغيرها من الإرساليات. بالإضافة إلى رسالة ماجستير تحمل بين طياتها أعمال الإرساليات التبشيرية من مختلف الأنحاء الغربية على أرض فلسطين، وسمت بعنوان "التنصير في فلسطين في العصر الحديث" لصاحبته أمل عاطف محمد الخضري، ففلسطين مسّها التبشير لأنها جزء هام من أجزاء الشام وأثر في مسارها التاريخي.

ويضاف إلى قائمة الرسائل الأكاديمية المعتمدة في هذه الدراسة رسالة ماجستير تحت عنوان "الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر" للأستاذة جميلة معاشي والتي أعطت صورة واضحة خاصة للآثار الإيجابية التي حظيت بها المنطقة جراء عمل الإرساليات، كما استعنت فيما يخص جانب الآثار المترتبة على عمل الإرساليات على مجموعة من الكتب، منها ما هو يعتبر من المادة المصدّرية أمثال فليب دي طيرازي في كتابه "تاريخ الصحافة العربية" في جزئين والتي تصف تاريخ المنطقة في إطار ما يعرف بالنهضة العربية، إذ بيّن أهم الصحف العربية التي نتجت عن العمل التبشيري، وتكلم عن رواد النهضة، وكتاب جرجي زيدان بعنوان "تاريخ أداب اللغة العربية" الجزء الرابع حيث تعمق في دراسة أهم مظاهر النهضة على الرغم من أنه يطغى عليه الطابع الأدبي، إلّا أنه بيّن لنا جوانب النهضة التي هي نتيجة التأثير بالغرب، وكتاب آخر عالج نفس الفكرة بعنوان

الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798 - 1914م " لعلي المحافظة،
بالإضافة لبعض المراجع التي تمس الموضوع في بعض محاوره.

وفي الأخير أرجو أنني قد وفقت إلى حد ما بالإحاطة بشيء من هذا الموضوع الواسع،
وكشف بعض جوانبه التي تبرز محطة هامة من تاريخ بلاد الشام خلال القرن 19م بصفة
خاصة وتاريخ العرب والمسلمين بصفة عامة، والجهد البشري كيف ما كان عرضة للنقص
حتى ولو كان كاتبه ألمعي ضليع، ولذا فما هذا البحث إلا بحث متواضع قابل للنقد
والتوجيه، وتقبلوا مني فائق الاحترام والتقدير.

الباب الأول

أوضاع بلاد الشام في بداية القرن 19م وعوامل ظهور التبشير

الفصل الأول: أوضاع بلاد الشام في مستهل القرن 19م

1 - سياسيا واداريا

2 - اجتماعيا واقتصاديا

3 - ثقافيا

الفصل الثاني: عوامل ظهور التبشير في بلاد الشام

1 - تعريف التبشير

2 - عوامل ظهور التبشير وارسالياته

أ - فشل الحروب الصليبية وظهور فكرة التبشير

ب - الاستشراق

ج - الامتيازات الأجنبية

د - سياسة ابراهيم باشا بن محمد علي في الشام (1831 - 1840م)

هـ - ضعف الدولة العثمانية.

قبل التغلغل في ثنايا الموضوع لابد من التعرف أولاً عن الأوضاع العامة السائدة في بلاد الشام في مستهل القرن 19م. فالتعرف على الظروف السائدة هناك تعطينا صورة عن الأسباب التي جعلت من بلاد الشام مستهدفة من قبل الإرساليات التبشيرية، والتساؤل المطروح هنا ما هي الأوضاع العامة في بلاد الشام في مستهل القرن 19م؟.

المبحث الأول: إداريا وسياسيا

كانت بلاد الشام¹ كلها جزءاً واحداً منذ أن فتحها المسلمون (633 - 640م) وحتى قبل ذلك، حيث كانت ضمن أجزاء الدولة الإسلامية زمن الخلافة الراشدة ومقرّاً للدولة الأموية، ثم تبعت العباسيين، وخضعت أجزاء منها للطولونيين في مصر، وقامت في الشمال الدولة الحمدانية (935 - 1009م)، وتقاسمت بلاد الشام مع الإخشيديين في مصر. وعندما قامت الدولة الفاطمية في مصر امتد نفوذها إلى بعض أطراف الشام، لكن عندما ضعفت هيبة الحكم الإسلامي فيها احتلها الصليبيون وأسسوا إمارات مسيحية في "الرها" و"طرابلس" و"عكا"، واستولوا على القدس الشريف، لكن تصدى لهم آل زنكي. وانضمت الشام بعدها إلى الأيوبيين بعد القضاء على الدولة الفاطمية في مصر، وأخرج صلاح الدين الأيوبي الصليبيين من القدس عام 1186م، واستمر الصراع مع الصليبيين من بعده، ثم قامت على أنقاضها الدولة المملوكية في مصر عام 1250م نتيجة ضعف الأيوبيين، ولما سقطت الدولة العباسية تعرضت الشام للغزو المغولي، لكن المماليك وقفوا في وجههم وتصدوا لهم في معركة عين جالوت 1250م. كما تخلصت الشام في عهدهم من وجود الصليبيين نهائياً،

¹ بلاد الشام: هي تلك المنطقة الجغرافية التي تضم سوريا ولبنان وفلسطين، وامتدت من سلسلة جبال طوروس في الشمال إلى شبه جزيرة سيناء في الجنوب، ومن الحدود العراقية السورية في الشرق إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب، وظل هذا المصطلح يطلق على هذه المنطقة إلى غاية القرن 19م. ينظر الهامش: ليث محمد إبراهيم الجنابي: «تغلغل الولايات المتحدة الأمريكية في بلاد الشام حتى 1920م»، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع 21، مج 7، حزيان 2015م، ص 260.

وتوسع نفوذ المماليك وامتدت دولتهم على أرجاء واسعة ثم اعتراهم الضعف، مما أدى بظهور البرتغاليين في المنطقة، وأصبحوا يشكلون خطراً على البلاد الإسلامية قاطبة¹.

عندها ظهرت الدولة العثمانية السنية على أجزاء كبيرة من آسيا وأوروبا وأصبحت دولة الإسلام الكبرى، ومنها اعتبر العثمانيون أن واجبهم الأول يتمثل في الدفاع عن الأقاليم الإسلامية ضد الأخطار والهجمات الخارجية التي كان أهمها الخطر البرتغالي، فقد رأى العثمانيون أنهم أجدر وأقدر من المماليك في الدفاع عن هذه المنطقة وتوحيدها في صف واحد ضد أي اعتداء أجنبي².

وهكذا انضوت بلاد الشام تحت حكم الأتراك العثمانيين إثر الانتصار الساحق الذي حققه السلطان سليم الأول (1512 - 1520م) على سلطان المماليك "قانسوه الغوري" (1501 - 1516م) في معركة "مرج دابق" شمال حلب 1516م³. ولقد أبقى الأتراك العثمانيون على التقسيمات الإدارية في "سوريا" على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك، مع تغيرات طفيفة في نظام التسمية، فسميت النيابة بالولاية، وعُرف النائب بالوالي، وأسندت معظم الدوائر الإدارية إلى حكام أترك⁴، مع الإقرار والاعتراف بالعصبيات البدوية والتركمانية والدُرزية في مناطقها، والاعتراف لزعمائها المحليين بالإشراف على أتباعهم وجمع المال منهم⁵.

¹ اسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكِر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر 987هـ - 1400هـ / 1492م - 1980م، دار الميرخ للنشر، د ط، ج 1، المملكة العربية السعودية، ص ص 117 - 118.

² عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى: التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834 - 1914، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، 2005م، ص 9.

³ علي معطي: تاريخ لبنان السياسي والاجتماعي - دراسة في العلاقات العربية التركية 1908 - 1918م، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط 1، بيروت، 1992م، ص 11.

⁴ فليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر، كمال اليازجي، مر - تح، جبرائيل جبور، دار الثقافة، د ط، ج 2، بيروت، 1959م، ص 307.

⁵ الغالي غربي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288 - 1916، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، 2007م، ص 81.

ولقد استمر تقسيم بلاد الشام إلى ثلاث ولايات، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية وهي: الشام، وحلب، وطرابلس، وقسمت هذه الولايات بدورها إلى الصناجق¹ التالية:

- ولاية الشام: وشملت عشرة صناجق، دمشق أو الشام هي مركز الولاية، وتضم الصناجق التالية: القدس، غزة، نابلس، صفد، عجلون، اللجون، تدمر، صيدا مع بيروت، والكرك مع الشوبك.

- ولاية حلب: وشملت تسعة صناجق، حلب مركز الولاية، وقسمت إلى الصناجق التالية: اضة، كلس، بيرة جك، بالس، منبج، معرة النعمان، وتركمان حلب، واعزاز.

- ولاية طرابلس: طرابلس مركز الولاية، وتتألف الولاية من الصناجق التالية: حماة، حمص، سلمية، جبلة، اللاذقية والحصن².

وظل هذا التقسيم الإداري للشام قائما حتى سنة 1665م حين أضيفت إليه ولاية جديدة وهي ولاية صيدا، والتي جعل مقرها أولا في صيدا ثم انتقل إلى مدينة عكا.

وشهدت بلاد الشام تحت الحكم العثماني استقرارا سياسيا³، وما أن طل القرن 19م حتى طرأت العديد من المتغيرات الإدارية والسياسية على بلاد الشام، بدايتها أن ولاية الشام تعرضت في النصف الأول من القرن 19م إلى حملة عسكرية، قام بها الوالي العثماني المنشق محمد علي باشا والي مصر، إذ أرسل قواته بقيادة ابنه إبراهيم باشا⁴ إلى بلاد الشام للسيطرة عليها، وانطلق من مصر في أكتوبر 1831م، ودخل بقواته بلاد الشام، واستسلمت

¹ الصناجق: مفردا صندق (سندق) وهي ترجمة للفظة العربية لواء بمعنى العلم وهي من التعابير التي استخدمها السلاجقة سابقا. ينظر الهامش: فليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ص 307.

² عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون 1516 - 1916، مكتبة أطلس، د ط، دمشق، 1974م، ص ص 95 - 96.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 9.

⁴ إبراهيم باشا 1787م - 1848م: هو نجل ولي مصر محمد علي باشا، ولدة قرية بمقدونيا، كان عضد والده في كل مشروعاته العسكرية وكان ساعده الأيمن، عرف بحنكته في القيادة العسكرية، فقد عدة حملات منها الشام والمورة والسودان وغيرها. ينظر: جرجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، ج 1، القاهرة، د س ن، ص 43.

الباب الأول: أوضاع بلاد الشام في بداية القرن 19م وعوامل ظهور التبشير

الفصل الأول: أوضاع بلاد الشام في مستهل القرن 19م

له مدن غزة، ويافا، والقدس، ثم حيفا من دون قتال، واستولى على عكا في ماي 1832م. وكانت عكا بمثابة مفتاح بلاد الشام، إذ أدى سقوطها إلى دخول المدن الشامية الواحدة تلو الأخرى بأيدي قوات إبراهيم باشا. وسار إلى دمشق واستولى عليها في جوان 1832م، ثم احتل حلب واذنة على التوالي. وتغلب على الجيش العثماني على مقربة من قونية سنة 1833م¹. وتم له فيما بعد السيطرة على كل الأراضي الشامية. وصار إبراهيم باشا حاكما علنا على كل الولايات الشامية، وممثلا لوالده محمد علي باشا بموجب معاهدة كوتاهية².

وهكذا دخلت بلاد الشام في حكم محمد علي باشا بعد صلح كوتاهية، وأصبحت "مصر" المرجع الأعلى لحكومة الشام. وأخذ إبراهيم باشا في تنظيم سوريا وتدبير أمورها الإدارية والسياسية والحربية منذ أن وطأت أقدامه إليها، حيث ألغى التقسيمات الإدارية التي سادت بلاد الشام في العهد العثماني. فعين في ديسمبر 1831م موظفين على المدن الساحلية مثل: صور وصيدا وبيروت وطرابلس وربطهم به مباشرة، ثم عدل عن ذلك بعد سنة واحدة، وفوض الأمير بشير الشهابي³ في أكتوبر 1832م بإدارة شؤون هذه المدن، فولى هذا الأخير متسلمين عليها من أقاربه. وفي نفس السنة عين محمد علي شريف باشا حاكما

¹ فاضل بيات: الدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا- مطلع العهد العثماني- أواسط القرن التاسع عشر)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت - لبنان، 2007م، ص ص 151 - 152.

² كوتاهية: مدينة تركية عقدت فيها معاهدة في ماي 1833م بين العثمانيين ومحمد علي باشا أهم ما جاء فيها: انسحاب الجيوش المصرية إلى ما وراء جبال طورس، تعيين إبراهيم باشا واليا على اذنة، واحتفاظ مصر ببلاد الشام وجزيرة كريت، مقابل دفع جزية سنوية للسلطان العثماني. ينظر: غربي: مرجع سابق، ص ص 187 - 188.

³ بشير الشهابي 1788 - 1840م: من حكام جبل لبنان، تميزت سياسته مع الأتراك بالازدواجية بين الحزم والصدقة إذ ساعدهم على التصدي للحركة الوهابية في الحجاز، ثم وقف إلى جانب محمد علي باشا أثناء حملته على بلاد الشام، وبعد دحر جيوش محمد علي هرب إلى مالطة بالتعاون مع الإنجليز ثم سمح له بالتوجه إلى استانبول حيث توفي هناك عام 1850م. ينظر: فليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج 2، ص ص 340 - 342.

عاما (حكمدار) على جميع ولايات بر الشام باستثناء جبل لبنان حيث بقيت إدارته تحت إشراف الأمير بشير الشهابي¹.

إلا أن هذه التغيرات الإدارية التي قام بها إبراهيم باشا لم تدم طويلا، واضطر أن يعيد التشكيلات الإدارية السابقة بسبب الثورات المستمرة التي واجهته في سوريا، فأعيد تشكيل ولاية صيدا من جديد بعد أن نزعت عنها عكا، وعين سليمان باشا الفرنساوي واليا عليها، وفصلت حلب عن ولاية الشام عام 1834م، وعين إسماعيل بك واليا عليها. وأصبحت بلاد الشام في أواخر العهد المصري 1839م مقسمة إلى عدد من الوحدات الإدارية وهي: ولايات الشام وحلب وصيدا وطرابلس ويافا واذنة، وعلى كل ولاية موظف وأعوانه².

وظلت بلاد الشام بأكملها خاضعة للحكم المصري إلى غاية عام 1840م³، حيث تدخلت الدول الأوروبية إلى جانب الدولة العثمانية وأنهت الوجود المصري في بلاد الشام بموجب معاهدة لندن⁴ 1840م، واسترجعت الدولة العثمانية بلاد الشام من جديد⁵، وقام السلطان العثماني بخلع الأمير بشير الشهابي الثاني الذي أيد إبراهيم باشا من حكم جبل لبنان، وعين مكانه ابن أخيه بشير قاسم باسم بشير الثالث⁶.

¹ عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، د ط، مصر، 2005م، ص 362 - 363.

² نفسه، ص ص 363 - 364.

³ بيات: الدولة العثمانية في المجال العربي، ص 152.

⁴ معاهدة لندن 1840م: عقدت في 11 أوت في لندن بين الامبراطورية العثمانية والقوى الأوروبية في مقدمتها بريطانيا وفرنسا للحد من قوة إبراهيم باشا وإخراجه من بلاد الشام. ينظر:

Le Liban Une identité complexe au risque de l'Histoire. 2019 CLIO voyages culturels.

www.clio.fr, p 17.

⁵ إميل توما: تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث، دار الفرابي دار الآداب والفنون، ج 1، بيروت، 1979م، ص ص

46 - 47.

⁶ رافق: مرجع سابق، ص 411.

ولكن انسحاب القوات المصرية من بلاد الشام ترك فراغا سياسيا، فحاولت بعض القوى كالدروز والموارنة والعصبيات السنية والشيعية أن تثبت تفوقها في لبنان، في ظل الدسائس الأوربية. كما بادرت الدولة العثمانية بنقل مقر والي ولاية صيدا إلى بيروت عام 1840م حتى تتمكن من مراقبة جبل لبنان¹.

وعلى ذلك يمكن اعتبار سنة 1840م بداية مرحلة جديدة في تاريخ لبنان خاصة، إذ أن الوفاق القديم بين طائفتي الجبل قد انتهى تماما، حيث خرج الدروز بعد الحكم المصري منكوبين من وطأة حكم الأمير بشير الشهابي الثاني الموالي للحكم المصري، بينما خرج الموارنة المسيحيون بعد أن اكتسبوا قوة وصلابة، بسبب السياسة المرنة التي اتبعها معهم إبراهيم باشا أثناء تواجده في بلاد الشام²، إذ جند المسيحيين الموارنة واستخدمهم لإخضاع الدروز لتعزيز سلطانه، مما أدى إلى استفحال النزاع الطائفي³ في عهده. وبعد خروجه، عاد الدروز إلى جبل لبنان لكنهم وجدوا أن الموارنة قد سيطروا على الكثير من مناطقهم⁴، وتوسعوا نحو الجنوب على حساب القرى التي تسكنها غالبية درزية. ومما زاد في تفاقم التناحر، أن بعض أمراء الأسرة الشهابية تحولوا من الإسلام إلى النصرانية، مما أدى إلى ازدياد مخاوف المسلمين من بسط سيطرة الموارنة⁵. ومما زاد في إثارة الفوضى، هو معارضة معارضة مختلف الطوائف الموجودة في لبنان للحاكم الذي خلف الأمير بشير الشهابي وهو بشير قاسم الثالث الذي اشتهر بضعفه. وهكذا استغلت الدول الأوربية عامل الدين والطائفية

¹ عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص 379.

² عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د ط، بيروت، د س ن، ص 357.

³ الطائفية: ليست الدين ولا التدين، وإنما هي عكس ذلك تماما بإخضاع الدين لمصالح السياسة الدنيا، سياسة حب الارتقاء والمصلحة الذاتية، والتطور على حساب الجماعات الأخرى. ينظر: برهان غليون: المسألة الطائفية ومشكلة الاقليات، د ط، دار الطليعة، بيروت، 1979م، ص 20.

⁴ رافق: مرجع سابق، ص 411.

⁵ محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، ط 3، بيروت 1434هـ / 2013م، ص 370.

لماً الفراغ السياسي، الذي نجم عن خروج محمد علي باشا من الشام ونفي حليفه بشير الشهابي، بتشجيع طائفة ضد أخرى، ومن ثمة اشتدت الاضطرابات في المنطقة ما بين سنوات 1840م و1860م، وأصبحت الشام ميداناً لتدخل الدول الأوروبية، خاصة فرنسا وإنجلترا بسبب بحثهما عن أسواق ومصادر للمواد الخام وذلك راجع لازدياد تصنيعهما، وكذلك بسبب ازدياد حدة المنافسة فيما بينهما، فوجدت هذه الدول في النزاعات الطائفية التي أسهمت في تأجيجها مجالاً للتدخل¹.

ومن ثمة لعب قناصل وممثلو تلك الدول دوراً هاماً في إثارة النزاعات الطائفية وغرس الأحقاد والفتن. وكان أبرز هؤلاء الممثلين الكولونيل روز البريطاني الذي قدم إلى بيروت عام 1840م، يحمل معه مخططاً يرمي إلى وضع الباشوات العثمانيين في سوريا ولبنان بصورة غير مباشرة تحت الوصاية البريطانية، والقضاء على النفوذ الفرنسي، وتكوين طائفة² تكون قاعدة ودعامة للسياسة البريطانية في بلاد الشام بما فيها لبنان³. وتفنن قنصل روسيا في بيروت بازيلي⁴ في إثارة الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس والموارنة. ودخلت النمسا في التنافس بحجة حماية الكاثوليك في الشرق. وخشيت فرنسا على مكانتها في لبنان من أن تأخذها الدول الأوروبية فأرسلت قنصلها بوريه إلى بيروت من أجل الحفاظ على مكانتها، وهكذا استمال هؤلاء القناصل زعماء الطائفة التي تحتمي بهم بوسائل مادية ومعنوية، وانقسم الشعب اللبناني إلى جماعات وشيع تأتمر كل منها بأوامر قنصل أوروبي. وأصبح القناصل

¹ رافق: مرجع سابق، ص، ص 411، 420.

² طائفة: تعني في اللغة الجماعة والفرقة، لقوله تعالى: «ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون» سورة آل عمران الآية 68، وتعني أيضاً الجمع المنفرد بخصوصيات ما، فكان يقال: طائفة النساخين أي مجموعة من النساخين، إلا أن الكلمة أصبحت حكراً على أصحاب الأديان والمذاهب فقط. ينظر: خالد مرعب مصطفى: قضايا لبنانية وعربية معصرة، دار النهضة العربية د ط، بيروت، 2010م، ص 84.

³ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 357.

⁴ قسطنطين بازيلي: عين قنصل لروسيا في يافا سنة 1838م ثم نقل إلى بيروت سنة 1843م. ينظر: قسطنطين بازيلي: سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، تر، طارق معصراني، دار التقدم، د ط، موسكو، 1989م، ص 4 - 6.

الأجانب يتدخلون في كل كبيرة وصغيرة تدعيما لنفوذ بلادهم¹، حتى أضربت نار الشقاق بين الدروز الذين كانوا يستظلون بالحماية البريطانية والموارنة الذين يحميهم الفرنسيون، ونشبت الحرب الأهلية² بين الفريقين، ولم يلبث أن اصطبغ صراعهم بصبغة طائفية، تمثلت في اضطرابات عام 1841م³.

حيث اعتدى الدروز على الموارنة في 13 أكتوبر 1841م ودخلوا دير القمر عاصمة الإمارة، وارتكبوا فيها مجازر تقشعر لها الأبدان من نهب وقتل وحرائق⁴، وطردوا الأمير بشير قاسم الشهابي، هذا الأمر اغضب الباب العالي⁵، وبعث مصطفى باشا قائد الجيش العثماني إلى لبنان حيث دعا زعماء الجبل إلى بيروت، وأعلن أمامهم في 16 جانفي 1842م سقوط حكومة آل شهاب، وعين عمر باشا النمساوي⁶ أحد ضباطه، وانتهى بذلك عهد

¹ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ص 380 - 381.

² الحرب الأهلية: يطلق اسم الحرب الأهلية على الصراعات المسلحة التي تقع بين مواطنين لنفس الدولة، والشرط الوحيد الممكن هو الانتماء لنفس الدولة حيث تقع الصراعات. ينظر: فيصل جلول: « عشر سنوات على الحرب الأهلية في لبنان، محاولة تحديد دور العناصر الخارجية في الأزمة اللبنانية»، مجلة السياسة الدولية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ع 82، ص 9.

³ كمال السعيد حبيب: الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة الأموية وحتى نهاية الدولة العثمانية (622م - 1908م) (1هـ - 1325هـ)، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 2002م، ص 441.

⁴ محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح، إحسان حقي، دار النفائس، ط 1، بيروت، 1981م، ص 477.

⁵ الباب العالي: اسم أطلق في العصر العثماني على المقر الرسمي لرئاسة الوزراء (الصدارة العظمى) في استانبول ابتداء من عام 1718م. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1996م، ص 62.

⁶ عمر باشا النمساوي 1806 - 1871م: هو نمساوي الأصل جاء إلى البوسنة العثمانية عندما كان عمره 28 سنة وهناك اعتنق الإسلام وسمى نفسه عمر، عمل مدرس في المدرسة العسكرية بالاستانة حيث درس السلطان عبد المجيد قبل توليه السلطة في سنة 1839م، أرسل مع مجموعة من الضباط لمحاربة ابراهيم باشا المصري في الشام، وبعد ثلاث سنوات عين في سوريا في رتبة عسكرية، كما شارك إلى جانب الدولة العثمانية في عدة حروب منها حرب القرم. ينظر: جرجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج 1، ص ص 195 - 196.

الزعامات المحلية الحاكمة. وفي نفس الوقت انتهى فيه عهد الأخوة الدرزية - المارونية الكاثوليكية، وعرفت هذه الثورة بالحركة الأولى¹.

لقد عمد الوالي عمر باشا إلى إلغاء جميع امتيازات السكان الممنوحة لهم بموجب معاهدات سابقة، واتبع سياسة متقلبة بهدف السيطرة، فسعى إلى استخدام الموارنة ضد الدروز، لكن الدول الأوروبية رفضت هذا الإجراء وكذلك رفضه الموارنة، وباعت سياسته في جعل الجبل ولاية عثمانية بالفشل². ولم يجني منها إلا الإضرار بمكانته، حيث بقي النصارى موالين للشهابيين، أما الدروز فقد أغضبتهم سياسته وتكاتفوا على عداوته، وقرر هو بدوره استخدام العنف ضدهم، عندها تدخلت الدول الأوروبية وبدأت تضغط على الباب العالي لتسوية القضية اللبنانية. ففي ذلك الوقت، كان الدروز في لبنان يتحفزون للثورة رغم محاولات الدروز والموارنة عقد ميثاق بينهم، إلا أن حدة العداوة بينهما بلغت لحد يستحيل توحيد الجهود فيه³.

وبعد فشل المساعي، قرر الدروز الانفراد بالثورة، وشرعوا في ثورتهم، فاحتلوا جميع الهضاب المحيطة ببيت الدين، وقطعوا المياه عن القصر. وعندما حل أسعد باشا محل مصطفى باشا في بيروت أرسل مبعوثيه لمفاوضتهم، ولما فشلت المفاوضات هاجمهم، وفر زعمائهم إلى منطقة حوران وتفرق أنصارهم، وأعقب انتصاره بإقالة عمر باشا من بيت الدين واستبداله بمحمد باشا في 07 ديسمبر 1842م، وفي اليوم ذاته أبرم الباب العالي مشروعا جديدا لحكم لبنان يوضع موضع التنفيذ اعتبارا من مطلع العام التالي⁴، يجعل لبنان تحت حكم اثنين من أمرائه: واحد من الموارنة، والآخر من الدروز، لكن هذا المشروع كان حلا وسطا بين وجهتي النظر الفرنسية التي طالبت بإعادة العمل بنظام الإمارة مع التفضيل

¹ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ص 382 - 383.

² طقوش: مرجع سابق، ص 372.

³ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص 385.

⁴ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 361.

بإسنادها إلى أمير شهابي، وأيدتها النمسا في موقفها، ووجهة النظر العثمانية التي أصرت على إدخال لبنان في السلطنة العثمانية تحت مسؤولية والي صيدا. وقد استغلت معارضة بريطانيا للسياسة الفرنسية للتمسك بوجهة نظرها، وأيدتها روسيا في موقفها. وللخروج من هذا المأزق، اقترح مستشار النمسا تقسيم لبنان إلى منطقتين إدارتين: شمالية يتولى إدارتها قائمقام¹ ماروني، وجنوبية يتولى إدارتها قائمقام درزي، على أن تكون الكلمة الأخيرة في القضايا الهامة لوالي صيدا، وأيدت فرنسا وبريطانيا هذا المقترح وقبله الباب العالي².

ثم عين أسعد باشا واليا على ولاية صيدا وكلف بتطبيق النظام بسرعة، عندها انتخب الدروز الأمير أحمد أرسلان المحايد قائمقاما عنهم. أما على رأس المسيحيين، استبعد الشهابيين وعين الأمير حير أبي اللمع قائمقام عليهم، عندها اعترض الروم الأرثوذكس على ذلك، وطالبوا بتعيين قائمقام عليهم من طائفتهم بتحريض روسي، وأقدم أسعد باشا عن سلخ قضاء جبيل الذي تسكنه عدة طوائف عن قائمقامية النصارى وجعله تابعا لوالي بيروت، عندها احتجت الدول الأوروبية لدى الباب العالي. وبعد مفاوضات طويلة، أعيد القضاء وملحقته إلى القائمقامية النصرانية، وأعلن القنصل الروسي أنه لن يقبل خضوع الروم الأرثوذكس لسلطان المواردية المسيحيين الكاثوليك، وطلب أن يكون للأرثوذكس قائمقام منهم، لكن محاولاته باءت بالفشل. أما بريطانيا فقد وافقت على هذا التقسيم لأنه أعطى أنصارها الدروز لأول مرة في حياتهم منذ القرن 17م حكما إداريا وسياسيا يكون تحت النفوذ الإنجليزي مباشرة. أما فرنسا، فقد قبلت هذا الحل لأنه أنهى مشكلة وأنشأ للمسيحيين إمارة خاصة بهم، وحقق فكرة الوطن القومي المسيحي³.

¹ قائمقام: هو الشخص الذي يقوم مقام الغير، وهو أعلى منصب إداري في الاقضية. ينظر: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، د ط، الرياض، 2000م، ص 170.

² طقوش: مرجع سابق، ص 372.

³ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص ص 361 - 362.

غير أن نظام القائمقاميتين قد تدهور عند تطبيقه، بسبب وجود مناطق مختلطة، وتداخل سكاني في كل قائمقامية¹، وذلك بوجود أعداد كبيرة من الموارنة تسكن في المنطقة الجنوبية التي أشرف عليها القائمقام الدرزي². بالإضافة إلى أن الدول الأوربية لم تتوقف عن التدخل في شؤون الطوائف وفي تعيين القائمقامين. وإتهم عملاؤها الدولة العثمانية بأنها تحابي فريقا على آخر، كما لم يعط كل من القائمقامين السلطة الكافية ولا أداة الحكم الجيدة لفرض إرادته وإخماد الفتن والحروب الأهلية، مما أدى إلى تجدد الاشتباكات في عام 1845م³.

فأرسلت الدولة العثمانية وزير خارجيتها إلى لبنان شكيب افندي الذي أبقى على نظام القائمقامين، وأقام في كل منطقة مجلسا يضم مختلف المذاهب في محاولة لإشراك المذاهب من الأقليات في الحكم، مهمته المساعدة في إدارة القائمقامية⁴، كما قام بنزع سلاح الطرفين، وسعى للقضاء على النظام الاقطاعي.

وهكذا انتهت مسألة لبنان مؤقتا، لكن الدروز لم يقبلوا هذه التسوية بسبب وسواس مندوبي بريطانيا لهم بأنها ستمنحهم في الوقت ذاته السيادة على جميع الشعوب الساكنة في لبنان. واستمرت الفتن جارية مجراها حتى حصلت فتنة 1860م⁵ بين الدروز والموارنة من جديد، وكانت الفرصة ثمينة للتدخل الأجنبي على الصعيدين السياسي والعسكري⁶.

حيث سارعت فرنسا إلى رفع شعار حماية مسيحيي سوريا لتبرير تدخلها العسكري سنة 1860م أمام الرأي العام الفرنسي والأوربي، حيث أمر نابليون الثالث بإرسال قوة عسكرية إلى

¹ طقوش: مرجع سابق، ص 373.

² رافق: مرجع سابق، ص 422.

³ طقوش: مرجع سابق، ص 373.

⁴ رافق: مرجع سابق، ص 422.

⁵ فريد بك المحامي: مرجع سابق، ص 480.

⁶ طقوش: مرجع سابق، ص 374.

لبنان تحت ذريعة حماية الموارد بحجة أنهم مهددين بشكل خطير من الدروز¹، لكن غرضها المخفي كان يتمثل في مشروع فصل سوريا عن الدولة العثمانية، واحتلال لبنان. وهكذا أرسلت أسطولها إلى بيروت تحت ذريعة حماية المسيحيين في سوريا². وكان أسطولها يتألف من ستة آلاف جندي، إلا أن الدولة العثمانية قد أسرعت وحلت الموضوع بشكل يرضي النصارى، مما اضطر الحملة الفرنسية إلى الانسحاب.

بعدها جاءت لجنة للتحقيق من طرف الدول الأوربية إلى استانبول، واتفقت مع السلطان العثماني على منح جبل لبنان نظاما إداريا خاصا يعرف بنظام المتصرفية³، حيث يصبح لبنان متصرفية مستقلة استقلالاً إدارياً يديرها نصرائي من خارج لبنان، يقترحه السلطان العثماني وتوافق عليه الدول الأوربية، ويتصل مباشرة بالسلطان دون الرجوع إلى ولاية دمشق. ويساعد هذا الحاكم مجلس يمثل الطوائف جميعاً. وكانت هذه المتصرفية لا تشمل سوى جبل لبنان⁴، وكان ذلك سنة 1861م. وقد عدل هذا النظام سنة 1864م واستمر ساري المفعول حتى الحرب العالمية الأولى. ولقد أقر هذا النظام مساواة جميع المواطنين أمام القانون، وإلغاء نظام الامتيازات الإقطاعية. ولقد اتبع العثمانيون إصلاحات إدارية في بلاد الشام خلال هذا النظام، فقسموها إلى ولايات جديدة وأنشأوا أولاً ولايتي الشام وحب، ثم ولاية بيروت، وجعلوا من القدس صنجقا خاصاً⁵.

¹ PHILIPPE CONRAD, « Le Proche-Orient sous mandats français et britannique », Historien, rédacteur en chef de la Nouvelle Revue d'Histoire , février 2002.

² قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية قراءة جديد لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، ط 2، بيروت، 2003م، ص 100.

³ وافق الباب العالي في جويلية 1861م تحت ضغط القوى الأوربية على تحويل الحكم في لبنان الى متصرفية، فإدارة الحكم في لبنان تولاه حاكم مسيحي لأول مرة، لكن غير لبناني بمساعدة مجلس استشاري مكون من 4 موارد و 3 دروز و 2 من الروم الأرثوذكس. ينظر . Le Liban Une identité complexe au risque de l'Histoire, op. cit., p 18.

⁴ ياغي ومحمود شاكرا: مرجع سابق، 147.

⁵ رافق: مرجع سابق، ص 426.

لكن ما أن انهزم العثمانيون في الحرب العالمية الأولى في جويلية 1918م في معركة دابق بن عامر شمالي فلسطين، سقطت سوريا كلها في قبضة الإنجليز، ودخل الأمير فيصل¹ وقتها إلى دمشق وأقام فيها حكومة عربية عسكرية باسم والده الشريف حسين²، ولكن هذا الأمر لم يدم طويلا بسبب دخول الجنرال البريطاني اللنبي ومعه فرقة فرنسية واحتلت سوريا وقسمت إلى ثلاث مناطق: منطقة جنوبية إنجليزية وهي فلسطين، ومنطقة شرقية عربية، وهي سوريا الداخلية، ومنطقة شمالية فرنسية وهي لبنان والساحل السوري. وفي أواخر أبريل 1920م أقر المجتمعون في سان ريمو³ وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب⁴ الفرنسي⁵.

وشكلت الحملة المصرية على الشام نقطة تحول في تاريخه العثماني واستقراره، فتطور الأحداث بعد هذه المرحلة كانت تعبر عن وضع سياسي مزري طابعه العام حروب أهلية ونزاعات طائفية فضلا عن ضعف النفوذ والإدارة العثمانية.

¹ الأمير فيصل 1883 - 1933م: وهو الابن الثالث للشريف حسين، ولد بالطائف، وانتقل مع والده إلى استانبول، حيث تلقى تعليمه باللغة العربية والتركية، وعندما ثار والده على الدولة العثمانية سنة 1916م، تولى قيادة الجيش المتجه إلى الشام، وأصبح ملكا على سوريا عام 1920م. ينظر: خير الدين الزركشي: **الأعلام**، دار الملايين، د ط، بيروت، ج 8، 1986م، ص 165.

² الشريف حسين 1854 - 1931م: هو حسين بن علي شريف مكة وأميرها منذ 1908م إلى 1916م، وملك الحجاز من 1916م إلى 1924م، ولد في استانبول، وانتقل إلى مكة مع أسرته، قاد الثورة العربية الكبرى متحالفا مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية عام 1916م، لجعل الخلافة في يد العرب بدلا من الأتراك العثمانيين. ينظر: أمين الريحاني: **ملوك العرب**، دار الجبل، د ط، بيروت، ج 1، د ت ن، ص 17.

³ سان ريمو: نسبة إلى مدينة سان ريمو بإيطاليا، انعقد بها مؤتمر بطلب من المجلس الأعلى لعصبة الأمم، ومن أهم قراراته، وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ووضع كل من العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني. ينظر: جوزيف صقر: **قصة وتاريخ الحضارات العربية**، ط 2، د م ن، بيروت، ج 2، 1999م، ص 29.

⁴ الانتداب: نظام أقرته منظمة عصبة الأمم، هدفه ظاهريا ترقية الشعوب التي يمارس عليها، والكيانات السياسية، والأخذ بيدها حتى تصل إلى درجة من النضج السياسي، وعندما تصبح قادرة على حكم نفسها تنسحب الدولة المنتدبة. ينظر: م. كافوري: **نشأة الصهيونية وأثارها الاجتماعية**، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة، 2002م، ص 17.

⁵ عبد العزيز عمر: **تاريخ المشرق العربي**، ص 382

المبحث الثاني: اجتماعيا واقتصاديا:

تتسم مجتمعات العصور الوسطى الأوروبية والشرقية بالطائفية سواء في ذلك طوائف الحرف، والتي كانت تجمع في داخلها الحرفيين من أبناء الطائفة الواحدة مهما اختلفت أديانهم. وكذلك وجدت الطائفية الدينية التي تجمع أبناء المذهب الواحد مهما اختلفت أعراقهم الجنسية. وبظهور الدول الحديثة في أوربا في القرن 15م، اختفت الطوائف الحرفية، وهو ما تأخر في العالم العربي للقرن 19م، ولكن بقيت الطوائف الدينية لأنه من العسير ذوبانها. واتسم المجتمع الشامي في القرن 19م بالطائفية الدينية.

إذ تنفرد بلاد الشام بسمة لا تشاركها فيها بقية دول العالم قاطبة، ألا وهي وجود طوائف دينية لا يوجد لها شبيهها في العالم، والتي شكلت مغنما للعديد من الدول التي تدخلت بصور وأشكال مختلفة، إما لمساندة طائفة ضد أخرى أو بحجة حل الأزمة بين الطوائف. وقد أدى هذا بدوره لتعقيد المشكلة الطائفية حتى أنها أصبحت المحرك الأساسي للمشكلات في هذه المنطقة. ومن هنا ينبغي أن نشير إلى هذه الطوائف حتى نوضح البيئة التي عملت فيها الإرساليات التبشيرية¹، وللدلالة على مدى ملائمة الظروف المختلفة لها².

¹ الإرسالية التبشيرية: تعني جماعة من المنصرين يقومون بنشر المسيحية في إقليم معين، وتضم الإرسالية عدة مراكز يختص كل منها بالعمل في مدينة معينة يطلق عليها المركز التبشيري، كما توجد لها مراكز فرعية على مستوى القرى. ينظر الهامش: كرم شلبي: الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، مكتبة التراث الإسلامي، ط 1، مصر، 1991م، ص 48.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 27.

أولا: المسلمون:

أ - السُّنة¹: تتمركز معظم الأسر السنية في بلاد الشَّام في المناطق الساحلية، إذ تم نقلها إليها في زمن الحكام المماليك. وفي العصر العثماني شكل المسلمون السنيون من عرب وأكراد وأتراك وتركماني أكثرية بسيطة في الشام، وانتمى أكثر العرب السنيين لمذهب الإمام الشافعي، بينما اتبع الأتراك والأكراد والتركماني مذهب أبي حنيفة الذي اتبعه أيضا بعض الأعيان العرب تقريبا من السلطات العثمانية التي جعلته المذهب الرسمي للبلاد.

وتوزع المسلمون السنيون في مختلف الأماكن في الشام، فكان منهم عددا يتركز في أطراف البلاد الشرقية على حدود فلسطين من ناحية الشمال. أما في دمشق، فقد شكل السنة ثلاثة أرباع المجموع الكلي للسكان. أما في لبنان تركّز السنة في بيروت وطرابلس وبعبك، وفي الريف انتشروا في عكار والبقاع².

ولقد قدر عدد المسلمين السنيين في أواخر القرن 19م بمليون نسمة، عشرين منهم من العشائر البدوية، إذ مثلوا العمود الفقري للنظام العثماني. ومع ذلك، كانوا أكثر الطوائف الشامية تعرضا للمظالم من طرف السلطات العثمانية التي كانت ترضخ لضغوط الدول الأوروبية المختلفة في الدفاع عن الطوائف التابعة لها، مثلما حدث في عام 1861م، عندما أصبح المتصرف العثماني في لبنان مسيحيا، وله نائبان أحدهما من الدروز والآخر من الموارنة لرعاية الطائفتين، بينما لم يكن لأهل السنة نائب عنهم، بالرغم من أن نسبتهم العددية تفوق الدروز، أما العشائر البدوية الشامية فيمكن القول أن الدين عندهم ليس له اهتمام كبير، ومعظمهم إما حنابلة أو مالكية لاختلاطهم بعشائر نجد والحجاز، ومع ذلك

¹ السُّنة: تعني ما أخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم من فعل وقول وتقرير، وهي أصل من الأصول الأربعة التي يقول بها المسلمون، وهي القرآن والسنة والاجتهاد والقياس. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ج 3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990م، ص 256.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 27 - 28.

مثل السنة عنصر الاعتدال الوحيد بين الطوائف الشامية، وكانوا هم الطائفة الوحيدة التي ظلت على ولائها للدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية سنية، لكنهم كانوا أقل شأنًا من الطوائف الأخرى، مما صعب إيجاد اتجاه سياسي يمثلهم عكس الطوائف الأخرى¹.

ب: الشيعة²: يمثلون عصبية قوية وعشائر كبيرة في بلاد الشام، ومن أبرز فرقهم نذكر:

1- الدروز³: ظهر الدروز في منتصف القرن 11م - 5هـ في مصر. ويرجع اسم الدروز إلى داع فارسي الأصل يدعى محمد بن اسماعيل الدرزي، كان من أعوان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (996-1020م). ويرفض الدروز هذه التسمية ويفضلون أن يسموا بالموحدين، أي الذين يؤمنون بإله واحد⁴. تتميز عقيدتهم بألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي. فهذا الخليفة ليس في اعتقاد الدروز إنسانا كباقي البشر، ولكن الروح الإلهية انتقلت من آدم عليه السلام إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم إلى الحاكم بأمر الله، وحلت به، وأنه سيعود في آخر الزمان في شخص المهدي. وهذا أساس عقيدة الدروز. وفي زعمهم، أن عقيدتهم خاتمة الديانات، وهم ينكرون الأنبياء والرسل جميعا، وينكرون أصول الإسلام والنصرانية واليهودية⁵. وعندما لم تجد العقيدة الدرزية راجا في مصر، انتقلت إلى بلاد الشام التي مثلت تربة خصبة لهاته العقيدة⁶، حيث سكن الدروز جبل لبنان وحوارن ووادي

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 30.

² الشيعة: وهي فرقة إسلامية ظهرت بعد معركة صفين 37هـ في عهد الخليفة علي رضي الله عنه، إذ شايعوا علي ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صل الله عليه وسلم، وقالوا بإمامته وخلافته نسا ووصية، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، ولقد تفرع من الشيعة عدة فرق أبرزها الإسماعيلية والزيدية والرافضة. ينظر: حسن عبد الحفيظ أبو الخير: الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، دار ابن الجوزي، د ط، ج 1، القاهرة، 2011م، ص ص 145 - 153.

³ عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الانجلو المصرية، ج2، القاهرة، 2004م، ص 54.

⁴ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص 275.

⁵ الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص 54.

⁶ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 39.

التيم، وقاموا بدور رئيسي بارز في تاريخ جبل لبنان، وتزعموا المنطقة وأصبحوا حكامها الفعليين لعدة قرون، واشتهروا بالبسالة في الحروب وبطاعة رؤسائهم، واشتركوا في معظم الانتفاضات التي قامت ضد الحكم العثماني. وظلت منطقة جبل لبنان المركز الرئيسي لتجمعاتهم إلى أوائل القرن 18م حينما بدأت هجراتهم إلى منطقة حوران¹.

وكان من العصابات الدرزية التتوحيين والقيسيين والمعنيين أو بنو معن، وأصبحوا أقوى قوة في جنوبي لبنان إبان الحكم العثماني، وبلغوا أوج نفوذهم في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني (1572-1635م)، وكان منهم الأكراد، وأشهر عشائهم بنو جانبولاد، المعروفين باسم الجنبلاطية حيث اعتنقوا في لبنان العقيدة الدرزية وارتفعت مكانتهم. ومن الأكراد أيضا السيفيون أو بن سيفاء، الذين عظم مركزهم حين علا نفوذهم على نفوذ الباشا العثماني في ولاية طرابلس، ودان لهم شمالي لبنان، وامتد نفوذهم إلى حماة وحمص².

وفي القرن 19م حدثت العديد من المنازعات بين الدروز وجيرانهم الموارنة، ونتج عنها عدة فتن مثل فتنة عام 1841م والتي نتج عنها نظام القائمقاميتين عام 1842م، والذي نص على تأسيس قائممقامية للنصارى في الشمال وأخرى للدروز في الجنوب وعليها قائممقام درزي. واستمر هذا النظام سائدا حتى قامت فتنة 1860م والتي ترتب عنها نظام المتصرفية.

ونتيجة لإنعزال الدروز في الجبال حتى تتوفر لهم الحماية لممارسة شعائهم، ازدادت حرية مشايخهم في الإضافة والتعديل في العقيدة الدرزية، مما جعل أهل السنة ينفقون منهم موقف العداء نتيجة لمخالفتهم الإسلام في العديد من الأمور، ولغلوهم في بعض المسائل الدينية التي تخرج عن نطاق الدين، كمسألة تقديسهم للحاكم بأمر الله الفاطمي. وهكذا فقد مثل الدروز أرضا خصبة لعمل الإرساليات التبشيرية التي اعتبرتهم مسيحيين أو قريبيين

¹ الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص 54.

² نفسه، ص 55 - 56.

منهم، فلهذا انصبت جهودهم التعليمية بينهم¹، وذلك بعدما ادعت كل من فرنسا وبريطانيا في القرنين 17م و18م أن الدروز من أصل فرسانهما الصليبيين الذين جاؤوا إلى لبنان واستقروا في جباله زمن الحروب الصليبية، وكان الهدف من ذلك، كسب ود الدروز والتدخل في شؤون لبنان الداخلية، متذرعين أنهم من سلالتيهما حتى تحصل كل من فرنسا وبريطانيا على مطامعهما في لبنان خاصة وفي بلاد الشام عامة².

2 - المتأولة: وهم شيعة لا يعرف عن أصلهم وكيفية ظهورهم شيء واضح. وبدأت أهميتهم تظهر أواخر القرن 17م³، عندما كانت الفوضى عارمة في بلاد الشام. فكان أبناء هذه الطائفة يلقبون أنفسهم بني متوال، وهذا اللقب جمع متوال مشتقا من توالى، أي من تبعهم في موالة آل البيت⁴، حيث سكنوا في جنوبي لبنان بجبل عامل جنوب الشام، وامتدوا إلى البقاع، وسيطروا على بعلبك، ووجدت جالية منهم في دمشق، ووثقوا علاقاتهم الدينية بإيران، واتصلوا بحكامها، ومن أبرزهم أسرة آل الصغير في الجنوب وآل حرفوش في بعلبك التي كانت تابعة لولاية الشام⁵، حيث عاشوا في بلاد الشام متأخرين لا يملكون إلا القليل من الأرض. وقدرت أعدادهم عام 1872م بحوالي 125 ألف نسمة. أما عن علاقاتهم مع جيرانهم، غلب عليها الخوف والكبت والتحالف، ولكن حس العصبية عندهم كان قوي. فقد عاشوا في تشكيل أقرب للشكل العشائري العربي التقليدي، وإن استطاعت إحدى أسرهم وهي أسرة حمادة في القرن 17م أن تمد سيطرتها من البقاع إلى منطقة الموارنة الجبلية⁶.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 44.

² عبد الرحمان الشهري: "التبشير في بلاد الشام - لبنان - سوريا - فلسطين - الأردن"، (رسالة ماجستير)، إشراف: سعد أحمد، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الدعوة والإعلام، قسم الدعوة، المملكة العربية السعودية، 1404هـ، ص ص 18 - 19.

³ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص 279.

⁴ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 30.

⁵ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص 279.

⁶ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 32.

وعندما أدركوا ضعف الدولة العثمانية، تحالفوا مع الثائرين عليها، إذ تحالفوا مع الشيخ ظاهر العمر¹ في فلسطين أثناء ثورته في النصف الثاني من القرن 18م. ولقد اعتبرتهم الدولة العثمانية رديفاً للصفويين، لذا عاملتهم كأعداء لها²، فحاول والي صيدا أحمد باشا الجزائر³ إبادتهم، كما تعرضوا لضغط شديد من جيرانهم الدروز⁴، وذلك راجع لتموقعهم في جبل عامل الذي يعد حلقة وصل بين جبل الدروز وفلسطين وسوريا، مما جعلهم يتأثرون بتقلبات موازين القوى المجاورة لهم. ومع ذلك فقد تركت سطحية الحكم العثماني للشيعنة عموماً أمورهم في أيديهم مما أدى لظهور زعامات قوية نسبياً مثل عائلة آل حرفوش في بعلبك وآل نصار في جبل عامل. ولكن هذه الزعامات كانت في صراع فيما بينها. كما تعرضوا في الوقت نفسه لضغط الأسرة الشهابية التي كانت تسعى لفرض سيطرتها عليهم⁵.

3 - الإسماعيلية: أو الإسماعيليون وهم من أقدم الطوائف الشيعية في بلاد الشام، ومركزهم في السلمية شمالي شرق حمص⁶. تراوحت أعدادهم في القرن 19م ما بين 12 و15 ألف نسمة. ومن مميزات معتقداتهم، أنهم يبدلون ويغيرون في المبادئ حسب أهوائهم. وأتباعهم

¹ **ظاهر العمر:** من قبيلة عربية تدعى بنو زيدان، سنية ذات نفوذ محلي، عُين ملتزماً على طبرية عام 1733م، وتذكر المصادر بأنه كان وراء تشجيع على بك الكبير على غزو الشام بين عام 1770 - 1771م، وأصبح حاكماً لباشوية صيدا بعد استيلائه عليها عام 1772م، وبعد تمرده عام 1775م أرسلت الدولة العثمانية جيشاً ليضع حداً لطموحاته. ينظر: غربي: مرجع سابق، ص ص 133 - 134.

² نفسه، ص 32.

³ **أحمد باشا الجزائر 1734 - 1804م:** أصله بشناق، اشتهر في بداية أمره كقائد عسكري ساهم في توطيد وتدعيم النفوذ العثماني في القضاء على تمرد ظاهر العمر، كُلف بحماية بيروت، وهناك مع الفراغ السياسي قويت سلطته في بلاد الشام فأصبح والياً على مدينة صيدا، كون جيشاً قوياً ولتمويله صادر أموال التجار والفلاحين وفرض الضرائب، عندها حاول السلطان العثماني عزله لكنه تحدى السلطان وطرد والي الذي عين مكانه، وسياسته أدت إلى قيام ثورات وتمردات عليه، لكنه قابلها بالقمع، كما أظهر شجاعة كبيرة أمام حصار نابليون لعكا، مما رفع مكانته في الأحداث السياسية، وأصبح شخصية عالمية وتاريخية. ينظر: نفسه، ص ص 134 - 136.

⁴ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص 279.

⁵ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 30 - 31.

⁶ الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص 55.

يعتقدون أن لهم حرية التصرف في أمور الدنيا والآخرة. فمن معتقداتهم أن الإمام هو الواحد الأحد الفرد الصمد. كما أن هذه الفرقة يوجد في داخلها العديد من الفرق التي تختلف حول تأويل الآيات القرآنية. كما يختلفون حول تفسيرهم لزعمائهم وهل هم رسل أم ملائكة، مما جعل أهل السنة ينفون منهم موقف العداء، وشاركهم في ذلك بعض طوائف من الشيعة أنفسهم¹.

هذا، وفي الوقت نفسه لقد عانى الشيعة الإسماعيلية من عدم انتشار التعليم بينهم، مما سمح للإرساليات التبشيرية أن تجد لها ثغرات للنفاذ منها، ومن ثمة عملت على محاولة الربط بين المعتقدات الإسماعيلية وما يناسبها من عناصر الديانة المسيحية، من ذلك اعتراف الإسماعيلية بصلب المسيح، كما أنهم يتبعون نفس الترتيب الكنسي عند ترتيب دعائهم².

د - النصيرية: أو العلويين وهم طائفة شيعية باطنية³ وهم في معتقداتهم بعيدون جدا عن أهل السنة⁴، إذ يجيزون الزواج من الحرمان مثل الأم والأخت والإبنة، وتسببوا في خلق متاعب كثيرة للدولة العثمانية ولجيرانهم، إذ كانوا يعتقدون على المسلمين السنيين وعلى المسيحيين⁵. يقيم أغلبهم في سوريا في جبال العلويين التي تقع شرق اللاذقية. وتمتد هذه الجبال من جبال طوروس في الشمال الى جبال لبنان في الجنوب⁶، وهم بهذا كانوا بعيدا عن أعين السلطة العثمانية وممارساتها⁷، تسموا بهذا الاسم العلويين لأنهم يؤلهون علي بن

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 34.

² نفسه، ص 35.

³ الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص 56.

⁴ CHANTAL VERDEIL, Une "révolution sociale dans la montagne", la conversion des Alaouites par les jésuites dans les années 1930, <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00615621> 19 Aug 2011, p 82.

⁵ الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص 56.

⁶ الشهري: مرجع سابق، ص 41.

⁷ VERDEIL, Op . cit., p. 82.

أبي طالب رضي الله عنه، وهو الاسم الذي يحبون أن ينادوا به، بينما يتضايقون من اسم النصيريين نسبة إلى أبي شعيب محمد بن نصير النميري الذي يقال أنه ادعى النبوة، والمتوفي عام 883م، وقد كان مولى للإمام محمد بن الحسن العسكري الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية¹.

وقد رت أعدادهم في بلاد الشام سنة 1831م بمقدار 130 ألف نسمة أي أقل من 5 بالمئة من السكان آنذاك، وهم بذلك أقل عددا من الدروز وأكثر من الاسماعيلية².

وتعتبر عقيدتهم سرا من الأسرار التي لا يبوحون بها لأحد حتى لنسائهم لأنهم يعتبرونهم مصدر المكر والخبث وشقاء الإنسانية. أما الأولاد، فلا يحق لهم معرفتها إلا بعد بلوغ سن التاسعة عشر. أما طقوسهم وصلواتهم، فهي شبيهة بطقوس وصلوات النصاري³.

وعن الأحوال السياسية للنصيرية في القرن 19م، فقد عادوا الحكم المصري في الشام، وكانوا أول من أشهر العصيان عليه، وامتنعوا عن دفع الضرائب للحكومة المصرية في الشام، لذا أرسل شريف باشا إليهم الجند لمحاربتهم، فاعتصموا في جبال اللاذقية، وهزموا الحملة في البداية، مما اضطر إبراهيم باشا لتوجيه حملة أخرى إليهم فهزمهم. كما خرج من بينهم من تمرد على السلطة العثمانية، مثل إسماعيل بك الذي انتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب القرم، وأعلن استقلاله عن الدولة العثمانية عام 1854م وسمى نفسه مشير الجبل، لكن تم القضاء عليه عام 1859م من طرف العثمانيين، وبذلك فقد أدت علاقتهم المضطربة بالسلطة من ناحية وبجيرانهم من ناحية أخرى لعزلتهم الفكرية، وتمردهم على

¹ الشهري: مرجع سابق، ص 41.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 37.

³ الشهري: مرجع سابق، ص 41.

السلطة السياسية، كما أدى تشابه معتقداتهم مع العقائد المسيحية إلى إيجاد الثغرة التي نجح المبشرون في النفاذ إليهم من خلالها¹.

وعلى هذا النحو، كانت بلاد الشام مسرحا تزاحمت عليه طوائف إسلامية، كان منهم أهل السنة وكان منهم أهل الشيعة، وانقسم الأخيرون إلى جماعات عديدة من أصحاب العصبيات والعقائد والمذاهب، تنابذ أفرادها جريا وراء تحقيق مصالح شخصية. وكان نفوذ زعماء بعض هذه الطوائف يعلو نفوذ الباشوات العثمانيين، ويصف أحدهم التعدد في الأديان في بلاد الشام وصفاً معتبرا بقوله: «ويمتاز أهل الشام عن بقية أهل الأرض بكثرة أديانهم، فليس في بلاد المسكونة بلاد صغير مثل هذه تضم العدد العديد من الأديان والطوائف، وفيها أديان خاصة بها لا وجود لها في سواها من البلدان... وليس في الأرض كلها أناس من طائفة الروم الكاثوليك والموارنة إلا في بلاد الشام والبلدان التي يتردد عليها أهل الشام، ومن غريب أمر الطوائف أن بينها أربعة هي طوائف الدروز والاسماعلية والسمرية والنصيرية، التي لا وجود لها في غير بلاد الشام»². الأرجح أن المقصود بالسمرية هم فرقة المتأولة الشيعية.

ثانياً: المسيحيون: ابتداء من عام 1516م أصبح المسيحيون العرب جزءاً من الدولة العثمانية، التي عاملتهم وفقاً لنظام الملة³ المستنبطة قواعده من أحكام الشريعة الإسلامية، إذ تألفت الدولة العثمانية من فئتي وهما المسلمون وغير المسلمين، واعتبرت الفئة الثانية، لا

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 39.

² الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص 56.

³ **نظام الملة:** وهو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة العثمانية غير المسلمين تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة، بل على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا، وكان يطلق على كل مذهب ديني ملة، وكان لكل ملة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية، والشخصية دون تدخل من طرف الدولة، وكان الروم الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية أهم ملة غير إسلامية في الدولة العثمانية، وكانت الملة الثانية هم ملة الروم الكاثوليك وكانوا أقل شأنًا من الأولى، ثم الملة الثالثة، وهي ملة الأرمن وأخيراً اليهود. ينظر: الشناوي: مرجع سابق، ج1، ص ص 68-69.

سيما المسيحيون من أهل الذمة، وهم الذين يتعهدهم السلطان بالحماية وذلك بالمحافظة على حياتهم وحرّياتهم وأموالهم، والسماح لهم بممارسة طقوس دياناتهم، وإعفائهم من الخدمة العسكرية، وفي المقابل يتعهد الذميون بدفع الجزية، والالتزام ببعض القيود التي تجعل منهم طبقة من المواطنين ولكنهم في درجة أدنى من درجة المسلمين.

والمسيحيون العرب في بلاد الشام ينقسمون إلى العديد من الطوائف الدينية أبرزها: الروم الأرثوذكس والكاثوليك والموارنة والأرمن والبروتستانت، وأطلق العثمانيون على هذه الطوائف اسم ملة، وعلى الشخص المسؤول على إدارتها لقب ملّيت باشي. وكان على كل طائفة أن تخضع لرئيسها، كالبطريك الذي أعطي سلطات واسعة في إدارة أملاك وأموال الكنائس والأديرة، وهو ما أدى إلى اتساع نطاق إشرافه على شؤون الكنيسة ورعاياها الدينية والمدنية والاجتماعية والثقافية والقضائية¹.

وعن سبب انقسام المسيحيين إلى عدد من الطوائف، فهذا راجع لاختلاف نظرة كل طائفة منهم إلى طبيعة السيد المسيح²، وتحت كل طائفة دينية العديد من الأعراق الجنسية المختلفة، ومن بين هذه الطوائف نجد:

1- الكاثوليك³: تعتبر طائفة الكاثوليك أكبر الطوائف العديدة بين الطوائف المسيحية في بلاد الشام، فهي تضم العديد من الأعراق المختلفة مثل: الموارنة والأروام واللاتين والسرّيان.

¹ فدوى نصيرات: المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر 1840 - 1918م، محاضرة أقيمت بتاريخ 2010/4/12م في جامعة فيلادلفيا، ص 1 - 2.

² عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864 - 1914م، تق: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، د ط، مصر، د س ن، ص 302.

³ الكاثوليك: تسمى كنيستهم بالكنيسة الكاثوليكية أو الغربية أو اللاتينية أو البطرسية أو الرسولية، ومعنى الكاثوليكية أي العامة لأنها تدعى أم الكنائس لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني، خاصة أي إلى بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، وسميت الكنيسة البطرسية أو الرسولية لأن أتباعها يدعون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول كبير الحواريين ورئيسهم، والباباوات في روما خلفاؤه، والكنيسة الكاثوليكية تتبع النظام البابوي ويرأسه البابا والكرادلة وهم أصحاب الحق الأول والأخير في تنظيم الكنيسة، وفي اعتقادهم أن البابا تلميذ المسيح الأكبر على الأرض فهو ممثل الله ومن هنا كانت إرادته لا تقبل الجدل والمناقشة، وهم يعتقدون أن للمسيح طبيعتين بشرية وإلهية. ينظر: عبد الفتاح إسماعيل غراب: "العمل التصيري في العالم العربي، رصد لأهم مراحله التاريخية المعاصرة"، (رسالة ماجستير)، مكتبة البدر، د س ن، ص 12.

وكانت هذه الطائفة مرتبطة في الأساس بروما. ولقد عملت الإرساليات التبشيرية على تقديم كافة الخدمات إليهم، وخاصة التعليم والحماية السياسية. وفي مقدمة الطائفة الكاثوليكية يأتي الموارنة¹.

أ - الموارنة: سمووا بهذا الاسم نسبة إلى القس السوري مارون الذي عاش في القرن 5م، وهناك قول بأنهم عرب ساميون عاشوا في وادي نهر العاصي شمالي سوريا، دخل بعضهم في الإسلام عندما جاءت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الشام، وبقي البعض الآخر على نصرانيته تحت حماية المسلمين²، بلغ عددهم عام 1872م حوالي 22 ألف نسمة في بلاد الشام، وكان لهم قضاؤهم وأحوالهم الشخصية ومحاكمهم الخاصة بهم يشرف عليها رجال الدين المارونيين³، ويعتبر الموارنة أهم طائفة مسيحية في بلاد الشام ليس بسبب عددهم وتكتلهم في منطقة جبلية في شمال لبنان، بل بسبب الدور السياسي الذي لعبوه في تاريخ البلاد والدور القيادي في تقرير مصير لبنان وتوجيه سياسته⁴، إذ اعتبروا أن الدولة العثمانية دولة محتلة لبلادهم، عندها متتوا علاقاتهم بفرنسا التي اعتبرتهم جزءا من الأمة الفرنسية وأمدتهم بالحماية والرعاية خاصة بعد مذابح 1860م حيث أصبحت فرنسا المسؤولة عن الموارنة لأنهم كاثوليك⁵.

ب - الروم الكاثوليك: تكونت هذه الطائفة في بلاد الشام نتيجة الانشقاقات في الكنائس الشرقية الأرثوذكسية، فقد استطاع المنشقون عن الكنيسة الأرثوذكسية أن يشكلوا طائفة جديدة عرفت باسم الروم الكاثوليك وكان ذلك عام 1724م حيث قاموا بانتخاب بطريرك خاص بهم⁶، ثم امتدت هذه الطائفة إلى القدس وظل مركز ثقلها في سوريا، وكان أتباعها في

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 45.

² الشهري: مرجع سابق، ص 18.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 47.

⁴ عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص 277.

⁵ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 49 - 50.

⁶ عوض: مرجع سابق، ص 304.

القدس من أصول أوربية أغلبها إسبانيين وإيطاليين وألمان، ومنهم عرب هاجروا من بلاد الشام، ولتأخر اعتراف الدولة العثمانية بهذه الطائفة كطائفة مستقلة، تدخلت الحكومتان الفرنسية والنمساوية وأجبرت الدولة العثمانية على الاعتراف بهذه الطائفة، وكان ذلك في 24 مارس 1833م وأصبح البطريرك¹ يعين بموجب البراءة السلطانية².

ج - اللاتين الكاثوليك: يتبعون عقيدة الكنيسة الرومانية، وللاتينيين وجود في القدس منذ عهد العصور الصليبية، وهم يخضعون لإدارة رجال الدين من رعايا الدول الأجنبية. وقد استمروا في أداء وظائفهم في الأماكن الكاثوليكية التي يقصدها الناس للزيارة، ويقوم هؤلاء في القدس³، قدرت أعدادهم عام 1848م بحوالي 4 آلاف نسمة. وكان لهم ثمانية كنائس في القدس وبيت لحم والناصرية ويافا وعكا وحيفا والرملة وعين كارم. وكان أغلب رهبانها من الفلاحين الملتزمين دينياً⁴.

2 - الأرثوذكس⁵: لقد ضمت هذه الطائفة العديد من الأجناس التي تنتمي للمذهب الأرثوذكسي، وفي مقدمتها الروم الأرثوذكس، والأرمن، والسريان، والأقباط، والأرثوذكس⁶.

¹ البطريرك: يتولى مهمة الإشراف على شؤون الطائفة الدينية بإقامة القداس الديني في أوقات الصلاة، وفي الأعياد وموسم الحج، ويتأخرس المجمع المقدس الذي يتولى أحداث الأبرشيات الجديدة وينشئ الرهبانات والمؤسسات الطائفية العامة، كما يشرف على علاقات البطريركية مع غيرها من الكنائس، وتابعي الأديان غير النصرانية، ويتم انتخابه من قبل أعضاء الطائفة، ويصادق على تعيينه بموجب البراءة السلطانية. ينظر: أحمد حامد إبراهيم القضاة: نصارى القدس دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2007م، ص 373.

² نفسه، ص 17.

³ حسين أوزدمير: فلسطين في العهد العثماني وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني، تر، وليد عبد الله القط، دار النيل للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1434هـ/ 2013م، ص 38.

⁴ أحمد القضاة: مرجع سابق، ص 19.

⁵ الأرثوذكس: وتعني المذهب الحق، أو المستقيم، ولقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية عام 451م، ويعتقد الأرثوذكس بالطبيعة الواحدة، وهو جوهر الخلاف بينهم وبين الكاثوليك القائلين بالطبيعتين، كما يعتقد الأرثوذكس أن المسيح هو الله نفسه. ينظر: أمل عاطف محمد الخضري: "التصوير في فلسطين في العصر الحديث"، (بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الماجستير في العقيدة الإسلامية)، إشراف: سعد عبد الله عاشور، كلية أصول الدين، قسم العقيدة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1425هـ/ 2004م، ص 60.

⁶ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 53.

وتعتبر الطائفة الأرثوذكسية في فلسطين من أقدم الطوائف المسيحية وأكثرها عدداً، ومعظم عائلاتها في القدس والناصرة وعكا وتعود إلى القبائل العربية القديمة، وتشرف كنيسة أنطاكية على بيت المقدس، ثم اختلف أتباع هذا المذهب الأرثوذكسي فيما بينهم في أصل العقيدة، فانقسموا إلى¹:

أ- الروم الأرثوذكس: هم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية في استانبول. وكان أتباع هذه الكنيسة أكبر الطوائف المسيحية في بلاد الشام أهمية وعدداً. وعانت هذه الكنيسة من انقسامين خطيرين حيث أبدى أتباعها العرب سخطهم على الأوضاع السائدة فيها لأن اليونانيون يتمتعون بالنفوذ الأكبر فيها، ويحتلون مناصبها الدينية العليا، ويفرضون لغتهم في إقامة الطقوس الدينية. وكان العرب الأرثوذكس لا يفهمون اللغة اللاتينية، وتطور النزاع حين طالب العرب في القرنين 18 و19م بتعريب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. ومما زاد في حدة تعدد الهيئات المسيحية في بلاد الشام، الانقسام الذي حدث بها بإنشاء بطريركيتين هما²:

الأولى بطريركية القدس في فلسطين ومركزها بيت المقدس، والثانية بطريركية أنطاكية ومركزها دمشق، ويلحق بها أسقفيات الشام وبلبك وحلب. وكان للروم الأرثوذكس ثلاث كنائس في دمشق، أقدمها الكنيسة المريمية، والثانية كنيسة يوحنا الدمشقي، وقد بنيت بعد فتنة 1860م بمساعدة روسيا، والثالثة في حي يسمى حي الميدان³. وقد بلغ عدد الروم الأرثوذكس في عام 1872م حوالي 24 ألف نسمة، إذ شكلوا أقلية كبيرة في مدن دمشق وحمص وحماه وحلب واللاذقية وطرابلس وعكا والناصرة وبيت لحم.

ومن الغريب أنه أثناء الفتن بين الدروز والموارنة عام 1841م، شارك الروم الأرثوذكس الدروز ضد الموارنة المسيحيين، وذلك كرها لهم لأنهم يعتبرون كل من ليس من مذهبهم هرطقياً يجوز قتله. ولانعدام الصلة بين رجال الدين والرعية بسبب استخدام اللغة اليونانية

¹ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 61.

² الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص57.

³ عوض: مرجع سابق، ص ص 302 - 303.

معظم فترات القرن 19م، أدى هذا إلى تدهور الفكر الديني عندهم، مما جعل هذه الطائفة أرضاً خصبة لعمل الإرساليات التبشيرية¹.

ب: الأرمن الأرثوذكس: إذ تواجد الأرمن في بلاد الشام ويرجع سبب ذلك أن مدن الشام كانت مراكز تجارية مزدهرة أثناء الحكم العربي، وترتبط مع مدن أرمينيا بطرق تجارية عدة، لذا فقد استوطن الأرمن بلاد الشام. وأول هجرة إلى سوريا كانت خلال القرن 16م، وبلغت أعدادهم في الشام ما بين السنوات 1870م و 1890م ما بين 80 و 85 ألف أرميني تركزوا في حلب ودمشق وبيروت وطرابلس².

وطائفة الأرمن من أكثر طوائف النصارى اعتدالا وغنى حيث اعتمدوا في مصادرهم المالية على عملهم في التجارة وقدم الحجاج، فضلا عن التبرعات التي كانت تأتيهم من الخارج³.

ج - السريان الأرثوذكس: يتبعون عقائد الكنائس الأرمنية، لهم أساقفة⁴ في القدس يعينون من طرف البطارقة في ماردين وتعترف بهم الدولة العثمانية⁵.

د - الأقباط الأرثوذكس: جاءت أول جماعة من الأقباط والأحباش الأرثوذكس للقدس في منتصف القرن 14م، ولهم أديرة وكنائس بالقدس منها دير السلطان. وفي القرن 19م، حدثت منازعات بين الأقباط والأحباش على ملكية بعض الأديرة، فطلب ملك الحبشة في عام

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 54 - 55.

² نفسه، ص 56.

³ حامد القضاة: مرجع سابق، ص 18.

⁴ الأساقفة: مفردتها الأسقف، ويسمى المطران، وهو لفظ يوناني معناه الرقيب أو الناظر، ويأتي في المرتبة بعد البطريرك، يشرف على شؤون الكنيسة داخل المدينة التي يعيش فيها، وهو الذي يمنح سر الكهنوت للشماس (أي الخادم) فيصبح كاهنا، وينظم المنطقة التي يقيم فيها والتي تسمى الأبرشية. ينظر: نفسه، ص 374.

⁵ أوزدمير: مرجع سابق، ص 36.

1852م من القنصل البريطاني في القدس برعاية مصالح الأحباش، ولكن السلطات العثمانية تدخلت بعد ذلك لحسم المسألة لصالح الأقباط¹.

ثالثاً - اليهود: اعتبرت الدولة العثمانية من أهل الذمة منذ القرن 16م، ذلك عندما أصدر السلطان بايزيد الثاني (1481 - 1512م) مرسوماً يقضي بحسن معاملتهم في الدولة العثمانية. ومنذ ذلك الوقت، وفد اليهود على بلاد الشام²، فقد نزح الكثير منهم إلى فلسطين من كافة أرجاء العالم، وقويت العلاقة بينهم بناء على الناحية العرقية³، حيث عملوا في التجارة بموانئ الشام، وانقسم اليهود إلى: أجانب مهاجرين ومستوطنين، وكان الأجانب أكثر عدداً من المستوطنين، واستقروا بكثرة في القدس وحيفا ويافا وصفد وطبريا ودمشق وحلب وبيروت وصيدا، كما سيطروا على تجارة دمشق مع بريطانيا. ولقد مثل حاخامات القدس أعلى سلطة دينية لليهود الشرق وخصوصاً منذ منتصف القرن 19م، وهو ما مثل عاملاً قوياً ساهم في حفاظ يهود الشرق على رابطتهم الدينية القومية بفلسطين⁴.

وقد كانت مختلف الطوائف الدينية تلتجئ إلى بلاد الشام لأنها تتمتع بحصانة طبيعية من الجبال، لذا فهم في مأمن من أعدائهم، فانطوت كل طائفة على نفسها في بيئتها الجبلية الجديدة منعزلة عن حولها، مما نمت عوامل التعصب في داخلها، وأدى التقادم الزمني بين هجرات هذه الطوائف إلى اعتبار كل منها صاحبة الحق الأول والأصيل في البلاد دون غيرها من الطوائف، ومن ثمة نشأت النزاعات التي سمحت بالتدخل الأجنبي الباحث عن ذريعة لتبرير دخوله، ومثال ذلك فتنة الدروز والموارنة عام 1860م⁵.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 57.

² نفسه، ص 58.

³ أوزدمير: مرجع سابق، ص 34.

⁴ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 58 - 59.

⁵ نفسه، ص 63.

الملاحظ أن التركيبة الاجتماعية التي كانت عليها بلاد الشام شكلت مناخا ملائما وتربة خصبة للتدخل والتوغل الخارجي، فالواضح والجلي على أوضاعها هو الانقسامات الحادة التي كانت بارزة ستجعل أي قوة أجنبية تنقلها لصالح تفوقها هناك.

الوضع الاقتصادي: تميز الوضع الاقتصادي في الولايات العربية العثمانية عامة خلال القرن 19م بالانهيار الاقتصادي¹، وذلك راجع إلى كثرة الإنفاق على الجيش العثماني في تلك الفترة، ولذلك ازداد سلب المناطق الخاضعة للحكم العثماني بسبب الإخفاقات العسكرية المتتالية من جهة، وتلبية المطامع المتنامية للطبقة الحاكمة، وفساد الحكام وتسابقهم في نهب المناطق الخاضعة لإدارتهم من جهة أخرى، كل ذلك أدى إلى انحطاط الاقتصاد في الولايات العربية من الدولة العثمانية منها بلاد الشام، وكانت الأحوال الاقتصادية كما يلي:

1- الزراعة: تقلصت الأراضي الزراعية بسبب هجرة المزارعين عنها، وهو ما أشار إليه أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا بلاد الشام في نهاية القرن 19م نقلا عن تجار أوربيين عاشوا هناك لسنوات عديدة، وشاهدوا كيف تحولت الأراضي الزراعية لمدينة حلب إلى صحراء قاحلة، وتحول الكثير من سكان الحضر والفلاحين إلى حياة البداوة والترحال وتربية الماشية تاركين مزارعهم²، بسبب كثرة الضرائب الزراعية المفروضة على الأرض والمحاصيل والحيوانات والأسواق الفلاحية. وهذه الضرائب اختلفت مقاديرها من منطقة إلى أخرى حسب ظلم وعدل أصحاب الأراضي الزراعية من الإقطاعيين والملتزمين. وهناك أمر آخر ساهم في تدهور حالة المزارع وضعف مردوديته الإنتاجية، هو تعرضه لجشع المرابين من اليهود، الذين استغلوا حاجة الفلاح إلى المال والبذور وراحوا يدينونه بفوائد كبيرة كان في أغلب الأحيان يعجز عن ردها، مما يعرض أملاكه وأرضه إلى المصادرة. كما كان المزارع

¹ غربي: مرجع سابق، ص 102.

² محمد البخاري: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني (صفحات من تاريخ المشرق العربي في سياسة المصالح الخارجية للدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى)، ينظر: الموقع الإلكتروني: bukharimailru.blogspot.com ، السبت 04 أغسطس 2012م.

يتعرض إلى غزوات القبائل البدوية دائماً، إذ كانت تهاجم مخازن الحبوب كما حدث عام 1815م عندما قامت هذه القبائل بالهجوم على مخازن الحبوب في مدينة حماة. ويذكر الرحالة فولني¹ أن الفلاحين كانوا يضطرون إلى البذر والبنادق في أيديهم، وكانوا يسرعون في جني المحصول قبل نضجه حتى يخبئوه في مخابئ تحت الأرض².

2-الحرف: اشتهرت بلاد الشام بالصناعة الحرفية اليدوية التقليدية، وكان الحرفيون منظمين في شكل طوائف ويرأس كل طائفة منها رئيس، وهو الشيخ ويليه المعلم ثم الصانع ثم التلميذ، ولكل طائفة عاداتها وتقاليدها الخاصة بها. وكانت دمشق وحلب من أكبر مراكز الصناعات الحرفية، فقد اشتهرتا بصناعة الأقمشة والسجاد والأسلحة والمصنوعات النحاسية وكان العديد من تلك المصنوعات يصدر إلى أوروبا³. لكن في القرن 19م أصيبت الحرف بالركود وقيدت بقانون الحرف العثماني لعام 1773م، مما أدى إلى عجزها عن مسايرة التقدم الصناعي الذي شهدته أوروبا في ذلك الوقت⁴، إذ كتب قنصل روسيا في بيروت بازيللي الذي كان متواجداً في النصف الأول من القرن 19م عن حال الصناعة السورية، فقال: «كان في المدن السورية منذ أربعين سنة ما مجموعه 50 ألف نول -معمل- للأقمشة الحريرية، ونصف الحريرية، والدبياج، والأن فلا يكاد يبلغ عددها 2500 ألف نول»⁵، ولم يعد إنتاجها يكفي السوق المحلية. وتدرجياً نافست الصناعة الأوربية الحديثة الصناعة الشامية التقليدية

¹ فولني: اسمه قسطنطين فرنسوا وبعد من أهم الرحالة الفرنسيين الذين زاروا سوريا ومصر في أواخر القرن 18م، دون رحلته في كتابه تحت عنوان رحلة إلى سوريا ومصر خلال الأعوام 1783 - 1885م. ينظر: وليد كاصد الزبيدي: سياسة فرنسا الثقافية دراسة حالة لبنان 1959 - 1986، منتدى المعارف، ط 1، بيروت، 2013م، ص 72.

² غربي: مرجع سابق، ص ص 118 - 120.

³ جميل بيوض وآخرون: تاريخ العرب الحديث، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط 1، د م ن، 1991م، ص 66.

⁴ البخاري: مرجع سابق.

⁵ بازيللي: مرجع سابق، ص 288.

التي لم تفتح لمتطلبات السوق الأوروبية وللتقنية الحديثة¹. كما تدنى أو توقف إنتاج الزجاج والاستخراج اليدوي للحديد الخام في ولاية الشام².

3 - التجارة: كانت تجارة بلاد الشام في بداية القرن 19م تعتمد على الاستيراد والتصدير، إذ يتم هذا التعامل مع مناطق مختلفة من بلاد الشام أو مع بعض الولايات العثمانية الأخرى أو حتى خارج حدود الدولة العثمانية خاصة مع الدول الأوروبية. كما كان هناك تبادل تجاري بين المناطق المنتجة للحبوب والبوادي المنتجة للمواشي وحيوانات الركوب، وقد شغل هذا القطاع حيزاً هاماً من حياة ولاية دمشق وخاصة في قسمها الجنوبي بحي الميدان المرتبط بسهول حوران المنتجة للحبوب، وكذلك بحمص وحماة التي كانت تمول دمشق بالحبوب والمواشي³.

أما عن التجارة الخارجية، فقد سيطر عليها التجار الأجانب المحميون من تعسف السلطات العثمانية بمقتضى معاهدات الامتيازات، والمشمولين بحماية السفراء والقناصل الأوروبيين. وهكذا تحولت مراكز التجارة إلى مراكز لخدمة التجارة الأوروبية ولتوزيع الواردات الأوروبية وشراء الخامات والمنتجات الزراعية والحيوانية المعدة للتصدير إلى أوروبا⁴. وكان السبب وراء ذلك، أن بلاد الشام عرفت باتصالها الوثيق مع أوروبا طوال فترة الحكم العثماني، بحيث كانت العزلة مع أوروبا شبه منعدمة فيها، وذلك راجع إلى عدة عوامل منها: التجارة التي كانت ولا تزال تستهوي أفئدة أهل الشام، والتي يرون فيها أفضل وسيلة لاستثمار أموالهم واستغلال نشاطهم، نظراً لما تدره عليهم من أرباح وفيرة، ولذلك امتازت الأساكن والمدن الداخلية في ولايات الشام بنشاط تجاري كثيف ومستمر ووجود جاليات أوروبية متعددة

¹ غربي: مرجع سابق، ص 110.

² البخاري: مرجع سابق.

³ حنا عبد الله: حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن والتاسع عشر، نموذج لحياة المدن في ظل الإقطاعية

الشرقية، دار ابن خلدون، ط1، لبنان، 1985م، ص ص 11 - 12.

⁴ البخاري: مرجع سابق.

الجنسيات، قام أفرادها بدور الوسيط في عمليات التصدير والاستيراد وتعايشوا مع سكان البلاد الشامية¹، وكانوا يقيمون في فنادق مجاورة للأسواق كما في حلب أو على مسافة قريبة منها².

فمنذ منتصف القرن 19م بدا رأس المال الأوربي يتجه نحو بناء طرق مواصلات جديدة لخدمة مصالح الأوربيين في الشرق الأوسط، وتسهيل تدفق سلعهم من وإلى أوربا، وسيطر ممثلو الشركات الأوربية الذين تمركزوا في الموانئ البحرية على جميع تجهيزات ومستودعات ومراكب التفريغ في تلك الموانئ. وقامت شركة فرنسية ببناء ميناء بيروت القادر على استقبال السفن الحديثة على ساحل ولاية الشام. وكانت تلك الشركة تملك كافة أرصفة الميناء وكل تجهيزات الملاحة والأبنية والمستودعات الرئيسية فيه. وفي نفس الوقت، سيطرت الشركات الفرنسية على خط سكة الحديد التي تربط بين دمشق وبيروت، والخط الرابط بين طرابلس وحمص وحماة، اللذان كان ينقل عبرهما القسم الأعظم من البضائع من داخل سوريا إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط³. ولقد تمخض عن ذلك مشاكل خطيرة في القرن 19م حين أصبح للدول الأوربية الكبرى أنصار يخضعون للقوانين المحلية في بلاد الشام، وسيطروا على تجارة البلاد واجتهدوا في المحافظة على مركزهم الاحتكاري في الملاحة البحرية⁴.

أما عن الوضع الاقتصادي في لبنان فقد عرف العديد من المتغيرات الاقتصادية خلال القرن 19م بدايتها في النصف الأول منه، وخاصة في فترة حكم إبراهيم باشا ابن محمد علي للشام، حيث أجرى عدة إصلاحات في عدة جوانب مست منها الجانب الاقتصادي، من ذلك

¹ الشناوي: مرجع سابق، ج2، ص ص 52- 53.

² أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تر: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 1991م، ص 87.

³ البخاري: مرجع سابق.

⁴ ريمون: مرجع سابق، ص ص 87- 88.

أنه رتب الأمور المالية، وجعل نظاما خاصا لجباية الخراج وإبطال المصادرات، وتقرير حق التملك وأحيا الزراعة والصناعة والتجارة، وعمم تربية دودة القز لإنتاج الحرير، كما عمل على استخراج بعض المعادن وخاصة الفحم الحجري في قرنابل في لبنان.

كما ألغى ضريبة الخوة¹ التي فرضتها زعمات محلية، وألغى الأوضاع التي كانت تعطي للتاجر الأجنبي التفوق بموجب معاهدات الامتيازات على أبناء البلد من أجل إعطاء المواطن فرصة مساوية للأجنبي، كما شجع التجار لتوسيع نطاق أعمالهم بحيث لا تكون مقصورة على الجبل والموانئ والانفتاح على العالم الخارجي، وقضى نهائيا على نظام الالتزام.

لكن محاسن الحكم المصري لم تلبث طويلا بسبب ما أصدره محمد علي باشا إلى ابنه في أوائل سنة 1834م، من الأوامر التي أثقلت كاهل السكان المحليين بأعباء فادحة منها: احتكار الحرير، وأخذ ضريبة الرؤوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم وتجنيد الأهالي وإدخال نظام السخرة وهو ما أدى إلى قيام عدة الثورات ضدهم².

أما في النصف الثاني من القرن 19م، فنستطيع أن نقول عن الوضع الاقتصادي في لبنان أنه قد عرف تحسنا ملحوظا، وذلك منذ بداية عهد المتصرفية 1861م، وذلك راجع إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي عرفته المنطقة نوعا ما، حيث كانت الزراعة هي السمة البارزة للاقتصاد اللبناني بالدرجة الأولى، فكانت زراعة أشجار التوت أكثر الزراعات في تلك الحقبة، ثم زراعة الحبوب من قمح وشعير وذرة وقطاني وشوفان وسمسم في الدرجة الثانية، بالإضافة إلى زراعة الزيتون والتبغ والبطاطا والعنب وأشجار البرتقال والحامض والخضار

¹ ضريبة الخوة: وتسمى الكوة، هي ضريبة لا تدخل خزينة الدولة، وإنما تذهب إلى خزينة الولاية وكبار الموظفين، وهي ضريبة تفرضها القبيلة الأقوى على الأضعف بدعوى حمايتها، وكانت تبلغ 50% من الحاصل. ينظر: أحمد المرعشلي وآخرون: الموسوعة الفلسطينية، ط 1، ج 3، منشورات هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، 1984م، ص 72.

² عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 349 - 351.

بأنواعها، بالإضافة إلى تربية الماشية التي كانت لها أهمية كبيرة في جبل لبنان¹، كما انتعشت الحالة الاقتصادية لطائفة المتأولة وذلك لانتشار زراعة التبغ في بلادهم، وكذلك عمروا ميناء صور وجعلوه ميناء للتصدير لمصر. ففي الوقت نفسه تميزت بلاد عاملة بأهميتها بالنسبة لتجارة فرنسا نظرا لمرور القوافل القادمة من بلاد الجليل وصفد وصيدا عبر أراضيها².

وفي مجال الصناعة اللبنانية، فقد كانت معامل الحرير ومعاصر زيت الزيتون والخمور ودبغ الجلود منتشرة في معظم أرجاء القرى والمدن اللبنانية، لكنها كانت ضيقة النطاق تعتمد على الأساليب القديمة، ومعظم عمالها من النساء اللواتي كن يعملن في حل شرائق الحرير وحياسة خيوطها، معظمها يتم في المنازل أو في معامل بسيطة. ولقد تعرضت المنتجات الصناعية اللبنانية الوطنية إلى منافسة البضاعة الأجنبية التي امتازت بجودتها ورخص أسعارها³.

أما عن حركة التجارة، فقد كانت نشطة مع أوروبا عبر مرافئ لبنان وصيدا وجونية وجبيل ومع المناطق المجاورة عبر سوريا، وقد ساعد على ذلك شق الكثير من الطرقات، منها: طريق بين بيروت ودمشق الذي قامت بإنجازه شركة فرنسية وأنهت الأعمال فيه عام 1863م. وقد ساعدت هذه الطريق على قيام نهضة عمرانية على جنباتها، وخلقت حركة تجارية واسعة بين مختلف المدن والقرى اللبنانية والمناطق المجاورة لها، بالإضافة إلى مد العديد من الجسور خاصة في عهد الحاكم المتصرف واصل باشا الذي أقام عدة مراكز للدرك اللبناني على الطرقات لتأمين سلامة المسافرين من اللصوص وقطاع الطرق، فأمن

¹ معطي: مرجع سابق، ص ص 124 - 126.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 33.

³ معطي: مرجع سابق، ص ص 124 - 144.

بذلك السبل الكفيلة لنمو التجارة ومستلزماتها¹. كما كانت عمليات الاستيراد والتصدير الخاصة بجبل لبنان تتم بواسطة البيوتات التجارية المتواجدة في بيروت وطرابلس والتي كانت تمثل عددا كبيرا من الشركات الأوروبية والأمريكية الموجودة في الخارج².

ولقد اشتهرت طرابلس بتجارة الحرير وبتصدير القطن إلى جانب الحرير، وأقام بها الكثير من تجار الجالية الأوروبية خاصة الفرنسيين والإنجليز، مما أدى إلى ازدهار طرابلس في العهد العثماني ازدهارا كبيرا وذلك راجع لموقعها المتميز بين موانئ البحر الأبيض المتوسط³.

ومما زاد في حركية النشاط الاقتصادي في لبنان خاصة في النصف الثاني من القرن 19م، هو ظهور مؤسسات مصرفية أجنبية في مختلف المدن الشامية ساهمت إلى حد كبير في تطور الاقتصاد اللبناني وسهلت عملية التبادل التجاري بين لبنان والدول الأمريكية والأوروبية وخاصة فرنسا. وأصبحت بيروت العاصمة الاقتصادية لبلاد الشام في تلك الفترة. ولقد سيطر المسيحيون على القسم الأكبر من تجارة بيروت وحركة المصارف وأعمال الصناعة. ويبدو أن هدف تلك البنوك، هو التغلغل الاقتصادي في بلاد الشام وإحكام قبضتها على مرافقها الحيوية وقطاعاتها الاقتصادية. ومن أهم تلك البنوك، البنك الإمبراطوري العثماني الذي تأسس في عام 1863م بمرسوم سلطاني وبأموال فرنسية وإنجليزية⁴.

مما سبق يتضح أن الواقع الاقتصادي الهش المتأثر بالاستقرار السياسي الذي ميز الأوضاع في الشام من تراجع الانتاج واقتصادها على الأساليب التقليدية علاوة عن ضعف

¹ معطي: مرجع سابق، ص ص 126 - 129.

² نفسه، ص 158.

³ بيات: مرجع سابق، ص 206.

⁴ نفسه، ص ص 160 - 161.

العلاقات التجارية الداخلية بين الدولة العثمانية وولاياتها سيكون له الأثر السلبي على مستقبل الشام ويسمح بغزو المنطقة عن طريق الآلة الصناعية الأوروبية ويكرس شعور الضعف الشامي.

ثقافيا: المعروف عن تاريخ الدولة العثمانية أنها لم تهتم قط بالتعليم في كل الولايات التابعة لها طيلة مدة حكمها، إذ تركت أمره لكل طائفة تقوم به حسبما ترى والمحسنين والأوقاف. ولقد غلب التعليم الديني عند المسلمين والمسيحيين على حد سواء، ولذا كانت المؤسسات التعليمية في بلاد الشام في العصر العثماني وحتى بدايات القرن 19م مقسمة على هذا النحو:

- الكتاتيب الملحقة بالزوايا والمساجد والأديرة تقدم مبادئ القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب.

- المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى مثل الجامع الأموي، تهتم هذه المدارس بتدريس علم النحو والصرف وعلم الكلام والحديث والتشريع الإسلامي¹.

وكان التعليم منحصرا في النواحي الضيقة للعلوم الدينية وكان تدريس هذه النواحي متدنيا في مستواه وضيقا في افقه كما كانت اللغة العربية نفسها في حالة سيئة².

وهكذا كان الوضع العلمي والثقافي في بلاد الشام قبل مجيء الإرساليات التبشيرية في القرن 19م ضعيفا وخير ما يصور لنا حالته ما كتبه الرحالة الفرنسي فولني الذي زار بلاد الشام أواخر القرن 18م حيث قال: «إن الجهل سائد في سوريا كما في مصر وسائر تركيا ... اقضى عصر الخلفاء وليس من العرب أو الترك الآن علماء في الرياضيات أو الفلك أو الموسيقى أو الطب، ويندر فيهم من يحسن الفصادة وإذا احتاجوا الى الكي استخدموا النار،

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 107.

² محمد أحمد: «الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876 - 1918)»، مجلة جامعة دمشق، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع الأول والثاني، مج 27، 2011م، ص 317.

وإذا عثروا بمتطبيب أفرنجي عدوه من الهة الطب، وأما علم النجوم فقد صار عندهم للنجامة واستطلاع الطوالع...»¹.

كما يصف أحد شهود العيان حالة التعليم كذلك في بدايات القرن 19م بقوله: «لقد بلغ الجهل مبلغا عجيبا في الناس حتى قل فيهم من يعرف القراءة والكتابة أو أبسط العمليات الحسابية». وهذه الأوصاف تعبر عن حالة التعليم البسيط في تلك المؤسسات التي لا يرقى صاحبها أن يكون عالما².

فمن خلال هذه الأقوال نستطيع أن نستشف الحالة الثقافية التي عرفت ركودا كبيرا خاصة في العهد العثماني ويعود ذلك التأخر الى عدة عوامل، منها فقدان المنطقة العربية لأهميتها التجارية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول مسار التجارة من جهة وانطواء الدولة العثمانية على نفسها خوفا من مطامع الدول الأوروبية وكونها دولة محافظة لا تميل إلى التجديد من جهة أخرى³.

لقد انتشرت المدارس الإسلامية القديمة خاصة في بيت المقدس والرملة وحلب وحمص وغزة وصيدا وحماة وعكا وطرابلس وبلبك وغيرها⁴، والنمط الغالب عليها في التدريس، هو تحفيظ القرآن الكريم ونشر تعاليم الشريعة الإسلامية وآدابها.

أما المدارس المسيحية، فأقدمها في عدة مناطق من لبنان للطائفة المارونية، وكان أساتذتها من الكهنة، بالإضافة إلى وجود مدارس صغيرة في الأديرة تعرف باسم انطوش مثل: انطوش جبيل انشئ عام 1762م وانطوش زحلة عام 1769م وانطوش دير القمر عام

¹ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مر وتغ: شوقي الضيف، دار الهلال، ج 4، د م ن، ص 11.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 107.

³ توفيق علي برو: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908 - 1914م، دار الهناء للطباعة، د م ن، 1960م، ص ص 12 - 13.

⁴ نفسه، ص 13.

1782م وغيرها من المدارس المسيحية التي كانت أكبر مدرسة انشئت في القرن 18م هي مدرسة عين ورقة التي كانت ديرا على اسم مار انطونيوس، ثم تحولت عام 1789م إلى مدرسة وبرجع الفضل في بنائها للطائفة المارونية الذين كانوا السباقين في بناء المدارس وذلك راجع لاحتكاكهم المبكر بمدرسة روما التبشيرية. أما مدارس حلب، فقد اشتركت في بنائها عدة طوائف مسيحية¹.

أما الكتب، فكانت معدودة، وهذا ما زاد في التأخر الثقافي بالإضافة إلى أن المطابع العربية قبل القرن 19م قليلة ظهرت في بعض الأديرة خلال القرن 18م، وهي مطابع حجرية وما تطبعه كان ضئيلا جدا يكاد لا يتعدى كتب العبادة²، منها مطبعة في مدينة حلب التي كانت أسبق مدينة عربية باشرت الطباعة والتي طبعت أول كتاب ديني لها عام 1702م ثم طبعت الإنجيل فيها عام 1706م والفضل في انشاء هذه المطبعة يعود للبطريرك اثناسيوس الرابع، ثم ظهرت المطابع في لبنان وفي بيروت أواسط القرن 18م حيث تأسست عام 1853م مطبعة القديس جاورجيوس والتي كان لها الفضل الكبير في طبع الكتب الدينية والأدبية والتاريخية في ذلك العصر³.

أما المكتبات التي لطالما زخر بها العالم الإسلامي في عصوره الأولى فقد تلاشى معظمها في العهد العثماني الذي تسببت سياسته في إهمال المكتبات وإهمال الكتاب لمدة طويلة⁴.

¹ زيدان: مرجع سابق، ص 36.

² جورج انطونيوس: *يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية*، تق: نبيه امين فارس، تر: ناصر الدين الأسد واحسان عباس، دار العلم للملايين، ط 8، بيروت، 1987م، ص 101.

³ زيدان: مرجع سابق، ص ص 44 - 45.

⁴ جميلة معاشي: "الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر"، (بحث تمهيدي لدخول السنة الأولى ماجستير)، اشراف: توفيق برو، معهد العلوم الاجتماعية، قسم الدراسات العليا، تاريخ، جامعة قسنطينة، 1981م/ 1982م، ص 70.

الباب الأول: أوضاع بلاد الشام في بداية القرن 19م وعوامل ظهور التبشير

الفصل الأول: أوضاع بلاد الشام في مستهل القرن 19م

وخلال فترة حكم محمد علي باشا للشام 1831-1840م فقد ظهرت متغيرات على نمط التعليم باستحداث المدارس الجهادية وإجبار الضباط والجنود على دراسة بعض العلوم كالهندسة وعلم المساحة ونشر العديد من الكتب العلمية في بلاد الشام¹.

وبعد هذا العرض، يمكن أن نستخلص بعض النتائج منها: أن الحياة الثقافية في الشام في هذه المرحلة جد متدهورة، فقد انتشرت ظاهرتي الجهل والامية في أوساط الشعب، وحتى إن تواجدت المؤسسات الثقافية فهي قليلة، ومحدودة الاستثمار ومناهجها تقليدية تلقينية لا ترقى أن تسلح الشعب أو أن تمنحه الوعي الكافي لمواجهة التحديات الخارجية.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 107 - 108.

1 - تعريف التبشير:

أ - معنى التبشير لغة: كلمة التبشير في اللغة من الفعل بشر وأبشر، يقال: بشره، وأبشره تبشيراً، وبشر من البشرى، وأبشرت الرجل وبشرته: يعني أخبرته بشار بسط بشرة وجهه. والتبشير: هو إخبار فيه سرور، والاسم: بشارة بكسر الباء وبضمها.

والتبشير لا يكون إلا بالخير¹ كما في قوله تعالى: "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل"² وقوله تعالى: «وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون»³. وإذا كان التبشير بالشر، فلا يكون إلا مقيداً⁴، كقوله تعالى: «ويل لكل أفاك أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم»⁵. وقوله تعالى: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَن لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً»⁶.

والتبشير إذا جاء مقيداً بالشر فيكون المقصود به: السخرية والتهكم والاستهزاء الزائد في غيظ المستهزئ به وتألمه واغتمامه، ومنه قول الرجل لعدوه: "أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك"⁷.

والقرآن الكريم قد ذكرت فيه كلمة بشر بمعنى الإخبار سبعة وسبعين مرة، جاءت في سبعين مرة منهم للإخبار بما فيه سرور وفرح مطلقة بدون تقييد، وسبع مرات للإخبار بما يسوء ويحزن مقيدة بدون إطلاق. ليدلنا هذا على أن الأصل اللغوي لمصطلح التبشير، هو

¹ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 2.

² سورة البقرة: أية 25.

³ سورة فصلت: الآية 30.

⁴ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 2.

⁵ سورة الجاثية: الآية 7، 8.

⁶ سورة النساء: الآية 138.

⁷ غراب: مرجع سابق، ص 14.

الإخبار بما فيه خير للإنسان في دنياه وأخراه ومن ثم يكون فرحا مسرورا، ولا يكون في الشر والحزن إلا مقيدا¹.

ولم تأتي بمعنى التبشير بالدين النصراني إلا في معجم واحد، جاء فيه: "تبشير مصدر بشر، وبشر إما أن تكون بشر بالخبر أي جاء بمجرد الخبر وذلك كمثّل قوله تعالى: «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى»². وإما أن يكون التبشير بفكرة عرف بها أو دين يدعو إليه، وذلك كما تقوم به بعض الكنائس النصرانية. والبشارة عند النصرانية هي الإنجيل³، والبعثة التبشيرية هي هيئة دينية تدعو إلى النصرانية⁴.

وإذا كان الإنجيل لفظ يوناني الأصل ويعني البشارة، فإن البشارة الموجودة في الإنجيل هي المعنية بقوله تعالى في القرآن الكريم: «وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين»⁵.

ودليل ذلك ما نقله الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزي أن رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري، أي قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها يقول المسيح عليه السلام صراحة: ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، وبالتالي فهو إنجيل واحد ذو بشارة واحدة، وهي الإخبار بمجيئ النبي صلى الله عليه وسلم

¹ غراب: مرجع سابق، ص ص 14 - 15.

² سورة مريم: الآية 7.

³ كلمة الإنجيل: كلمة يونانية معناها الحلوان، وهو ما تعطيه من أذاك ببشرى، ثم أريد به البشرى عينها، أما المسيح عليه السلام استعملها بمعنى بشرى الخلاص التي حملها إلى البشر، واستعملها الرسل من بعده بالمعنى نفسه، وربما استعملوها أيضا بمعنى ملخص تعاليم المسيح عليه السلام لأن فيه الخلاص، أو سيرة حياته وموته لأن في هذه السيرة معنى الخلاص، وما لبثت هذه الكلمة أن استعملت بمعنى الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى، وقد غلب استعمالها بهذا المعنى منذ أواخر القرن الأول وحتى اليوم، فيقال إنجيل متى وإنجيل لوقا. ينظر: غراب: مرجع سابق، ص 15.

⁴ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 2.

⁵ سورة الصف: الآية 6.

ووجوب إتباعه، وهنا تكون البشارة متفقة مع معناها اللغوي لما يكون في إتباع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم من خيري الدنيا والآخرة¹، حيث يقول المولى سبحانه وتعالى: «فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حسرتي أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى»².

ب - معنى التبشير اصطلاحاً: له عدة تعاريف اصطلاحية منها:

تعد لفظة التبشير من الألفاظ المرادفة للتصوير، لأن هذه اللفظة توحى بغير مضمونها ومعناها، إذ يعنون بذلك التبشير بالمسيح عليه السلام ودينه³. والتبشير بالمعنى الاصطلاحي يطلق على دعوة النصارى الآخرين إلى الديانة النصرانية. ويذكر النصارى أن هذا الأمر صدر لهم من المسيح حين قال: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس». ويذكر النصارى أنه بموجب هذا الأمر، كان لابد لهم أن يسيروا لتبليغ النصرانية إلى الأمم⁴.

وبما أن مفهوم التبشير المسيحي يعني التصوير، فهو يعني تحويل الناس من ديانتهم التي يدينون بها، سواء كانوا من المسلمين، أم من غير المسلمين إلى الديانة النصرانية، ذلك لأن القساوسة المسيحيين وهم الذين يطلقون على أنفسهم بالمبشرين، يقومون بأول عمل

¹ غراب: مرجع سابق، ص ص 15 - 16.

² سورة طه: الآية 123 - 126.

³ أكرم كساب: التصوير مفهومه جذوره، أهدافه، أنواعه، وسائله، صولاته، مركز التنوير الإسلامي، د ط، القاهرة، د س ن، ص 19.

⁴ منقذ بن محمود السقار: الاستعمار في العصر الحديث ودوافعه الدينية، د ط، مكة المكرمة، 1427هـ، ص 15.

يعملونه في البلاد التي يذهبون إليها، وهو تحويل أهل تلك البلاد إلى النصرانية إن كانوا من غير النصارى، ولا يهمهم إن كان أولئك الناس أصحاب دين سماوي أم دين غير سماوي¹.

وهناك رأي آخر يقول: إن التبشير المسيحي عبارة عن هجوم المسيحية على الديانات المستوطنة في البلاد التي يتوجه إليها المبشرون المسيحيون للتبشير فيها خصوصا الإسلام، وذلك كما قال غاردنر: «إنه وإن كان قد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين، ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي، لكن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة، بقدر ما كانت لتدمير الإسلام»². والسبب في تلك الكراهية للعالم الإسلامي، هو أنه بعد ظهور المسيحية وانتشارها في ربوع أوربا وبعض مناطق إفريقيا كالحبشة ومصر، وظهر الدين الإسلامي فدخلت تلك الأمم إلى دين الإسلام أفواجا أفواجا، ودخل الإسلام إلى مهد النصرانية في بلاد الشام، ثم مصر ثم آسيا الصغرى حتى وصل أبواب فرنسا، وطوال قرون عديدة، تواصلت الحروب الصليبية تروم العودة إلى البلاد المقدسة المباركة ولكن دون جدوى³.

ومعنى هذا أن القساوسة يريدون القضاء على الإسلام، وتحويل المسلمين إلى نصارى، وعلى هذا فإن هذا التعريف قريب من التعريف الأول في معناه.

وهناك رأي ثالث يقول: أن التبشير المسيحي هو تعبير أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التي يقومون بها لتتصير الشعوب غير النصرانية، لا سيما المسلمون.

¹ أحمد سعد الدين البساطي: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، دار أبو المجد للطباعة بالهرم، د ط، د م ن، 1989م، ص 31.

² إبراهيم حسن إبراهيم: «التنصير الغربي وأثره على الإسلام ودعوته - دراسة دعوية تحليلية»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، ع 55، ربيع الثاني 1433هـ، ص 332.

³ السقار: مرجع سابق، ص 15.

والنصارى يعتقدون أن هذا العمل من قبيل الوعظ والإرشاد، حيث يعظون غيرهم بالإنجيل ويبشرونهم بالخلاص، كذلك يعتقد النصارى أنهم على حق في دعوتهم، وذلك لأنه يجب عليهم أن ينشروا دينهم في كل مكان من بقاع الدنيا، وأن ما يقومون به هو إبلاغ الناس الخبر الطيب. وعلى هذا، فيجب عليهم تحويل غير النصارى إلى نصارى، وإذا لم يستطيعوا عمل ذلك، فعلى الأقل أن يقوموا بتشكيك غيرهم في دينهم، ليسهل تحويلهم إلى نصارى فيما بعد¹.

وهناك رأي رابع يقول: إن المعنى الاصطلاحي لكلمة التبشير يقصد به الإشارة لمحاولات الدول الغربية نشر الديانة المسيحية بين الأمم الأخرى، سواء مسلمين أو يهود أو أصحاب الديانات الأخرى، وحتى بين المخالفين لهم في المذهب من إتباع الديانة المسيحية نفسها².

وهناك رأي خامس يقول: التبشير عند المسيحيين هو إيصال الخبر المفرح المتمثل في التعاليم المسيحية إلى أطراف العالم ونشر الدعوة المقدسة³، حيث يقول أحد المبشرين: «إننا نريدهم أن يصبحوا مسيحيين»⁴.

وهناك رأي سادس يقول: إن مفهوم التبشير هو تشكيك المسلمين في تاريخهم وزعزعة عقائدهم⁵.

¹ البساطي: مرجع سابق، ص 31.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 17.

³ معاشي: مرجع سابق، ص 4.

⁴ محمد السيد الجليند: الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، مصر، 1999م، ص 103.

⁵ البساطي: مرجع سابق، ص 33.

وينقسم المفكرون المسلمون من حيث تعريف التبشير إلى قسمين:

القسم الأول: أطلق لفظ التبشير على مفهوم التنصير ومن تلك التعريفات :

التبشير: هو حركة دينية سياسية استعمارية، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية، بغية نشر النصرانية في الأمم المختلفة، في دول العالم الثالث بعامة، وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب.

والتبشير: هو الأعمال التي يقوم بها المنصرون لتنصير الشعوب غير النصرانية هذا فيما سبق، والآن فإن التبشير هو الأعمال التي يقوم بها المنصرون لإخراج المسلمين عن دينهم ولو إلى الإلحاد والكفر .

والتبشير: هو مؤسسة تنصيرية تعتمد على منهجية متكاملة ذات شعب متعددة، اجتماعية، واقتصادية، وفكرية، وتعليمية، وإعلامية، وهدفه الأسمى هو نشر العقيدة المسيحية في الأوساط الإسلامية وغيرها، أو تغريب الإنسان المسلم، وتشكيكه في عقيدته الإسلامية، وخلق روح التمرد واللا دينية فيه إذا فشل في إقناعه بعقيدة التثليث.

ويتبين مما سبق أن في إطلاق لفظ التبشير على المخطط التنصيري المحكم، والذي يستهدف إخراج المسلمين وغيرهم من دينهم وإدخالهم في النصرانية، أو إبقاءهم بلا دين فيه مجانية للصواب، إذ الأولى أن يقال عنه تنصير¹.

والقسم الثاني: بين أن التبشير هو التنصير ومن هذه التعريفات:

التبشير: تعني التنصير بكل معنى الكلمة.

والتبشير: هو التعبير النصراني لحمالات التنصير.

¹ أمل الخضري: مرجع سابق، ص ص 5 - 6.

فقد ذكر صاحب التعريف الأول أن لفظ التبشير اتخذته النصارى للدعوة إلى دينهم، واستعملوه بذكاء فجعلوه جزءا من حياتهم، وأقاموا المؤسسات والكرليات لخدمة دعوتهم، ولم يخلوا عليها بما تحتاج إليه من نفقات، في حين يرى صاحب التعريف الثاني أن القائمين على حملات التنصير هم النصارى، وأن هذه المصطلحات قد استخدمها المسلمون الأوائل، وتخلى عنها المسلمون في العصر الحديث، أي استبدلوا لفظة النصارى بالمسيحيين ولفظة التنصير بالتبشير¹.

وهكذا يرى المسلمون أن كلمة التبشير التي يطلقها المبشرون على نشاطاتهم تجافي الحقيقة تماما، ذلك لأنه نشاط يستهدف تحويل الفرد من عقيدته الدينية للنصرانية، ودعوة من لا عقيدة له لكي يصبح نصرانيا، فضلا عن أن جزءا من هذا النشاط موجه للمسيحيين، أضف لذلك، فإن كلمة التبشير استخدمت إبان عهد المسيح حين قدموا الإنجيل للأمم الوثنية قبل الإسلام، لذا لا يجوز استخدامها بعد ظهور الإسلام².

وعلى كل حال، فإذا نظرنا إلى كل هذه الآراء السابقة، نجد أنها تخالف مفهوم التبشير في اللغة العربية، وذلك لأنه يكون بالخير والشر، والبشير: هو المبشر الذي يبشر القوم بأمر خير أو شر³.

أهم الخصائص التي يجب توفرها في الشخص المكلف بالتبشير: المبشرون وهم الذين يجندون أنفسهم للقيام بمهمات التبشير، سواء أكانوا من العاملين أو العاملين في السلك الكنسي أو المتطوعين والمتطوعات من ذوي الاختصاصات الأخرى، وذلك عن طريق الدعوة إلى النصرانية، أو عن طريق التعليم المنهجي، أو التثقيف العام، أو الخدمات الصحية، أو الاجتماعية أو غيرها، أو دس الأفكار التبشيرية فيها⁴.

¹ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 7.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 17 - 18.

³ البساطي: مرجع سابق، ص 33.

⁴ عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير - الاستشراق - الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه، دار القلم، ط 8، دمشق، 2000م، ص 53.

ويربي المبشرون في مدارس دينية خاصة في بلاده الأوروبية أو الأمريكية أو في كنائس أو أديرة منذ صغرهم، فإذا أتموا هذه المدارس ذهبوا إلى كليات أو معاهد دينية ليكملوا دراساتهم الدينية. وعلى هذا، فهم ينشئون نشأة دينية بحتة. وفي تلك المدارس والمعاهد والكليات برامج ومناهج خاصة يتعلمها المبشر، فمنها ما يتعلق بأمور دينه أي النصرانية، كما يتعلم بعض العلوم الأخرى كاللغة العربية، واللهجة العامية ليستطيع أن يقرأ بالأولى، ويخاطب الناس بالثانية. كما يتعلم المبشر في الوقت نفسه في المدرسة أو في الكنيسة بعض الحرف المهنية التي يحتاجها عامة الشعوب كالتجارة والهندسة والترميم وغير ذلك من المهن¹. كما يدرس الذين يريدون العمل في مجال التبشير مناهج مبنية على تفهيمهم روح الشرق وهي تصوير الشرق بصورة من التأخر والسوء، تحمل طالب التبشير على أن يندفع في مهمته اندفاعاً أعمى. ولقد أوجدت مدارس لهذه المهمة منذ زمن بعيد في روما وباريس وفي طليطلة بإسبانيا².

وقد أسس المبشرون المسيحيون تبشيرهم على أسس علمية استخلصوها بعد دراسة عميقة واشتروا بعض الأمور التي يجب على المبشر المسيحي أن يتبعها حتى يكون ناجحاً في عمله، وهي حسب الآتي:

- أن يكون على جانب كبير من الدهاء والنفاق، حتى يشعر المتحدث إليه من المسلمين أنه جاء ليكون خادماً له، وأنه قطعة منه، فمثلاً يتظاهر بحبه والعطف عليه، حتى يتصادق معه، ثم يشككه في الإسلام، وإذا نجح في ذلك يحاول تنصيره³.

¹ البساطي: مرجع سابق، ص 228.

² صابر طعيمة: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي بحوث حول العقائد الوافدة، عالم الكتب، د ط، د م ن، 1404هـ، ص 109.

³ البساطي: مرجع سابق، ص 229.

- على المبشر أو المبعوث المسيحي أن يعرف لغة الشعب الذين سيتوجه للتبشير بين أفرادهم، كما عليه دراسة عادات أفرادهم وتقاليدهم، ومعتقداتهم، ومواطن الضعف فيهم، وما ينفرهم وما يجذبهم.
- أن يكون المبشر على دراية بكيفية الدعوة المسيحية¹، وهذا ليستطيع تفهيمهم ما يريد من مبادئ المسيحية وتأييدها ديناً²، وكيفية الهجوم على ديانة الشعب الذين سيذهب إليه ونشر الأكاذيب، ولا حرج عليه في التلون للوصول إلى قلوب بعض الناس.
- استغلال معاهد العلم وكراسي التدريس في المدارس والكليات والجامعات في خدمة التبشير³.
- يجب على طبيب الإرسالية أن يكون مبشراً، فيستغل فرص المرض، ويسيطر على المرضى، فيتحدث معهم في موضوع الدين عندما يعالجهم، وإذا لم يكن المبشر طبيباً، فيجب عليه أن يكون مُلمّاً ببعض مبادئ التطبيب والتمريض والإسعافات العاجلة.
- يجب على المبشر أن يكون على دراية بكيفية وطريقة الدعوة إلى المسيحية، وكيفية الهجوم على ديانة الشعب الذي يذهب إليه.
- يجب على المبشر أن يستغل المدارس والمعاهد والجامعات في غرض التبشير⁴.

أما عن تمويل المبشرين وإرسالياتهم، فكانوا يعتمدون على ما تؤمنه لهم المؤسسات الدينية والسياسية والتجارية في الغرب المسيحي لتحقيق أهدافهم، إذ كان ملوك وأمراء أوروبا وأثرياء أمريكا يحبسون أوقافاً ومنحاً لهذا العمل⁵، فكانت الأموال تجمع ثم توضع تحت تصرف تلك الإرساليات التبشيرية لإنجاح مهمتها، بل أن حتى الأفراد في تلك الدول ساهموا

¹ إبراهيم حسن إبراهيم: مرجع سابق، ص 332 - 333.

² عبد الجليل شلبي: الإرساليات التبشيرية كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها، منشأة المعارف، د ط، الاسكندرية، د س ن، ص 154.

³ إبراهيم حسن إبراهيم: مرجع سابق، ص 332 - 333.

⁴ البساطي: مرجع سابق، ص 230 - 231.

⁵ إبراهيم خليل إبراهيم: مرجع سابق، ص 79.

بالتبرعات الهائلة ووقف الأوقاف لتلك الإرساليات¹، بالإضافة إلى ما كانت تمدهم به روما وخاصة للمبشرين الكاثوليك².

وخلاصة القول أن التبشير له عدة تعريفات مختلفة سواء في الجانب اللغوي أو الجانب الاصطلاحي، كما يختلف المصطلح في تعريفه عند المسحيين أنفسهم عن تعريفه عند علماء المسلمين فكلاهما له وجهة نظر في ذلك، ضف إلى هذا أن المبشر الذي يقوم بهذا العمل يجب أن تتوفر فيه عدة مميزات وخصائص لإتقان هذه المهمة لأنها ليست سهلة وبسيطة، بل تتطلب اشخاص ذوي خبرة ودهاء ودراسة متقنة لهذه المسألة، وهذا العمل تقف وراءه دول غربية قوية ترصد له أموالاً طائلة للمساهمة في نجاحه حتى لا يتعثر المشروع التبشيري.

يتضح لنا من خلال ما سبق أن منطلق الفكر التبشيري إيجابي، لكن مضمونه سلبي، فهو يحمل البشارة بالخبر السار لفظاً ويُبطن زعزعة المعتقدات وخلق صراع داخل الذات، ولذا، لا يمكن لأي كان، أن يزاول هذه المهمة لما لها من أبعاد تحتاج شخصيات تمتلك مؤهلات كبيرة لتحقيق أهدافها.

¹ البساطي: مرجع سابق، ص 4.

² ليلي الصباغ: الجاليات الاوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر " العاشر والحادي عشر الهجريين"، مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 2، بيروت، 1989م، ص 832.

2 - عوامل ظهور التبشير في بلاد الشام

لم يأت التبشير وإرسالياته صدفة إلى بلاد الشام، بل تضافرت العديد من العوامل التي ساهمت، وهيأت المناخ لظهوره في بلاد الشام وهي:

1 - فشل الحروب الصليبية وظهور فكرة التبشير:

قامت الجيوش الأوربية بإعلان الحرب على بلاد الإسلام، لاسترداد الأماكن المقدسة بزعمهم، وإعادتها وأهلها إلى النصرانية، وحمايتها من أيدي المسلمين، وهي في الحقيقة خطة مدبرة لفرض التنصير بالقوة، وإكراه الشعوب الإسلامية على اعتناق النصرانية، ومن ثم القضاء على الإسلام وحضارته المتقدمة في مختلف مجالات المعرفة التي أذهلت دول العالم غير الإسلامي الغارقة وقتها في أحوال الجهالة والتخلف، حيث شكلت سدا منيعا أمام أي دخيل أجنبي. فعمد النصارى إلى إيجاد ثغور تمكنهم للكيد من المسلمين، فاستعملوا العيون والجواسيس من بعض أهل الذمة، وسائر الطوائف والفرق المنحرفة التي كانت قد نشأت في جسم الأمة الإسلامية، بأنواع الكيد اليهودي والمجوسي والصليبي ليتجسسوا واقع المسلمين وليكتشفوا مواطن القوة والضعف لديهم، وليتخذوا لهم من ضمن البلاد الإسلامية أعوانا لهم يوالونهم. وبعد إحكام الخطة، شنت الجيوش الصليبية الجسارة الحرب على العالم الإسلامي، تحت راية الصليب، لذلك سميت هذه الحروب وما تلاها بالحروب الصليبية. واستمرت تلك الحرب الشعواء على الإسلام على شكل حملات قرابة قرنين من الزمان، من القرن 12م إلى القرن 13م إلى أن تم إجلاؤهم عن الديار الإسلامية، وتخليص القدس من أيديهم على يد القائد "صلاح الدين الأيوبي" في معركة حطين عام 1187م، وباءت كل مخططاتهم وحملاتهم العسكرية بالفشل الذريع والهزيمة¹.

¹ أمل الخصري: مرجع سابق، ص101. وينظر: حبنكة الميداني: مرجع سابق، ص ص 21- 22.

ومن أهم تلك الحملات الصليبية الفاشلة الحملة السابعة التي كانت بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع عام 1248م على مصر، حيث التقت جيوشه مع الجيوش الإسلامية وقامت معركة طاحنة بينه وبين المسلمين عام 1250م انتهت بهزيمته ومن معه من الجنود، وكانت نتيجة هذه المعركة القبض على الملك "لويس التاسع" ومن معه من النبلاء والقساوسة الفرنسيين الذين كانوا يحيطون به، وقد اسروا وسجنوا جميعا في مدينة المنصورة بمصر¹.

ومن هناك بدأت وولدت فكرة التبشير، إذ قيل إن الملك لويس التاسع عندما كان أسيرا في مدينة المنصورة، أخذ يتأمل في نتيجة خطته التي جرت عليه الهزيمة والاعتقال، وأخذ يفكر كثيرا في البديل عن الحروب الصليبية العسكرية الفاشلة التي كلفت الدول الأوروبية الأموال الطائلة والأرواح الكثيرة أمام الجيوش الإسلامية دون أن يحصلوا على أدنى مكسب مادي أو معنوي². ورأى أنه لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة، ذلك لأن في دينهم عامل حاسم وهو عامل المواجهة والجهاد، وبذل النفس والدم رخيصا في سبيل حماية العرض والأرض. وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين، فمن المستحيل السيطرة عليهم لأنهم قادرون دوما انطلاقا من عقيدتهم إلى المقاومة، ودحر الغزو الذي يقتحم بلادهم، وأنه لابد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يقضي على هذا المفهوم عند المسلمين حتى تسقط خطورته³. وقد انتهى به التفكير إلى:

- إن النعرة الدينية في الغرب لم تعد كافية لإثارة الحروب ضد الإسلام والتغلب على المسلمين ودينهم، فالحروب الصليبية أنهكت قوى الغرب البشرية والمادية، ثم إن قوى الصليبيين في

¹ البساطي: مرجع سابق، ص16.

² نفسه، ص 16.

³ أنور الجنيدي: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، دار الأنصار، مج 5، مصر، 1983م، ص 1.

الشرق أخذت في الاضمحلال والانهيار، ومات في قلب الانسان الصليبي ذلك الحافز الروحي الذي كان يحفزه على خوض الحروب، ولا مطمع له فيها غير نصرته المسيحية¹.

- ثم تساءل الملك لويس: هل في وسع المسيحية أن تواصل وحدها الاضطلاع بمحاربة الإسلام؟ وكان جوابه: أنه لم يعد في وسع الكنيسة أو فرنسا وحدها مواجهة الإسلام، وأن هذا العبء لابد أن تقوم به أوربا كلها لتضييق الخناق على الإسلام، ثم تقضي عليه فيتم لها التخلص من العائق الذي يحول دون تملكها لآسيا وإفريقيا².

ولما عاد إلى فرنسا بعد فك أسره، خاطب شعبه وأوصاهم بوصية جاء فيها: «إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاوتلهم بالسلاح وحده فقد هزمت أمامهم في معركة السلاح، ولكن حاربوهم في عقيدتهم مكن القوة فيهم»، وذلك لتأهيلهم فكريا ونفسيا، للتسليم والاستسلام لما يريد الأعداء بهم، لأنه بمجرد تحول أفكارهم عن المفاهيم الإسلامية فسد منطقهم وساء إدراكهم للأمور، وبهذا يسهل التحكم بهم وتسخيرهم لخدمة أغراض أعدائهم³.

وعلى هذا، فقد وجد الملك لويس التاسع البديل عن تلك الحروب، ألا وهو تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية الغرض منها:

- تجنيد المبشرين الغربيين لمحاربة الإسلام وتعاليمه.
- وقف انتشاره في جميع أنحاء العالم وخاصة في آسيا وإفريقيا.
- العمل على القضاء على الإسلام في البلاد العربية والإسلامية.
- اعتبار المبشرين القساوسة الذين يذهبون إلى تلك البلاد للتبشير بالنصرانية جنودا للغرب⁴.
- العمل على استخدام من يمكن إغراؤهم من مسيحي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب.

¹ سعد الدين السيد صالح: احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، مكتبة الصحابة، ط1، الإمارات، 1998م، ص 32.

² نفسه، ص 33.

³ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 102.

⁴ السيد صالح: مرجع سابق، ص 33.

- العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب العالم الإسلامي يتخذها الغرب نقطة ارتكاز لقواته الحربية، ولدعوته السياسية والدينية، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه، كلما أتاحت الفرصة لمهاجمته. وقد اقترح الملك لويس لهذه القاعدة الأرض الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من غزة في فلسطين حتى الإسكندرية وتشمل فلسطين والأردن والبلاد المقدسة ثم لبنان بأسرها وجزء من سوريا¹.

ومنذ ذلك الوقت أدركت البابوية كما أدرك الملك لويس التاسع أن الحملات المسلحة الداعية إلى التنصير بالقوة لم تأتي أكلها، ولم تحقق مرادها، فكان أن اتجهت إلى البعثات التنصيرية لنشر مبادئ النصرانية بين المسلمين عن طريق الإقناع، لا عن طريق الحرب والتدمير².

أي أنهم حولوا الغزو العسكري إلى غزو فكري، ذلك أن الفكر لا يقاوم إلا بفكر مثله، ولا يمكن أن يقاوم بالسلاح، ولا تستطيع الجيوش الجرارة أن تجعل إنسانا واحدا يعدل عن فكرته بالقوة، حيث اقتنع النصارى بإعداد جيوش من نوع آخر. فلم تعد تحمل المدافع، فسلحها هو القلم والكتاب، ولم تعد تلبس الزي العسكري، فلباسها هم الرهبان ورجال الدين المسيحي، ولم تعد تسير في خطوات منتظمة ظاهرة للعيان، فطريقها، هو الدس في الخفاء والدخول من الأبواب الخفية، ويتكون هذا الجيش الجديد من كتائب وفرق من المبشرين ودعاة التغريب من المفكرين وكل من يمتلك أداة التوجيه الفكري³.

وهذه الخطة كانت من توجيه ملك فرنسا لويس التاسع الذي زرع النواة الأولى للتبشير، حيث تمخضت عن فكرته جراء تلك الحروب الصليبية العسكرية الفاشلة عمل تنصيري ذو

¹ عبد الرحمان عميرة: الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، دار الجيل، د ط، بيروت، د س ن، ص 23.

² أكرم كساب: مرجع سابق، ص 143.

³ السيد صالح: مرجع سابق، ص 32.

طابع مؤسساتي، يعتمد على الخطط المدروسة، ويدوافع وطرق مختلفة ذات أهداف متقاربة، حيث تبين لدى أصحاب الحروب الصليبية المسلحة أنها تولد عند المسلمين مقاومة لا طاقة لهم بها، فإذا بالطريق الفكري والتتصير أحد الدعائم هو الوجه الآخر للحروب الصليبية لتمسي بذلك الحروب الصليبية أكثر فاعلية، وتلحق بها صفة الاستمرارية، ويتفق في ذلك بعض الكتاب المسلمين والمسيحيين شرقيين أو غربيين وهذه أمثلة عن تلك الآراء:

أولاً: رأي بعض مفكري علماء المسلمين: حيث يرون أنه بعدما خابت دول أوربا في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف، أرادت أن تشن على المسلمين حرباً صليبية جديدة عن طريق التبشير، فاستخدموا لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات، ونشروا المبشرين في العالم. فالتبشير المسيحي هو في حقيقته حرباً صليبية، أو هو امتداد لتلك الحروب الصليبية العسكرية الصاخبة التي بدأها الغرب المسيحي منذ عدة قرون.

ثانياً: الرأي المسيحي العربي: يعبر جوزيف نسيم عن كون التتصير امتداداً للحروب الصليبية بقوله: «لقد اتجهت الحروب الصليبية منذ بدايتها إلى تحقيق الأهداف التي يحاول التتصير تحقيقها الآن فهي استعمارية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان:

- هي استعمار عسكري اتخذ القوة المسلحة وسيلة لتحقيق أهداف العدوان.
- هي استعمار استيطاني يهدف إلى الاستيلاء على الأراضي واستعباد العباد.
- هي استعمار اقتصادي استغلالي لنهب ثروات البلاد والاستئثار بخيراتها.
- هي استعمار ثقافي يسعى إلى فرض الحضارة الغربية اللاتينية على العالم العربي.
- وهي أخيراً تعصب ديني يتمثل في محاولات أوربا نشر الكاثوليكية في العالم العربي عن طريق الحروب الصليبية والبعثات التبشيرية»¹.

¹ غراب: مرجع سابق، ص ص 212- 224 .

ثالثاً: الرأي المسيحي الغربي: يقول يوجين روستو¹: «يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول وشعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية. لقد كان الصراع محتدماً ما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة»².

وهكذا أدركت الكنيسة الكاثوليكية مع بداية القرن 13م عدم جدوى استخدام القوة العسكرية، فاتجهت إلى تسخير البعثات الإرسالية التبشيرية. فقامت حرب جديدة تعتمد على الغزو الفكري والنفسي والحضاري، متخذة من العلم والتجارة والصناعة والطب ستاراً زائفاً تحت شعار المبادئ الإنسانية والمحبة المسيحية. ومنذ ذلك العهد، بدأ تسابق الدول الغربية في تأسيس الإرساليات التبشيرية، وتسخير الكنائس والمدارس والمستشفيات ونحوها لخدمة النشاط التنصيري، فوظفت فيها جنودها المنصرين، وذلك بعد فشل الحروب الصليبية في تحقيق مآربها ومخططاتها³.

يتضح مما سبق أن الفشل الذريع الذي منيت به أوروبا في الحروب الصليبية العسكرية التي شنتها على العالم العربي الإسلامي هي التي غيرت الوسائل، والتي أدت إلى ولادة فكرة الحرب السلمية المتجسدة في التبشير وإرسالياته لتحقيق نفس غايات الحروب الصليبية المسلحة بأقل خسائر بشرية ومادية وحتى معنوية.

¹ يوجين روستو: رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، ومساعد وزير الخارجية الأمريكية ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى عام 1967م. انظر: غراب: مرجع سابق، ص 24.

² نفسه، ص 24.

³ أمل الخصري: مرجع سابق، ص ص 101 - 103.

2 - الاستشراق¹:

يربط كثير من الباحثين المهتمين بالدراسات الشرقية بين نشأة الاستشراق وبداية ظهوره وذلك الفشل الذريع الذي منيت به أوروبا في حروبها الصليبية على العالم الإسلامي، ولم تتمكن من استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين. وما دامت تلك الحملات لم تحقق الهدف الذي قامت من أجله، فكان لابد لها من البحث عن بديل آخر ليحقق هدفهم من السيطرة على العالم الإسلامي وبسط نفوذهم، فكان الاستشراق هو ذلك البديل المتاح في وقتها، ليحقق أحلام الغرب وأهدافه².

ويضاف إلى ذلك أن حركة الإصلاح الديني المسيحي عندما ظهرت في أوروبا في القرن 16م شعر المسيحيون وقتها أنهم بحاجة ماسة لإعادة النظر في شروح كتبهم الدينية، فاستدعت تلك المراجعة نوعاً من الدراسات العبرانية، ثم انتقلوا إلى بعدها للدراسات العربية الإسلامية، لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى³. ولهذا، اهتمت الكنيسة البابوية بها وفتحت أقسام متخصصة لذلك واحتضنتها الجامعات الصليبية⁴.

ومن ثمة تغير أسلوب المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب بعد الحروب الصليبية، فاحتلت الكلمة والحوار واستخدام المنهج العلمي المكانة الأولى في دراسة علوم الشرق لمعرفة الأسلوب الأمثل لمواجهته، واكتشاف عوامل قوة العالم الإسلامي التي هزمت الصليبيين، ولذا كان رجال الكنيسة في طليعة المستشرقين المهتمين بأمر الشرق ودراسة

¹ الاستشراق: يراد به ما يقوم به الغربيون من دراسة لتاريخ الشرق، وأهمه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه في العصور الوسطى كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم، بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منابر بغداد، والقاهرة من أضواء المدنية والعلم كان الغرب يعيش في جهل كثيف. ينظر: جابر قميحة: «أثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم»، مجلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة العاشرة، ع 116، 1412هـ - 1991م، ص 15.

² الجليند: مرجع سابق، ص ص 12 - 13.

³ محمد البهي: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، مطبعة الأزهر، د ط، د م ن، د س ن، ص 11.

⁴ طعيمة: مرجع سابق، ص 74.

أحواله. ومن هنا، فإن طليعة المستشرقين كانوا في معظمهم من القساوسة ورجال الدين المسيحي¹.

إن معظم المحققين لمسألة الاستشراق يكادون يجمعون على أن بدايته الحقيقية كانت من فرنسا الكاثوليكية، وذلك منذ نهاية القرن 10م وأوائل القرن 11م، وكلهم من ذوي المناصب الدينية حيث انطلقوا من الكنائس والأديرة². وكان الراهب الفرنسي جرير دي أولياك³ من أوائل المشتغلين بعلوم الشرق، ثم ظهر بعده عدد من رواد هذه الحركة وتكاثرت أعدادهم واختلفت جنسياتهم بحيث شملت معظم دول أوربا وأمريكا في العصر الحديث، وبواسطتهم انشأت حكوماتهم في جامعاتها أقساما مستقلة لتدريس اللغة العربية وعلوم الشرق. ثم أخذت بعد ذلك حركة الاستشراق تنمو بشكل مستمر حتى عقد سنة 1311م و 1312م مؤتمر فيينا الكنسي. وكان من أهم قراراته، إنشاء كرسي اللغة العربية في روما وفي معظم جامعات أوربا. فتأسس في روما كرسي اللغة العربية على نفقة الفاتيكان، وفي باريس على نفقة ملك فرنسا، وفي أكسفردي على نفقة ملك إنجلترا. ويعتبر الكثير من المؤرخين أن هذا المؤتمر هو البداية المنظمة وشبه الرسمية للاستشراق، وتبع ذلك انتشار المدارس والمعاهد الاستشراقية⁴.

ولذا يقال أن الاستشراق وليد التبشير، إذ بدأت دراسة اللغة العربية في أوربا استجابة لحاجات العمل التبشيري، ولأن الاستشراق ولد بين أحضان رجال الدين، وأنه كانا خاضعا

¹ الجليند: مرجع سابق، ص 13.

² الزيدي: مرجع سابق، ص 67.

³ جرير دي أولياك: راهب فرنسي 938 - 1003م، ارتبط اسمه بحركة الاستشراق وبدايته، حيث رحل من فرنسا إلى اسبانيا مهد الحضارة الإسلامية في وقته، وتعلم اللغة العربية فيها ووقف على علوم العرب، ثم ارتحل إلى روما وانتخب أول بابا فرنسي باسم سلفستر الثاني من سنة 999 إلى 1003م، وتمكن من خلال منصبه الجديد أن ينشئ مدرستين لتدريس اللغة العربية وعلومها، الأولى كانت في روما مقر البابوية والثانية في وطنه الأم دايمس في فرنسا، ثم أنشأ مدرسة ثالثة تسمى مدرسة شارتر. ينظر: الجليند: مرجع سابق، ص ص 13 - 14.

⁴ نفسه، ص ص 14 - 15.

ومصطبغا بتصورات وأيديولوجية الكنيسة والبابوية. هكذا اتكأ التبشير على الاستشراق في الحصول على المعلومات للمجتمعات المستهدفة، وخصوصا الإسلامية منها بعد اكتساب التصير مفهوم ومعنى أوسع من مجرد الإدخال في النصرانية، إذ عمل على التشكيك في الكتاب والسنة والسيرة. وكان فرسان هذا التوسع المستشرقين. وعلى هذا الأساس، كان التعاون والتنسيق بين التبشير والاستشراق قائما ومتصلا. ويكمن وصف الاستشراق، بأنه المصنع والتبشير بأنه المصدر أو الموزع لما يصنعه الاستشراق. فلقد كانت خدماته نافعة لتغذية حركة التبشير، وكانت آراءه مادة خام يستطيع التبشير استعمالها في دعم خطته. ولقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق في مجال التبشير، وكانت كتاباتهم وقودا خصبا في أيدي المبشرين¹. ومن أهم المستشرقين الفرنسيين الذين مارسوا التبشير، المستشرق غليون بوستال Postal الذي اتقن اللغة العربية ورافق أعضاء السفارة الملكية إلى استانبول عام 1538م في عهد السلطان العثماني سليمان الأول (1520 - 1566م)، إذ استغل المناسبة لزيارة الشرق الأدنى واعطاء صورة واضحة عن قواعد اللغات الشرقية، وعن الحياة في الشرق الإسلامي. وبعد مرور عدة سنوات، رجع إلى المشرق ليعمل في مجال التبشير².

ولا شك أن الاستشراق يسبق التبشير أو التصير في الدخول إلى بلاد المسلمين، وهو في الحقيقة أكبر ممهد لجهود التبشير ورجاله، كون المبشرين يستفيدون فائدة عظيمة من بحوث المستشرقين، وآرائهم ودراساتهم عادات المسلمين وطرق تفكيرهم، ثم يضعون خططهم التصيرية وفق تلك البحوث، وعلى نتائج تلك الدراسات، بل أن بعض المستشرقين الذين يزعمون تجردهم للبحث والعلم فقط، هم مبشرون في الوقت نفسه، ذلك أن كثيرا من بحوثهم تضج بالتحامل والجور على الإسلام بشكل ظاهر، مما يدل على أن الهدف هو تنفير

¹ جواد كاظم نصر الله وشهيد كريم الكعبي: «الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية لقاء الاستشراق والتبشير»، مجلة

دراسات استشرافية، ع 4، ربيع 2015م، ص ص 113 - 114.

² الزيدي: مرجع سابق، ص 68.

المسلمين من دينهم، ليكونوا بعد ذلك لقمة سائغة للمبشرين وسواهم ممن يريدون صرف المسلم عن دينه إلى أي مذهب أو فكر آخر¹.

وعندما كانت هناك الرغبة في التبشير بالمسيحية في الشرق، فاستلزم ذلك دراسة اللغة العربية على أيدي المستشرقين²، ليتسنى لهم تجهيز دعائهم وإرسالهم إلى العالم الإسلامي³. ولم يكن عمل المستشرقين منفصلاً عن عمل المبشرين، بل كانت مهمة كل منهما تدخل في الأخرى⁴. ولم يترك المستشرقون وسيلة لنشر أبحاثهم وبحث آرائهم، إلا واستعملوها ومن هذه الوسائل، إرسال الإرساليات التبشيرية إلى العالم الإسلامي⁵.

فالتبشير والاستشراق كل منهما يكمل الآخر ويتفق معه في نفس الهدف، الاستشراق يقوم بإعداد البرامج التي يقوم التبشير بتدريسها في المعاهد والجامعات. ويمكن القول بأن المستشرقين هم طلائع المبشرين وكانوا بصلة دائمة بالكنيسة الأم التي توجههم.

كما كانت العلاقة وطيدة والصلة عميقة بين التبشير والاستشراق حتى أن أساقفة الفاتيكان نزلوا إلى ميدان الاستشراق ليساعدهم على التبشير، فأرسلوا المبشرين إلى بلاد الشرق، لهذا كان لزاماً عليهم تكليف مبعوثيهم بتعلم اللغة العربية، وأنشئت لهم مطابع عربية وجمعت لهم الكتب. وهكذا، فقد كان الاستشراق مسخراً لخدمة التبشير في بدايته ومقتصراً على رجال الدين وحدهم دون سواهم من الطبقات المثقفة، ثم تطور، فصار علماً قائماً بذاته هدفه دراسة اللغات الشرقية وآدابها وأنشئت له أقسام وكليات في بعض الجامعات ومع ذلك،

¹ عبد العزيز بن إبراهيم العسكر: التنصير في الخليج العربي، الدار العربية للموسوعات، مكتبة الملك فهد الوطنية، د ط، الرياض، 1427هـ / 2007م، ص 26.

² قميحة: مرجع سابق، ص 28.

³ طعيمة: مرجع سابق، ص 102.

⁴ عبد العزيز بن إبراهيم العسكر: مرجع سابق، ص 25.

⁵ محمد بن ناصر الشنري: التنصير في البلاد الإسلامية، أهدافه - ميادينه - آثاره، دار الحبيب، ط1، الرياض، 1418هـ / 1998م، ص 50.

فإن ممارسة الاستشراق من أجل التبشير وخدمة الدين المسيحي لم تنته على الرغم من تطوره وظهور النزعة العلمية الجديدة له، فقد ظل عدد من خدام المسيحية يمارسون الاستشراق¹.

ولقد سلك رجال الدين المسيحيون من الرهبان² والقساوسة طريق المستشرقين حيث كان منهجهم هو التعليم في المدارس والعمل الخيري بإرسال الراهبات ليعملن في المستشفيات في الدول الإسلامية والعربية³.

وهكذا، فرغم الفشل الذريع الذي مُنيت به الدول الغربية جراء هزيمتها في الحروب الصليبية إلا أنها ظلت متمسكة بهدف القضاء على الشرق الإسلامي، وفي خضم هذا الفشل ولدت فكرة الحملات التبشيرية واقتنع بها الغرب المسيحي انطلاقاً من انخفاض تكاليفها، وفاعليتها، خصوصاً بعد شيوع مؤلفاتهم التي مثلت سنداً أساسياً في عملية التبشير، فقد مهدت لها الطريق للولوج إلى الشام بأقل مخاطر، بل على ثقة، بفضل الاعتماد على الدراسات الإستشراقية التي أطلعت رواد التبشير على نقاط الضعف والقوة، وعلى طبائع أهل الشام ومن ثم تجنب أي صراع محتمل. وبالتالي نستطيع أن نقول أن الاستشراق عامل مهم بالنسبة للتبشير وإرسالياته، إذ قدم خدمة جلية له، وهي معرفة أمور البلاد التي تريد الإرساليات التبشيرية النشاط فيها، لأنه ليس أمراً سهلاً أن تذهب الإرساليات ومبشريها إلى مكان لا تعرفه، فذلك لربما يشكل خطراً عليها ويعطل مهامها، ولذا عرّف الاستشراق

¹ سلمان سلامة عبد المالك: أضواء على التبشير والمبشرين، مطبعة الأمانة، ط 1، مصر، 1994م، ص ص 26 - 30.

² الرهبان: مفرداً راهب، وهو من حبس نفسه للعبادة، ويعين من طرف البطريرك، ويقوم في الأديرة ولا يقتصر دور الرهبان على الدور الديني بل يتعداه إلى مجالات أخرى، كالعمل في الزراعة والتجارة. ينظر: حامد القضاة: مرجع سابق، ص 376.

³ سلامة عبد المالك: مرجع سابق، ص 30.

المبشرين على أمور ربما كانت خافية عليهم، وعندما اطلعوا عليها، سهلت مهمتهم في البلدان العربية التي قصدوها، ومن تلك البلدان الشام.

3 - الامتيازات الأجنبية:

لقد بدأت الامتيازات الأجنبية¹ في تاريخ الدولة العثمانية منذ عهد السلطان سليمان الأول - المعروف بالقانوني- وكان أولها توقيع اتفاقية تجارة وصداقة الدولة العثمانية ودولة فرنسا في فيفري 1535م بين السلطان "سليمان القانوني" و"فرنسوا الأول" ملك فرنسا، وقد صيغت في ستة عشر بنداً، وتم الاتفاق بموجبها بين الباب العالي وسفير فرنسا على منح بعض الامتيازات كالحرية الدينية للرعايا الفرنسيين، وحرية السفر داخل الأراضي العثمانية، وبعض التسهيلات التجارية لرعايا ملك فرنسا النازلين في الدولة العثمانية. وبذلك أصبحت فرنسا الدولة الأوروبية الوحيدة الحائزة على مثل هذه الامتيازات². ولقد كان البند الأخير من تلك المعاهدة عبارة على اعتراف ضمني من قبل السلطان العثماني نفسه لملك فرنسا يسمح له بالتحدث باسم الدين المسيحي الكاثوليكي³، ومن ثمة ظهر ملك فرنسا وكأنه الممثل الحقيقي للدين الكاثوليكي وحامي الكاثوليك أياً كانت جنسيتهم داخل الدولة العثمانية⁴. كما اشترط ملك فرنسا فرنسوا الأول أن يكون لبابا روما وملك إنجلترا وملك اسكتلندا الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة لو أرادوا ذلك. ولقد ظلت المعاهدة سارية المفعول حتى قام ابن الملك "فرنسوا الأول" المسمى هنري الثاني بتعزيزها مضيفاً لها معاهدة جديدة مع

¹ الامتيازات الأجنبية: وهي تسهيلات منحها الدولة العثمانية للدول الأوروبية تشجيعاً لرعاياهم على الإقامة والتجارة في الولايات التابعة لها، واستغلال أموالهم في المجالات الاقتصادية. وقد تركزت الامتيازات في بلاد الشام ومصر وتونس والجزائر، فكانت هذه الامتيازات وسيلة للتدخل الأوربي في شؤونها. ينظر: محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، د ط، عمان، 1989م، ص 63.

² عوض: مرجع سابق، ص 321.

³ الصباغ: مرجع سابق، ص 782.

⁴ VEINSTEIN GILLES, Missionnaires jésuites et agents français en crimée au début du xviiiie siècle, in: cahiers du monde russe et soviétique, vol, 10 n°3-4, juillet-décembre 1969, p 414.

السلطان سليمان القانوني عام 1553م متعلقة بالحرب البحرية. والأخطر من كل ما سبق، أن تقليداً جديداً سمح به السلطان حين أتاح لسفير فرنسا السيد جبريل درامون زيارة بيت المقدس ومقابلة الرهبان والقساوسة، وجعل المسيحيين الكاثوليك المستوطنين بأراضي الدولة العثمانية تحت حماية فرنسا¹، وبالتالي كانت هذه الامتيازات بالنسبة للأقليات المسيحية بمثابة نهاية للاضطهاد الممارس ضدهم من طرف السلطات العثمانية².

كما جددت مرة أخرى هذه الامتيازات مع "شارل التاسع" ملك فرنسا في عام 1569م في الاتفاقيات التي تمت بين الدولتين في عصر السلطان سليمان. وأيد السلطان سليم الثاني (1566 - 1574م) ابنه الامتيازات القنصلية، وزاد عليها امتيازات تجارية أخرى، حتى صارت فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلدان التابعة للدولة العثمانية³. وفي عام 1604م أضيفت للاتفاقيات بين الدولة العثمانية وفرنسا بنود خاصة بالمرسلين الأجانب والعمل التبشيري وذلك في عهد السلطان "أحمد خان الأول" (1604 - 1617م). وهكذا حصل العمل التبشيري للمرة الأولى على ترخيص رسمي للعمل داخل ولايات الدولة العثمانية. ولن تتأخر الكنيسة باستغلال هذا الترخيص، فأرسلت تحت ظل هذه المعاهدات إرساليات دينية كاثوليكية عدة إلى كافة بلاد الدولة العثمانية الموجود بها مسيحيون، خصوصاً بلاد الشام، لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا، وهو أمر وضع اللبنة الأولى وبشكل قانوني ورسمي للوصاية الفرنسية على المسيحيين في بلاد الشام، هذه الوصاية التي نكبت الدولة العثمانية بعد ذلك⁴.

¹ قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، ط 2، بيروت، 2003م، ص 20.

² GILLES, OP . Cit ., p. 415.

³ العزاوي: مرجع سابق، ص ص 20 - 21.

⁴ نفسه، ص، ص 21، 87.

كما أن تلك المعاهدة تضمنت اعتراف الدولة العثمانية لفرنسا بحق حماية الحجاج الكاثوليك وحریتهم في زيارة الأماكن المقدسة داخل الدولة العثمانية¹. وهكذا دعمت فرنسا هذه العلاقات السياسية المستترة بثوب ديني بتعهد العلاقات التجارية والإرساليات التبشيرية بين لبنان وفرنسا خاصة، ومن ثمة ضاعفت فرنسا عنايتها بأمور التجارة، وأرسلت القناصل وأسست المكاتب والمراكز الثابتة لتسهيل أمورهما في المنطقة الإسلامية².

وبهذه الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا، فتحت المجال على مصرعيه للدول الأجنبية الأخرى للتنافس على الحصول على امتيازات، حيث انضمت إنجلترا إلى معاهدة الامتيازات عام 1579م، كما انضمت هولندا عام 1612م، وتبعتها دول أوربية أخرى. وتوالت بعد ذلك التنازلات السلطانية العثمانية في هذا الميدان الخطير. فالأوروبيون ومع كل امتياز تجاري جديد يحصلون عليه كانوا يطالبون بامتياز ديني موازي له، ويبدو أن السلاطين العثمانيين لم يكونوا على وعي بخطورة تنازلاتهم هذه³، لكن لم يكن لهذه الامتيازات الأجنبية خطر على الدولة العثمانية عندما كانت قوية، إلا أن الأجانب أساءوا استعمال تلك الامتيازات عندما أصبحت الدولة ضعيفة خاصة في القرنين الثامن والتاسع عشر⁴.

وأصبحت من عادة الدول الأوربية استغلال الأحداث التي تُلَمُّ بالدولة العثمانية لتحرير شروط خاصة بالحماية على المسيحيين. فبعد أن خسرت الجيوش العثمانية أمام الجيش

¹ معد صابر رجب: « قراءة جديدة في الأسباب الحقيقية لضعف الدولة العثمانية من خلال الامتيازات الفرنسية والتوجه للمشرق العربي 1520 1798»، مجلة جامعة تكريت للعلوم، ع3، مج 20، آذار 2013م، ص 184.

² انيس صايغ: لبنان الطائفي، دار الصراع الفكري، د ط، بيروت، 1955م، ص 107.

³ العزاوي: مرجع سابق، ص، ص 21، 86.

⁴ عوض: مرجع سابق، ص 322.

الباب الأول: أوضاع بلاد الشام في بداية القرن 19م وعوامل ظهور التبشير

الفصل الثاني: عوامل ظهور التبشير في بلاد الشام

النمساوي، وفرضت معاهدة كارلوفيتس¹ جانفي 1699م، اشترطت النمسا إضافة بند للمعاهدة، وهو البند الثالث عشر الذي ينص على السماح للنمسا بحراسة الأماكن المقدسة في القدس².

وهكذا أتاحت الامتيازات للأوروبيين التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، حيث نصب الأوروبيون أنفسهم حماة للأقليات المسيحية التي تعيش داخل الدولة العثمانية، واستطاعوا بذلك أن يشاركوا في تقرير مصير الدولة العثمانية. ففي عام 1740م وقع السلطان محمود الأول معاهدة مع ملك فرنسا لويس الخامس عشر، فتح بموجبها البلدان المقدسة ليس للحجاج الفرنسيين وحدهم، بل لجميع المسيحيين الذين وفدوا على الدولة العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي³، وبموجب هذه المعاهدة أصبحت فرنسا بمثابة الإبنة الكبرى للكنيسة والمجتمعات الكاثوليكية وحامية الأماكن المقدسة في المشرق⁴، ومن ثم اتخذ الفرنسيون تلك الامتيازات أساسا لحق حماية المسيحيين في بلاد الشام، ثم فتحوا قنصليات في عدة مدن سورية وفعل البريطانيون مثلهم⁵.

¹ معاهدة كارلوفيتس: جاءت بعد صراع مرير على المجر بين الدولة العثمانية والنمسا، انتهى بتوقيع معاهدة كارلوفيتس في جانفي 1699م، تنازلت فيها الدولة العثمانية بمقتضاها للنمسا عن كامل بلاد المجر وترانسلفانيا، ولبولندا عن كامل بودوليا وأوكرانيا. ينظر: طقوش: مرجع سابق، ص 283.

² العزاوي: مرجع سابق، 87.

³ حسين العودات: العرب النصاري عرض تاريخي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، دمشق، 1992م، ص 160.

⁴ CONRAD, Op . cit.,

⁵ حسين العودات: مرجع سابق، ص 161.

وبعد توقيع الدولة العثمانية وروسيا معاهدة الصلح كوجك كينارجة¹ 1774م والتي أقرت في بنودها حق روسيا التحدث باسم رعايا السلطان من المسيحيين الأرثوذكس، كما أقرت حق روسيا في: إقامة كنيسة أرثوذكسية في الاستانة على رأسها أساقفة روس، وكذلك أصبح الحق للروس الحج الى بيت المقدس دون الحصول على موافقة الإدارة العثمانية، كما منحت الاتفاقية لروسيا أيضا الحق في فتح القنصليات في القدس وبيت لحم ويافا وحيفا فضلا عن وجود سفارتها في الاستانة²، وهذا ما خول الحق لروسيا لكي تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية تحت حجة حماية الأرثوذكس، ومنذ تلك المرحلة تحددت الطرق التي سارت عليها روسيا في الزحف على الممتلكات العثمانية، ثم جاءت معاهدة ياسي³ مع روسيا عام 1792م لتؤكد على شروط حماية الأرثوذكس العثمانيين وبصورة خاصة في فلسطين. وعلى إثر تلك المعاهدة، بدأت بدعم الرحلات الدينية التبشيرية الروسية⁴.

¹ معاهدة كوجك كينارجة جويلية 1774م: أخذت المعاهدة اسمها من قرية صغيرة على الضفة اليمنى لنهر الدانوب بالقرب من سيلستريا، إذ جرت فيها مفاوضات بين العثمانيين والروس بعد حرب جرت بينهما، وتضمنت المعاهدة 28 بندا وبندين اضافيين تنظم العلاقات المستقبلية بين الطرفين، وأهم ما جاء فيها بند ينص على: أنه يرخص للرهبان الروس ولسائر رعايا الدولة الروسية بزيارة القدس وسائر الأماكن المقدسة الأخرى لدى النصارى، وتقدم لهم الدولة العثمانية التسهيلات والحماية ويعفو من دفع الجزية أو الخراج. ينظر: طقوش: مرجع سابق، ص ص 295 - 296. وينظر: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، تر، عدنان محمود سلمان، مر، محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، مج 1، تركيا، استانبول، 1988م، ص ص 628 - 631.

² مشعل مفرح ظاهر الشمري: «حركة التبشير الروسية الأرثوذكسية في القدس»، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، ع 7، أيار، 2012م، ص 165.

³ معاهدة ياسي جانفي 1792م: وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا بعد حرب بينهما على جزيرة القرم، إذ كانت روسيا تتوسع فيها فتصدت لها الدولة العثمانية من سنة 1788 الى 1792م وانتهت بانهزام العثمانيين ومن خلال المعاهدة سيطرت روسيا نهائيا على جزيرة القرم. ينظر: فريد بك المحامي: مرجع سابق، ص 370.

⁴ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص ص 165 - 166.

وما أن حل القرن 19م حتى دخلت الدولة العثمانية مرحلة من الإصلاحات والتنظيمات¹ حملت بين طياتها امتيازات للسكان غير المسلمين في الدولة العثمانية، أبرزها خط شريف كلخانة² من قبل السلطان عبد المجيد في 1839م وخط شريف همايوني³ من قبل السلطان نفسه سنة 1856م، وبلغ الإصلاح الذروة بإعلان الدستور في عهد السلطان عبد الحميد الثاني عام 1876م⁴.

فقد سمح خط شريف كلخانة الصادر عن الدولة العثمانية 1839م للمسيحيين ببناء مقابرهم حسب تقاليدهم ونظم أصول بناء الكنائس وأماكن العبادة، وقرر على موافقة مسبقة على بناء كنائس جديدة، مع إقرار مبدأ الحق في بناء الكنائس، كما ضمن الحرية الدينية، وهكذا أعلن القانون مبدأ المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية مسلمين وغير مسلمين، وقد شجع خط شريف كلخانة مثلاً البعثة الروسية في الآستانة أن تطالب بحماية ورعاية المسيحيين السوريين، وخاصة في القدس⁵.

وفي عام 1856م صدر خط التنظيمات الخيرية المعروف بالخط الهمايوني من طرف السلطان عبد المجيد، وأكد على السماح للطوائف غير الإسلامية بالحرية في ممارسة

¹ الإصلاحات أو التنظيمات العثمانية: وهي سلسلة من الاجراءات على النمط الغربي قامت بها الدولة العثمانية في فترة ضعفها، لإنقاذ نفسها من الانهيار خلال القرن 19م، ومست معظم أجهزتها منها الجهاز العسكري والإداري. ينظر: غربي: مرجع سابق، ص 151.

² خط شريف كلخانة: أعلنه الصدر الأعظم رشيد باشا في 4 نوفمبر 1839م، بعد انهزام الجيش العثماني أمام الجيش المصري في معركة أينتاب، وقرأ نص المنشور في قصر كلخانة بحضور السلطان عبد المجيد، وممثلي الدول الأجنبية، وكبار رجال الدولة العثمانية، وقد تضمن المنشور التأكيد على المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية دون تمييز بينهم. ينظر: نفسه، ص 152.

³ خط شريف همايوني: أعلن هذا الخط بعد انتصار الدولة العثمانية وحلفائها من الدول الأوروبية على روسيا في حرب القرم عام 1856م، وجاء هذا القانون هدية من طرف العثمانيين إلى الدول الأوروبية التي وقفت إلى جانبها في الحرب، وتضمن حقوق الرعايا غير المسلمين، وحماية مصالحهم، وتأكيداً للوعود والمبادئ التي نص عليها منشور كلخانة السابق الذكر. ينظر: نفسه، ص 153.

⁴ رافق: مرجع سابق، ص 380.

⁵ العودات: مرجع سابق، ص 172.

شعائرها الدينية وبناء معابدها، وإعلان المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف ومنع استعمال الألفاظ التي تحط من قيمة غير المسلمين، وتأمين الحرية الدينية لأهل كل مذهب. ومنحت الأديرة المسيحية في بلاد سوريا امتيازات خاصة، فأعفت أغنامها من الرسوم، كما صدرت عام 1864م نظاما يتضمن إعفاء جميع أصناف الرهبان عن تبعة الدولة العثمانية والدول الأوروبية والمذاهب المختلفة¹.

كما أكد الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1876م المساواة بين رعايا الدولة العثمانية كافة في تولي المناصب والوظائف الإدارية، مما نشط التدخلات الأجنبية والإرساليات التبشيرية في الدولة العثمانية².

لقد مثلت هذه التنظيمات وما جاء فيها من نصوص بيئة مثالية لعمل المبشرين في الإرساليات المختلفة داخل بلاد الشام، حيث وفرت لهم الحماية اللازمة³.

كما أن الدول الأوروبية فضلا عن الامتيازات التي كسبتها من خلال وصايتها على المسيحيين من كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس حتى أن القنصليات الأوروبية جعلت من المسيحيين العثمانيين مواطنين متميزين عن الآخرين، يتمتعون بحق الوصاية الأوروبية، ناهيك عن مكاسب المدارس التبشيرية والإرساليات التي وضعت بين أيديهم سبل تطور تربوي وعلمي ورفاه لا يحلم بها المسلم في سلطنته نفسها. لقد تحول مع الوقت، وبعد ذلك ولاء المواطنين المسيحيين من السلطان العثماني إلى أوربا، لأن الامتيازات قد شملتهم، فأصبحوا مفضلين ولهم معاملة خاصة⁴.

¹ علي عبد فتوني: تاريخ لبنان الطائفي، دار الفرابي، ط 1، بيروت، 2013م، ص ص 25 - 26.

² حامد القضاة: مرجع سابق، ص 460.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 16.

⁴ العزاوي: مرجع سابق، ص 25.

فالامتيازات الأجنبية والمعاهدات التي منحت للدول الأوروبية وقناصلها من طرف العثمانيين منذ القرن 16م ساهمت في حصول المبشرين على تسهيلات جمة في بلاد الشام، وأصبحت الامتيازات أداة بيد المبشرين للتحرك بحرية في جميع الأراضي العثمانية من أجل تحقيق الأهداف والغايات التي جاؤوا من أجلها، لذلك أخذت إعداد الإرساليات التبشيرية إلى بلاد الشام تتزايد، في الوقت الذي تقدمت فيه أعمال التجارة الأوروبية عبر القناصل المقيمين هناك، والذين شجعوا دعايات المبشرين عموماً وشاركوا في بعضها أحياناً، مستفيدين من الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لحكوماتهم التي سمحت للنشاط التبشيري أن يطلق كما وكيفا في بلاد الشام، فأما كماً فكان من خلال انتشار هيئاته وإرسالياته ومدارسه في مدن الشام وقراها، وأما كيفاً فباستخدامه ما راق من الوسائل والأساليب بعيداً عن أعين المراقبين أو حتى عن طائلة القانون¹.

وهكذا، فإن الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية قد سمحت للغرب أن يلعب دور الرعاية للطوائف المسيحية عن طريق القناصل والمبشرين، وسهلت له النجاح في مهماته²، وأدت إلى انتشار البعثات التبشيرية في أرجاء الدولة العثمانية³.

ولم يقتصر منح الامتيازات الأجنبية في بلاد الشام على السلاطين العثمانيين، بل تعداه إلى أمرائها المحليين، إذ أن فخر الدين المعني أحد أمراء لبنان منح الفرنسيين أراضي لهم في صيدا، وسمح للمبشرين الكبوشيين بدخول منطقة الشوف وتأسيس أديرة لهم في المنطقة⁴.

¹ الجنابي: مرجع سابق، ص 256.

² رياض نجيب الريس: لبنان تاريخ مسكوت عنه، ط1، د م ن، 2001م، ص 19.

³ عبد فتوني: مرجع سابق، ص 33.

⁴ عوض: مرجع سابق، 322.

ومن هنا كانت الامتيازات الأجنبية هي بمثابة جواز المرور الشرعي لوفود الإرساليات التبشيرية، وهي أيضا تعد المظلة الشرعية التي مارست تحتها الإرساليات نشاطها التبشيري ضد الإسلام والمسلمين في كافة أقطار الدولة العثمانية¹. كما كانت الامتيازات حجة وجسرا عبرت عليه الإرساليات التبشيرية المختلفة الى الطوائف المسيحية والأقليات الدينية تحت حماية القناصل والسفارات الأجنبية في الدولة العثمانية، وبذلك أسست مدارسها الخاصة بها، وأرست أسس نظام تعليمي ينشر الثقافة الأوروبية ويبشر بها².

نستنتج أن الدور الريادي الذي قدمه السلطان سليمان القانوني على صعيد تقوية الدولة العثمانية، ومنحها تنظيمات أساسية جعلته يُلقب بالقانوني لم تنفي الخطأ الجسيم الذي ارتكبه عن طريق منح الامتيازات في مختلف المجالات خاصة الدينية، والتي ستشكل مطية للدول الأوروبية للتغلغل عبرها في شؤون الايالات العثمانية وتهيئة المناخ للسيطرة عليها وبشكل قانوني. كما أن الدولة العثمانية افتتحت بهذه الامتيازات بابا للتدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية، بحجة رعاية الجاليات المسيحية وحمايتها في كل الايالات الخاضعة للدولة العثمانية.

4 - سياسة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا في بلاد الشام: 1831 - 1840م

عندما قرر محمد علي باشا في ثلاثينيات القرن 19م الاستيلاء على بلاد الشام في إطار حملته التوسعية، مستغلا خلافا وقع بينه وبين عبد الله باشا حاكم مدينة عكا، وأعد لذلك حملة عسكرية سنة 1831م والتي كانت بقيادة ابنه إبراهيم باشا، الذي نجح جيشه في تحقيق سلسلة من الانتصارات التي انتهت بفرض سيطرته على كامل بلاد الشام. ومن ثم بدأ

¹ خالد محمد نعيم: الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر "دراسة وثائقية"، نشر كتاب المختار، د ط، القاهرة، د س ن، ص 31.

² طلال عتريسي: البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان دراسة وثائقية تاريخية، الوكالة العالمية للتوزيع، ط 1، د م ن، 1987م، ص 24.

إبراهيم باشا توجيه الإدارة في الشام وجهة علمانية¹. فما أن دخل إلى مدينة القدس الشريف في شهر أكتوبر 1831م حتى سن مجموعة قوانين وأنظمة جديدة توطر التعامل مع المسيحيين، وكان ذلك واضحا في الأمر الذي وجهه إلى القاضي وشيخ مسجد عمر والمفتي والنائب وكل السلطات، وجاء فيه: « في القدس معابد وأديرة وأماكن للحج تأتي إليها من ابعـد البلدان كل الشعوب المسيحية واليهودية من مختلف الطوائف الدينية، وكانت ترهق هؤلاء الحجاج إلى الآن ضرائب ضخمة في أداء نذورهم وفرائض دينهم، ورغبة منا في استئصال هذا العسف، نأمر كل متسلمي إيالة صيدا وسنـجقي القدس ونابلس بإلغاء هذه الضرائب على كل الطرق بلا استثناء، وبقـيم في أديرة القدس وكنائسها رهبان ومتـعبدون لقراءة الإنجيل وأداء الطقوس الدينية لمعتقداتهم. والعدل يقضي أن تعفى من كل الضرائب التي فرضتها عليها السلطات المحلية بشكل تعسفي. لهذا، نأمر أن تلغى إلى الأبد كل الضرائب التي تجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفرنجة وأقباط وأرمن وغيرهم، مهما كانت الذريعة أو التسمية التي تؤخذ بها هذه الضرائب ... فإنها جميعا ممنوعة منعا باتا، وتلغى على حد سواء الكفارة التي تجبى من المسيحيين عند دخول كنيسة قبر السيد المسيح أو عند التوجه إلى نهر الشريعة، وبعد إعلان هذا الأمر ... سيعاقب بصرامة كل من يطلب أقل أتاوة من المعابد والأديرة المذكورة والحجاج»².

هذا النص يحتاج إلى التحليل والوقوف عنده وطرح مجموعة من التساؤلات منها: ماذا كان محمد علي وابنه إبراهيم باشا ممثله في الشام يسعى إلى تحقيقه من وراء قراراته التي تنص على معاملة الطوائف المسيحية معاملة حسنة؟ وهل الهدف منها هو كسب ود سكان بلاد الشام المسيحيين واستمالتهم إلى صفه وتأليبهم ضد السلطة العثمانية؟.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 12 - 13.

² العودات: مرجع سابق، ص ص 168 - 169.

والجواب على هذا الطرح لربما لحماية نفسه من العالم الغربي المسيحي الذي يعتبر مسيحيي الشام رعايا تابعين لهم ويجب حمايتهم، ولذا كسب ودهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى استمالة الطوائف المسيحية الشامية إلى جانبه، وخاصة وأنه على علم مسبق بعلاقتهم المتوترة مع الدولة العثمانية.

وأدى إعلان المساواة بين الطوائف إلى غضب المسلمين لأنهم لم يقبلوا هذا الوضع، فذهب عدد من علمائهم إلى إبراهيم باشا يشكون له هذا الوضع، وأن ما يفعله النصارى خروج على عهد الذمة. ولكن إبراهيم باشا سخر منهم، بل حضر احتفالات النصارى¹، لكن في المقابل عندما تذر إلى إبراهيم باشا المسيحيون من معاملة المسلمين بعد ازدياد التناحر بينهم، نتيجة السياسة الجديدة التي انتهجها إبراهيم باشا معهم، قام بإرسال كتاب تهديد إلى المسلمين قال فيه: «تعلمون أن في بيت القدس كثيرا من الأديار والكنائس والآثار الدينية التي تحج إليها في كل عام الطوائف النصرانية واليهود، وقد شكنا إلينا هؤلاء ما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم... ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان... وأهل البيت المقدس من جميع المذاهب،... ولا تضيقوا على زائري كنيسة القيامة... فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم، وإن خالفتم أسأتم...»².

فإذا رجعنا إلى المصادر الغربية وكتب المستشرقين نجدها تتحامل على العالم الإسلامي وحكامه وتتهمه بالتعصب الديني، لكن سياسة التسامح التي انتهجها محمد علي باشا بواسطة ابنه إبراهيم باشا في بلاد الشام نجدها تفند تلك الأحكام الغربية.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 13.

² رؤوف سعد أبو جابر: الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت، 2010م، ص ص 29 - 30.

لقد بقي مضمون هذا الأمر هو الإطار العام والبرنامج الثابت لسياسة إبراهيم باشا خلال تواجده في بلاد الشام من سنة 1831م إلى 1840م، وتنفيذا لهذه السياسة سمح إبراهيم باشا للمسيحيين بترميم معابدهم وأديرتهم وتجديدها، وبناء معابد جديدة دون موافقات مسبقة، بل واستخدم جنودا مسيحيين لإخماد الثورات¹، وأشرك المسيحيين في الحكم، حيث ألف في كل مدينة يزيد عدد سكانها عن 20 ألف نسمة مجلسا يسمى ديوان المشورة يتراوح عدد أعضائه ما بين 12 إلى 21 عضوا للنظر في مصالح كل بلدة، وكان ديوان بيروت يتألف من 12 عضوا منهم ستة من المسلمين وستة من المسيحيين، وقد عملت الإدارة المصرية في الشام على التقرب من النصارى واليهود، فألغت كافة العوائد والمرتبات التي كانت مفروضة على الأديرة والمعابد، ودفع تعويض لمستحقيها من الخزنة، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل سمح إبراهيم باشا بإعادة بناء الكنائس والمعابد وتقديم التسهيلات لهم، وأعلن مبدأ المواطنة كبديل للدولة الدينية، فقال:

« إن النصارى واليهود رعية سعادة أفندينا وواجب لهم الصيانة والحماية والرعاية»، وبذلك شهدت الشام ميلاد مساواة بين كافة الطوائف الدينية في البلاد². هذا الأمر أكسبه تأييد المسيحيين ودعمهم العسكري في جبل لبنان خاصة، وازداد بذلك تأييد الأمير بشير الشهابي له لأن غالبية قواته في لبنان كانت من المسيحيين، وفرحت الدول الأوروبية بهذا التسامح الديني الذي انتهجه إبراهيم باشا مع المسيحيين. وهذا ما فسح المجال لإرسالياتها التبشيرية أن تنشط في أعقاب ذلك. وأدى التسامح الديني الذي طبقه إبراهيم باشا إلى إقامة فكرة المساواة بين الطوائف. كما كان من تشجيعه للإرساليات التبشيرية أن افتتحت المدارس التبشيرية بكثرة، وبدأ التعليم التبشيري بالانتشار في بلاد الشام³، وفتحت الأبواب لدخول تيارات الثقافة الأوروبية إليها. كما كان لاهتمام الأوروبيين بالإرساليات التبشيرية والبعثات

¹ العودات: مرجع سابق، ص ص 169 - 170.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 13.

³ رافق: مرجع سابق، ص 405، 412.

الدينية فقاموا بفتح المدارس في سوريا وجبل لبنان، مما ساعد على نشر التعليم، فضلا عن تسهيل دخول تيارات الثقافة الأوروبية التي كان لها أثر كبير في الحياة الاجتماعية والثقافية¹، إذ تقاطر المبشرون في عهده على بيروت، ومنها انطلقوا إلى جميع أنحاء بلاد الشام²، حيث سمح إبراهيم باشا للإرساليات التبشيرية المسيحية الأجنبية بتأسيس مراكز ثابتة لها في لبنان، واعطائها حرية كاملة في العمل، وأدى هذا إلى قيام أشهر مؤسستين ثقافيتين أجنبيتين في لبنان وهما الإرسالية الأمريكية عام 1834م وإرسالية اليسوعيين الكاثوليكية عام 1839م³.

وقد كان من نتائج التسامح الذي تميز به حكم إبراهيم باشا، نتيجة لم تخطر على البال من قبل، وهي أنه أتاح مجال العمل لقوتين إحداها فرنسية والأخرى أمريكية قدر لهما أن تحضنا البعث العربي وترعيه فيما بعد، وذلك بعد مزولة النشاط التبشيري في المنطقة⁴.

وقد نتج عن هذه السياسة التي تعتمد على المساواة بين الطوائف في الشام، أن مكنت رجال الكنيسة المارونية، وسهلت عمل القناصل الأوروبيين في الشام، من استغلال الوقت لمصلحتهم، وكان القناصل عموما بما فيهم قنصل أمريكا، أداة فعالة لحماية الإرساليات التبشيرية التابعة لدولهم، في الوقت الذي تدخلوا فيه لحماية من نجحت من هذه الإرساليات في جذب لمذهبهم الديني. وبذلك فقد بدأ النشاط التبشيري الأمريكي الفعلي في أثناء حكم الإدارة المصرية، وذلك بالاستفادة من الامتيازات التي منحتها إدارة "محمد علي" للأجانب لكسب ود دولهم. وهنا يمكن أن نوّرخ بدايات الوجود الأجنبي والتغلغل في المجالات الاقتصادية والثقافية في بلاد الشام. فقد ظهر الحكم المصري على أنه يحمل عوامل تساعد الإرساليات التبشيرية على توطيد برامجها، فأخذ الكاثوليك في فتح كليتهم الخاصة في عين

¹ محمد أحمد: «الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني»، مجلة جامعة دمشق، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ع الأول والثاني، مج 27، 2011م، ص 311.

² انطونيوس: مرجع سابق، ص 99.

³ صايغ: مرجع سابق، ص 100.

⁴ انطونيوس: مرجع سابق، ص 97.

طورة، وبدأ الأمريكيون في نقل مطبعتهم من مالطة إلى بيروت، وأنشأوا المدارس لنشر التعليم التبشيري¹.

لقد استفادت الإرساليات التبشيرية من وجود إبراهيم باشا ابن محمد علي الذي سمح لتلك الإرساليات بالعمل بحرية في بلاد الشام، والسعي وراء زرع الأفكار الغربية في البلاد التي كانت خاضعة لحكمه، كما سمح إبراهيم باشا للإرساليات التبشيرية الأجنبية بتأسيس مراكز ثابتة لهم في لبنان ومن أشهرها الإرسالية الأمريكية عام 1834م والإرسالية اليسوعية عام 1839م. ولقد لعبت تلك الإرساليات فيما بعد دورا كبيرا في الصراع الطائفي الذي نشب بين الدروز والموارنة اثر جلاء الحكم المصري عن الشام وعودة الحكم العثماني المباشر².

وبالرغم من أن الدولة العثمانية نجحت في إخراج الجيش المصري بعد تحالفها مع الدول الأوروبية من الشام، إلا أن التدخل الأوربي قد ازداد بسبب ازدياد المنافسة بين تلك الدول التي وجدت في النزاعات الطائفية التي تأججت نارها تحت حكم محمد علي، مجالا للتدخل، فدعمت كل دولة طائفة معينة³.

الملاحظ أن الدولة العثمانية استعانت بالدول الغربية كفرنسا وبريطانيا ضد سياسة محمد علي باشا في الشام، وفي الأخير بموجب معاهدة لندن 1840م أنهت الوجود المصري في بلاد الشام، وأرجعتها لحضيرة الحكم العثماني، وفي نفس الوقت فتحت باب المشرق على مصرعيه أمام التدخل الغربي الذي تمخضت عنه نتائج وخيمة، إذ بدأت تلك الدول الغربية في تفكيك مشمولات الدولة العثمانية، وساهمت في تكريس ضعف الدولة العثمانية، وتثبيت مصطلح الرجل المريض.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 13.

² الجنابي: مرجع سابق، ص 257.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 14.

كما يتضح أيضا من خلال دراسة سياسة ابراهيم باشا في بلاد الشام أنها كانت لصالح المسيحيين العرب من ابناء الشام في حد ذاتهم، لأنهم لطالما اعتبروا أنفسهم مضطهدين من طرف الحكام المسلمين الذين يعملونهم معاملة أهل الذمة، ولذا فقد علا شأنهم كثيرا في عهد الحكم المصري لبلادهم، وفي الوقت ذاته كانت الفرصة المواتية للغرب الذي كثف في إرسال بعثاته التبشيرية جراء سياسة التسامح وإلغاء القوانين التي انتهجها الحكم المصري في بلاد الشام، وبالتالي هذه السياسة المتسامحة في أمور الدين فتحت الباب على مصرعيه للغرب المسيحي ولبعثاته واطمئنانه عليها لأن الأمور كلها في صالحه. وبالتالي أن ابراهيم باشا هو مسؤول أيضا عن زيادة التدخل الأجنبي ومن ثم التبشير، بسبب سياسته في بلاد الشام.

5 - ضعف الدولة العثمانية:

مع دخول الدولة العثمانية مرحلة الضعف وتراجعها السياسي والعسكري وتردي أوضاعها الاقتصادية وفقدانها جزءا كبيرا من أقاليمها لصالح الدول الأوروبية تحت ستار الامتيازات الممنوحة لها عقب الهزائم العثمانية المتوالية، وذلك منذ منتصف القرن 16م، فقد أدى ذلك إلى زيادة التسهيلات المقدمة إلى التجار الأوروبيين في مختلف أرجاء السلطنة التي تنامت أطماعهم فيها اثر التطور الذي شهدته أوربا، خاصة في المجال الاقتصادي¹.

فقد اتضح للدول الأوروبية أهمية الشرق من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية، فأرسلت بجالياتها إلى السلطنة العثمانية لتتاجر في مدنها ومبشرين للدين المسيحي بين أفراد شعبها، ومن ثمة كانت الجاليات الأوروبية وسيلة للتغلغل، منها فرنسا التي كان لها دور سياسي هام في أنحاء السلطة العثمانية، وخاصة في بلاد الشام، لأن ملوك فرنسا ظلت تراودهم أحلام العودة إلى الأماكن المقدسة فيها بعد انتهاء الحروب الصليبية، ولأن فرنسا كانت تعتقد دائما أنها البنت الأولى للكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة لا حلم لها آنذاك إلا السيطرة على الأماكن

¹ إدريس الناصر رئيسي: العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن السادس عشر، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، 2007م، ص ص 345 - 346.

المقدسة، ولذا كانت بلاد الشام والأراضي المقدسة في أولويات السياسة الفرنسية داخل السلطنة العثمانية¹.

قد كانت فرنسا من الدول الأوروبية السبّاقة بإيجاد ركيزة لها على الأراضي العثمانية وذلك بواسطة تقريبها من المسيحيين الموارنة وحمائتها لهم، وعن طريق التبشير الكاثوليكي ورعايتها له، وعن طريق استمالة المسيحيين في الشرق، وعندها شعرت الدول الأوروبية في القرن 19م بقيمة السياسة الفرنسية في تثبيت أقدامها في الشرق، فشرعت بريطانيا في إرسال بعثاتها التبشيرية البروتستانتية. وكذلك فعلت روسيا في القرنين 18م و19م، إذ أخذت تعمل بجدية لربط الروم الأرثوذكس بها، ونيل حق حمايتهم، كما فعلت فرنسا مع الكاثوليك. وهكذا أصبحت أجزاء هامة من السلطنة العثمانية في القرن 19م، محل تجاذب القوى الأوروبية التي ساعدها ضعف الدولة العثمانية وفقدان هيبتها ومهابتها، وأصبحت أجزاء من أراضيها مسرحا للصراع الديني والسياسي بين دول أوربا²، ففي سياق المسألة الشرقية وحين اشتداد ضعف الدولة العثمانية بدأت كل جهة تسعى لمد نفوذها فكانت التدخلات الدبلوماسية من القوى العظمى بحجة حماية الأقليات الدينية بمثابة قاعدة للتدخل الأجنبي في شؤون الدولة³، وإيذاً بأفول نجمها الذي سطع ردحا طويلا من الزمن.

ومن جهة أخرى، يعتبر القرن 19م العصر الذهبي البراق للنشاط التعليمي التبشيري الذي حملت لواءه الإرساليات المختلفة حيث ما حطت رجالها، ونشرت أباؤها ورهبانها، كما كان في الوقت نفسه عصرا ذهبيا لانتشار أفكار أولئك المبشرين والرهبان ومن تتلمذ على

¹ إدريس الناصر رئيسي: مرجع سابق، ص ص 349 – 350.

² نفسه، ص ص 352 – 353.

³ GUILLAUME GAGNON, La Situation des Arméniens Ottomans d'anatolie orientale vue à travers les correspondances des missionnaires du american board of commissioners for foreign missions mémoire présenté comme exigence partielle de la maîtrise en histoire, université du québec à montréal, avril 2008, p7.

أيديهم والذين حملوا فيما بعد لواء الدعوة لمجد البعثات وللدول الأوروبية سياسة وثقافة وانتماء¹.

ففي القرن 19م تزايد خطر الإرساليات التبشيرية على ولايات الشام بعد أن أصبحت تلك الإرساليات أدوات للمطامع السياسية، بحيث شكلت تهديدا للدولة العثمانية في وقت كانت تجتاز فيه أخطر مراحل اضمحلالها، إذ تعرضت لهزات عنيفة وفي وقت انتزع الاستعمار الأوروبي منها ولايات هامة سواء في أوروبا أو في إفريقيا. وأصبحت الدولة عاجزة تماما عن وقف التدفق التبشيري على بلاد الشام²، حيث استقلت بلدانها عنها الواحدة تلو الأخرى ما بين 1804م و1831م حصل الصرب على استقلالهم الكامل ومعهم اليونان، وفرضت روسيا على السلطان العثماني استقلال رومانيا الحالية، وأصبحت مصر في عهد محمد علي باشا قوة عسكرية اظهرت تمردا على الدولة العثمانية، وعلى استعداد للاستيلاء على بلاد الشام عام 1831م. وكل ذلك كان نتيجة التدخل الأوروبي، مما جعل الدولة العثمانية تترنح والسلطة تتفكك، وقد استغلت الإرساليات التبشيرية ذلك الوضع واستأنفت نشاطها بقوة وانتشرت في مختلف أرجاء السلطنة³.

وعانت الدولة العثمانية كثيرا من النزاعات الحادة بين الطائفتين الكاثوليكية والأرثوذكسية وبخاصة في القدس الشريف، فلم تستطع إرضاء الطرفين مما أدى إلى اندلاع حرب القرم التي تكبد فيها العثمانيون خسائر كبيرة، كما عانت الدولة من التأثيرات السلبية لأعمال تلك الإرساليات التبشيرية التي أسهمت في إذكاء حدة التعصب الديني بين الطوائف النصرانية، وبينها وبين المسلمين في المنطقة.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 11.

² الشناوي: مرجع سابق، ج 1، ص 95.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 24 - 25.

والحقيقة أن الدولة العثمانية كانت أثناء ضعفها شبه عاجزة أمام الإرساليات التبشيرية ونشاطاتها خاصة في بلاد الشام. وظهر عجزها عن إرضاء حشود الطوائف والملل، ما دفع الدول الأوروبية في أن تتخذ من التبشير ذريعة لإنشاء مراكز قوى لها داخل ولايات الدولة العثمانية، ما كان سببا من أسباب انهيارها¹.

كما أن ضعف الدولة العثمانية جعل الطوائف في بلاد الشام تشعر بعدم الأمن في تلك الفترة، مما جعل الأهالي يلجئون إلى الدول الغربية ويعتقدون مذهبها لضمان حمايتها، وبذلك وجدت الدولة العثمانية نفسها أمام غزو سلمي خطير، حيث اتخذت كل دولة طائفة معينة تتظاهر بحمايتها وتضرب بها مصالح منافسيها، فكانت النتيجة فتنا وحروباً أهلية بدأت بعد مجيء الإرساليات التبشيرية بأقل من عشر سنوات، إذ بدأت في سنة 1840م - فتنّة الموارنة والدروز - واستمرت حتى سنة 1860م².

ضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية في حد ذاتها شجعت تدخل الإرساليات التبشيرية بإهمالها للوضع في البلاد العربية الواقعة تحت سلطتها، وخاصة الوضع الثقافي الذي استغلته تلك الإرساليات لاستمالة الأهالي الذين كانوا يلجئون إليها هرباً من الفقر والتخلف الذي كانوا يعانون منه، وخاصة في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني³.

ولما أدركت الدول الأوروبية أن المبشرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية أخذت تلك الدول تتبارى في استخدام المبشرين، وكان الدور الأول في ذلك للسياسة الانجليزية، ويظهر أن إنجلترا لم تكن ترهب نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الإسلامي، كما كانت ترهب النفوذ الفرنسي والإيطالي فيه.

¹ طقوش: مرجع سابق، ص 583.

² معاشي، مرجع سابق، ص 30.

³ نفسه، ص 29.

لقد استجابت الدول الغربية لرغبة مبشريها، لأن ذلك سيمكنها من بسط نفوذها السياسي، ومن أجل ذلك كانت تلك الدول تضغط على الدولة العثمانية متى سمحت الفرصة من أجل مبشريها، فتستجيب الدولة العثمانية أمام أولئك المبشرين، إذ أراد الأتراك مرة إغلاق بعض مدارس المبشرين ولكنهم تراجعوا أمام ضغط سياسي لا علاقة له بالتبشير.

لقد حرصت بريطانيا على أن تحمي الإرساليات البروتستانتية خاصة، لأن نفوذها كان قويا داخل الدولة العثمانية، فمن ذلك أن الحكومة العثمانية أرادت أن تمنع باعة الأناجيل الدوارين من التجول في المدن والقرى، عندها تدخل القناصل واجبروا الدولة العثمانية على العودة عن قرارها والسماح لهم بذلك¹.

فضعف الدولة العثمانية مع الأيام، جعل الدول الأجنبية تزيد في تظاهرها بدعم المبشرين. ولقد كان المبشرون يطلبون من دولهم أن تؤيدهم، ولو كان هذا التشريف مخالف للعرف الدولي، فالولايات المتحدة لديها تشريع يسمى تشريع مونرو وينص على أن دول نصف الكرة الشرقي آسيا وأوروبا وإفريقيا لا يجوز لها أن تتدخل في شؤون نصف الكرة الغربي أي أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وكذلك لا يجوز للولايات المتحدة أن تتدخل في شؤون الدول الواقعة في النصف الشرقي من الكرة الأرضية ما لم تتعرض المصالح الأمريكية للضياع، ولكن المبشرين الأمريكيين كانوا يودون من الولايات المتحدة أن تخالف تشريع مونرو في سبيل التبشير².

¹ مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي، منشورات المكتبة العصرية، د ط، صيدا بيروت، 1953م، ص ص 117 - 118.

² نفسه، ص 117.

كما أن ضعف الدولة العثمانية جعلها تعترف بطائفة البروتستانت الجديدة في المنطقة عام 1850م بواسطة مرسوم سلطاني جعلهم يتمتعون بالحقوق التي يتمتع بها الأرثوذكس والأرمن في الدولة العثمانية¹.

أما روسيا القيصرية فخلال الربع الثاني من القرن 19م عندما أصبحت المسألة الشرقية إحدى أهم وأخطر القضايا الدولية العالقة في العلاقات الدولية بين الدول العظمى، للسيطرة على منطقة الشرق العربي، راحت روسيا القيصرية تسعى للدفاع عن مصالحها وتطلعاتها وأهدافها في تلك المنطقة عن طريق تبني مسألة ما أصبح يعرف باسم رعاية الحجاج الروس في الأرض المقدسة فلسطين، وذلك بموجب اتفاقية الامتيازات التي منحت لها التي تسمى خونكار اسكله سي² التي وقعت عليها مع الدولة العثمانية عام 1833م والتي منحتها حق حماية الأرثوذكس داخل الدولة العثمانية، وأعطت الكنيسة الأرثوذكسية مكانة رفيعة المستوى في الأرض المقدسة فلسطين³.

وهكذا اشتد التنافس بين القوى الأوربية الاستعمارية استعدادا لورثة الرجل المريض، كما أطلق على الدولة العثمانية في آخر أيامها، فاحتدم الصراع على سوريا لأنها تشكل لفرنسا مثلاً: «بموقعها الجغرافي بين آسيا الصغرى ومصر، ومركز هذه الإمبراطورية، لا بل قلبها، كما تحمل في داخلها إمكانية لتلك الحياة التي انحسرت عن أطراف هذا الجسد الكبير...»⁴.

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 120.

² معاهدة خونكار اسكله سي 7 جوان 1833م: وهي معاهدة بين الدولة العثمانية وروسيا. تعهدت روسيا من خلالها بالدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون أو غيرهم، ليكون لها بذلك سبيل في شؤون الدولة الداخلية. ينظر: فريد بك المحامي: مرجع سابق، ص 451.

³ حبيب محمود صالح: «البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين) 1840 - 1914م»، مجلة دراسات تاريخية، ع 65 - 66 أيلول - كانون الأول 1998م، ص ص 155 - 156.

⁴ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 74.

وبالنسبة للسفير البريطاني في القسطنطينية عام 1860م فيقول عن سوريا: «قاعدة لكل الفتوحات الشرقية، وحلقة وصل بين إفريقيا وآسيا»¹.

ومما سبق نستخلص أن ضعف الدولة العثمانية كان القطرة التي أفاضت الكأس في القرن 19م، فهذا الضعف يُعد من أهم العوامل التي ساعدت على استقطاب المبشرين من كل صوب وحذب إلى أرض الشام المتعددة الطوائف، بحجة حمايتهم وتقديم يد العون لهم، وتتافست الدول الغربية على إرسال المبشرين قبل أن تنهار الدولة العثمانية التي سموها بالرجل المريض، ومن كثرة الإرساليات التبشيرية في تلك الفترة حتى سمي القرن 19م بالعصر الذهبي للتبشير.

فدخلت الدولة العثمانية مرحلة الرجل المريض وتوضح المسألة الشرقية بإجماع الدول الأوروبية على ظهور تقسيم تركية الرجل المريض مما، عزز حضور التغلغل الأوربي مستغلا هذه الظروف، خاصة النفوذ الديني بالعمل على توسيع وتنشيط الإرساليات التبشيرية.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 74.

الباب الثاني

الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الأول - أهم الإرساليات التبشيرية

1 - البروتستانتية

2 - الكاثوليكية

3 - الأرثوذكسية

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

1 - طبيعة العلاقة بين الإرساليات التبشيرية

2 - موقف العثمانيين

3 - موقف أهل الشام

الفصل الأول: أهم الإرساليات التبشيرية

1 - الإرساليات التبشيرية البروتستانتية¹:

نشطت في بلاد الشام إرساليات تبشيرية بروتستانتية جاءت من ثلاث دول كبرى وهي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وبروسيا، وكانت البداية العملية مع الولايات المتحدة الأمريكية التي ظهرت إرسالياتها أولاً في بلاد الشام.

كانت بداية البعثات البروتستانتية مع الولايات المتحدة الأمريكية، حيث بدأت تسعى للحصول لها على مكانة في بلاد الشام خاصة بعد استقلالها عام 1783م، فبدأت تسعى للظفر لها بمكانة في البحر الأبيض المتوسط وذلك من خلال إقامة علاقات مع الدولة العثمانية اقتصادية ودبلوماسية²، فما إن جاءت سنة 1830م، حتى تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من عقد معاهدة صداقة وتعاون مع الدولة العثمانية، تمكن بموجبها التجار والدبلوماسيون الأمريكيون من التغلغل في كل الولايات العثمانية، ومن هنا تمكنوا من افتتاح أول مفوضية لهم في استانبول مارس 1831م³.

¹ البروتستانتية: تعرف كنيستهم بالإنجيلية، ويعني أتباع الإنجيل دون غيره، ويفهمونه بأنفسهم وجميعهم متساوون أمام هذا الكتاب، وبهذا الاتجاه يعارضون الكنائس الأخرى التي تعتبر فهم الإنجيل وفقاً على رجال الكنيسة، ولا تعتبر الإنجيل هو المصدر الوحيد للديانة المسيحية، بل تضيف إليه الإلهام والتعاليم غير المكتوبة التي يتداولها الباباوات الواحد عن الآخر، وتتبع الكنيسة البروتستانتية نظاماً تعاونياً أي يتعاون أعضاؤها على القيادة والوعظ. ينظر الهامش: غراب: مرجع سابق، ص 30.

² من وراء هذا النشاط بدأت السفن التجارية الأمريكية بالظهور في الموانئ العثمانية في البحر الأبيض المتوسط، فبحلول سنة 1811م، تمكن التجار الأمريكيون من تأسيس أول بيت تجاري لهم في ميناء أزمير وأعقب ذلك في عام 1824م، تم تعيين أول قنصل أمريكي في نفس المدينة. ينظر: الجنابي: مرجع سابق، ص 255.

³ نفسه، ص 255.

ومن وراء هذا النشاط الدبلوماسي والاقتصادي الأمريكي في الدولة العثمانية، برز نشاط آخر أعتبر من أولويات السياسة الأمريكية الخارجية في حينها، ألا وهو دور المبشرين البروتستانت الأمريكيين في الدولة العثمانية¹.

إن النشاط التبشيري البروتستانتي الأمريكي جاء متأخراً إذا ما قُورن بالنشاط التبشيري لكل من فرنسا وروسيا في هذا المجال، حيث ارتبط التبشير البروتستانتي في القرن 19م إلى حد كبير بتوسع المستعمرات الأوروبية وتوسع أسواقها الخارجية، وارتبط بشكل وثيق مع الحركات الاقتصادية والإمبريالية الجديدة²، فساهمت التقنيات والتطورات في مجال النقل والمواصلات التي قدمتها الثورة الصناعية في تسهيل حركة وتنقل المبشرين³.

فمنذ أوائل القرن 19م نشطت الكنائس البروتستانتية الأمريكية من أجل دخول غمار العمل التبشيري في الخارج، وتأسست من أجله هيئات ومنظمات كنسية لمتابعة ذلك النشاط⁴، حيث تم تشكيل جماعة تبشيرية في كلية وليامز Williams في سنة 1806م، والتي قام أفرادها بمناشدة كنائس ولاية ماساشوسس Massachusetts، المستقلة، ليتم دعمها ومساندتها في مجال التبشير⁵، وفعلًا تم التعاون الذي نجم عنه تأسيس مجلس المندوبين

¹ عامر بلو اسماعيل: «التعليم التبشيري الأمريكي في الموصل منذ أواخر العهد العثماني حتى عام 1932»، مجلة التربية والعلم، مركز دراسات الموصل، ع 2، مج 16، 2009م، ص 60.

² الإمبريالية الجديدة: الإمبريالية هي مجموعة سياسات تمارسها الدول الكبرى، تهدف إلى التوسع وفرض السيطرة على الشعوب وأراضيهم واستغلالها ونهب ثرواتهم، ونشأت هذه الظاهرة في القرن 18م، مع التحول الصناعي والاستعمار والاستيطان، ولم تقف عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى العمل العسكري لتحقيق الأهداف الاقتصادية، ولقد مرت بعدة مراحل انتهت بظهور الإمبريالية الجديدة التي تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية، إذ تميزت بتوسع نطاق الاحتكار والسيطرة من خلال الشركات المتعددة الجنسيات وإبقاء دول العالم في دائرة التبعية. ينظر: عبد الحفيظ لكل: الحديث في شرح المصطلحات التاريخية (سياسية - اقتصادية - اجتماعية)، دار الحديث للكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، الجزائر، 2004م، ص ص 33 - 34.

³ ناهدة حسين علي الاسدي: «الإرساليات التبشيرية الأمريكية في العراق وموقف الدولة العثمانية»، مجلة السياسة والدولية، كلية الآداب الجامعة المستنصرية، ص 21.

⁴ الجنابي: مرجع سابق، ص 255.

⁵ عامر بلو اسماعيل: مرجع سابق، ص 60.

الأمريكان للبعثات التبشيرية الخارجية American Board of Commissioners For Foreign Missions بجهود جماعة من الكنيسة البروتستانتية المشيخية المستقلة The Congregational Presbyterian and Reformed Church في مدينة بوسطن 1810م¹.

وفي نهاية عام 1818م، كلف المجلس رجلين للقيام بمهمة إقامة أول مركز تبشيري أمريكي في الشرق الأدنى²، وتنفيذا لهذا المشروع أبحر كل من القس³ بليني فسك⁴ Pliny.Fisk والقس ليفي بارسونز⁵ Levi.Parsons في 03 نوفمبر عام 1819م من بوسطن متوجهين نحو جزيرة مالطة التي أسسا فيها إرسالية تبشيرية في 23 ديسمبر من تلك السنة عرفت باسم الإرسالية الفلسطينية⁶، ثم انتقلا بعدها إلى أزمير عام 1820م ومنها عملا عملا على إرساء الدعائم الأولى التي مهدت لقدم المزيد من الإرساليات التبشيرية الأمريكية إلى الدولة العثمانية والتي قامت بافتتاح العديد من المراكز والمقرات الخاصة بها في أنحاء متفرقة من الدولة العثمانية ومن بينها بلاد الشام⁷.

وفي أزمير التي نزل بها في جانفي 1820م تم الترحيب بهما من قبل قسيس في القنصلية البريطانية يدعى تشالز ويليامسون، وتم قضاء فصل الصيف في مدينة خيوس في

¹ GAGNON, Op . cit., p. 1.

² خالد محمد نعيم: مرجع سابق، ص 51.

³ القسيس: مفردها القس وهو من رؤساء النصارى في الدين والعلم ولا يحق له الارتقاء إلى المراتب الدينية الأخرى ولا الزواج. ينظر: أحمد القضاة: مرجع سابق، ص 376.

⁴ بليني فسك: ولد عام 1800م في مدينة بوسطن وهو من عائلة ثرية، امتن والده تجارة الحديد، وحددت تربيته الدينية سلوكه منذ طفولته، إذ درس المواضيع الدينية وأتقن اللغات العربية والعبرية والتركية، وكان يقول أن الله اختاره ليساعد المحسنين، وقتل في لبنان على يد لصوص عام 1825م. ينظر: عامر بلو اسماعيل: مرجع سابق، ص 60 - 61.

⁵ ليفي بارسنز: ولد بارسونز سنة 1798م في بوسطن من عائلة دينية بروتستانتية، والتحق بمعهد اندوفر Andover للاهوت وتعلم اللغات التركية والإيطالية والفرنسية وتفرغ لنشر المسيحية، وتوفي بالإسكندرية في مصر عام 1822م. ينظر: عامر بلو اسماعيل: مرجع سابق، ص 61.

⁶ خالد محمد نعيم: مرجع سابق، ص 51.

⁷ الجناي: مرجع سابق، ص 255.

جزيرة في بحر ايجة حيث درس اللغة اليونانية الحديثة، لأن اللغة ضرورية في العمل التبشيري وزارا عدة كنائس في آسيا غرب الأناضول¹. كما أن عدم اعتراض الحكومة العثمانية على قدوم الإرساليات التبشيرية الأمريكية شجع القس بليني فسك على إرسال تقرير إلى المجلس الأمريكي من أزمير عام 1820م يقول فيه أن الإرساليات التبشيرية الأمريكية يمكن لها أن تقيم في أي مكان من الدولة العثمانية دون أي تدخل من جانب الحكومة العثمانية².

ومن ثمة توجهت الإرسالية الأمريكية إلى بلاد الشام³، وبدأت تمارس عملها منذ بداية القرن 19م في كافة أرجاء المنطقة من الشاطئ السوري غربا حتى بادية الشام شرقا، ومن القدس جنوبا حتى حلب شمالا⁴، ولقد تعددت محطاتها في بلاد الشام، وكانت أولها:

أ- **محطة مالطة:** عندما قرر المجلس الأمريكي للإرساليات أن يبعث إرسالية إلى بلاد الشام وقع اختياره على جزيرة مالطة لتكون كمحطة رئيسية للبعثات البروتستانتية، ومنها تتم مراقبة أحداث الشام⁵، حيث أقيم بها أول مركز تبشيري للأمريكان البروتستانت عرف باسم الإرسالية الفلسطينية Palestine Mission⁶، وكانت هذه المحطة تحت السيطرة البريطانية منذ مطلع

¹ MEHMET Ali DOGAN, American board of Commissioners for foreign Missions (abcfm) and “nominal christians”, elias riggs (1810-1901) and american missionary activities in the ottoman empire, a dissertation submitted to the faculty of the university of utah in partial fulfillment of the requirements for the degree of.. doctor of philosophy in middle east studies/history, department of languages and literature the university of Utah, may 2013, p p 36 – 37.

² الأسدي: مرجع سابق، 22.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 73.

⁴ عوض: مرجع سابق، ص 265.

⁵ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 73.

⁶ خالد محمد نعيم: مرجع سابق، ص 51.

القرن 19م حيث قدم المبشرون البريطانيون الدعم والمشورة للمبشرين الأمريكيين البروتستانتين القادمين الجدد إلى مالطة¹.

ومن ثمة اعتبرها الأمريكان أنها أكثر الأماكن ملائمة، ولذا أسسوا بها مطبعة خاصة بهم سنة 1822م، ومن مالطة تقدم ليفي بارسنز Levy Barcenz وبليني فسك Pliny Fisk نحو الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط في رحلة استطلاعية². حيث كلفا من قبل المجمع الأمريكي الذي أرسلهما بدراسة الوضع في المنطقة، ومعرفة ما إذا كانت الكنائس الغربية تستطيع مساعدة الكنائس الشرقية لأثارة وتجديد حركة التبشير هناك³، فوقع اختيارهما على بيروت لتكون أولى محطات بلاد الشام للتبشير البروتستانتية، وذلك راجع للتعدد الطائفي بها، ولوقوعها وسط العالم العربي، وإمكانية نشر النشاط التبشيري منها إلى كل أنحاء الأقاليم العربية، لكن الظروف لم تكن متاحة آنذاك ولم ينتقل مقرهم إلى بيروت، إلا في سنة 1833م⁴، وفي مالطة كان تركيزهم منصبا حول الترجمة والطباعة وتعلم اللغة العربية العربية حتى يتمكنوا من العمل وسط أهل الشام العرب، ومن أهم الذين تعلموا اللغة العربية المستر ايلي سميث⁵ Mr Smith حيث سافر إلى مصر مدة عام وتعلم بها اللغة العربية، ثم بعدها قصد بلاد الشام للقيام بجولة استطلاعية. كما تعلم مستر بيرد Mr Bird اللغة العربية، وأصبح يقدم بها الوعظ والدروس، كما تم في مالطة تجهيز عدد من المبشرين

¹ DOGAN, Op. cit., p. 12.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 73.

³ الشهري: مرجع سابق، ص 26.

⁴ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 73.

⁵ ايلي سميث: مبشر أمريكي. وهو الذي رتب أحوال المرسلين الأمريكيين في بلاد الشام، وأنشأ لهم العديد من المدارس وجهاز مطبعاتهم في بيروت بكل أدوات فن الطباعة الحديثة، وفي سنة 1849م، باشر مع الشيخ ناصيف اليازجي ترجمة الكتاب المقدس الذي أكمله من بعده الدكتور الأمريكي كارنيليوس فان ديك، وتوفى سميث عام 1857م. ينظر: فليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية، د ط، ج 1، بيروت، 1913م، ص ص 53 - 54.

لإرسالهم إلى بلاد الشام. أما الطباعة، فقد ساعدتهم على طبع الكتب والكراريس التبشيرية بعدة لغات، وبعثها إلى الشام كمقدمات للعمل التبشيري¹.

مما سبق نلاحظ أن مركز مالطة كان بمثابة نقطة ارتكاز للبعثات التبشيرية البروتستانتية نحو الشام، ففيه كان يتم إعداد المبشرين وتدريبهم للانطلاق في التبشير وذلك من خلال تعليمهم اللغة العربية وإطلاعهم على الحياة العامة في بلاد الشام وكيفية تعامل أهلها وتركيباتهم وذلك لتسهيل مهمتهم في المنطقة.

ب- **محطة بيروت:** منذ العشرينات من القرن 19م، توجهت الأنظار نحو بيروت لجعلها المحطة التبشيرية الأساسية في بلاد الشام، وذلك راجع لعدة اعتبارات أبرزها:

- أن بيروت منطقة تجارية يقصدها التجار الأوروبيون للتجارة من كل صوب، ولذا مثلت البيئة المناسبة لزراعة بذرة التبشير فيها.
- مثلت بيروت مراكز لإقامة القناصل الأجانب وفيها كانت أكثر بيوتهم التجارية.
- تميزت بيروت عن غيرها بحرية العبادات الدينية وامتيازاتها، وبها رعايا دينيين من شتى البلدان، وتضم الأساقفة والكهنة من الموارنة والأرثوذكس والكاثوليك.

ففي سنة 1822م أسس بها بليني فسك Pliny Fisk وهو أول مبشر أمريكي زار بيروت بالاشتراك مع زميله بيرد اسحاق، مدرسة لتعليم اللغتين الإنجليزية إلى جانب الإيطالية².

وفي خريف 1823م بدأ المركز التبشيري في بيروت بعدد ضئيل من المبشرين، وهم المستر جودل Mr Goodell ومعه المستر بيرد Mr Bird كما وصل إليهم في ديسمبر 1825م مستر نيكولايسون Mr Nicolayson، من إنجلترا كمبشر لليهود. وكان هؤلاء الثلاثة هم المبشرون البروتستانت في الشام كلها آنذاك عام 1826م، واضطروا لحصر جهودهم

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 73-75.

² نفسه، ص ص 75-76.

التبشيرية داخل بيروت، وذلك راجع لعدم تلقي تشجيعاً من طرف الدولة العثمانية التي كانت لهم بالمرصاد تراقب تحركاتهم، حيث أمرت بوقف بيع الأناجيل العربية المطبوعة في أوربا، وكذلك انذار أمراء لبنان لهم بأن لا يعملوا خارج بيروت¹، ولذا حصروا أنفسهم داخل بيروت، خاصة في مدينة مسورة التي لم يتجاوز عدد سكانها آنذاك 9 آلاف شخص². أما المبشر فسك، فكان قد توفى في بيروت عام 1825م، أثناء إعداد قاموس عربي إنجليزي لاستخدامه من طرف المبشرين البروتستانت³.

لكن المبشرين البروتستانت الأمريكيين اضطروا لمغادرة بيروت والشام عام 1828م بسبب عدم الاستقرار السياسي ورجعوا إلى مالطة ثم عادوا إلى بيروت عام 1830م⁴.

ومع كل العراقيل، استطاع أولئك المبشرون البروتستانت في لبنان أن يكون لهم أنصار حيث انتهجوا وسيلة وهي تحويل الأفراد من الطوائف المسيحية الأخرى لجمع الأتباع إلى مذهبهم، لأنه لم تكن هناك في بلاد الشام طائفة بروتستانتية. وقد استطاعت الإرسالية الأمريكية بواسطة أولئك الأتباع أن تجد مواطئ قدم لها في بيروت، حيث نقلوا مطبعتهم إليها من مالطة في عام 1834م لطبع الإنجيل وترجمته إلى العربية⁵، حيث ظلت تلك المطبعة في مالطة مدة 12 سنة أخرجت خلالها 350 ألف نسخة من كتب وكراريس⁶.

اتبعت الطائفة البروتستانتية هذه الطريقة وهي جلب الأنصار من طوائف أخرى وذلك لتحقيق غايات تخص طائفتهم، ولم يكن التصير هو الهدف المسطر بذاته بل التصير تحت غطاء الطائفة حتى ولو على حساب الطوائف الأخرى.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 76 - 77.

² انطونيوس: مرجع سابق، ص ص 98 - 99.

³ DOGAN, Op. cit., p. 39.

⁴ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 77.

⁵ غراب: مرجع سابق، ص 41.

⁶ سعيد اسماعيل علي: مرجع سابق، ص 47.

وتعتبر سنة 1834م البداية الفعلية لنشاط الإرسالية التبشيرية البروتستانتية الأمريكية وذلك عندما أصبحت بلاد الشام تحت حكم محمد علي باشا¹، إذ أسس المبشر الأمريكي ايلي سميث وزوجته مدرسة للإناث في بيروت في بناء خاص بهما، وكانت تعتبر أول مدرسة في بلاد الشام للبنات. كما أن ايلي سميث بذل جهودا كبيرة في بلاد الشام من أجل خدمة التبشير الأمريكي إلى غاية وفاته في بيروت سنة 1857م².

كما تمكنوا من تأسيس كنيسة صغيرة في بيروت سنة 1847م، اعتبرت أول كنيسة إنجيلية، وصل عدد أعضائها 19 عضوا حينها، وأصبح اسمها الكنيسة الإنجيلية الوطنية. وبدأت الإرسالية تركز كثيرا على الطباعة والتعليم لاستخدامهما كأهم أدوات للتبشير الأمريكي البروتستانتية³، ولعبت المطبعة التي جلبت من مالطة دورا هاما في نشر التراث العربي⁴، كما انتشرت في هذه السنة الإرساليات التبشيرية في سائر بلاد الشام⁵.

ومما ساعد في ذلك، هو تساهل الدولة العثمانية وتسامحها مع الإرساليات البروتستانتية فيما بعد، حيث صدر مرسوم سلطاني لصالحهم في 15 نوفمبر 1847م يعترف رسميا بالرعايا البروتستانت في الدولة العثمانية باعتبارهم يكونون جماعة دينية مستقلة ومنفصلة⁶. وتم تأكيده بمرسوم سلطاني آخر في سنة 1850م، وأطلق عليهم اسم المسيحيين الإنجيليين Evangelical Christians وأصبحوا جماعة مستقلة، لها حق اختيار رئيس لها في

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 78.

² أنطونيوس: مرجع سابق، ص ص 98 - 102.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 78 - 79.

⁴ رافق: مرجع سابق، ص 430.

⁵ البساطي: مرجع سابق، ص 20.

⁶ الغالي: مرجع سابق، ص 248.

استانبول يمثل مصالحهم ويحمي أفراد الطائفة الجديدة ومن خلاله يمكنهم الحصول على حقوقهم مثل بقية الطوائف الأخرى¹.

وفي سنة 1856م، جاءت إرسالية تبشيرية أخرى إلى بيروت تحت رئاسة المبشر الأمريكي القس دانيال بلس²، لكن في سنة 1860م توقفت الأعمال التبشيرية البروتستانتية الأمريكية تماماً، بسبب مذابح الستين الشهيرة في الشام بين الموارنة والدروز، حتى سمي ذلك العام بعام التوقف، واضطربت أحوالهم بسبب القحط والطاعون الذي أصاب البلاد في سنة 1864م، مما اضطر عدد من المبشرين للخروج من بيروت، ومع ذلك عادت الأعمال التبشيرية إلى بيروت من جديد بعد اختفاء تلك المشاكل، وشهدت انضمام أتباع جدد من الطوائف المسيحية الأخرى³.

ومن أكثر الإنجازات أهمية للإرساليات الأمريكية، تأسيس الكلية السورية الإنجيلية في بيروت عام 1866م والتي اقتصت بتدريس مختلف العلوم، ومن أهم مميزاتها أن التدريس فيها كان باللغة العربية في البداية⁴.

وبذلك، فقد أدت الإرسالية الأمريكية في بيروت دوراً هاماً في إيجاد طائفة بروتستانتية في بيروت من العدم. وأسست الإرسالية أول كنيسة إنجيلية في العالم العربي عام 1848م في بيروت، وساعدهم في ذلك اعتراف الحكومة العثمانية بهم كطائفة، والاحتفاء بالامتيازات والمساعدات من طرف قناصلهم، الذين كانوا يتدخلون لحمايتهم بموجب تلك المساعدات

¹ الأسدي: مرجع سابق، ص ص 24 - 25.

² القس دانيال بلس: دكتور في علم اللاهوت ولد عام 1823م في الولايات المتحدة الأمريكية، وصل بيروت عام 1856م، وعين أول رئيس للكلية السورية البروتستانتية عام 1866م، إلى غاية 1902م، وعندما تقاعد خلفه ابنه في رئاستها. ينظر للهامش: انطونيوس: مرجع سابق، ص 106.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 82.

⁴ نصيرات: مرجع سابق، ص 5.

والامتيازات التي منحت لهم. أما نشاطهم فكان على حساب الطوائف المسيحية الأخرى في المنطقة والدروز كانوا من أكثر المسلمين الذين كان العمل بينهم صعباً¹.

3- محطة القدس: عندما غادر المبشران الأمريكيان فسك وزميله بارسنز مدينة بوسطن في نوفمبر 1819م لأداء مهمتهما في العمل التبشيري، نزلا بالقدس فيها، لكن غادرها بعد عدة شهور بسبب اضطرابات فيها. ولم يعودا إليها، إلا بعد استقرار الإرسالية الأمريكية البروتستانتية في بيروت سنة 1823م، لكن زيارتهما للقدس هذه المرة عبارة على رحلة استكشافية لمعرفة مدى صلاحية مدينة القدس للعمل التبشيري البروتستانتية. وفي سنة 1834م، طلب مبشر إنجليزي في القدس، وهو نيكولايسون Nicolayson الذي كان يعمل في إطار الإرسالية الأمريكية، المساعدة من الإرسالية للاستقرار، ومن ثمة بدأت التدابير لإقامة كنيسة إنجيلية، علماً أنه حتى عام 1839م، لم تكن في الشام كلها أي محطات تبشيرية للإرسالية الأمريكية إلا في بيروت والقدس. ومن أجل إنجاح عملهم في القدس، كانوا ينشرون دعوتهم في الأماكن القريبة من القدس، ويوزعون الكتب، ويتصلون بالحجاج المسيحيين في القدس. وهكذا انتشر نشاطهم في الأماكن المحيطة بالقدس، وعملت الإرسالية الأمريكية على الاهتمام بالتعليم ونشر المدارس في كافة أرجاء القدس، وفي سنة 1857م تم تأسيس قنصلية لأمريكا في القدس، والتي عملت على بسط رعايتها للإرسالية التبشيرية الأمريكية فيها كما انشأت الإرسالية عدة مستشفيات منها مستشفى نابلس الذي كان يقبل دخول المسلمين إليه بشرط أن يتلو الكاهن عليهم صلاة البروتستانت².

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 82.

² نفسه، ص ص 83 - 86.

وظل العمل التبشيري البروتستانتي الأمريكي مستمرا، ففي النصف الثاني من القرن 19م ظهر عمل تبشيري بروتستانتي على يد جماعة أمريكية تعرف باسم الكويكرز¹، إذ أنشأوا مدرستين داخليتين في مدينة رام الله واحدة للذكور وأخرى للإناث، وفي عام 1889م، أسسوا مدرسة الفرنرز الداخلية للبنات في نفس المدينة، وشيدوا مدرسة للذكور عام 1900م. وكان يدرس في تلك المدارس عدة تخصصات كاللغة العربية والإنجليزية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والكتاب المقدس، إلى جانب الرسم والأشغال اليدوية².

إلى جانب عمل الإرساليات البروتستانتية الأمريكية في القدس، ظهر نشاط موازي لهم هناك من شركائهم في المذهب، وهي الإرساليات التبشيرية البروتستانتية البريطانية³. وكان أول المبشرين الإنجليز في القدس، هو "نيكولايسن" الذي سكن القدس عام 1833م، ومنذ وصوله أخذ يُعد لبناء كنيسة هناك ونشر مذهب، فطلب من الإرسالية الأمريكية بالقدس والتي كان يعمل في إطارها المساعدة للاستقرار في المدينة سنة 1834م، ولتحقيق هدفه أيضا اتصل بالقنصلية البريطانية المتواجدة في مدينة الإسكندرية، فتوجهت هذه الأخيرة بالطلب من محمد علي باشا بأن يأذن ببناء كنيسة بريطانية بالقدس وذلك بتمويل من جمعية لندن لليهود التي ينتمي إليها "نيكولايسن"، وأيضا أرفق طلبه هذا بطلب آخر وهو تعيين قنصل بريطاني في القدس، لكن محمد علي باشا اشترط موافقة السلطان العثماني بصفته الحاكم الشرعي، والسلطان حينها رفض ترخيص بناء الكنيسة ووافق على إقامة قنصلية بريطانية في جوان 1838م، إلا أن جمعية لندن لليهود كلفت المبشر "نيكولايسن" لشراء أرض

¹ الكويكرز: اسم يطلق على جماعة تسمى الاخوة اتباع جورج فوكس مؤسس جمعية الأصدقاء الدينية في الغرب في القرن

17م، ويسكن معظم أتباعها في الولايات المتحدة الأمريكية. ينظر: عواطف الخضري: مرجع سابق، ص 85.

² نفسه، ص 85.

³ نفسه، ص 76.

لبناء كنيسة عليها ومقبرة، فاشترى عام 1833م قطعتين من الأرض قرب باب الخليل وقام بتسجيلهما باسم أحد الوسطاء تفاديا للمراقبة العثمانية¹.

ولقد افتتحت بريطانيا قنصليتها في القدس عام 1839م، مما سمح للمبشر "نيكولايسن" بأن يسجل الأرض التي كان قد اشتراها باسم الجمعية لدى القنصلية، وشرع في بناء الكنيسة التي استقدم لها عمال من فلسطين ومهندس من لندن ومعلم بناء من مالطة، ويعتبر ذلك نجاحا للإنجليز حققه لهم المبشر "نيكولايسن"، اتبعته الطوائف الأخرى التي باشرت حملتها العمرانية في مدينة القدس².

وهكذا تمكنت بريطانيا من أن يكون لها نشاط في القدس وذلك بتعيين قنصل سياسي يمثل بريطانيا عام 1839م، ثم تأسيس أسقفية بريطانية في القدس، ومن ثمة باشرت العمل السياسي، وإلى جانب دورها الديني في أرجاء مختلفة من أرض فلسطين، فإنها قامت بتأسيس مؤسسات ومدارس وعيادات طبية بريطانية في القدس وما جاورها، وذلك في منتصف القرن 19م، تشرف عليها مجموعات من إرساليات التبشير البروتستانتية، مما جعلهم مقبولين عند الأهالي، نتيجة أعمالهم تلك³.

وبالرغم من المقاومة التي صادفت المبشرين البروتستانت من طرف الأرثوذكس والكاثوليك، إلا أنهم استمروا في مواصلة نشاطهم التبشيري، وأمدوه إلى دمشق وحلب وحمص وحماء وجبال النصيرية، معتمدين على حماية قناصلهم، وتمكنوا من تأسيس أسقفية لهم في القدس وعدة مدن أخرى. ففي سنة 1841م اتفقت ملكة بريطانيا فكتوريا مع فردريك الرابع ملك بروسيا على انشاء كنيسة متحدة في القدس، والتكفل بدفع نفقاتها، ويتناوب كل

¹ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 40.

² نفسه، ص ص 40 - 41.

³ أمل الخصري: مرجع سابق، ص 76.

من الإنجليز والألمان على خدمة مطرانها¹، وكان لهم ذلك حيث افتتحت أول كنيسة بروتستانتية في القدس عام 1842م²، وبما أن للألمان أيضا اهتمام بالناحية الدينية في فلسطين فكان لهم فيها نشاط تبشيري، حيث أنشأ المبشر الأب شبتلر الألماني Spitteler في عام 1846م مدارس ودور عبادة وهي التي تسمى أخوة القديسة كريشونا St. Chrischona والتي كانت لها نشاطات متعددة خاصة في الجانب الاجتماعي³.

ومن أهم الإرساليات البريطانية البروتستانتية التي جاءت إلى فلسطين للعمل التبشيري فيها نذكر: جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود والتي تأسست عام 1809م في لندن، حيث وصلت القدس عام 1823م وكانت أول بعثة مرسلية إلى مدينة القدس من طرف الجمعية، ثم تلتها في العام الموالي بعثة ثانية، ركزت في أعمالها التبشيرية على تقديم العلاج للمرضى الفلسطينيين، وسمت نفسها جمعية المرسلين الكنيسة التي قررت افتتاح مركز لها في القدس عام 1850م⁴.

تمكنت جمعية المرسلين الكنيسة من إيجاد أتباع دائمين لها في عدة مدن فلسطينية كالقدس، نابلس، عكا، غزة، الناصرة، حيفا، يافا والرملة، ومن خلالهم تمكنت من ممارسة التبشير في المناطق المحيطة بالقدس من قرى ومداشر، وامتد نشاطها الى رام الله والبيرة وبيرو الزيت، ومما يدل على النشاط الحثيث لأتباع هذه الجمعية هو بناءهم لمدارس تابعة لها على مستوى عالي، كما اتبعت هذه الجمعية استراتيجية لتحقيق غاياتها في التبشير، حيث اقترحت على العاملين ضمنها ممارسة التبشير الطبي بين قبائل البدو الفلسطينيين

¹ الشناوي: مرجع سابق، ج 2، ص 59.

² أوزدمير: مرجع سابق، ص 163.

³ عبير الشيخ حيدر: السياسة الألمانية تجاه القضية الفلسطينية وأطورها (1949 - 2008م)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، د ط، دمشق، 2012م، ص 17.

⁴ أمل الخصري: مرجع سابق، ص 77.

وذلك لتأثير الطبيب على هذه الفئة المنعزلة عن حياة المدينة، فما كان من مشايخ البدو إلا الترحيب بمثل هذه الأعمال التي اعتبروها مبادرة طبية من المبشرين¹.

وفي عام 1862م، زار القس كلاين F.A Klein غزة للعمل التبشيري فيها لكنه لم ينجح في ذلك. وفي عام 1878م قامت الإرسالية لجمعية المرسلين الكنيسة بفتح أربع مدارس اثنان للذكور واثنان للإناث، وتراوح عدد طلابها ما بين 250 و 300 طالب، وأشرف على ذلك المستر ريتشارد Ritchard أثناء إقامته في غزة. كما مارست هذه الإرسالية أعمال الطب في غزة وأماكن محيطة بها، وواصلت أعمالها حتى وصل عدد الطالبات في مدرسة الإناث في عام 1902م من 68 إلى 300 طالبة².

كما امتلكت جمعية المرسلين الكنيسة مطبعة عام 1869م ساعدتها على طباعة الكثير من الكتب الدينية المقدسة والنشرات التصيرية، كما تمكنت من فتح مخزن للكتب المقدسة والدينية في القدس، وفي سنة 1887م تأسست في لندن إرسالية تبشيرية أطلق عليها اسم إرسالية القدس والشرق، وانشئت من أجل تقديم الدعم اللازم للمطارنة الإنجليز وجمع المال لهم، وترأسها المطران الإنجليكاني في القدس وانتشر عملها بين اليهود والعرب في المنطقة³.

وشهدت مدينة القدس إرساليات بروتستانتية ألمانية، حيث ظهر أول المرسلين منهم في القدس المبشر شيك Schich عام 1841م، ولحقه فيما بعد عدة مبشرين وكان ذلك بعد تأسيس معهد في ألمانيا خاص بإعداد المبشرين ثم إرسالهم إلى أرض فلسطين. ولقد توسعت أعمال الإرسالية الألمانية عام 1853م بفضل المبشر الألماني فريدريخ أودلف شتراوس Fredreich Adolf Straus الذي أسس جمعية بيت المقدس في القدس، والتي دعمتها الكنيسة الألمانية بالأموال اللازمة لفتح مراكز تبشيرية بروتستانتية في شتى أنحاء فلسطين.

¹ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 78.

² عارف العارف: تاريخ غزة، الناشر أضواء السلف، د ط، القدس، د س ن، ص ص 100 - 101.

³ أمل الخضري: مرجع سابق، ص، ص 81، 75.

كما قدمت إلى فلسطين عام 1886م جماعة من الألمان تعرف باسم التملز أي الهيكليين نسبة إلى هيكلمسيحالروحي في الكنيسة. كما أسس أحد المبشرين الإنجيليين الألمان، وهو القس يوحنا لودفيغ شنلر Johann Ludwig Schneller في القدس دار الأيتام السورية عام 1860م، وكان يوجد بها فرع خاص بالتبشير، وأسس الألمان مدرسة غرب القدس اشتهرت باسم الراهبة شارلوتة بلس عام 1851م التي تسلمت ادارتها عام 1855م¹.

كما وصلت إلى بلاد الشام بعد فتنة 1860م، عدة بعثات تبشيرية بروتستانتية، الأرجح أنها جاءت إلى فلسطين، وكان أسبقها الإرسالية التبشيرية البريطانية السورية برئاسة زوجة بوين تومسن، والإرسالية التبشيرية البروسية التابعة لراهبات كايزر ورث، وركزت نشاطها في ميدان التعليم والإسعاف الطبي².

ومن أهم ممتلكات الإرسالية الألمانية في فلسطين، نذكر منها كنيسة المخلص وتعرف بكنيسة الدباغة بالقرب من كنيسة القيامة، وقد أهداها السلطان العثماني عبد العزيز إلى ولي عهد بروسيا البرنس فردريك ويلهم، ودشنها الإمبراطور غليوم الثاني عام 1898م، صف إلى ذلك نزل أوغوستا فكتوريا على جبل الزيتون الذي يسميه العرب أم الطلعة الذي بناه الألمان عام 1905م، وأهدوه للإمبراطور والإمبراطورة تذكارا لعيد زواجهما الفضي، وقد اتخذه الإنجليز في أوائل الاحتلال لفلسطين مقرا يقيم فيه المندوب السامي³.

الكل كان يسعى لنشر مذهبه النصراني في مدينة القدس والسؤال المطروح لماذا هذا الاهتمام الكبير بالقدس؟

يعتبر النصراني بيت المقدس أرضهم التي سُلبت منهم من قبل المسلمين ولا بد من استرجاعها، ولم تتوقف محاولاتهم في استرجاعها بتوقف الحروب الصليبية، بل كان التبشير

¹ أمل الخصري: مرجع سابق، ص 85 – 87.

² ينظر الهامش: انطونيوس: مرجع سابق، ص 109.

³ عارف باشا العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، د ط، مصر، د س ن، ص 259.

فيها وجهها آخر لهذه الحروب، فالمهم عندهم أن تكون هذه الأرض مسيحية بالحرب أو بطرق أخرى كالتبشير.

4 - محطة عبية: أما السبب الذي جعل المبشرين الأمريكيين يهتمون ببلدة عبية التي تقع بالقرب من كفر شيما قرب بيروت كنقطة انطلاق للتبشير الأمريكي بين المسلمين في لبنان، فيرجع إلى أمرين وهما: أن هذه البلدة بعيدة عن أعين السلطات العثمانية، والسبب الثاني وهو الأهم أنها كانت مليئة بالطوائف المختلفة، ولذلك اختارها المبشر الأمريكي دانيال بلس وزوجته للتبشير فيها عندما قدما إلى المنطقة، ومكثا فيها سنتين قبل أن يتسلم رئاسة الكلية الإنجيلية السورية التي تأسست في بيروت فيما بعد¹.

فمنذ سنة 1843م جاءها المبشرون الأمريكان، الذين اشتروا قطعة أرض تضم مسكن قديم أصلحه لتكون مسكناً للمبشرين كما أسسوا بها كنيسة²، وأنشئوا بها مدرسة لتخريج المعلمين والوعاظ النصارى برئاسة الدكتور كارنيليوس فان ديك³، ثم تلاحق إنشاء المدارس في هذه البلدة وخاصة مدارس البنات، فأنشأوا مدرسة سنة 1847م تحت رئاسة دي فورست وزوجته وأخرى سنة 1859م في نفس البلدة⁴. ولقد امتدت الخدمات التبشيرية الأمريكية من عبية إلى أربعة قرى حولها مع ازدياد النشاط التربوي في المؤسسات التابعة للإرسالية فيها، كما كان نشاطهم التبشيري يتزايد، حيث رصدت تقارير الإرسالية سنة 1859م أن أعضاء

¹ الشهري: مرجع سابق، ص 26.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 87.

³ كارنيليوس فان ديك: ولد في نيويورك عام 1818م ودرس الطب في كلية جفرسن بفيلاذلفيا، وجاء إلى بيروت عام 1840م كطبيب مع البعثة التبشيرية المشيخية البريسبيتيرية، تعلم اللغة العربية أصبح ضليعا فيها حتى ألف بها كتابا في مواضيع مختلفة وتوفي عام 1895م، بعد أن قضى في بلاد الشام 55 سنة. ينظر: انطونيوس: مرجع سابق، ص 112.

⁴ الشهري: مرجع سابق، ص 27.

الكنيسة البروتستانتية وصل إلى 22 عضواً، وفي السنة الموالية وصل العدد إلى 26 عضو¹.

وهكذا ظل نشاطهم مستمرا في البلدة، فحولوا إحدى مدارسهم العالية فيها إلى كلية تدريبية لإعداد المعلمين المؤهلين واستعانوا بخريجي هذه الكلية في التوسع في إنشاء مدارس جديدة حتى بلغ عددها في سنة 1860م ثلاثين مدرسة، كانت تضم قرابة ألف تلميذ، ثم توج نشاطهم بإنشاء الكلية البروتستانتية السورية في بيروت في أكتوبر سنة 1866م²، وهكذا لعبت محطة عبية أكبر الأدوار في خدمة الحركة التبشيرية البروتستانتية في جبل لبنان، وكانت المركز الأساسي للإرسالية الأمريكية في الجبل³.

5 - محطة صيدا: باشر الأمريكان عملهم في صيدا منذ 1832م بإنشاء عدة مدارس تعليمية قبل أن تكون صيدا محطة أساسية لخدمة العمل التبشيري البروتستانتية. وعندما أحسوا أن الوقت قد حان بعد نشاطهم التعليمي فيها، عينوا عام 1851م الدكتور وليم طمس والدكتور كارنيليوس فان ديك للتبشير في صيدا وضواحيها كصور، حاصبيا، منطقة الحولة وعكا، حيث استعانوا بمواطنين لبنانيين تم تدريبهم على العمل التبشيري، ويذكر تقرير لمحطة صيدا في عام 1854م أن العمل التبشيري في صيدا في ازدياد ويسير بانتظام، ونتج عن عملهم التبشيري، إقامة كنيسة في حاصبيا سنة 1851م وأخرى في صيدا عام 1855م، وعلى الرغم من فتنة 1860م استمر عمل الإرسالية والمتمثل في النشاط الكبير الذي كان يقوم به الوطنيين المنظمين إليها، حيث بدأوا بمزاولة النشاط التبشيري بجمع التبرعات للأعمال الخيرية وإقامة الحفلات وتقديم دروس الوعظ في صيدا وما جاورها. وفي سنة 1882م تكونت

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 88 - 89.

² الشناوي: مرجع سابق، ج 1، ص 92.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 90.

في محطة صيدا ابرشية¹ صيدا المشيخية، وأقيمت 11 كنيسة. وكان قساوستها من السكان المحليين. وشيئا فشيئا بدأت الإرسالية الأمريكية تترك أعمالها لأهل الشام الوطنيين الذين تتلمذوا على أيديهم كيفية العمل التبشيري².

6- محطة طرابلس: قررت الإرسالية الأمريكية توسيع نشاطها في لبنان وذلك بإنشاء محطة جديدة لها بطرابلس، وجاء هذا القرار بعد دراسة الوضع هناك وذلك من خلال الرحلات الاستكشافية التي بعثت بها لطرابلس، فكان القرار باختيار طرابلس كمحطة جديدة للتبشير وذلك لوجود طائفة شيعية بها وهم النصيريون ويعتبرون من أقرب الطوائف للمسيحية، ومع ذلك، واجهتهم عدة عقبات فيها نتيجة التعصب المذهبي هناك، إلا أن هذا لم يوقف عملهم التبشيري في المحطة الجديدة، فباشروا نشاطهم بمبشرين أمريكيين، وهما ولسن Wilson وفوت Foote وبدأ نشاطهما بتدريب المبشرين وتقديم دروس في التوراة، ورغم هذا لم يحقق نشاطهم النتائج المسطرة وذلك لعدم استجابة أهل المنطقة لهم. إلا أنهم ظلوا مثابرين في عملهم وذلك بالتركيز على النشاط التربوي للمحطة، فأنشأوا عدة مدارس وتكثيف الاجتماعات التبشيرية بزيادة الأعضاء الحاضرين فيها، فأصبحت تضم ما بين 60 و 70 فردا من أهل المنطقة، ورغم الضعف في تحقيق النتائج إلا أنهم تمكنوا من تأسيس كنيسة في طرابلس، وبعد تأسيس هذه الكنيسة نجحوا لهذه الطائفة في المدينة، فيشير تقرير للإرسالية الأمريكية في سنة 1861م أن عدد البروتستانت في طرابلس وصل 40 شخصا، وبهذا كسبت الإرسالية أرضا جديدة للعمل التبشيري البروتستانتية وأصبحت تزاخم الكنائس الشرقية والنصيريين³.

¹ ابرشية: هو مصطلح إداري كنسي، يقصد به النطاق الجغرافي الخاضع لولاية الأسقف المسؤول عن مجموعة من الكنائس. ينظر: عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 93.

² نفسه، ص ص 91 - 93.

³ نفسه، ص ص 93 - 95.

ولم يقتصر نشاط الإرساليات الأمريكية في الشام على تلك المحطات الرئيسية، بل شمل عدة مناطق أخرى، حيث كان المبشرون الأمريكيون في سوريا يعملون تحت إشراف المحطة الرئيسية التي تأسست في بيروت عام 1823م. وهكذا بدأت الإرساليات التبشيرية الأمريكية في ممارسة نشاطها في بلاد الشام. فقد انتشرت مراكز المبشرين الأمريكيين والمؤسسات الطبية والتعليمية التابعة لهم في الكثير من المناطق¹، حيث تمكن الأمريكيون البروتستانت من إنشاء إرسالية لهم في دمشق عام 1843م، ثم أنشأوا بعد عشر سنوات مدرسة فيها، وأقاموا كنيستين بنيت الأولى عام 1864م وأشترك في بنائها القس يوحنا كروفود الأمريكي والقس الإنجليزي روبنسن وبنيت الكنيسة الثانية عام 1868م، وساهم في إنشائها الأنسة موط الإنجليزية، لكن عدد البروتستانت في دمشق ظل قليلا ولم يزد عن 67 شخصا عام 1879م².

ففي عام 1856م وصلت بعثة أمريكية إلى مدينة اللاذقية في سوريا، وحصلت على ترخيص، سمح لها بفتح مدرستين فيها واحدة للذكور وأخرى للإناث، والسبب وراء اختيار هذه المنطقة أنها منطقة ساحلية على البحر المتوسط هذا من جهة، وكونها مركز جذب مهم في تلك الفترة لدى المبشرين الأمريكيين من جهة أخرى. كما فتحت تلك البعثة مستشفى في تلك المدينة³، كما أحرز المبشرون البروتستانت الأمريكيون نجاحا خاصا، لأنهم أجازوا استعمال اللغة العربية في ممارسة العبادة، الأمر الذي مكنهم من الاقتراب من السكان المحليين بشكل أسرع⁴.

أما حلب، فلم تغب عن ذهن المبشرين الأمريكيين والتي بدأ عملهم فيها في سنة 1848م تحت إشراف المبشر فورد بنتن Mr Ford بتقديم الدروس والوعظ ودراسة التوراة، كما عملوا

¹ الجنابي: مرجع سابق، ص 257

² عوض: مرجع سابق، ص 306.

³ الجنابي: مرجع سابق، ص 257.

⁴ العودات: مرجع سابق، ص 164.

حتى في الأماكن القريبة منها، مثل قرية عدليب وحمص. ومن مميزات هذه الإرسالية، أنها قربت الأهالي للمشاركة في عملها الديني لتخفيف الأعباء عنها. وفي سنة 1883م حاولت الطائفة البروتستانتية العربية في الشام تنظيم مجمع وطني يتولى مهمة الإشراف على العمل في بلاد الشام، لكن المحاولة باءت بالفشل حينها، ولم تأت أكلها، إلا في بداية القرن 20م عندما تأسس مجمع الطائفة الإنجيلية العربية، الذي أصبح هو النواة الأولى للطائفة البروتستانتية في بلاد الشام والعالم العربي، وهذا إن دل على شيء وهو نجاح الإرساليات الأمريكية التي أصبح لها أتباع من أهل الشام¹.

وهكذا بدأ النشاط التبشيري الأمريكي في بلاد الشام منذ عشرينات القرن 19م، وقبل نهاية ذلك القرن، بلغ عدد المؤسسات التبشيرية الأمريكية بما فيها المدارس في سوريا وفلسطين أكثر من 100 مؤسسة متصلة بشكل مباشر بالهيئات الدبلوماسية الأمريكية المنتشرة في المنطقة. وكان أتباع الكنيسة المشيخية يخضعون لإشراف المجلس الأمريكي المكلف بمراقبة البعثات التبشيرية في الخارج، إذ أسس هذا المجلس مركزا له في بيروت، كما قام بإرسال حوالي 60 بعثة توزعت في منطقة الشرق الأوسط، إذ اتصل المبشرون الأمريكيون بسكان تلك المنطقة من المسيحيين الشرقيين والعرب والأرمن².

والميزة التي انفردت بها الإرساليات البروتستانتية عن غيرها من الإرساليات التبشيرية التي جاءت إلى بلاد الشام، هو قوة المثابرة والصمود والتحدي بالرغم من كثرة العراقيل التي واجهتهم، إذ اصطدم المبشرون البروتستانت بمشاكل عدة، أهمها عدااء المسلمين لهم، وعداء الكنائس المحلية والإرساليات التبشيرية الأجنبية الأخرى، ومعارضة الحكام التي كانت ترى فيهم أداة للتغلغل الأجنبي يستهدف إزالة السيطرة العثمانية. زيادة على ذلك، عدم استقرار البلاد في العديد من الفترات، وعدم وجود طائفة بروتستانتية من أهل الشام تساندتهم وتسهر

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 95 - 98.

² الجنابي: مرجع سابق، ص 256.

على سلامة أرواحهم. ومع ذلك، تمكنوا من الحصول على امتيازات من الدولة العثمانية التي اعترفت بهم كطائفة، ما ساعدهم على توسيع نشاطهم في كافة أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وخاصة في بلاد الشام التي كانت ميدانا للمنافسة التبشيرية آنذاك¹.

نلاحظ أن الإرسالية الأمريكية التي خرجت من مدينة بوسطن وتوجهت إلى مالطة أن هدفها هو الأراضي المقدسة وذلك يتضح من خلال تسمية الإرسالية في حد ذاتها، حيث سميت بالإرسالية الفلسطينية. كما نلاحظ أن توجههم الأول كان إلى مالطة ولم يدخلوا بلاد الشام مباشرة، وسبب ذلك أن لهم حليف أساسي فيها، وهم اتباعهم في المذهب المبشرين الإنجليز، وبالتالي رأوا أنه من الأفضل الارتكاز عليهم لأن هذا العمل ليس سهلا ودخول الشام أيضا من دون طائفة مساندة لهم ليس أمرا سهلا، كما يتبين لنا أنه مع الزمن تمكن المبشرون البروتستانت الأمريكيان من خلق طائفة موالية لهم، وجعلوا الدولة العثمانية تعترف بهم بموجب مراسيم سلطانية، أهمها مرسوم 1850م، وهذا يفسر لنا مدى قوة نشاطهم في المنطقة، كما تعددت محطات نشاطهم حيث شملت معظم البلاد الشامية عكس الإرساليات البريطانية والبروسية التي حصرت نشاطها البروتستانتية في فلسطين وما جاورها.

وبالتالي فالإرسالية البروتستانتية انطلقت من العدم في ظروف جد صعبة لكن الإصرار على تحقيق الأهداف التبشيرية جعلها تتحدى المشاكل الداخلية في الشام السياسية والطبيعية، وتتجاوز قضية انعدام وجود هذه الطائفة في الشام، وبالتالي فقدان السند المحلي بالإضافة إلى محاولات الدولة العثمانية لعرقلة نشاطها علاوة عن التنافس بينها وبين باقي الإرساليات، ومرد كل ذلك الحماية التي توفرها الهيئات السياسية القنصلية والتراجع الذي ميز الساسة العثمانيين المتأخرين.

¹ عوض: مرجع سابق، ص 306.

2 - الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية

يعود تاريخ إنشاء الإرساليات التبشيرية المسيحية الكاثوليكية في البلاد الإسلامية عامة إلى تلك الحملات الصليبية الفاشلة على المنطقة وإخفاق وسائلها العسكرية، فظهرت الأخوية الكرملية¹ الكاثوليكية في سوريا والتي تأسست عام 1187م. وفي أوائل القرن 13م، أنشأت اثنتان من الأخويات الرهبانية، وهما الفرنسيكان² التي أخذت اسم مؤسسها القديس فرنسيس الاسيسي والدومنيكان³، وأنشأت كل منهما لنفسها فروعاً في الكثير من المدن الشامية، حتى أصبح للفرنسيكان في أواخر ذلك القرن كنيسة كبيرة خاصة بهم⁴، ووقفت البابوية وراء تلك المحاولات التبشيرية تشجعها في محاولة منها لتعويض ما أصاب الحركة الصليبية من جمود وفشل⁵، كما أسسوا مراكز لهم في الأراضي المقدسة وأخذ البابوات⁶ في إرسال الرسائل إلى

¹ الأخوية الكرملية: سميت بهذا الاسم نسبة إلى جبل الكرمل في فلسطين المطل على مدينة حيفا حيث أقامت هذه الطائفة لأول مرة. ومن صفات هذه الطائفة، أنهم يسكرون حفاة ولهذا يسمون أيضاً بالحفاة، ويلبسون عادة ثوب بني اللون وقلنسوة بيضاء. ينظر للهامش: الصباغ: مرجع سابق، ص 769.

² الفرنسيكان: ظهرت هذه الفرقة في أوائل القرن 13م في إيطاليا، وتنسب إلى مؤسسها فرنسيس الاسيزي (1181-1226م)، وكانت أول أمرها تضم الفقراء الذين يعيشون على الصدقات والتبرعات، وتسموا باسم الاخوة الصغار. ولقد كبرت هذه الطائفة وتعددت مدارسها وفروعها، وظل التبشير بيد هذه الفرقة لمدة قرنين بالاشتراك مع الدومنيكان إلى أن ظهر اليسوعيين في آخر القرن 16م وأوائل القرن 17م. ينظر: عبد الجليل شلبي: الإرساليات التبشيرية كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها، منشأة المعارف، د ط، الاسكندرية، د س ن، ص ص 173 - 175.

³ الدومنيكان: أسس هذه الجماعة القديس دومينيكوس 1170/ 1221م عام 1216م، وكانت تسمى الاخوة الوعاظ، اهتمت بالتعليم العالي لمحاربة البدع والخرافات في البداية، ساعدت في النهضة الأوربية الحديثة. ومنذ القرن 17م بدأوا يؤسسون فروعاً في الشرق وينشؤون بها مكاتب ومعاهد. وأبرز نشاطاتهم في القرن 19م، هو انشاء مكتبة الكتاب المقدس ومجلة الكتاب المقدس بالقدس. وفي القرن 20م أسسوا معهد الدراسات الشرقية بالقاهرة 1944م. ينظر: نفسه، ص 180.

⁴ حتي: مرجع سابق، ج 2، ص 263.

⁵ حسن عبد الوهاب حسن: المحاولات التبشيرية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، هذا البحث قدم لمؤتمر تاريخ الأمة الإسلامية بين الموضوعية والتحيز، دار المعرفة الجامعية، د ط، الاسكندرية، 1989م، ص 9.

⁶ البابوات: مفردة بابا، وهو لقب الحبر الأعظم والرئيس الأعلى للكنائس الكاثوليكية عند أتباع الدين المسيحي، تنسب إليه وظيفة البابوية، وهي من وظائف الشرف والولاية باعتباره عندهم ممثل المسيح في العالم، وهو موسوم عندهم بالعصمة عن الخطأ فيما يتعلق بالإيمان، أما من الناحية السياسية فإن البابا يعتبر رئيساً لدولة الفاتيكان الصغيرة وهي جزء من مدينة روما في إيطاليا. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1996م، ص ص 61 - 62.

أولئك المبعوثين والحكام الشرقيين يطلبون فيها الحماية لهم، لكن محاولاتهم التبشيرية باءت بالفشل في ذلك الزمن بسبب فقدان الإمارات الصليبية في الشرق، حيث فقدوا المراكز التي كانوا يتحركون من خلالها¹، وانحصرت جهودهم العملية في رعاية الطوائف المسيحية الموالية للبابا في روما².

ومع ذلك فإن وجود الإرساليات التبشيرية الأجنبية بشكل منظم في بلاد الشام ظهر جليا مع مطلع القرن 17م، لكن الآراء اختلفت حول تاريخ وصول البعثات الكاثوليكية الأولى إلى بلاد الشام، ويتراوح هذا الاختلاف وفقا لروايات المؤرخين والمبشرين أنفسهم ما بين سنوات 1625م و1650م و1656م، إذ يؤكد كل من الكبوشيين³ Capuchins واليسوعيين⁴ الذين يلقبون بالجزويت Jesuits، بأن كل منهما وصل قبل الآخر إلى المنطقة، حيث يقول الأب جيروم مسؤول بعثة الكبوشيين في سوريا عن ذلك: « إن بعثتنا هي الأولى من بين

¹ حسن عبد الوهاب حسن: مرجع سابق، ص ص 37 - 38.

² الجميل سيار: تكوين العرب الحديث، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1997م، ص 497.

³ الكبوشيين: مؤسس هذه الطائفة يدعى ماتيو باشي Matteo Baschi من فرقة الاخوة الصغار الذين كانوا يعملون للعودة إلى روح الفرنسيين الأوّل، لكن صلة الكبوشيين انقطعت مع الاخوة الصغار نهائيا عام 1619م، ينظر للهامش: الصباغ: مرجع سابق، ص 811.

⁴ اليسوعيين: ينسبون إلى جمعية يسوع التي أسسها القديس الاسباني ايناس دي لويولا (1491 - 1556م) Ignace de Loyola في عام 1540م، بعد موافقة البابا بولس الثالث في الفاتيكان. وهدفها هو قيادة الانسان إلى الديانة المسيحية، ومن ثمة توسع نشاط الجمعية حتى منتصف القرن 18م، إلى مختلف أرجاء العالم، حيث وصلت بعثاتها التبشيرية الى آسيا وإفريقيا، لكن شيئا فشيئا أخذت هذه الجمعية تتدخل في السياسة، مما فتح باب العداء عليهم حتى من أقرب الناس إليهم، مما أدى إلى تعرضها إلى حملات عنيفة من النقد والتشهير، ومنع نشاطها في كافة انحاء العالم قبل القرن 19م، حيث طردوا من البرتغال عام 1759م، ومن فرنسا عام 1762م، ومن اسبانيا عام 1767م، وتوج الأمر كليمنت الرابع عشر Clément حين أصدر الأمر بمنع الجمعية عام 1773م، لكن عاد اليسوعيون لمزاولة نشاطهم بعد حصار سياسي دام 41 سنة، حيث سمح لهم ملوك أوروبا مع بداية القرن 19م في سنة 1814م بالعودة، لكن في فرنسا استمر منعهم لفترة طويلة، إذ تعرضوا للاضطهاد عام 1885م بحرق بيوتهم وممتلكاتهم وطردهم من فرنسا ولم يسمح لهم لمزاولة عملهم، إلا بعد الحرب العالمية الأولى في سنة 1823م. ينظر: عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 28 - 33. وينظر:

FRANZ XAVER BISCHOF , <http://www.hls-dhs-dss.ch/textes/f/F11718.php>

© 1998-2019 DHS: tous les droits d'auteur de cette publication sont réservés au Dictionnaire historique de la Suisse, Berne, Les textes sur support électronique sont soumis aux mêmes règles que les textes imprimés. Droits d'utilisation et modalités de citation , p 1.

جميع البعثات والنشاطات الفرنسية التي تغطي الأرض السورية... ففي سنة 1625م أسس كبوشيون فرنسيون... أماكن لهم في بيروت وحلب وصيدا، وفي مناطق أخرى من لبنان». وهاته الفرقة إدارتها فرنسية بحتة، وأتباعها من الكاثوليك، اذ تنقلوا بين عدة مدن عربية، فوصلوا الى طرابلس عام 1629م وبيروت عام 1631م¹، وتملكوا بعض البيوت منذ عام 1650م ثم توسعوا نحو عين طورة وغيرها² في ضواحي مدينة كسروان، ووصلوا حلب التي اتخذوها نقطة مركزية أصبحت فيما بعد ذات شأن كبير لهم. ولقد قسموا بعثتهم في سورية إلى رئاستين أو حراستين وهما:

1- حراسة فلسطين: كانت تضم صيدا وبيروت وطرابلس ولبنان ودمشق وقبرص، وضمت عام 1638م ثلاثين مبشرا.

2- حراسة حلب: وكانت تشمل ماخلا حلب، والعراق وفارس ومصر والحبشة³.

ولقد كان للكبوشيين في النصف الثاني من القرن 17م في صيدا دير كان رواقا في الماضي، يذهب نساء الأمير فخر الدين المعني الثاني⁴ للتنزه فيه، وهو متصل ببيت القنصل الفرنسي، حيث حولوا زاوية منه إلى حديقة. وكان لهم دير في بيروت ومكتبة ومطعم ومرافق أخرى وقبو. كما وصلوا إلى دمشق التي كان لهم فيها منزل وكنيسة. أما حلب التي وصلوها عام 1625م، فأقاموا في خان يسمى خان القصابية⁵. ولقد أظهر الكبوشيون المرسلون عبقرية فرنسا في دعايتهم الدينية في الخارج للمذهب الكاثوليكي فالفرنسيين معروفين بدهائهم وحنكتهم في الاقناع⁶، وكانوا حريصين على تمتين العلاقات مع

¹ الزيدي: مرجع سابق، ص 131.

² العزاوي: مرجع سابق، ص 95.

³ الصباغ: مرجع سابق، ص 812.

⁴ فخر الدين المعني الثاني: من حكام لبنان حفيد المعني الأول وابن قرقماز، وحكم عام 1598م، ويعتبر في التاريخ الرسمي اللبناني مؤسس لبنان الحديث، عاش طيلة حياته لا ينتسب لطائفة معينة. ينظر: صايغ: مرجع سابق، ص 89.

⁵ الصباغ: مرجع سابق، ص ص 812 - 813.

⁶ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 165.

مع فرنسا، بلد المنشأ وخدمة ملكها الذي كان يوفر لهم الحماية اللازمة التي يحتاجون إليها في بلاد الشام، خاصة وأن فرنسا كانت علاقتها الدبلوماسية مع الدولة العثمانية جيدة في تلك الفترة، وتحصلت على امتيازات كثيرة لخدمة مصالحها ساهمت في اعتراف العثمانيين بالمبشرين الكبوشيين، والسماح لهم بالسفر عبر أرجاء الدولة العثمانية كحجيج، ولهم الحق في الإقامة فقط في المدن حيث يتواجد قناصل فرنسا وممثليها. وسمحت لهم بممارسة عبادتهم وشعائهم، مع تعرضهم لبعض التجاوزات والاضطهادات من طرف العثمانيين، وذلك خلال فترات انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والدولة العثمانية¹.

وفيما يخص اليسوعيين، فيذكر الدويهي أن وصولهم إلى لبنان كان عام 1578م كرسل بابويين². أما اليسوعيون أنفسهم، فيقولون بأنهم وصلوا إلى لبنان في نفس الفترة مع الكبوشيين وقد أرسلتهم روما لفحص عقائد الموارنة في لبنان وعاداتهم وكتبهم المربية³، وينقلوها إلى البابا الذي كان يرغب في انشاء مدرسة خاصة بالموارنة في روما ليتعلمو فيها كافة قواعد المسيحية ثم يعودون إلى بلادهم لينشروها بين أهاليهم، وهكذا بدأ اليسوعيين بالتسرب إلى لبنان تدريجياً، فوقع اختيارهم على عناصر من الموارنة ليتموا تعليمهم في مدرسة روما، وفي سنة 1595م، أرسل البابا إلى الموارنة قسيسين من اليسوعيين لتقييم مدى الجهود التي يقدمها التلاميذ الذين تربوا ودرسوا في روما⁴. وفي ذات الفترة كانت فرنسا تسعى لدى الدولة العثمانية للسماح لليسوعيين بالإقامة داخل الإمبراطورية العثمانية كما فعلت لصالح الكبوشيين من قبل، لكن الدولة لم ترحب بهم، وعاملتهم وكأنهم خطر عليها على الرغم من وساطة فرنسا. ومع ذلك تمكن اليسوعيون من التسلل إلى أراضي الدولة

¹ NIKI PAPAIKIAKI CHAIRE: Christianisme orthodoxe Conférences de Mme Chargée de conférences, La mission catholique française auprès des Grecs de l'Empire ottoman, xviie siècle, S. E, S. d, p 208.

² اسفهان الدويهي: تاريخ الأزمنة، تحقيق: الاباتي بطرس فهد، المكتبة الفاتيكانية، منشورات لحد خاطر، ط 3، بيروت، لبنان، ص 444.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 65.

⁴ الصباغ: مرجع سابق، ص ص 814 - 815.

العثمانية باسم رعايا فرنسيين، وسعى قنصل فرنسا دوسيزي لدى السلطان العثماني بأن يسمح لهم بالوعظ علنا في الأماكن التي يتواجد بها قناصل فرنسيين لدى الدولة العثمانية، وكان ذلك عام 1626م. وكان هدف اليسوعيين أن ينتشروا في بلاد الشام لكثرة الطوائف المسيحية الشرقية فيها لتكون تربة خصبة لزرع افكارهم ومبادئهم¹.

ولقد برز نشاط اليسوعيين بشكل مكثف منذ النصف الأول من القرن 17م، بتأسيس خمسة أديرة، الأول في مدينة حلب عام 1625م، والثاني في مدينة دمشق عام 1643م، وآخر في مدينة صيدا عام 1644م، ودير في عين طورة عام 1657م²، وواحد في مدينة طرابلس عام 1664م³، ولقد اتخذوا من حلب مقامهم الأول في خان البنادقة، وفتحوا فيه معبدا للأخويات. ولم يخرج الأباء اليسوعيون من ذلك الدير إلا بعد إلغاء رهبنتهم في عام 1773م⁴ على الرغم من المشاق والاضطهاد والفقر المدقع الذي صادف نشاطهم في بلاد الشام⁵، فحين ظهر الفرنسيون في عدة مدن عام 1680م ليتركزوا فيها، منها صيدا واللاذقية وصور، بينما كان وجودهم الأول في طرابلس وببيروت⁶.

لقد كانت الإرساليات الكاثوليكية تضم مرسلين من مختلف الرهبانيات والجنسيات الأوروبية، ولكن أغليبتهم كانت من الفرنسيين⁷. وكانت فرنسا في هذه الفترة تحمي معظم المبشرين على الرغم من ارتباطهم بمجمع الدعاية البابوي، فقد حمل ملكها لويس الرابع عشر

¹ الصباغ: مرجع سابق، ص ص 815 - 817.

² الزيدي: مرجع سابق، ص 70.

³ الشناوي: مرجع سابق، ج 2، ص 59.

⁴ الصباغ: مرجع سابق، ص 817.

⁵ سيار: مرجع سابق، ص 497.

⁶ الزيدي: مرجع سابق، ص 131.

⁷ جوزيف أبو نهرا: «المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني»، المؤتمر الدولي: خطاب الجماعات المسيحية في الشرق الأدنى في زمن التحولات، مركز الشرق المسيحي والمنشورات (CERPOC) جامعة القديس يوسف، 24 - 26 كانون الثاني 2013م، ص 23.

على عاتقه مهمة الاهتمام بهم ومساعدتهم وحمايتهم، وتنمية الإرساليات الفرنسية منها خاصة الكبوشيين، بل أنه حاول أن يربط به اليسوعيين، وشاركه في ذلك القناصل، ومنهم القنصل الفرنسي في حلب فرانسوا بيكة (1652-1660م) الذي كان يدعم حركة التبشير لينشر المذهب الكاثوليكي بين مسيحي حلب، حيث عمل على تنشيط التبشير الكبوشي واليسوعي في الأوساط المسيحية الشرقية، وعمل بجدٍ على تثمين الروابط مع الموارد¹.

ولقد انتشرت الرهينات الفرنسية في لبنان في القرن 17م مع ترحيب من طرف الموارد، ورعاية ملك فرنسا بنفسه التبشير وشؤونه في ذلك القرن، واهتم ببناء الكنائس واستقبال رجال الدين اللبنانيين في المدارس الدينية في فرنسا والإنفاق عليهم².

ومع ذلك كانت أعمال الإرساليات الكاثوليكية في المنطقة محدودة اقتصر على إنشاء قليل من المدارس والمعاهد في أماكن متفرقة ونشر كتب العبادة. وكانت غالبية هذه الإرساليات كاثوليكية ومعظمها فرنسية وتنتسب إلى اليسوعيين والكبوشيين والكرمليين، انصبت جهودها في رعاية طوائف العرب المسيحية الموالية لكنيسة روما، نتيجة التعصب الطائفي الشديد الذي كان يسود ذلك العصر³. ومع ذلك، نجحت تلك الإرساليات الفرنسية الكاثوليكية في تحويل عددًا لا بأس به من طائفة الروم الأرثوذكس إلى الكاثوليكية⁴.

ولم يقتصر الأمر على المبشرين اليسوعيين والكبوشيين، إذ انتعشت كذلك طائفة الكرمليين أواخر القرن 16م وأوائل 17م، خاصة بعدما أنشأ البابا غريغوري الخامس عشر في عام 1622م مجمع الدعاية الذي يهدف إلى تنظيم الإرساليات التبشيرية، وهكذا عادوا إلى سوريا عام 1627م بعد أن كانوا طردوا منها بعد الحروب الصليبية، وسكنوا حلب التي جاءها

¹ الصباغ: مرجع سابق، ص 821.

² صايغ: مرجع سابق، ص 108.

³ انطونيوس: مرجع سابق، ص 97.

⁴ العزاوي: مرجع سابق، ص 97.

مرسل اسباني من رهبنتهم ومنها انتقل إلى لبنان مرسل كرملّي هولندي حيث ساعده الموارنة في السكن، ثم جاء إلى طرابلس كرملّي آخر وأقام فيها، وكان مقرهم الرئيسي في جبل الكرمل في فلسطين، وهو دير يتكون من خمس حجرات محفورة في الصخر لا يتسرب النور إليها إلا من الأبواب، ومن خصائصهم أنهم لا يأكلون اللحم ولا يشربون النبيذ¹.

أما عن اليسوعيين الكاثوليك الذين وصلوا إلى المنطقة سنة 1625م، والذين يسمونهم بالجزويت، فقد وجد مبشريهم قبولا وتشجيعا من طرف المسيحيين العرب وخاصة الموارنة، ففضل حماية آل الخازن الموارنة اتسعت أعمال الكبوشيين واليسوعيين، لأن حاكم منطقة كسروان في لبنان أبو نوفل بن أبي نادر الخازن الماروني كان قد حمى تلك الإرساليات، وقدم لها يد المساعدة بمنحهم قطعة أرض سنة 1656م لبناء كنيسة في منطقة عين طورة التي كانت نقطة انطلاق نشاطهم التبشيري آنذاك، ولقاء خدمته هذه توسطوا له لدى الحكومة الفرنسية لتكافئه على ذلك بتعيينه قنصلا لها في بيروت، وتم تعيينه سنة 1662م بعد منحه الجنسية الفرنسية، وكل الامتيازات التي كان يتمتع بها قناصل فرنسا، فكان بذلك أول قنصل في بيروت، كما توارثت أسرته هذا المنصب من بعده حتى أواخر القرن 18م²، قرابة مئة سنة، وظلت أسرة الخازن المارونية على ولائها لفرنسا³، وقام بطرس مبارك الفوسطاوي الماروني بالاشتراك مع الآباء اليسوعيين ببناء مدرسة عين طورة الدينية سنة 1734م، حيث اعتبرت أول مدرسة حديثة في المنطقة⁴، وكان الهدف من ذلك، خدمة احتياجات الموارنة والطوائف الكاثوليكية⁵.

¹ الصباغ: مرجع سابق، ص ص 819 - 820.

² معاشي: مرجع سابق، ص 28.

³ عوض: مرجع سابق، ص 327.

⁴ معاشي: مرجع سابق، ص 28.

⁵ نصيرات: مرجع سابق، ص 4.

تركز نشاط بعثة اليسوعيين الأولى في حلب، ثم توسع، فامتد إلى المناطق السورية الأخرى ومن بينها جبل لبنان. ويرجع سبب تواجدهم هناك إلى أمرين كما يرى اليسوعيون أنفسهم، وهما: أولاً لأن «حلب نقطة التقاء الخطوط التجارية القادمة من الهند وبلاد فارس ومن آسيا المركزية ومن مناطق الشرق الأقصى، وهي مركز للأسفار والمراسلات من الطراز الأول...».

أما مراكزهم الأخرى، فقد توزعت في طرابلس وصيدا "حيث المرفأين الأكثر أهمية"، وأخيراً في كسروان في جبل لبنان، حيث أسسوا كلية عينطورة، وثانياً: لفحص عقائد الموارنة و"تحقيق حاجاتهم الروحية" التي يرى الأب اليسوعي اليانو مبعوث روما إلى الطائفة المارونية حيث يقول: «إن أكثر الوسائل فائدة لذلك هي ثلاث: أولاً: يجب مساعدتها على تكوين اكليروسها¹ بأن نرسل إلى روما عدداً من الشباب لتعلم الآداب الدينية، ثانياً: إيجاد مطبعة في روما تطبع كتباً بالحروف العربية والسريانية لحاجة الموارنة إليها في كنائسهم، وتحل هذه الكتب محل الكتب المكتوبة بخط اليد وما فيها من أكاذيب دينية، ثالثاً: تجهيز الكنائس المارونية الفقيرة بالكؤوس والأقداح والمعدات الأخرى ليتمكنوا من ممارسة القداس ... بطريقة لائقة»².

وبالرغم من المساعدات المارونية الكبيرة التي قدمت للمبشرين الأوروبيين والغربيين عامة، فإن أعمالهم لم تنجح ولم تنتسج في بلاد الشام إلا في القرن 19م، حيث أن الأعمال اليسوعية توقفت سنة 1773م³، بسبب أمر توقيف نشاط الجمعية في شتى أنحاء العالم من

¹ الاكليروس: ويعني مجموع رجال الدين المسيحيين بمختلف رتبهم، وهي الأسقف والبطريرك والمطران والخوري وغيرهم. ينظر: واعلي محمد الطاهر: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904م دراسة تاريخية تحليلية، رسالة ماجستير في علوم التربية، اشراف: تركي رابح، معهد علم النفس وعلوم التربية، جامعة الجزائر، 1988 - 1989م، ص 1 بعد المقدمة.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 66 - 67.

³ معاشي: مرجع سابق، ص 29.

طرف كليمنت الرابع عشر¹، وكذلك بسبب الاضطرابات التي حدثت في بلاد الشام آنذاك بسبب الحرب التي جرت بين الثائرين على الدولة العثمانية علي بك الكبير وظاهر العمر اللذين استعانا بالأسطول الروسي عليها، حيث قذف بيروت في أبريل 1773م بقنابلته وخرّب ما يقرب من 300 منزل فيها، كما تعرضت مدينة صيدا للحصار²، مما أدى إلى تشتتهم وإغلاق أكثر مؤسساتهم وسلموا الباقي منها للبعثات اللعازرية³ لتديرها، ولم يستأنفوا أعمالهم في سوريا ولبنان، إلا في سنة 1831م خلال فترة حكم إبراهيم باشا للشام، وكان من الأسباب التي أدت إلى رجوع ظهورهم، هي وصول البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية إلى بلاد الشام⁴، والتي أخذت تُحوّل أفرادًا من طائفتهم الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتي⁵، ويبدو أن هذا الخطر البروتستانتي في نظرهم زاد في التقارب بين طائفة الموارنة واليسوعيين، وعن ذلك يقول بطريرك دير القمر الماروني إلى الأب المسؤول في صيدا: «كنا نكتفي سابقا للمحافظة على إيمان الناس، في ذلك الوقت كان هؤلاء أكثر بساطة، ولم تكن البدع الغربية قد دخلت إليهم... نحتاج اليوم إلى مساعدة المرسلين الأوروبيين... مساعدة لا غنى عنها... عليهم أن يفعلوا كل شيء لدعم الكاثوليك، بدونهم سوف تضيق البلاد تقريباً»⁶.

وهذا إن دلّ على شيء فهو الترحيب الذي حظي به اليسوعيين من طرف الموارنة الكاثوليك، الذين كانوا سنداً لهم في القرون السابقة، وهذا سوف يسهل عمل اليسوعيين في بلاد الشام، لأن الموارنة يعتبرون من أهم الطوائف المسيحية في المنطقة.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 33.

² فريد بك المحامي: مرجع سابق، ص 339.

³ اللعازريون: أسس هذه البعثة Saint Vincent de Paul عام 1824م. ينظر: عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 161.

⁴ SALIM DACCACHE, «L'Université Saint- Joseph et ses trois Centenaires», en la fête de la Saint joseph, le mardi 19 mars 2013, p 3.

⁵ انطونيوس: مرجع سابق، ص 98

⁶ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 86 - 87.

ففي 13 نوفمبر 1831م، وصلت إلى بيروت بعثة اليسوعيين الثانية وحطت رحالها في لبنان بعد موافقة البابا غريغوريوس السادس عشر، وتضم ثلاثة من رجال الدين، وهم الأب ريكادونا من إيطاليا والأب بلانشيه من فرنسا والأخ هانز الماني من الهانوفر، وعكف أولئك اليسوعيون منذ وصولهم على ممارسة التعليم وتأسيس المدارس، كما استقروا في منطقة غزير في كسروان التي أصبحت مركزاً لبعثتهم، وبدأوا التدريس فيها بشكل بسيط ومتواضع جداً من خلال مدرسة لتدريس اللغتين العربية لأنها لغة السكان والإيطالية لأنها لغة روما، لكن سرعان ما اشتد نشاطهم وتوسع وانتظم تعليمهم، فأسسوا عدة مدارس في بكيفيا في جبل لبنان، وفي رحلة وفي البقاع عام 1844م، وكذلك في غزير في كسروان عام 1843م، ووصلوا إلى بيروت وصيدا ودير القمر¹.

وذكر أن السبب الحقيقي من وراء دعم فرنسا لليسوعيين هو تحقيق غاية سياسية واقتصادية، وهي إيجاد قوة حليفة لها في المنطقة تحقق بواسطتها أهدافها، والغريب في أمر اليسوعيين أن فرنسا كانت تمنعهم في بلادها من النشاط، لكنها في بلاد الشام وفرت لهم كل سبل الحماية لنشاطهم ومؤسساتهم، وقدمت لهم الدعم والتعاون المتبادل بينهما، ومرد ذلك أن اليسوعيين لجأوا لمواجهة الضغط الفرنسي إلى الاتصال بالنمسا كقوة كاثوليكية تنافس قوة فرنسا ونفوذها، لتؤمن لهم الحماية اللازمة وبالفعل لبثت رغبتهم من منطلق كاثوليكي، وأعلن ممثل النمسا في لبنان أن دولته تحمي اليسوعيين في مشاريعهم الإرسالية والسياسية والتربوية وقال: «وأن اليسوعيين سيقون في لبنان، وأن سياستهم لن تتغير رغم معارضة القنصلية الفرنسية، لأن إمبراطور النمسا يدعمهم دعماً غير مشروط»، لذا خشيت فرنسا من ثبات اليسوعيين الذين اقتربوا من النمسا، وأن يشكلوا قوة مضادة لها في المنطقة، وخاصة أنه في تلك الأثناء ازداد نشاط البروتستانت نحو لبنان وأصبحوا يشكلون خطراً على النفوذ الفرنسي الكاثوليكي، عندها قررت فرنسا تغيير سياستها مع اليسوعيين، وهكذا عقدت فرنسا اتفاقاً مع

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 68 - 69.

روما تم من خلاله تنظيم توزيع مدارس اليسوعيين في لبنان لكي لا يبقى النشاط اليسوعي منافسا بل متمما، ومما أدى إلى نجاح عمل اليسوعيين أيضا في الشام على الرغم من الصعوبات هو تمتين علاقتهم مع موارد جبل لبنان المسيحيين¹، حيث من المعروف عن اليسوعيين قوة التحمل وسرعة التأقلم، فهم قد استمروا في نشاطهم رغم كثرة العراقيل التي تعرضوا لها خاصة خلال الأزمات التي ضربت لبنان، ومنها فتنة 1860م والتي قتل خلالها خمسة أبناء يسوعيين في مدينة زحلة².

أما النمسا، فلقد حاولت عام 1840م أن تجعل نفسها حامية الكاثوليك بعد حملة ابراهيم باشا على سوريا، وأرادت أن تستغل الخلاف الذي نشب بين المواردنة وفرنسا بتقديم المساعدات المالية، لكن كاثوليك الشام ظلوا محافظين على ولائهم لفرنسا، وافشلوا محاولة النمسا³.

ولقد كان اليسوعيون الكاثوليك أكثر البعثات نشاطا في ميدان التعليم، خاصة تعليم الذكور، حيث وسعوا عملهم التعليمي بإنشاء العديد من المدارس، ووسعوا نشاطهم إلى المناطق المجاورة حتى وصلوا إلى دمشق سنة 1872م، وحلب سنة 1873م التي كان لهم فيها نشاط سابق. ومن بين أهم الأعمال التي قاموا بها، هي تأسيس مدرسة غزير في جبل لبنان والتي نقلت إلى بيروت عام 1875م، لتسمى بجامعة القديس يوسف⁴. فالمعروف عن اليسوعيين أن كل كاهل معلم، وكان على استعداد لتكوين النخبة وإعداد المعلمين وتمتعوا في التعليم بقوة الثقافة⁵، كما عمل اليسوعيون على تأسيس مطبعة لهم عام 1847م، وكانت

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص، ص 34، 71-73

² RAfAÉL HERZSTEIN, «La France et le retour des jésuites au levant au sein de la communauté Journal d'étude des relations internationales au Moyen-Orient », Vol. 2, No.1 (janvier 2007), p 95.

³ صايغ: مرجع سابق، ص 110.

⁴ انطونيوس: مرجع سابق، ص 108.

⁵ HERZSTEIN, Op ,Cit., p. 97.

حجرية في بادئ الأمر ثم استخدموا فيها الحروف بعد ذلك وانهاوا على طباعة الكتب، خاصة كتب التراث القديم وبعض كتب التعليم¹.

وفي سنة 1834م أعاد الأباء اللعازاريون الكاثوليك أيضا افتتاح كليتهم الخاصة بالذكر في عين طورة²، واختاروا مدينة طرابلس في شمال لبنان مقرا لنشاطهم ودعوتهم، وذلك راجع لعدة أسباب كما يراها اللعازاريون منها: أن مدينة طرابلس تعتبر من أهم المدن السورية مكتظة بالسكان، بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي المحاذي للبحر الأبيض المتوسط يجعلها على اتصال دائم بالأوروبيين، كما لا يوجد بها أي مدرسة كاثوليكية تعلم الفرنسية حينها، وتخوفهم من مجيئ البعثات البروتستانتية إليها إذا غابت عنها البعثات الأخرى³.

ولقد أسست هذه الفرقة عام 1624م وأرسلتهم فرنسا إلى لبنان، وقدمت لهم الدعم الكافي لمواجهة اليسوعيين والبروتستانت، وطلبت منهم أن يتولوا العمل التبشيري وحدهم وأن يتأسسهم مبشر فرنسي. ومن أهم أعمالهم في المنطقة، أنهم ساهموا في اخماد الفتنة التي عصفت بلبنان عام 1840م، وساعدوا في تهدئة أهل الجبل الثائرين. أما أهم مؤسساتهم، هي كلية عين طورة التي تركها لهم اليسوعيون إثر مغادرة بلاد الشام عام 1773م⁴.

وهكذا تمكن الكاثوليك من تأسيس بعض المدارس في دمشق وحلب ولبنان. وقد اقتصر نشاط المبشرين على محاولة كسب الأهالي وجذبهم إلى الدين المسيحي، أو تحويلهم من مذهب مسيحي إلى آخر، وأدى ذلك إلى ازدياد حدة التنافس بين الطوائف المسيحية الأخرى البروتستانتية والأرثوذكسية في المنطقة⁵.

¹ جلال يحي: المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، دار المعارف، د ط، مصر، 1965م، ص 184.

² انطونيوس: مرجع سابق، ص 100.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، مرجع سابق، ص 164.

⁴ نفسه، مرجع سابق، ص 161.

⁵ جلال يحي: مرجع سابق، ص 180 - 181.

وفي سنة 1848م أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التعليم الأولى في مدارس اليسوعيين، وأصبحت البرامج فيها هي التي تدرس في فرنسا، وهذا إن دلّ على شيء، فيدل على تحسن العلاقة بين اليسوعيين وفرنسا، وفتح صفحة جديدة بعد 17 عاما من تواجد اليسوعيين في الشام، بل أصبحت بعثة اليسوعيين في بلاد الشام تتبع إقليم ليون بفرنسا، وأصبحت ليون مركزا لنشاط روحي واقتصادي موجه نحو بلاد الشام¹.

كما أسس الاباء اليسوعيون عام 1874م راهبات القلبين الأقدسيتين بعد ضم جمعية المريمات في بكيفيا في لبنان وجمعية قلب يسوع في رحلة².

لقد لجأ اليسوعيين إلى عدة سبل تميز بها عملهم عن غيرهم، إذ قربوا الموارد منهم وجذبوا الموقف الفرنسي ليتصالح معهم، وذلك بعد أن نجحوا في نشر مدارسهم في شتى أنحاء لبنان، وتأسيس مدارس دينية لإعداد رجال الإكليروس المحليين. كما ضم اليسوعيون إليهم مساعدين من أهل البلاد، وذلك تطبيقا للقاعدة التي نادى بها البابا ليون الثالث عشر وهي إغواء الشرق بواسطة الشرقيين أنفسهم، ولتسهيل اندماجهم مع أهل المنطقة تنبه اليسوعيون لخصوصية العادات والتقاليد الشرقية، فاستعدوا منذ مجيئهم لارتداء الزي المحلي العربي: برأس حليق ولحية طويلة وشريطة ضخمة على الرأس، حُفاة الأقدام ويلف جسمهم حزام عريض تزينه الخناجر والمسدسات³.

ومن أهم الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية التي جاءت إلى بلاد الشام نذكر:

بعثة أخوات المحبة: Les Filles de la Charité: وصلت بعثتهم لمساندة بعثة اللعازريين لأنهم ينتمون لنفس الجمعية، وأنشئوا عدة جمعيات خيرية تمكنوا من خلالها من تقريب

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص، ص 69، 77.

² أبو نهرا: مرجع سابق، ص 33.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 81 - 83.

الطبقات الاجتماعية المسيحية في جبل لبنان، كما انشؤوا دار للمعلمين لإعداد الكوادر في المراكز الكبيرة.

بعثة البون باستور: Mission du Bon Pasteur : يقول مسؤول هذه البعثة عنها: "إن بعثة البون باستور في حمانا تأسست في أيلول - سبتمبر - عام 1893م من أجل عمل الخير للشعب اللبناني، وفي سبيل نشر اللغة الفرنسية وحسنات الدين الكاثوليكي"¹.

بعثة سيدات الناصرة: Les Dames de Nazareth: وصلت هذه البعثة إلى بيروت عام 1868م وأسست مدرسة ودير، تتقاضى مؤسساتها من القنصلية الفرنسية منحة سنوية.

بعثة الأخوة المريميون: Les Frères Maristes: ظهرت مؤسساتها في لبنان منذ 1890م حيث أسسوا مدرستين عام 1897م واحدة في بيروت حيث يسكن الأوربيون والموارنة، وأغلب طلابهم من الموارنة، وازدادت مدارسهم لتشمل جونية وصيدا وجبيل ودير القمر وعمشيت.

إخوة المدارس المسيحية: Frères des Ecoles Chrétiennes: تأسست عام 1680م على يد جان بابتيست دولاس² وانتقلت من مصر إلى القدس وبيت لحم، وفي عام 1889م استقرت البعثة في بيروت، ثم انتقلت إلى طرابلس وبيت شباب³، وركزت هذه الجمعية مجهوداتها على نشر اللغة الفرنسية حتى وصف أعضائها بمبشرين للغة الفرنسية⁴.

بعثة العائلة المقدسة: Sainte Famille: وصلت إلى بيروت عام 1894م.

جمعية مريم الإصلاحية: Société de Marie Réparatrice: افتتحت منزل لها في بيروت عام 1898م.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 161 - 165.

² KARÈNE SANCHEZ-SUMMERER, Pour Dieu et la Patrie, Formation des missionnaires français envoys au Levant (1880-1940), Le cas des frères des écoles chrétiennes, OpenEdition journals.Edition électronique, 01 décembre 2015, p 84.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 161.

⁴ SUMMERER, Op . cit., p. 84.

أخوات الزيارة: Sœurs de La Visite: وصول بعثاتهم كان أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م، حيث عملوا على ربط الموارد بفرنسا، وذلك بنشر لغتها في أوساط العائلات الكبيرة، وغرس حب فرنسا عند السكان، وفي إعداد نخبة فكرية موالية لهم¹.

بالرغم من أن فلسطين كانت محط أنظار البروتستانت والأرثوذكس إلا أن ذلك لم يمنع من تواجد الكاثوليك فيها، حيث وجدت تجمعات كاثوليكية هناك²، حيث عرفت فلسطين بدورها نشاطا كبيرا للإرساليات التبشيرية الكاثوليكية، خاصة في النصف الأول من القرن 19م إذ تأسست القنصلية الفرنسية في القدس عام 1843م³، والتي ركزت على إنشاء العديد من المؤسسات الفرنسية من مستشفيات ومدارس ودور أيتام⁴. وفي النصف الثاني من القرن 19م، شهدت فلسطين زيادة النشاط التبشيري الفرنسي بزيادة مؤسساتها في القدس وبيت لحم والناصره وحيفا والرملة ويافا، حيث وصل عدد المؤسسات الدينية الفرنسية عند بداية الحرب العالمية الأولى أكثر من 20 مؤسسة⁵.

ومن أهم الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية في فلسطين نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- **إرسالية جمعية فرسان يوحنا:** وهي إرسالية نمساوية تواجدت في فلسطين منذ عام 1840م، وذلك عندما كان قنصل النمسا برنارد جراف كابوجا مسؤولا عن رعاية مصالح هذه الجمعية في الأراضي المقدسة، فقد مكن لها هناك، حيث قام بشراء سفح جبل واقع في منتصف الطريق بين القدس وبيت لحم باسم جبل الطنطور، وسجله باسمه وتم الشراء في جوان 1869م، ومن ثمة بدأ كابوجا في توسيع ممتلكاته، وفي سنة 1880م، قدمت له منحة مالية

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 161 - 167.

² E DhUNES, Les Congrégations françaises en Palestine, In: Échos d'Orient, tome 8, n°51, 1905. p 90.

³ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 89.

⁴ DHUNES, Op. cit., p. 90.

⁵ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 89.

كبيرة من طرف الإمبراطور النمساوي القيصر فرانس جوزيف أثناء زيارته للقدس، كما كلف وزارة الخارجية النمساوية بتقديم الدعم لكابوجا لتوسيع نشاطه في فلسطين.

- **إرسالية راهبات الكرمل أو الكرمليات:** تأسست في فرنسا عام 1563م على يد القديسة تريزا¹ قدمت إلى فلسطين عام 1873م، وأنشأت دير في جبل الزيتون في القدس، ولهن دير في بيت لحم وآخر في سفح جبل الكرمل قرب حيفا².

- **إرسالية راهبات مار يوسف:** جاءت هذه الإرسالية إلى فلسطين عام 1848م من مرسيليا في فرنسا، وتمتلك هذه الراهبة 13 معبدا في فلسطين و3 مستشفيات أحدها في القدس وآخر في يافا والثالث في الناصرة، ولهن في هذه المدن الثلاث دور للأيتام وعدة مدارس دينية³.

- **إرسالية أخوة المدارس المسيحية:** تأسست في باريس عام 1680م برئاسة جان بابتست دولاسال، وفي عام 1876م، أسس اثنان من مرسلها ديرا في القدس كمركز للإرسالية في فلسطين، ثم تغير اسم الدير فيما بعد وأصبح يعرف باسم الفرير وكانت تلك المدارس تشمل مدرسة لأولاد القدس وأخرى لتأهيل وتدريب أخوة جدد للعمل مع جمعية أخوة مدارس الفرير المسيحية. وأسست أول مدرسة تابعة للفرير في القدس عام 1878م، ثم تلتها مدرسة بيت لحم تعلم العلوم واللغات للذكور.

- **إرسالية راهبات المحبة:** تأسست في فرنسا عام 1632م لكنها باشرت عملها في القدس عام 1886م، ويعرفن براهبات مار منصور، وتمتلك هذه الإرسالية حاليا معهدا في القدس يعيش فيه عدد كبير من الأطفال والأيتام والعجزة والمعوقين والمكفوفين⁴.

¹ أمل الخضري: مرجع سابق، ص ص 89 - 93.

² محمد كرد علي: **خطط الشام**، مكتبة النوري، ط2، ج 6، دمشق، د س ن، ص 25.

³ نفسه 6، ص 26.

⁴ أمل الخضري: مرجع سابق، ص ص 89 - 90.

- **الأباء الدومنيكيون:** ومن أسمائهم رهبان مار عبد الأحد، وصلوا إلى القدس عام 1882م ولهم فيها دير وكتدرائية تدعى سانت اتيان أو كنيسة القديس أسطفان ولهم كنيسة بنيت عام 1898م وتسمى الكنيسة الملوكية الصغرى¹.
- **راهبات صهيون:** جاؤوا القدس عام 1856م، ولهم فيها دير ومدرسة وكنيسة وميتم.
- **رهبان صهيون:** وصلوا القدس عام 1873م ولهم فيها مدرسة تعرف باسم الراتزيون وتعرف كذلك بمدرسة القديس بطرس، وهي مدرسة صناعية.
- **راهبات الفريز:** ويسمونهم إخوة المدارس المسيحية جاؤوا إلى القدس عام 1876م ولهم في حي الجوالدة من أحياء القدس دير وكنيسة ومدرسة كبيرة²، كما انشأوا مدارس ثانوية في بيت لحم ويافا ومدرسة إصلاحية في مدينة الناصرة³.
- **جمعية الأباء البيض:** نزلوا في القدس عام 1878م واشترت أرضا واسعة أقامت عليها مسكنا ومدرسة⁴، وأسسوا كنيسة القديسة حنة المعروفة حاليا بالصلاحية.
- **إرسالية راهبات أباء القلب المقدس:** جاؤوا إلى فلسطين سنة 1879م وأنشأوا دير بالقرب من بيت لحم وكانت لهم مدرسة دينية إلا أنها نقلت إلى فرنسا في آخر سنة من الانتداب.
- **إرسالية راهبات مار فرنسيس:** جئن إلى القدس عام 1884م ويعرفن بالفرنسيات الثلاثيات، وأنشأن لهن دير في حارة النصارى به مدرسة داخلية تعرف ببيت اليتامى.
- **إرسالية راهبات مار كلارا:** وصلوا القدس عام 1884م وأسسوا دير على جبل المكبر ومن سماتهن أنهن لا يختلطن مع أحد من الناس⁵.

¹ عارف العارف: تاريخ القدس، ص 247.

² نفسه، ص 248.

³ غراب: مرجع سابق، ص 44.

⁴ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص ص 65 - 66.

⁵ عارف العارف: تاريخ القدس، ص ص 248 - 249.

- إرسالية الآباء الانتقاليون: نزلوا في القدس عام 1887م وأسسوا فيها نزلا عام 1899م بهدف إيواء الحجاج الفرنسيين ونشر الدعاية لفرنسا، وضمت كنيسة و متحف ومكتبة ومدرسة دينية.
- إرسالية راهبات السجود: ويسمونهم راهبات التعويض والقربان، وصلن القدس عام 1888م وأسنن فيها ديورا به معبدا باسم القربان المقدس ترى أمامه في أي وقت دخلته راهبتين ساجدتين ويتبادلن الراهبات السجود في كل ساعة.
- إرسالية الآباء اللعزاريون: هبطوا في القدس عام 1890م لهم فيها ديورا وعمارة اتخذت في أوائل عهد الاحتلال البريطاني مقرا لحاكم القدس¹.
- إرسالية الآباء التراييون: نزلوا في القدس عام 1891م، وأسسوا ديورا لهم عددهم في ذلك الزمن 40 يعيشون في صمت تام، وكانوا يزاولون زراعة الكروم وحرفة صناعة الالبان والخمور².

إلى جانب تلك الإرساليات الكاثوليكية في فلسطين نجد أيضا راهبات سيدة سيون وبنات الإحسان، والسيدات الناصريات³، تلك هي أهم الإرساليات الكاثوليكية التي جاءت إلى فلسطين خلال القرن 19م، ومعظمها استقرت في القدس الشريف، وكلها كانت خاضعة للبابا في روما، وفي القدس بطريرك ينتدبه البابا لإدارة شؤون الطائفة الكاثوليكية⁴.

ولم يقتصر أمر الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية على الفرنسيين والنمساويين فحسب، بل ظهرت إيطاليا في المنطقة بإرسالياتها الكاثوليكية، ودخلت في مواجهة مع فرنسا، وأصبح لهم مركز هام في إطار المؤسسات الكاثوليكية في بلاد الشام، لكن ظهورهم كان متأخرا عن الإرساليات التي ظهرت في المنطقة، وذلك بعد سنة 1860م، فلقد أسند أمرهم إلى الأب

¹ عارف العارف: تاريخ القدس، ص 249.

² نفسه، ص 250.

³ DHUNES, Op . cit., p. 92.

⁴ عارف العارف: تاريخ القدس، ص 250.

ريكاردونا الإيطالي الإشراف على أمور راهبات قلب يسوع في مدينة زحلة اللبنانية واللواتي بلغ عددهن عام 1862م 38 راهبة، وفي عام 1865م بلغ عدد مدارسهن في سهل البقاع وفلسطين 18 مدرسة يؤمها 2425 تلميذ. وفي عام 1870م، تم تأسيس أول قنصلية إيطالية في القدس. وبعد ذلك التاريخ، تمكنت المملكة الإيطالية من أن تحتل موقعا متقدما لدى كاثوليك الشرق¹.

وعن نشاط إيطاليا فقد اقتصر اهتمامها بإرسال بعثات دينية وتأسيس مدارس طائفية، فكان نشاطها التبشيري الكاثوليكي نوعا ما ضعيفا في المنطقة، لأنها لم تكن تتلقى الدعم المالي والمعنوي والسياسي من الفاتيكان مثل حكومة فرنسا، فاغتمت فرنسا فرص الخلاف الذي نشب بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية وانفردت في تقرير مصير الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والسيطرة عليها في بلاد الشام².

يتضح من خلال ما سبق أن تواجد البعثات التبشيرية الكاثوليكية ليس وليد القرن 19م في بلاد الشام، وإنما يعود إلى زمن الحروب الصليبية، لكن انتظم في شكل جماعات خلال القرن 17م، وبرز بشكل مكثف خلال بدايات القرن 19م وخاصة مع تواجد الحكم المصري لبلاد الشام، وظهور المبشرين البروتستانت الأمريكيين الذين أخذوا يحولون الكاثوليك إلى مذهبهم ويقربونهم منهم، وهذا ما أدى بظهور البعثات التبشيرية الكاثوليكية في المنطقة.

كما يلاحظ أن أكثر البعثات الكاثوليكية نشاطا في المنطقة هم اليسوعيون الفرنسيون المدعمن من طرف طائفة الموارنة سكان البلاد المحليين هذا من جهة، وفرنسا وروما من جهة أخرى. بالرغم من العداوة التي ظلت لأعوام بين فرنسا واليسوعيين، لكن فرنسا رأت مصلحتها في المنطقة قبل كل شيء.

¹ علي عبد المنعم شعيب: الصراع الإيطالي - الفرنسي على بلاد الشام 1860 - 1941، دار الفرابي، ط 1، بيروت، 2002م، ص 19.

² صايغ: مرجع سابق، ص 110.

فالنشاط التبشيري الكاثوليكي يعد من أقدمها في بلاد الشام، وهو امتداد للحروب الصليبية، إلا أن نشاطه برز بشكل جلي خلال القرن 19م، تحت حماية فرنسا على وجه الخصوص خدمة لأهداف اقتصادية وسياسية، وهنا نقع في تناقض كبير بين فرنسا القانون والعلمانية، فهي ترفض أي نشاط ديني في بلادها، وبين فرنسا الممارسة في بلاد الشام عن طريق تقديم الدعم والحماية والرعاية للإرساليات الكاثوليكية التي استفادت كذلك من الوضع الداخلي المتمثل في طائفة الموارنة على وجه التحديد.

ويتضح أيضا أن أهم الإرساليات الكاثوليكية التي جاءت إلى أرض فلسطين هو تزامن تواجدها التاريخي في المنطقة، فمعظمها وصل في النصف الثاني من القرن 19م ولربما ذلك راجع لضعف الدولة العثمانية واشتداد التنافس الدولي عليها في تلك الحقبة، مما أدى إلى كثرة الإرساليات الأجنبية وخاصة الكاثوليكية في البلاد الشامية.

كما أن هذا التواجد قد جاء بعد مؤتمر فينا 1815م ومؤتمر إكس لاشابيل 1818م اللذين وضعوا الأطماع الاستعمارية للاستحواذ على تركة الرجل المريض - السلطنة العثمانية - بناء على تقدير ميزان القوى الدولية في تلك الفترة الذي كان يميل إلى صالح الدول الأوروبية القومية التي بدأت تأطر نفسها للوثوب على الدولة العثمانية، كما أن أوروبا قد توجست خيفة من النشاط الروسي والأمريكي الذي بدأ يباشر نشاطا تبشيريا ملحوظا داخل الدولة العثمانية، فما كان منها إلا أن تطلق العنان للمبشرين الكاثوليك كي يضعون لها موطن قدم في المشرق وهذا ما حصل بالفعل.

3 - الإرساليات التبشيرية الأرثوذكسية:

تعتبر الأماكن المقدسة في فلسطين ذات أهمية كبيرة عند الروس، ويرجع تاريخ اهتمامهم بها إلى القرن 10م بعد اعتناقهم الديانة المسيحية عام 988م على المذهب الأرثوذكسي، ومن ثمة بدأت رحلات الحج الروسية إلى القدس الشريف. ولقد لعب الرحالة والشعراء الروس دوراً كبيراً ومؤثراً في تشجيع العديد من رجال الدين والبسطاء من الناس لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين لما قدموه من وصف مشوق لرحلاتهم وخاصة القدس. كما وصف الشعراء جمال المدينة وأجواءها الدينية المميزة بأروع الأبيات الشعرية والأهازيج التي أثارت الرغبة عند الناس في زيارة تلك المقدسات¹.

لقد كانت رحلات حج الروس متقطعة إلى الأماكن المقدسة في القدس وغير منتظمة بسبب الحروب، خاصة في العهد العثماني، إذ جرت عدة حروب بينهما حملت الطابع الديني في أغلبها، مما أجبر العثمانيين على منع تلك الرحلات الدينية الروسية وعدم السماح لها بالمرور عبر أراضيها إلاً بمرسوم سلطاني. وحين اعتلى القيصر ايفان الرابع Ivan Iv 1533 - 1584م عرش روسيا، بدأت الحكومة الروسية الاهتمام من جديد برحلات الحج، إلاً أنها حملت معها الطابع الاستخباراتي التجسسي أكثر من أن تكون دينية، وذلك بعد أن أعلن القيصر نفسه حامي الكنيسة الشرقية².

فأرسل إلى القدس عام 1559م، الراهب يوزيناكوف YouZenjakov، دامت زيارته لها ثلاثة أشهر، جمع خلالها المعلومات الوافية عن المدينة المقدسة من تحصينات والتركيبات السكانية والأطراف وموارد الحياة فيها وأهم القرى المتنفذة فيها، وفي سنة 1634م أرسلت الحكومة القيصريّة الراهب كاكار Kakar للأماكن المقدسة في فلسطين، استمرت رحلته الاستطلاعية ثلاث سنوات، استطاع من خلالها جمع ما كلف به من معلومات عن القدس

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 164.

² نفسه، ص 164.

وبيت لحم وعن جميع المناطق التي مر بها، بطريق الذهاب والعودة كالسامرة ودمشق وادرنة وديار بكر، علما أن هذه الطريق لم يسبق للحجاج الروس المرور بها من قبل.

وظلت الرحلات الاستكشافية الروسية إلى فلسطين متواصلة. ففي سنة 1793م وصل الراهب المسكوفي ميليتي Mility إلى فلسطين ودون ملاحظاته عن موسم الحج في القدس، وجاء من بعده الراهب فيشيناكوف 1804 - 1805م إلى القدس، وبدوره سجل معلومات دقيقة عن التركيبة السكانية لمدينة القدس. وفي سنة 1830م، وصل إلى القدس الكاتب اللاهوتي ومؤرخ الكنيسة الأرثوذكسية والموظف في الشعبة الدبلوماسية التابعة لأركان الجيش الروسي الثاني مورافيون Moraviov الذي وصل إلى المدينة عبر صحراء سيناء ومن ثم إلى غزة التي وصفها بأنها أغنى المدن الفلسطينية، وكتب التقارير الخاصة عن مدينة القدس إلى حكومته. وجاء من بعده إلى القدس عام 1845م طبيب روسي يدعى الطبيب زافا لوج Zavaloge عن طريق السويس ووصف بدقة المدن الفلسطينية التي زارها، ومما جذب انتباهه إلى القدس كثرة الفقراء فيها، حيث وصفهم بأنهم يتزاحمون حول كنيسة القيامة في القدس، وأن غالبية المسيحيين فيها يعيشون على هبات الأديرة¹.

وقد أتاحت اتفاقية كوجك كينارجه التي وقّعت بين روسيا والدولة العثمانية عام 1774م الفرصة لمباشرة النشاط التبشيري الأرثوذكسي في القدس².

لقد استطاعت روسيا فرض نفوذها على الطائفة الأرثوذكسية منذ سنة 1840م³، وحصرت نشاطها التبشيري في فلسطين دون غيرها من المناطق وبيت لحم⁴. وفي سنة 1841م وصلت أول بعثة روسية إلى القدس لدراسة أحوال الأرثوذكس السوريين وامكانية

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 166.

² نصيرات: مرجع سابق، ص 5.

³ معاشي: مرجع سابق، ص 32.

⁴ عوض: مرجع سابق، ص 265.

تأسيس مؤسسات تعليمية لهم¹، ومن ثمة أخذ الروس في شراء الأراضي في فلسطين خاصة ويطبقون عليها الأبنية ويتقربون من السكان الأرثوذكس المحليين².

فمنذ بداية أربعينات القرن 19م، بدأت روسيا تهتم بإرسال بعثاتها التبشيرية الأرثوذكسية إلى فلسطين، علما أن البعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية قد سبقتها إلى هناك، والتي بدأت بالظهور فيها مطلع عشرينات القرن 19م. وبدأ المبشرون الروس بشراء الأراضي وتشييد الأبنية عليها، منها مساكن للحجاج الأرثوذكس ومستشفيات وأديرة وكنائس، وتزامن هذا العمل مع وصول ثلاث بعثات تبشيرية روسية منظمة إلى فلسطين. ومن بين المهام المكلفة بها، هي دراسة الأوضاع العامة فيها، وتقديم الدعم اللازم من أجل زيادة نفوذ الكنيسة الروسية في الأرض المقدسة، والتصدي للدعاية البروتستانتية والكاثوليكية المعادية للأرثوذكس فيها³.

ففي عام 1843م، أرسلت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بعد موافقة القيصر الروسي المطران بارفيري Parviery بمهمة سرية إلى بيت المقدس، وبعد أربع سنوات قضاه متجولا في⁴ استانبول وسوريا ولبنان والقدس الشريف، وأجرى اتصالات مختلفة مع الأرثوذكس العرب واليونان⁵. وبعد اتمام جولته، أرسل بارفيري تقريرا مفصلا إلى البطريركية الروسية طالب فيه إرسال بعثة روسية دائمة في بيت المقدس، تتولى خدمة المصالح الروسية فيها، والدفاع عن حقوق الحجاج الروس، والإشراف على كافة الكنائس والأديرة الأرثوذكسية في

¹ عبد الرؤوف سنو: «العلاقات الروسية العثمانية (1687 - 1878) حرب القرم: مهادتها وتطوراتها ونتائجها (1853 - 1856) الحلقة الثالثة»، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت، ع 77 - 78، 1985م، ص 4.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 121.

³ حبيب محمود صالح: «البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين) 1840 - 1914م»، مجلة دراسات تاريخية، ع 65 - 66، ايلول - كانون أول، 1998م، ص ص 156 - 157.

⁴ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 166.

⁵ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 45.

القدس¹. كما انشأت الإرسالية الروسية عام 1844م سلسلة مدارس مجانية تدرس مناهجها باللغة العربية في القدس والناصره والرملة وبيت جالا ويافا وحيفا وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية².

وفي عام 1847م وبناء على اقتراح بارفيري وصل إلى بيت المقدس أعضاء البعثة الأرثوذكسية التي شكلتها البطريركية الروسية، وأوكلت رئاستها إلى صاحب المقترح. وفي عام 1848م نقل المطران بارفيري إلى البطريركية الأرثوذكسية اقتراحا ينص على إنشاء مجلس عموم روسي غير حكومي لدعم الأرثوذكس في القدس، إلا أن الحكومة أجلت موافقتها على المقترح لحين دراسته، علماً بأنه تم إنشاء الإرسالية الروسية في القدس عام 1849م، وباشرت البعثة عملها فأُسست عام 1852م داراً للطباعة في بيت المقدس لإصدار الكتب الدينية الأرثوذكسية باللغتين العربية واللاتينية وتوزيعها على المدارس الدينية الأرثوذكسية³.

وبالرغم من هزيمة الروس في حرب القرم والتي دامت من 1853م إلى 1856م مع الدولة العثمانية التي ساندتها الحلفاء فرنسا وبريطانيا وسردينيا، فلم توقف روسيا برنامجها التبشيري في القدس، إذ رأت فيه المنفذ الوحيد للتحرك من أجل استعادة نفوذها مستقبلاً في تلك المنطقة، فاهتمت بإرسال السياح والرهبان الذين عملوا على تحسين صورة روسيا لدى الشعوب العربية في إلقاء المحاضرات والكلمات الرنانة التي تعبر عن حب الروس للعرب مع إظهار مساوئ الحكم العثماني⁴.

فبعد عودة العلاقات الروسية العثمانية إلى مجاريها وصلت إلى القدس إرسالية ثانية عام 1857م وظلت إلى غاية عام 1894م برئاسة كيرلس ناخومون Cyril Naumov والذي

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 166.

² أمل الخصري: مرجع سابق، ص 88.

³ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 166.

⁴ نفسه، ص 168.

امتدت رئاسته للإرسالية إلى غاية 1863م، حيث كلف بتحسين العلاقات مع اليونانيين الأرثوذكس والاهتمام بالتعليم، ومن أهم أعماله أنه وزع أموالاً طائلة على المدارس القائمة في سوريا¹، وقام بشراء أرض وأقام عليها مستشفى روسي في الناحية الشمالية الغربية للمدينة المقدسة، كما بنى عليها كنيسة كبيرة ومستشفى ومسكن ومكتب للفصل الروسي ومنازل واسعة لنزول الحجاج الروس فيها أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة في فلسطين². ولقد بلغ عدد المبشرين الروس عام 1857م حوالي مئة راهب وسائح. وزاد عدد الحجاج للقدس خاصة بعد فتح خط ملاحه بحري بين ميناء أوديسيا في البحر الأسود وميناء حيفا الفلسطيني. وفي عام 1858م أعادت القنصلية الروسية فتح قنصليتها في القدس، وأنشأت قسمًا جديدًا في وزارة الخارجية الروسية باسم قسم فلسطين. تمكن هذا القسم في عام 1859م من جمع أكثر من مليون روبل وتحويلها إلى الإرسالية الروسية في القدس من أجل شراء الأراضي لبناء دار لاستضافة الحجاج الروس. وفي نفس السنة تمكنت الإرسالية الروسية من شراء الأراضي الواقعة ما بين بوابة دمشق وساحة الميدان في القدس، وسجلت هذه الأراضي باسم الإرسالية التبشيرية الروسية في القدس عام 1860م التي بنت عليها مباشرة بعد التسجيل دير القديسة الكاسندرا ودير القديسين الثلاثة، ومنازل أخرى مجاورة للمبشرين والحجاج الروس³.

كما تمكنت الإرسالية التبشيرية الروسية من شراء الأراضي وبناء الكنائس والأديرة والمستشفيات والمدارس الدينية حتى أصبحت تمتلك أراضي واسعة في القدس وبقية المناطق الفلسطينية بناء على اقتراحات الرّحالة الروس الذين كانت تبعثهم روسيا للاستطلاع⁴.

¹ حامد القضاة: مرجع سابق، ص 248.

² أمل الخضري: مرجع سابق، ص 88.

³ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 168.

⁴ نفسه، ص 168.

وفي عام 1858م انشئ في القدس الحي الروسي والذي اطلق عليه اسم المسكوبية لأن لقب مسكوبي كان يطلق على كل روسي، كما تعرف روسيا أيضا ببلاد المسكوب¹.

وأصبح للروس مكان واسع الأرجاء يعرف بالمسكوبية، وهو خارج سور مدينة القدس، وهم أول من شيد المباني خارج السور، حيث شيدوا فيه دار للأسقفية الروسية وأخرى للقنصلية ومستشفى وكنيستين إحداهما كبيرة تسمى كنيسة الثالوث الأقدس ولها سبع قباب مصفحة بالرصاص، وأخرى صغيرة بنيت على اسم القديس إسكندر نيفسكي، كما شيدوا عدة مباني لنزول الحجاج الروس، الأول خصص لنزول الأشراف الروسيين والثاني للكهنة المرسلين وفيه عدد من القسوس، والثالث للنساء يستوعب زهاء ألفي امرأة. أما البناء الرابع لطبقات الشعب الأخرى يتسع لألف وخمسمئة شخص، ودار للقنصلية وأخرى للقنصل وعائلته، بالإضافة إلى منازل أخرى للمكتبة والحجاب وبقية المستخدمين، ولقد شيدت معظم هذه المباني حوالي سنة 1860م².

وما بين عام 1863م و1865م تولى الأرخبيماندريد ليونيد (كافلين) مهمة رئاسة البعثة التبشيرية الروسية، وأشرف على بناء كاتدرائية مقابل بوابة يافا ودير للرهبان وأربعة بنايات أخرى في حيفا والرملة والناصرية.

وفي عام 1864م، تم إنشاء اللجنة الفلسطينية في وزارة الخارجية الروسية عوضا عن المجلس الفلسطيني بدعم من القيصر الروسي الكسندر الثاني مباشرة، عندها باشرت اللجنة الفلسطينية نشاطها بالتنسيق مع وزارة الخارجية الروسية لزيادة وتفعيل النفوذ الروسي في بلاد الشام، فتكفلت بمهمة شراء الأراضي وبناء الكنائس والأديرة والمستشفيات والمدارس. وفي

¹ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 89.

² عارف العارف: تاريخ القدس، ص 257.

هذه الفترة بالذات، تمكنت الإرساليات الروسية من امتلاك مساحات كبيرة في مختلف المدن الفلسطينية وعلى مقربة من بيت لحم¹.

وفي سنة 1865م، تسلم رئاسة الإرسالية الروسية بعد كافلين الارخيماندريد انطونين، حيث تم في عهده بناء مدرسة للبنات في بيت جالا ومستوصف خاص بالإرسالية نفسها، وشراء قطعة أرض من جبل الزيت على مقربة من بيت المقدس، ومساحات أخرى قرب الناصرة والمناطق المجاورة².

وفي عام 1871م، اشترت الإرسالية الروسية أرضا في الخليل، تعرف باسم بلوطة سيدنا ابراهيم عليه السلام وبنت عليها كنيسة، ودار ضيافة لنزول حجاجهم، كما أقامت فوق جبل الزيتون في القدس ديرا روسيا، وأخر في قرية عين كارم جنوب غرب القدس، وأنشأت مركزا في عين جالا عرف باسم بيت المعلومات، كانت تتربى فيه بنات البلد لمدة ثلاث سنوات ثم يتم انتخاب بعضهن للعمل في مدارس الإرسالية الروسية³.

وفي سنة 1881م، أصبح الكسندر الثالث Alexander III (1881-1894م) قيصر لروسيا، إذ تربى على يد راهب تربية دينية، وبذلك أصبح نفوذ الكنيسة الروسية يشمل قمة هرم السلطة فيها مما يدعم بعث الإرساليات التبشيرية الأرثوذكسية في القدس. وفي 21 مارس 1882م شكلت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية⁴، وحصلت على رعاية بلاط

¹ محمد حبيب صالح: مرجع سابق، ص 160.

² نفسه، ص 161.

³ أمل الخضري: مرجع سابق، ص 89.

⁴ الجمعية الروسية الإمبراطورية الفلسطينية: تأسست في روسيا مارس 1882م، وكانت هذه الجمعية تعتمد على تبرعات الأغنياء وأفراد الأسرة المالكة. وكانت مهمتها الأولى هي تسهيل عمليات الحج، وتسهيل تعرف الحجاج الروس على الأراضي المقدسة. ولقد عرف الحج الروسي نحو الأراضي المقدسة نوعا من التنظيم خلال القرن 19م، لأنه أصبح من مهام هذه الجمعية، وكان من بين الأهداف الأساسية لها هي إرسال المعلومات والتقارير عن الشرق. ينظر: سعاد سليم: «مشكلة اللغة في المدارس الروسية في الشرق في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين»، ندوة دراسية بعنوان روسيا وأرثوذكس الشرق، منشورات جامعة البلمند، بيروت، 19 أكتوبر 1997م، ص ص 118 - 119.

القيصر الروسي، ودخل في عضويتها سبعة أعضاء من أمراء أسرة آل رومانوف، كما أنها ضمت العديد من الأساتذة والعلماء والأطباء والرهبان، وتوقفت درجة العضوية لكل منهم على قيمة الاشتراك السنوي الذي يدفعه العضو أو ما يتبرع به للجمعية خلال السنة¹. وصنف المنتسبون إلى الجمعية وفق المجموعات الثلاثة التالية:

- 1- **أعضاء رئيسيين:** يقدم كل عضو للجمعية مبلغ خمسة آلاف روبل مقابل حصوله على شرف العضوية الرئيسية فيها.
- 2- **أعضاء عامين:** كل عضو فيها يدفع مبلغ 500 روبل مقابل انتسابه للجمعية أو يدفع مبلغ 25 روبل اشتراكا سنويا.
- 3- **أعضاء مساعدين:** أن يدفع كل عضو مبلغا ماليا قيمته 200 روبل أو أن يدفع 10 روبلات اشتراكا سنويا.

وكلفت هذه الجمعية بالعمل على تحقيق الأهداف التالية:

- تقديم المساعدات اللازمة للحجاج الأرثوذكس من الروس وغيرهم، إلى الأماكن المقدسة في فلسطين.
- إقامة المدارس والمستشفيات ومنازل لسكن الحجاج الأرثوذكس، وتقديم المساعدات للسكان الأرثوذكس المحليين والكنايس والأديرة في فلسطين
- البحث عن المصادر التاريخية والمخطوطات والكتب التي تتحدث عن الأماكن المقدسة، وأن تسعى الجمعية لنقلها إلى روسيا.
- على الجمعية تنظيم وتمويل إرساليات استكشاف وإرساليات تنقيب أثرية تسعى إلى جمع كافة المعلومات المتعلقة بتاريخ الأرض المقدسة.

كما أن مصادر تمويل الجمعية الرئيسية كانت متمثلة في:

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 169.

- الحكومة القيصريّة: إذ كانت تقدم لها مبلغا سنويا قيمته 30 ألف روبل بواسطة وزارة المالية الروسية¹.

- التبرعات التي كانت تقدم من قبل أعضاء السينود المقدس (المجمع المقدس)، كما كانت تجمع لها التبرعات من مختلف الكنائس الروسية في مواسم الأعياد والاحتفالات الدينية، وكانت المصدر الرئيسي لتمويل الجمعية².

والقصد من تشكيل الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، هو دعم النشاط الديني والثقافي الروسي في القدس، ولذا تبنت برنامجا لتعليم الأرثوذكس في عدة مدن فلسطينية كالناصرية ورام الله وحيفا ويافا وعملت باللغة العربية³.

وباشرت الجمعية أعمالها على الفور، فأرسلت ما يقارب عشرة آلاف حاج في السنة الأولى، وقدمت لهم التسهيلات كافة من نقل ورعاية صحية ومساكن ومواد غذائية، كما أصدرت مجلة خاصة بها تحت اسم " المجلة الأرثوذكسية الفلسطينية"، كان من أهم أعمالها تغطية أعمال البعثات التبشيرية الروسية على الأراضي المقدسة⁴.

ومن أهم الأعمال التي قامت بها الجمعية، خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1871- 1908م) وموافقته بمرسوم سلطاني عام 1882م، بناء كنيستين الأولى في قرية طوزيتا، والثانية في عين كرم في القدس الشريف تكون تحت إشراف الدير الروسي. وكذلك تقدمت السفارة الروسية بطلب جديد وافق السلطان عليه في 22 أكتوبر 1886م، والمتمثل في بناء كنيسة في القدس تحت إشراف الدير الروسي. وهكذا قامت الجمعية ببناء العديد من المدارس الدينية والمستشفيات خلال تلك الفترة الوجيزة 1882 - 1886م في مختلف المدن

¹ محمد حبيب صالح: مرجع سابق، ص 165.

² نفسه، ص 166.

³ نصيرات: مرجع سابق، ص 5.

⁴ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 169.

الفلسطينية، وترميم العديد من الكنائس والأديرة، كان في مقدمتها كنيسة القيامة في القدس¹. ففي سنة 1882م، فتحت مدرسة للذكور في قرية المجدل، وفي السنة الموالية فتحت أربع مدارس أخرى في عدة قرى فلسطينية، من بينها مدرسة في كفر ياسين وأخرى في رام الشجر²، كما كان للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية في فلسطين مدرسة لإعداد المعلمين تستقبل الطلاب المبعوثين من لبنان ومن عدة مناطق أخرى، وعن لغة التدريس، فهي الروسية إلى جانب اللغة العربية، وعند استكمال الدراسة يسافر الطلبة لمواصلتها في روسيا وبعد العودة يباشرون التعليم في المدارس الأرثوذكسية³.

وبناء على قرار من الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام 1882م، امتد نشاط أعمال الإرسالية الروسية الأرثوذكسية من فلسطين إلى بيروت، بافتتاح أول مدرسة لهم عام 1887م، تلتها مدارس أخرى في عدة مناطق في لبنان منها صور ومرجعيون وراشيا وكسروان والمتن والكورة وطرابلس، واعتمدت لغة التدريس العربية إلى جانب الروسية⁴.

وفي عام 1887م شيدوا نزل على نفقة الجمعية الفلسطينية الروسية التي كان يرأسها شقيق الإمبراطور اسكندر الثالث قيصر روسيا، كما انشأ الروس كنيسة باسم القديسة مريم المجدلية عام 1889م على نفقة العائلة المالكة تخليداً لذكرى والدته القيصر، على سفح جبل الزيتون من الجنوب⁵.

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 169.

² حبيب محمود صالح: مرجع سابق، ص 167.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 174.

⁴ نفسه، ص 174.

⁵ عارف العارف: تاريخ القدس، ص 257.

وفي أوت 1883م تم انتخاب بطرك جديد لرئاسة بطريركية القدس الأرثوذكسية يدعى نيكوديم¹ الذي فرحت به الأوساط الكنسية والإعلامية في روسيا، وعبرت وسائل الإعلام الروسية عن فرحها به قائلة: «إن كنيسة بيت المقدس المحاصرة من كافة الاتجاهات، والمعذبة من قبل أعدائها في الداخل والخارج، تقاد أخيراً من قبل قبطان مُنفذ سيحافظ على سلامتها. يعتبر البطريرك نيكوديم من أكثر الناس غيرة وحماسة للكنيسة الأرثوذكسية وفيه القدرة العالية والكفاءة الضرورية جداً لقيادة كنيسة هامة مثل: بطريركية بيت المقدس، خصوصاً وأن المستشرقين اللاتين والبروتستانت الذين رصدوا أموالاً طائلة وحاولوا دفع المسيحيين الأرثوذكس الفقراء لتغيير عقيدتهم بالمال والغش والباطل، وهنا لابد من يد قوية للقضاء على هذه المحاولات، والتخلص من تأثير هؤلاء المبشرين، كما تدعو الضرورة إلى تقديم كافة أشكال الدعم اللازم لهم من جهة روسية»².

لقد واصلت الحكومة الروسية دعمها المادي لبناء الأديرة وترميم العديد من الكنائس في القدس وبيت لحم وبناء العديد من المدارس التبشيرية في فلسطين، وأصدرت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية مجلة أخرى تحت اسم "أخبار الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية" التي اهتمت بإصدار دراسات المستشرقين عن الأراضي المقدسة في فلسطين عام 1886م³، بل أصبحت تمثل صوت المستشرقين الروس الذين تولوا دراسة بلاد الشام ومصر والجزيرة العربية، غطت كافة الأعمال العلمية التي قاموا بها، وفي 13 سبتمبر من نفس السنة، فتحت مدرسة متوسطة داخلية للذكور كانت مغلقة من قبل في الناصرة، وبدأت تشرف على مدرسة الإناث القديمة فيها. وزاد عدد مدارس الجمعية بشكل سريع، مما استدعى زيادة المدرسين المحليين، عندها قامت الجمعية بافتتاح معهدين لإعداد المدرسين،

¹ نيكوديم: كان يشغل منصب رئيس الإرسالية التبشيرية الأرثوذكسية لبيت المقدس لدى البطريركية الأرثوذكسية الروسية في موسكو. ينظر: حبيب محمود صالح: مرجع سابق، ص 167.

² نفسه، ص 168.

³ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 170.

الأول للذكور في الناصرة، والثاني في بيت جالا للإناث على مقربة من بيت المقدس. وهذا الأمر أثر سلباً على الإرساليات التبشيرية البروتستانتية في الناصرة لدرجة أنها وصفت بالمشلولة بالكامل بسبب النشاطات التي تقوم بها الإرساليات التبشيرية الروسية فيها¹.

ولقد عرفت المدارس الروسية في فلسطين تطوراً ملحوظاً، فتكونت المدارس في نهاية القرن 19م من مدارس ابتدائية ودور معلمين، حيث تذكر التقارير العثمانية أنه يوجد في فلسطين 84 مدرسة روسية تقدم التعليم الإرسالي الروسي لعشرة آلاف طالب وطالبة².

لكن الأرثوذكس والإرساليات التبشيرية الروسية تدهورت أوضاعهم في أواخر القرن 19م، وخاصة بعد سنة 1890م، مما أقلق الحكومة الروسية وشعبها، والسبب وراء ذلك ازدياد نفوذ التبشير الكاثوليكي والبروتستانت في القدس. كذلك ترك البطريرك نيكوديم لمنصبه، لذا قررت الحكومة حل الأزمة، وإعادة تفعيل أنشطة الجمعية للحفاظ على دور المبشرين الروس ونفوذها في المنطقة. فأعلنت الجمعية لجنة فلسطين الروسية وتولت كل المهام المسندة إليها. ومن أجل استعادة الجمعية نشاطها في القدس، أصبحت الجمعية تشرف على جميع المدارس والمعاهد الدينية، كما منحت الطلاب المتفوقين فرصة متابعة دراستهم في أكاديمية كفيف الروحية والتي خرجت الدفعة الأولى عام 1893م وتم تعيين المتخرجين في مدارس الجمعية بالمدن الفلسطينية أو في بلاد الشام على وجه العموم. كما وسعت الجمعية نشاطها في المدن الفلسطينية الأخرى كالناصرة والجليل، وفتحت بها عدة مدارس .

ورغم الصعوبات التي واجهت الروس، إلا أنه ومع ذلك حاول أعضاء الجمعية استعادة نشاطهم بالقدس عام 1898م، فافتتحوا مدرسة جديدة بها، إلا أنهم تفاجؤوا بمقاطعة السكان المحليين لها، مما أجبر الجمعية على تحويلها إلى مركز للأبحاث والدراسات. كما أجبرت الأوضاع المتردية الجمعية في القدس إلى تقليص نشاطها واختصار مهامها على تقديم

¹ حبيب محمود صالح: مرجع سابق، ص 173.

² أمل الخصري: مرجع سابق، ص 89.

المساعدات للمدارس التابعة لها فقط، وركزت في نشاطها على المدارس التبشيرية في سوريا ولبنان والأردن في تلك المرحلة ولقد لقيت نجاحا كبيرا في سوريا¹.

أما عن النشاط التبشيري الأرثوذكسي الروسي في الأراضي الشامية الأخرى من دون فلسطين فكان ضئيلا، لأن جل اهتمامهم تركز في فلسطين على خلاف الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية التي عمت أنشطتها معظم أرجاء البلاد الشامية.

وتركز النشاط الأرثوذكسي الروسي في بلاد الشام على تدريس أبناء الطائفة الأرثوذكسية الموجودة لأنهم كانوا يرسلون أولادهم للمدارس الكاثوليكية ويدرسون العقيدة الكاثوليكية لعدم وجود مدارس أرثوذكسية، لكن في سنة 1843م طلب ممثل طائفتهم في انطاكية من الراهب الروسي بارفيري أوسبينسكي أثناء زيارته لدمشق لفت أنظار السينود الروسي المقدس للحاجة الملحة للمدارس الأرثوذكسية في دمشق وبيروت وحماه وحمص وأضنة، وذلك لمواجهة المد التبشيري الكاثوليكي والبروتستانت. وبالفعل استجابت روسيا لهذا الطلب في عام 1846م، وافتتحت مدرسة أرثوذكسية للبنات في دمشق وكلف عام 1853م بارفيري بتجهيز دارا لطباعة الكتب باللغة العربية، وفي السنة الموالية أصدرت هذه الدار أول كتابين دراسيين باللغة العربية².

وبعد تأسيس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام 1882م، ركزت البعثات التبشيرية الروسية جُلَّ اهتماماتها في الأرض المقدسة فلسطين، ولم تعط لأنشطتها في سوريا ولبنان الاهتمام المطلوب. واقتصرت أعمال الجمعية خلال هذه الفترة في سوريا على تقديم المساعدات المالية اللازمة لاستمرار عمل مدرستين أرثوذكسيتين لها في دمشق، إحداها مدرسة البنات السالفة الذكر. لكن بارفيري طلب المساعدة من الجمعية لإعادة ترميم وإصلاح الأديرة والكنائس لأن وضعيتها كانت مزريّة، وتعاني من الإهمال وقلة الأموال،

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 171.

² حبيب محمود صالح: مرجع سابق، ص 176 - 187.

عندها قامت الجمعية وأخذت بطلبه، وقدمت الإعانات اللازمة للأديرة والكنائس المحتاجة في سوريا، وقامت بإجراء بعض الإصلاحات على عدد من الأديرة وأهدت في عام 1888م عددًا من النواقيس لكنائس وأديرة حماه وحمص ثم إلى دير صيدنايا للنساء عام 1901م¹.

وفي سنة 1896م، ازداد عدد المنتسبين في سوريا إلى المؤسسات التعليمية التابعة للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية إلى حد كبير. وقد بلغ عدد التلاميذ في مدارس حمص 500 تلميذ. وفي مدارس دمشق حوالي 450 تلميذ، وذلك بعد تقديم شكاوى الأرثوذكس المحليين أن أبناءهم يدرسون في المدارس المعادية للأرثوذكسية.

وفي سنة 1900م أفتتح مركز البحوث الأرثوذكسية في لبنان دير البلمند لتدريب اللغة الروسية حتى يتمكن الدارسون المحليون من الأرثوذكس من استخدام الكتب الروسية والاطلاع على الآداب الروسية بلغتها الأم، كما كان هذا المركز يرسل الطلاب الأوائل إلى روسيا لمتابعة دراستهم العالية هناك².

ووصل عدد المدارس الأرثوذكسية الروسية عام 1900م إلى 25 مدرسة فقط، تدرس باللغة العربية ولا تستقبل إلا أبناء الأرثوذكس فقط، وكلها تابعة للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية. وكان عدد المدارس في سوريا في تزايد مستمر بدعم من الجمعية الإمبراطورية، حيث تجاوز 50 مدرسة في بدايات القرن 20م، لكن مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وهجوم ألمانيا على روسيا، شلت المدارس الأرثوذكسية بالكامل، وتم إغلاقها بأمر من الجمعية الإمبراطورية³.

الملاحظ من خلال تتبع النشاط التبشيري الأرثوذكسي الروسي خلال القرن 19م أنه ركز كثيرًا على فلسطين أكثر من المناطق الشامية الأخرى، وأرسل حملات استخباراتية

¹ حبيب محمود صالح: مرجع سابق، ص ص 187 - 188.

² نفسه، ص ص 189 - 191.

³ نفسه، ص ص 191 - 194.

لترصد المنطقة وأحوالها، وركزوا في عملهم التبشيري الذي انطلق في أربعينات القرن 19م على شراء الأراضي، وبناء المدارس والكنائس ومنازل لاستضافة حجاجهم إلى الأماكن المقدسة في القدس الشريف، لكن نشاطهم تعثر بعد انسحاب البطريرك نيكوديم من منصبه في أواخر القرن 19م، والذي كان أمل الروس فيه كبيرا لاستمرارية عملهم التبشيري، ضف إلى ذلك اشتداد المنافسة مع البروتستانت والكاثوليك والتي كانت قوية في النصف الثاني من القرن 19م، وبالتالي كان ذلك بمثابة الضربة القاضية للنشاط التبشيري الروسي في فلسطين.

ومع ذلك حقق النشاط الأرثوذكسي في فلسطين تقدم ملحوظ في فترة زمنية قصيرة إذا ما قورنت بالفترات التي قضاها البروتستانت والكاثوليك في التبشير، وذلك راجع للاهتمام الكبير الذي أولته الحكومة الروسية للبعثات التبشيرية الأرثوذكسية والتي كانت تحظى بالدعم المباشر من القيصر الروسي.

أما عن باقي بلاد الشام، يتضح أن الاهتمام الأرثوذكسي الروسي بها كان متأخرا فقط حظيت ببعض الاهتمام، وخاصة الجانب التعليمي، وهذا يصنف في خانة الإيجابيات للنشاط الأرثوذكسي الروسي لحساب سكان البلاد الشامية، الذين كانوا يُدرسون أبناءهم عند المخالفين لهم في المذهب، لكن دوام الحال من المحال، فقد توقف الدعم التعليمي الأرثوذكسي الروسي لهم بالكامل بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى، وذلك بعدما كانت المدارس الأرثوذكسية تتزايد مع الزمن في عدة بقاع من البلاد الشامية، ومع ذلك فقد قدم الروس الأرثوذكس خدمة جليلة لسكان المنطقة.

وفي خاتمة هذا الفصل يمكننا القول أن البعثات التبشيرية الغربية لم تتوزع في بلاد الشام هكذا دون دراسة مسبقة، فالشام كانت مقسمة حسب البعثات إلى مناطق، فكل منطقة كانت خاضعة لسيطرة بعثة ما حسب الدولة الحامية لها.

فالبروتستانت وخاصة الإنجليز منهم كانت جهودهم منصبة على العمل التبشيري في القدس، ومن ثم جميع مدن فلسطين، أما البعثات الأمريكية فركزت جهودها على التبشير في سوريا، ثم تحولت للاهتمام بلبنان، وعن البعثات التبشيرية الفرنسية، فقد حددت لبنان كهدف لها منذ الوهلة الأولى، وجعلت نفسها حامية للطائفة المارونية، أما الروس فقد كانوا ينافسون الإنجليز البروتستانت على نفوذهم في فلسطين.

إن هذا التقسيم أدى إلى بروز تنافس بين مختلف الطوائف المسيحية ومن ورائها الإرساليات التبشيرية، خاصة بين البروتستانت والكاثوليك فبعد أن قلَّ نشاط الكاثوليك في بلاد الشام نتيجة عدة أسباب وتداعيات عادوا للنشاط، وبقوا وذلك بعد تسرب البروتستانت إلى المنطقة، ومحاولتهم التأثير على أفراد هذه الطائفة، ومحاولة ادخالهم للبروتستانتية فتركز التبشير على هذا التنافس والصراع أكثر من تبشير المسلمين، فأصبح الصراع يأخذ أبعاد أخرى، ففرنسا مثلاً أسست فرقة اللعازيين لمواجهة البروتستانت الذين ترى فيهم تهديدا لمشروعها، واحتضنت اليسوعيين في بلاد الشام أعدائها في فرنسا، وهذا الصراع بين طوائف المسيحيين يرجع في الأصل إلى التنافس الموجود بين الدول التابعة لها تلك الإرساليات في إطار التنافس الأوربي على تقسيم تركة الرجل المريض.

كما أن ظهور الإرساليات الأرثوذكسية كان متأخرا بالقياس مع باقي المذاهب نتيجة العلاقات الجد متوترة بين الدولة العثمانية وروسيا، لكن بمجرد أن تحسنت العلاقات أخذ العمل التبشيري الأرثوذكسي في الانتشار والتوسع في فلسطين نحو باقي الشام، ولو بصورة محدودة لأجل تحقيق مكاسب داخل الدولة العثمانية ومنافسة باقي الإرساليات.

1- طبيعة العلاقة بين الإرساليات التبشيرية:

تميزت العلاقة بين الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام بالتوتر والحذر من بعضها البعض وعدم انسجامها وتلاحمها، بل نستطيع أن نقول أنها كانت تتنافس بعضها البعض لتحقيق مصالح دولها في المنطقة.

ومن أجل تحقيق الغلبة كانت الدول الأوروبية تتنافس فيما بينها على زيادة عدد الإرساليات التبشيرية التابعة لها وتقدم لها الدعم اللازم لتأدية مهامها، لتتمكن تلك الإرساليات من خلال مدارسها الخاصة من نشر أفكارها بين أوساط أكبر عدد ممكن من السكان، مما يساعد الدول الداعمة لها في السيطرة، لأن أهدافهم لا تتحقق بالمصالح الاقتصادية وحدها، بل بعدد الكنائس والإرساليات والمدارس وعدد المنتمين إليها، ذلك لأنها تؤدي دورا كبيرا في تحقيق أهداف دولها¹.

وعندما أدرك الإنجليز أن المسألة ليست صراعا معنويا، وأن فرنسا وروسيا يسعيان بواسطة رعاية المسيحيين في بلاد الشام لبسط نفوذهم، فالأمر في حقيقته يُعدُّ صراعا سياسيا صرفا كالحرب. عندها بدأ الإنجليز في غرس بذور البروتستانتية في البلاد المقدسة حتى يكتسبوا لأنفسهم رعايا يمدون عليهم سلطانهم، ومن خلالهم يتغلغلون ثم يسيطرون نفوذهم، فتقدموا إلى السلطان العثماني عام 1840م، يطلبون إليه أن يسمح لهم ببناء كنيسة بروتستانتية في القدس وأيدهم الألمان في مطلبهم. وعندما أحس الفرنسيون بمسعى الإنجليز، نشطوا لإحباطه، وأثاروا كنائس الشام وبطارقته على البروتستانتية، وخوفوهم من مساعي الإنجليز، وانهالت الشكاوى على الباب العالي أن يرفض هذا الطلب. فالكاثوليكية هي

¹ مفيدة محمد إبراهيم: عصر النهضة العربية بين الحقيقة والوهم، دار مجدلاوي للنشر، ط 1، عمان، الأردن، 1999م،

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

المذهب المسيحي السائد في ولايات الدولة، وليس للبروتستانتية أتباع في أي مكان. فالإنجليز لا رغبة لهم في الشام فما عساهم يريدون إلا سلطاناً سياسياً¹.

لقد تخوف الكاثوليك من مساعي المبشرين البروتستانت بعدما استقروا في بيروت لأنهم عوضاً عن أن يدعوا غير المسيحيين إلى دينهم كما يليق بالمبشرين، راحوا يزرعون الشقاق في الكنائس المسيحية ليضعفوا نفوذها، وجذبوا من أجل ذلك الشبيبة المسيحية إلى مدارسهم البروتستانتية وكان الهدف من ذلك، هو تقويض نفوذ فرنسا السياسي القائم على إخلاص أبناء الشام من الموارد لها، وأخذوا ينتقلون في الجبال ويدعون إلى دينهم. ولكن الفرنسيين الكاثوليك لم يقفوا مكتوفي الأيدي، بل تتبع ممثلو فرنسا بدورهم تلك الممارسات وأججوا روح التعصب في الشعب ورجال الدين الكاثوليك، مما أدى بالبطريرك الماروني بأن يأمر بإحراق الكتب الدينية التي أصدرها المبشرون البروتستانت باللغة العربية².

وعندما كان المبشرون البروتستانت الأمريكيون يطوفون في لبنان من أجل نشر مذهبهم بتوزيع منشوراتهم وتأسيس المدارس، كان الكاثوليك اليسوعيون بالمرصاد لهم، فقاموا بوجهون الدعاية بالدعاية، ولمّا كانت الدعاية تحتاج مطبعة، مثل الأمريكيين أنشأوا أيضاً واحدة لهم سنة 1848م³ لإنجاح مشروعهم.

أما الحكومة الفرنسية الكاثوليكية والتي تحمي الموارد في الشام وتقف إلى جانبهم، أمرت قناصلها في بيروت بمحاصرة نشاط المرسلين البروتستانتين لإحباط أعمالهم. فقد ورد في رسالة موجهة إلى أحد قناصلهم، ما يلي: «إنني أطلب منك أن تراقب بانتباه وبطريقة سرية وسياسية، قدر الإمكان، هؤلاء العملاء، حملة الأناجيل والمواعظ الخاطئة... لا يمكن

¹ حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، ط2، القاهرة، 1938م، ص 283.

² قسطنطين بازيلى: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، تر: طارق معصراني، دار التقدم، د ط، موسكو، 1989م، ص 310.

³ اسماعيل علي: مرجع سابق، ص 47.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

أن يجلب هؤلاء المبعوثون إلا الضرر العظيم على مصالح ديننا وعلى تجارتنا الوطنية،
وعلينا لحماية كل ذلك، أن نستخدم كل ما نملك وأن نحافظ على حيادنا الظاهر»¹.

ولقد بلغت حدة العداء بين البروتستانت والكاثوليك إلى أن أحرق الأخيرون في احتفال
كبير أقيم في 28 فيفري 1855م الكتب الدينية البروتستانتية²، بل وصلت حدة التنافس بين
الكاثوليك وخاصة البعثات الفرنسية والبروتستانت الأمريكان أحيانا إلى درجة التناحر³.

وفي سنة 1859م يقول قنصل فرنسا في دمشق عن الخطر الذي يهدد البعثات الفرنسية
الكاثوليكية من طرف البروتستانت، ما يلي: «إن الدور الذي قام به الجيل الأول من
المبشرين الفرنسيين الذين عملوا في خدمة الدين والحضارة، هو قبل كل شيء درء خطر
البعثات التبشيرية البروتستانتية»⁴.

كما أن إنشاء المؤسسات التعليمية كان جزءا من صراعات الدول الغربية على زيادة
توسيع النفوذ في بلاد الشام. وليس من أجل خدمة أهل المنطقة على أساس أنهم بحاجة
ماسة للمعرفة، إذ يؤكد ذلك الأب اليسوعي بلانشيه Planchet، فيقول: «لا يمكننا أن نعمل
لنصرة وفائدة هذه الشعوب -السورية-، إلا من خلال افشال محاولات الجمعية الأمريكية
ومواجهتها بهذا جهدا، ومؤسسة بمؤسسة، وأن نعطل وسائلهم بأن نلجأ لمثلها»⁵. ولذا كان
هدف تأسيس المؤسسات، هو لضرب بعضهم بعضا، كذلك أجاب أحد الآباء البروتستانتين
عن قوة المنافسة مع اليسوعيين الذين كانوا بالمرصاد لهم في أي مكان وهو في طريقه إلى

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 168.

² الشناوي: مرجع سابق، ج 2، ص 59.

³ مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، تص: شربل الخوند وآخرون، مؤسسة هانيداد، د ط، ج 10، بيروت، ص 25.

⁴ الزبيدي: مرجع سابق، ص 116.

⁵ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 12.

صيда أواخر القرن 19م حين سئل عن سبب ذهابه، فقال: «سأفتح مدرستين... حالما أقمت سيأتي اليسوعيين لتأسيس ملكهم»¹.

أما البروتستانت الأمريكيون وفي سبيل تحقيق الوصول إلى الطوائف المسيحية كان عليهم أيضا الدخول في المنافسة مع قساوسة الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية أو بعبارة أخرى في منافسة دينية مع فرنسا وروسيا من خلال المؤسسات التعليمية والطبية².

إن تعرض البروتستانت للتبشير بين الأرثوذكس وبين الكاثوليك لم يمر بسلام، فسرعان ما نشبت العداوة بين المبشرين البروتستانت وبين الكنيسة الكاثوليكية. كما أن الكنيسة الأرثوذكسية وقفت موقف الدفاع عن النفس حينما رأت أتباعها يتدافعون على الاغراءات المادية التي كان البروتستانت الأمريكيون يستخدمونها. وهكذا اشتد الخلاف بين البروتستانت وبين الأرثوذكس والكاثوليك أيضا³. ففي سنة 1840م، حاول المرسلون الأمريكيون البروتستانت التقرب من الرُوم الأرثوذكس ومحاولة كسبهم إلى جانبهم حتى يتسنى لهم كسب النفوذ، عندها قدم قنصل روسيا احتجاجا لقنصل بريطانيا على هذا التدخل الأمريكي في شؤون الأرثوذكس محاولاً استرجاع الطائفة الأرثوذكسية إلى وصاية الروس وحمايتهم⁴.

كما وجد المبشرون الأمريكيون معارضة قوية من طرف البطريركية الأرمنية. ففي عام 1845م، تم الإعلان عن حملة للمعاقبة بالحرمان الكنسي لكل الذين خضعوا للمبشرين الأمريكيين، عندها اضطر المبشرون الأمريكيون بإنشاء كنيسة بروتستانتية لأولئك

¹ DACCACHE, OP . Cit., p. 12.

² سلوى سعد الغالبي: العلاقات العثمانية الأمريكية (1830 - 1918م/1246 - 1337هـ)، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، 2002م، ص 248.

³ خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 169.

⁴ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 50.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

المحرومين كنسياً، وبالرغم من الحماية التي توفرها الحكومة العثمانية والحكومات البروتستانتية، فقد استمرت المضايقات من جانب البطريركية الأرمنية¹.

كما أن العداء للمبشرين الأمريكيين البروتستانت من طرف المبشرين الكاثوليك والأرثوذكس كان في ازدياد كبير، خاصة عندما كانوا ينشطون في بيروت والقدس، فأصبح يؤثر على عملهم حيث يذكر أحد مبشريهم وهو مستر ويتنج Whiting في خطاب له، قوله: «وخوفاً من أن يعتمدوا على الحقيقة والعدل أو أن يتركوا الناس يحكمون على ديننا من خلال ثماره ونتائجهم، فإنهم عمدوا للكذب كملجأ لهم وملء الناس بالخوف من معتقداتنا وذلك بجعلهم يعتقدون أننا وثنيون»، إذ يتحدث بعد خطابه عن حادثة انسحاب المسلمات من المدرسة، ويقول إن الراهب اللاتيني نجح في اقناع المسلمين بمنع بناتهم من الذهاب إلى المدرسة الإرسالية الأمريكية، لأن الراهب اقنعهم بأن المدرسة وثنية شريرة عديمة الدين².

ولما ازداد التنافس بين المستعمرين وتضاربت مصالحهم، انعكس ذلك على الأبناء المبشرين الذين كانوا في الحقيقة جنوداً مدنيين لدولهم الاستعمارية، فوقع بين المبشرين الفرقة، ودب بينهم ما بين الساسة من اختلافات وتنافس، كما حصل بين الإرساليات التبشيرية في لبنان خاصة والتي كان كل منها يتبع دولة استعمارية غربية، عندها استأصلت كل من إنجلترا وفرنسا جميع المبشرين الألمان من مناطق نفوذهما، ولم تسمح إنجلترا في وقت لاحق لغير مبشريها بالعمل في مناطق نفوذهما، إلا بعد الحصول على إذن مسبق. ويقول المبشر هنري جب: «إن المبشرين استغلوا جهودهم لخدمة دولهم»³.

وما أن ظهر التبشير الأرثوذكسي في المنطقة في بداية النصف الثاني من القرن 19م، حتى دخل الرهبان الكاثوليك والأرثوذكس في صراع حول حماية الأماكن المقدسة في

¹ الغالبي: مرجع سابق، ص 248.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 84-85.

³ السقار: مرجع سابق، ص 22.

فلسطين، وسرعان ما تحول الصراع إلى قضية دولية، حيث ساندت فرنسا رجال الدين الكاثوليك وساندت روسيا الأرثوذكس، وطالبت فرنسا من السلطان العثماني عبد المجيد (1839 - 1861م) بأن يعلن بوثيقة رسمية يؤكد فيها الوضع الأفضل لرجال الدين الكاثوليك، وأن جميع الكاثوليك يتمتعون بالحماية الفرنسية حسب الامتيازات التي وردت في معاهدة 1740م، والتي لم يعد رجال الدين الكاثوليك يتمتعون بامتيازاتها في فلسطين، وذلك بسبب الدعم الروسي للرهبان الأرثوذكس فيها. وقد أيدت الدول الأوربية الكاثوليكية المطالب الفرنسية، مما شكلت وسيلة ضغط على السلطان العثماني عبد المجيد، فاضطر هذا الأخير إلى الاستجابة للمطالب الفرنسية، مما أثار ذلك غضب القيصر الروسي نيقولا الأول Nicholas (1825-1855م) الذي لم يتردد في إعلان مطالبة الدولة العثمانية بالعدول عن قرارها أو منح روسيا الحقوق نفسها في حماية أرثوذكس الدولة العثمانية¹.

وفي إطار التنافس بين الكاثوليكية والأرثوذكسية، عُين في سنة 1848م جوزيف فاليرغا Joseph Valerga أول بطريرك كاثوليكي لاتيني على مدينة القدس. وكان من أهم التوصيات التي كلف بها، هي مقاومة النفوذ الأرثوذكسي هناك. ولقد فسرت هذه الحركة على أنها سياسة كاثوليكية جديدة في المشرق العربي، وتحدٍ لنفوذ روسيا الأرثوذكسية، خاصة بعدما أعلن بابا الفاتيكان أنه لن يعترف بالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية². ولقد كان النزاع حاداً بين الرهبان الكاثوليك والرهبان الأرثوذكس في القدس لدرجة أنهم تضاربوا بالصلبان والقناديل، مما جعل روسيا التي رأت أن الدولة العثمانية لم تتصفها بأن تحتل ولايتي الدانوب ورومانيا في جوان 1853م واندلعت حرب القرم 1853-1856م³.

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص ص 166 - 167.

² سنو: مرجع سابق، ص 4.

³ الشناوي: مرجع سابق، ج 1، ص 95.

وقد أدى التنافس على أماكن النفوذ في الأماكن المقدسة في العالم العربي إلى اشتداد الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس في أواخر النصف الأول من القرن 19م، ثم ما لبث أن تحول الصراع إلى حرب استمرت ثلاث سنوات حيث لجأت كل طائفة إلى دولتها لحمايتها. فكانت حرب القرم بين روسيا التي ادعت حماية الأرثوذكس، وفرنسا التي ادعت حماية الكاثوليك، وإنجلترا التي ادعت حماية البروتستانت. واتحدت بعد ذلك فرنسا وإنجلترا مع الدولة العثمانية للوقوف في وجه النفوذ الروسي المتنامي في المنطقة. فكان السبب المباشر لتلك الحرب، هو ما وقع من خصام عنيف في مدينة القدس بين رهبان الكاثوليك والأرثوذكس، عندها انتهز قيصر روسيا الفرصة، وقدم انذارا للدولة العثمانية يطلب منها الاعتراف به رسميا بأنه حامي جميع الرعايا الأرثوذكس في البلاد العثمانية، حينها تدخلت فرنسا لمنع ذلك، مما أدى إلى اشتداد الأزمة واندلاع الحرب¹. ومما يؤكد أن تلك الحرب كانت ذات أبعاد دينية أكثر منها سياسية، هو تصريح رئيس أساقفة باريس الأسقف سيبور في تلك الفترة: «حرب القرم التي صنعتها فرنسا إلى روسيا ليست حربا سياسية، لكنها حرب مقدسة، إنها ليست حربا من دولة إلى أخرى، من الناس إلى الناس، لكن فقط حرب دينية حرب صليبية...»².

كما أن الرهبان والسياح الروس منذ مجيئهم إلى القدس لم يتوقفوا لحظة عن حملاتهم الدعائية لحكومتهم القيصرية في الأوساط العربية المسلمة، واثارتها ضد الحكم العثماني، أو التواجد الأوربي، المتمثل في الكاثوليك والبروتستانت. فيذكر أحد الرحالة الروس يدعى كيرك Kierk في إحدى مدوناته: «...أن هذا الشعب - شعب فلسطين - يحب الروس ويميل إليهم بالقياس إلى جميع الأوروبيين الآخرين، وهل تعرف لماذا؟ لأن الروس يتعاملون معهم ببساطة

¹ غراب: مرجع سابق، ص 42.

² EDMOND PARIS, Histoire secrete des jésuites, Editions I. P. B. Diffusion Fischbascher 33, rue de Seine - Paris 6ème, p 86.

وانسانية. أما الفرنسيون والإنكليز وعلى وجه الخصوص الإنكليز، فيعاملونهم كما يعاملون الحيوانات. وهذا الشعب حساس أكثر من غيره يرنوا إلى لطف وبشاشة الجوالين».

كما أن الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الروسية التي تأسست في 21 مارس 1882م، دخلت بدورها في ميدان الصراع والتنافس مع بقية الجمعيات التبشيرية الأخرى في فلسطين وذلك من أجل بسط نفوذها بالقدس، إذ دخلت في صراع مع البروتستانت والكاثوليك، بل دخلت في تنافس مع جمعية "أخوة المهد" الأرثوذكسية اليونانية مع أنهما يشتركان في نفس المذهب لدرجة اتهامهم لبطريك الروس "نيكوديم" رئيس الإرسالية التبشيرية الروسية الأرثوذكسية في بيت المقدس والذي انتخب في أوت 1883م، بالتعصب للروس أثناء قيامه بالصلاة في كنيسة القيامة باللغة السلافية¹.

وتجددت الخلافات بين المبشرين الأرثوذكس سنة 1888م بعد اتهام اليونانيين البطريرك "نيكوديم" بخيانة الأمانة، وأن أموال الكنيسة خصصت لخدمة الجمعيات التبشيرية الروسية في القدس، وتساعد الخلاف لدرجة محاولة اغتيال البطريرك في 19 مارس 1888م في "دير كيراسيم الأردني"، إلا أنه نجا بأعجوبة بفضل الحجاج الروس الذين أحاطوا به وافشلوا محاولة الاغتيال².

كما أن الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية التي سبقت الإرساليات التبشيرية الأرثوذكسية إلى فلسطين خاصة، والتي بدأت منذ ثلاثينات القرن 19م، فأخذت بدراسة فلسطين والأماكن المقدسة فيها، ووضعت دراسات أعادت فيها ملكية الأماكن المقدسة للكاثوليك، هذا الأمر استدعى تدخل الروس من خلال الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية للقيام بتحريات حول المعطيات التي كان علماء الإرساليات التبشيرية الغربية قد وضعوها خلال فترة وجودهم في فلسطين. وتمكنت الجمعية من الوصول إلى نتائج هامة،

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص ص 168 - 170.

² نفسه: ص ص 169 - 170.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

ووضعت الأسس الأولى لعلم الاستشراق الروسي، واستطاعت دفع أعداد كبيرة من العلماء الروس لدراسة الشرق العربي¹.

ومن خلال ما سبق، نستطيع القول إن ذلك التنافس الحاد بين المبشرين سواء كانوا بروتستانت أو كاثوليك أو أرثوذكس، لم يكن تنافسا دينيا يخدم التبشير أو حتى الطائفة في حد ذاتها، بل هو تنافس سياسي تحت غطاء ديني، فكل طائفة كانت محمية من قبل دولتها ومستعدة للتدخل في حال عرقلة نشاطها ليس الديني بالدرجة الأولى، بل هي مستعدة للتدخل في ما يتعلق بعرقلة مدّ النفوذ والسيطرة.

وبالتالي فمنطلق الإرساليات التبشيرية من الناحية النظرية هو نشر المسيحية وتوسيع نطاقها بتحويل أكبر قدر ممكن من المجتمع الشامي إلى نصارى على أي مذهب كان، لكن واقع الإرساليات من حيث العلاقات البيئية يبرز عكس هذا المسعى، لكون العمل الذي تمارسه الإرساليات ليس تبشيريا بالدرجة الأولى، وإنما يستخدم كغطاء يتم من خلاله تحقيق أهداف استراتيجية لبعض الدول الغربية لا غير.

¹ حبيب محمود صالح: مرجع سابق، ص 169.

2 - موقف العثمانيين وأهل الشام من التبشير

عندما تغلغل التبشير في بلاد الشام لم يكن الأمر يخلو من ردود أفعال منذ أن تفتنت له الدولة العثمانية أو أهل الشام على حد سواء، فاختلفت ردود الأفعال باختلاف الظروف المحيطة. وسأحاول في ما يلي تتبع الرُّدود والمواقف سواء من قبل الدولة العثمانية أو أهل الشام.

أ - موقف العثمانيين من العمل التبشيري المسيحي

عرفت الدولة العثمانية منذ تأسيسها بالتسامح الذي كان مع كل الطوائف الدينية التي كانت تعيش في أرجائها، إلا أن موقفها قد طرأ عليه تغيير لما تدخلت القوى الأجنبية في تحديد سياساتها الدينية، وكيفية تعاملها مع تلك الطوائف لتحقيق أهدافها الاستعمارية. ونحاول في هذا المقام أن نبين موقف الدولة العثمانية ورد فعلها من تلك التدخلات.

فعندما كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها تجاهلت النشاط التبشيري الذي كان يمارس على أراضيها، لأنها كانت لا تزال متمسكة فلم تخشى خطراً يهدد مصالحها، وأمنها من جانب تلك البعثات التبشيرية¹.

فهي كانت قد عوّلت كثيراً على هيبتها وقوتها وأيضاً في فترة قوة الدولة العثمانية كانت الإرساليات التبشيرية ومن ورائها الدول الحامية لها، ما تزال في مرحلة عدم الاعلان عن مخططاتها الحقيقية من وراء التبشير، وذلك قصد ايجاد مكان لها وضمان سير نشاطها بدون عراقيل، خاصة في ظل وجود عثماني قوي.

لكن الموقف العثماني تغير بعد ذلك حين أصبحت تلك البعثات أداة طيعة في يد الحكومات الأوروبية، تعتمد عليها في بسط نفوذها السياسي والثقافي والديني في ولايات الدولة

¹ طقوش: مرجع سابق، ص 582.

العثمانية. وأصبح النشاط التبشيري من أقوى ركائز الدول الاستعمارية التي تعتمد عليه في تنفيذ مخططاتها التوسعي¹.

لقد تفتنت الدولة العثمانية لخطورة التبشير ولم تغفل عن ذلك، وبدأت ترتاب من حركاته في كافة أرجائها، ولذلك أخذت تراقب المبشرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم. وكان العثمانيون يرتابون خاصة من المبشرين البروتستانت، لأن هؤلاء كانوا يتوارون وراء العلم البريطاني في الأغلب، ومن المبشرين اليسوعيين أيضا لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية². فمن أبرز مواقفها مع اليسوعيين، أنها لم تعترف بوجود ملة كاثوليكية في القرن 17م لأن الغالبية العظمى من سكانها المسيحيين هم من الروم الأرثوذكس. واعتبرت اليسوعيين من أتباع الصليبيين الغزاة، فلم ترحب بهم في أراضيها، بل قاومت دخولهم، إذ قبضت على خمسة مرسلين من طرف البابا إلى الدولة العثمانية في أوائل القرن 17م عندما شك الباب العالي بهم، واعتبرهم جواسيس لإسبانيا وروما³. وحينها أبلغ الصدر الأعظم السفير الفرنسي بأنه يفضل عشرة رجال دين عاديين على يسوعي واحد، واتهم اليسوعيين بأنهم أعداء الباب العالي، وأنهم يزرعون الفتنة في كل مكان، ولذا يجب محاسبتهم من قبل الباب العالي، ولكن سفير فرنسا انقذهم من ذلك، بحجة أنهم رعايا فرنسيين ووضعهم تحت حمايته⁴.

وفي إطار عملية مراقبة المبشرين المسيحيين، كانت الدولة العثمانية تقوم بعمليات التفتيش كإجراء وقائي. ففي القرن 17م كانت تقوم بعمليات التفتيش بين حين وآخر في مقر إقامة رجال الدين المبشرين، وتفرض عليهم غرامات مالية، وتمنعهم من بناء الكنائس

¹ طقوش: مرجع سابق، ص 583.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 116.

³ الصباغ: مرجع سابق، ص 815.

⁴ PAR J. DE HAMMER, Histoire de L'empire Ottoman 1600- 1623 , tome huitieme, Paris, S. d, p 166.

الجديدة، بل أصدرت الدولة العثمانية بالاتفاق مع الأساقفة الشرقيين، أوامر تمنع المبشرين من دخول منازل الروم والسريان وكنائسهم، كما تحظر على المسيحيين الشرقيين الذهاب إلى الكنائس اللاتينية الغربية، بل صدر أمر سلطاني وزع في سنة 1722م في دمشق ومدن سوريا الرئيسية، يحظر على رعايا السلطان العثماني أن يكون لهم أي علاقة بالمبشرين اللاتين بحجة العلم والتعليم، كما كانت تمنعهم من قرع الأجراس لاستدعاء المصلين، ومنعتهم من إقامة الصلاة جماعة في بيوتهم الخاصة. وكانت تعاقب المخالفين منهم لتعليماتها وأعرافها، كما كانت العلاقات تتأزم لأقل سبب تستشم منه السلطات الحاكمة مخالفة ما أو إساءة. وأثناء الحروب التي كانت بين الدولة العثمانية والدول الغربية، كانت السلطات العثمانية تقبض على رجال الدين وتضيق الخناق عليهم، لأنها تعتبرهم اتباع البابا، وهو أعدى أعداء الإسلام، وتمثلت العقوبة في السجن أو الطرد أو تحويل الكنيسة إلى مسجد أو إغلاقها لفترة من الزمن.

ومع ذلك كانت السلطات العثمانية تتنازل عن العقوبات مقابل كمية من المال في بعض الأحيان¹. وهنا يمكننا طرح بعض الأسئلة: ما هو التفسير لهذا الإجراء، هل الدولة العثمانية كانت بحاجة لهذه الأموال؟ أم أنه تواطى من رجال البلاط، أم أن الغاية من هذه العقوبة في الأساس هو معاقبة الدولة العثمانية وليس لخوف الدولة العثمانية على الدين الإسلامي أو خوفها من التبشير؟

كما أن ترميم كنائسهم القديمة أو إعادة بنائها دون إذن السلطات العثمانية كان يلحق بهم الأذى ويلزمهم دفع الغرامات المالية، ولم يكونوا يتحصلون على الإذن إلا بشق الأنفس. وعندما تكشفت أهدافهم، أخذت معاملة الدولة العثمانية تكتسي طابعا أشدًا، عندها ضاعفت

¹ الصباغ: مرجع سابق، ص ص 823 - 830.

من مراقبتهم وفرض الغرامات عليهم. ولقد ساعدها في ذلك الصراع بين طوائف المبشرين أنفسهم وعدم توحدهم، وكذلك الصراع بينهم وبين رجال الدين الشرقيين¹.

ومن بين مواقفها، أنه عندما ظهرت مطامع الدول الغربية في شبه جزيرة العرب جعلت الدولة العثمانية تحول بين المبشرين وبين بلاد العرب، كما أنها كانت تقاوم المبشرين في البلاد التركية نفسها، ثم وقفت من المبشرين كلهم موقفا حازما، فألقت في سبيلهم العراقيل وعزمت ألا يحققوا نجاحا. وهكذا أصبح التبشير بين المسلمين في الدولة العثمانية شبه مستحيلا، وذلك للرقابة الشديدة التي فرضتها الحكومة العثمانية على المبشرين، فبعد أن فتحت إحدى الجمعيات التبشيرية بضع المدارس في لبنان لأطفال الدروز في عام 1875م، اضطرت إلى التخلي عنها أمام حزم الحكومة العثمانية².

وفي المقابل، كان المبشرون يسعون للتخلص والتملص من الرقابة العثمانية، فكانوا يعمدون إلى إخفاء غرضهم التبشيري ويتقلون بين أرجائها على أساس أنهم مجرد رعايا أجنب. ولهذا، فإن الحكومة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المبشرين، ذلك لأن هؤلاء كانوا يأتون في الظاهر كرعايا إنجليز أو أمريكيين أو فرنسيين أو غيرهم، فإذا استقروا في البلاد أخذوا يقومون بالتبشير سرا ما أمكنهم، ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة من الدولة العثمانية، لجأوا إلى قناصلهم. وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا في الظاهر. ففي أوت من عام 1841م، عندما أرادت الدول الأجنبية أن تخرج "إبراهيم باشا" من بلاد الشام بالقوة، وعزمت على ضرب بيروت من البحر، أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية سفينة حربية صغيرة اسمها سيان، حملت على ظهرها المبشرين إلى لارنقا في جزيرة قبرص.

¹ الصباغ، مرجع سابق، ص ص 830 - 836.

² خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 116.

وبعد أن انتهى ضرب بيروت وخروج إبراهيم باشا أعادت الولايات المتحدة الأمريكية مبشرها إلى أماكنهم السابقة، وكان ذلك خلال شهر أكتوبر من نفس السنة¹.

كما تصدت الدولة العثمانية لمطالب الروس في عهد السلطان العثماني عبد المجيد (1839-1861م) الذي باشر سلسلة من الإصلاحات، فخشيت روسيا من نتائجها، فأثارت قضية حماية المسيحيين مجدداً وحققها في الإشراف على الكنائس والأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم على غرار ما حصل عليه الرهبان الكاثوليك من امتيازات لترضية فرنسا، فأعلنت روسيا معارضتها لذلك القرار، مستندة إلى بنود المعاهدتين كوجك كينارجة 1774م ومعاهدة ياسي عام 1792م التي أعطتها الحق في حماية المسيحيين آنذاك، إلا أنها جوبهت بالرفض العثماني لمطالبها وبتأييد من بقية دول أوروبا المسيحية².

كما أدى تأسيس عدة جمعيات عربية من طرف خريجي مدارس الإرساليات التبشيرية الروسية في بلاد الشام أن يترك أثراً سلبياً على العلاقات العثمانية الروسية، إذ لم يعد يطمئن العثمانيون لتواجد المبشرين الروس على أرضهم لإدراكهم التام بحقيقة مأرب تلك الإرساليات الروسية. وكانت تلك السياسة سبباً في ارتكاب السلطات العثمانية عدة مجازر ضد القوميات التابعة لها كالأرمن والبلقان والعرب³.

حيث تعرضت الإرساليات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية لمضايقات كبيرة من قبل السلطات العثمانية، لأنها كانت تخشى من روسيا القيصرية، التي وقفت وراء الثورة اليونانية⁴ عام 1815م، ومشاركة العديد من المتطوعين الروس في تلك الثورة، والتي انتهت باستقلال

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 116.

² مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 166.

³ نفسه، ص 171.

⁴ الثورة اليونانية: قامت في اليونان ضد الحكم العثماني وذلك بتحريض من قيصر الروس، للانفصال على الدولة العثمانية وتحريرهم بحجة أنهم أرثوذكس، عندها أعلنوا العصيان عام 1821م، عندها وجهت الدولة العثمانية حملة لإخضاع اليونان في أوت 1822م. ينظر: فريد بك المحامي: مرجع سابق، ص 411 - 421.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

اليونان عن الدولة العثمانية عام 1830م. ومن ذلك الوقت أخذت السلطات العثمانية تسعى جاهدة إلى تحجيم نشاط الإرساليات التبشيرية الروسية في بلاد الشام، خوفاً من أن تمتد نار الثورات إليها، مما زاد من الضغط عليها¹.

وحتى عندما ضعفت الدولة العثمانية وفقدت هيبتها، لم تغير سياستها تجاه المبشرين، إذ ظلت تمنع الأطفال من دخول مدارس المبشرين قبل أن ينهوا التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية التابعة لها. وكانت تحتم على أن يكون التعليم الديني في تلك المدارس قاصراً على المسيحيين وحدهم².

وبحلول القرن 19م، اتخذت الدولة العثمانية موقفاً أكثر صرامة من الإرساليات التبشيرية وذلك بالتزامن مع حركة الإصلاحات³. ففي عام 1864م، لجأت الدولة العثمانية إلى انتهاج سياسة متشددة نحو الإرساليات التبشيرية عامة للقضاء على احتمال هجومها على الاسلام⁴، وسبب ذلك هي فتنة جبل لبنان 1860م التي أكدت على النوايا الحقيقية للمبشرين ومن ورائهم الدول الغربية في تفتيت وحدة الإسلام ومن ورائه فصل بلاد الشام عن الدولة العثمانية⁵.

فقد عرفت الدولة العثمانية منذ الوهلة الأولى أن انشاء المدارس كانت الغاية الحقيقية من ورائه ليس التعليم بالدرجة الأولى، بل كان التبشير للدين المسيحي يأتي في أولويات هذه المدارس. فاعتبرت الدولة العثمانية تلك المدارس بؤراً لنشر أفكار معادية للدولة العثمانية، وتنشئة جيل موالي للقوى الغربية، لذا كان رد فعل الدولة العثمانية بأن حاولت منع أبنائها من المسلمين من الدخول لهذه المدارس. لكن تلك الإجراءات لم تكن ناجعة، فالرعايا

¹ محمد صالح: مرجع سابق، ص 197.

² خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 117.

³ الأسدي: مرجع سابق، ص 27.

⁴ الغالبي: مرجع سابق، ص 249.

⁵ الأسدي: مرجع سابق، ص 27.

المسلمين لم يستجيبوا لهذه الإجراءات، فهم يطمحون لتعليم أبنائهم تعليم راقى يتماشى مع العصرنة الحاصلة في ذلك الوقت، الأمر الذي لم يكن يتوفر في التعليم التقليدي، لذا لجأ بعض الرعايا إلى تسجيل أبنائهم بشكل سري في تلك المدارس كما حدث في سوريا مثلاً¹.

كانت تحركات الدولة العثمانية مبكرة للحيلولة دون دخول أبنائها من المسلمين للمدارس الأجنبية، لكنها لم تذهب إلى سنّ تشريعات أو قوانين تمنع ذلك. لأن الدولة العثمانية لم تكن قد أقامت مدارس رسمية تضاهي المدارس الأجنبية خاصة في بلاد الشام. لذا فقد اضطرت إلى اللجوء إلى أسلوب النصح والإرشاد لإقناع الأهالي بعدم إدخالهم لهذه المدارس وتبنيهم للغاية التبشيرية لهذه المدارس وما ينجم عنها من مخاطر على أطفالهم في المستقبل. وكلفت لهذا الغرض علماء الدين. ففي سنة 1892م أوفدت إلى ولاية سوريا علماء إلى دوائر هذه الولاية وكانت مهمتهم النصح والإرشاد، وعند عودتهم رفعوا تقريراً تضمن تعليم أطفال المسلمين في المدارس التبشيرية المسيحية خاصة البروتستانتية والجزويت اليسوعيين، وأرفقوه بمجموعة من التوصيات مفادها ضرورة تعيين أئمة في الجوامع تكون مهمتهم التدريس. كما طالبوا بضرورة تأسيس مدارس رسمية في تلك المناطق².

وقد اعتمدت الدولة العثمانية سياسة متشددة مع الإرساليات التبشيرية، خاصة في مجال التعليم، فأصدرت عدة قوانين عثمانية عام 1869م لتحديث التعليم، ووضع أسس ونظم لتأسيس المدارس الخاصة، بما في ذلك مدارس الطوائف والمدارس الأجنبية، حيث أكدت على ضرورة تقديم ترخيص من أجل تأسيس تلك المدارس، وأصرت على أن يكون المعلمون الذين يدرسون بها لهم شهادات معترف بها رسمياً. كما أخضعت الكتب والمناهج لمراقبة وإشراف الإدارة المحلية للمعارف. فجاءت كل هذه الأعمال نتيجة تزايد شكوك الدولة

¹ فاضل بيات: المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني دراسة تاريخية إحصائية، في ضوء الوثائق العثمانية، تق: خالد أرن، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 2013م. ص 41.

² نفسه، ص 43.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

العثمانية من أن نشاطات المدارس التبشيرية لها صلة بالحركات الانفصالية التي كانت تحدث بين شعوب الدولة العثمانية. وبالتالي فإن مناهج تلك المؤسسات أصبحت تتعارض مع سياسة الدولة العثمانية¹.

واكتسبت السياسة العثمانية الجديدة قوة مع مرور السنوات، الأمر الذي أدى في بعض الأحيان إلى وقوع حوادث دبلوماسية ارتبطت بالإرساليات التبشيرية، والسبب في ذلك هو تساهلها في منح الامتيازات، مما جعل المبشرين الأمريكيين والبريطانيين يطالبونها بالمزيد من التنازلات².

ولهذا بدأت الحكومة العثمانية في تعطيل استصدار التراخيص لبناء المدارس أو الكليات، فضلا عن إغلاق بعض المدارس التي بنيت بدون تراخيص. وفي عام 1869م أصدرت الحكومة العثمانية قانونا يخص المدارس، سمحت من خلال مادته مائة وتسع وعشرين لنفسها الحق في التدخل في المؤسسات التعليمية مع بقاء شرط استصدار التراخيص. وفي عام 1874م، تدخلت الدولة في المؤسسات التعليمية الأمريكية حيث تمكنت من إغلاق عدة مدارس إلى غاية 1886م، وهددت مدارس أخرى بالإغلاق لأنها تعمل بدون تراخيص، وكان أغلبها مدارس بروتستانتية. ولقد أظهرت تلك المؤسسات استعدادها بأن تخضع برامجها الدراسية وكتبها وشهادات المعلمين فيها للمراقبة العثمانية. وهذا الإجراء قلل إلى حد كبير من التدخل العثماني في عمل المدارس الأمريكية خاصة، بشرط أن تكون المناهج متوافقة مع قانون التعليم العثماني³.

وقد واجهت المدارس البروتستانتية هذه التعليمات العثمانية، مما ولد نزاعا مستمرا بينها وبين السلطات العثمانية امتد خلال النصف الثاني من القرن 19م، لذلك أصدرت الدولة

¹ الأسدي: مرجع سابق، ص 27.

² الغالبي: مرجع سابق، ص 249.

³ نفسه، ص ص 272 - 273.

العثمانية في 19 جانفي من عام 1875م مرسوما، أكدت فيه على أن يكون إنشاء المدارس صادر من السلطان العثماني شخصيا وليس من إدارة المعارف كما كان سابقا. وتجسيدا لذلك، فقد أغلقت السلطات العثمانية ثلاثين مدرسة تابعة للمبشرين الأمريكيين، وهددت اثنتين وستين مدرسة أخرى بالإغلاق، لأنها تعمل دون تصريح رسمي. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876 - 1909م) زاد الموقف تشددا من المدارس التبشيرية، فهو كان يرى أن الثورات والانتفاضات التي ظهرت في بلاده هي نتيجة ما كانت تقوم به تلك البعثات من تحريض المجتمع ضد الدولة العثمانية، كما أنها وسيلة تدخل بيد الدول الأجنبية في شؤون بلاده¹. وكثيرا ما كان السلطان عبد الحميد الثاني يصدر مراسيم يأمر فيها السلطات المحلية التابعة له القيام بإجراءات التحقيق للأنشطة التبشيرية في المناطق العثمانية، ومطالبتهم بتقديم تقارير نتائج استفساراتهم. واستمرت السلطات العثمانية في موقفها، فزادت مع الوقت القيود المفروضة على المؤسسات الأجنبية بشكل عام والمدارس التبشيرية الأمريكية على وجه الخصوص، منها فرض الضرائب على المباني والممتلكات الخاصة بالمدارس التبشيرية الأمريكية وذلك عندما لاحظت التزايد السريع لها، فأرادت تعطيلها².

كما أن السلطان عبد الحميد الثاني عمل على إنشاء المدارس الصناعية والابتدائية، والتركيز على هذه الأخيرة بهدف محاكاة العمل التربوي للمبشرين داخل الإمبراطورية العثمانية. وكان هذا الجهد التعليمي الجديد موجها للأطفال المسلمين في الدولة العثمانية. وتم استخدام اللغة العثمانية كوسيلة تعليمية شملت المناهج الدراسية مبادئ الإسلام وشريعته³، كل ذلك خوفا من استفحال العمل التبشيري ونجاحه داخل الدولة العثمانية وتأثر السكان به.

¹ الأسدي: مرجع سابق، ص ص 27 - 28.

² Devrimümitphd, « the american protestant missionary network in ottoman turkey, 1876-1914», international journal of humanities and social science, vol 4, no. 6(1), april 2014. p p 34 -40.

³ Ibid., p. 48.

وفي مارس 1895م أرسل الصدر الأعظم كتابا إلى وزارة المعارف كشف فيه أن الأجانب أقاموا مدارس مختلفة في ولاية سوريا، يمارسون فيها التعليم وفق الأهداف التي خططوها، وذلك قبل قيام الدولة العثمانية بافتتاح مدارس فيها، ونجحوا في كسب الأهالي من المسلمين وغير المسلمين، واستغواهم لإدخال أولادهم فيها. ولهذا طلب الصدر الأعظم باتخاذ الإجراءات اللازمة لإفشال مخطط أولئك الأجانب في ادخال الأهالي أولادهم في المدارس الأجنبية واصلاح المدارس الحكومية¹.

وكما أشرنا سابقا، فإن الدولة العثمانية، ولمواجهة المدارس التبشيرية، تبنت سياسة مضادة تمثلت في بناء المدارس الحكومية، فأنشأت نظاما للمعارف² صدر في عام 1869م. وقد تركز التعليم في المدارس الحكومية على تعليم مبادئ اللغة التركية والعربية والفارسية، وأيضا على العلوم الدينية، فهي كانت في أساسها تهدف إلى عصرنة التعليم في إطار مجابهة التعليم التبشيري³.

¹ فاضل بيات: المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، ص 44.

² بموجب قانون المعارف قسم التعليم الحكومي إلى 5 مراحل تعليمية وهي: مرحلة المدارس الابتدائية: وفرضت أن تبنى مدرسة في كل قرية أو قريتين، ويكون التعليم فيها إلزاميا حيث يدوم 4 سنوات إما نفقات التعليم فيها فهي على عاتق الأهالي، وركزت على العلوم الدينية والقراءة والكتابة باللغة التركية، ومرحلة المدارس الرشدية: ومدتها 4 سنوات ويمولها صندوق المعارف التابع للولاية، أما مناهج التدريس فيها فركزت على العلوم الدينية واللغة التركية ومبادئ اللغتين العربية والفارسية، ومرحلة المدارس الإعدادية: توجد في كل مراكز الأفضية ويمولها صندوق المعارف، ومدة الدراسة فيها 3 سنوات ومناهجها ركزت على اللغة التركية في الدراسة ولا تدرس اللغة العربية ويسمح للتلاميذ فيها بتعلم لغة أجنبية واحدة وهي الفرنسية، ومرحلة المدارس السلطانية: يلتحق بها الطلاب الناجحون في المدارس الإعدادية، وتوجد في مراكز الولايات وكان على التلاميذ دفع رسومها، ومرحلة المدارس العالية: وتشتمل على دار المعلمين والمعلمات ودار الفنون والصنائع المختلفة، ويشترط على التلاميذ الذين يلتحقون بها أنهم اجتازوا كل المراحل السابقة من التعليم. ينظر: عوض: مرجع سابق، ص 254 - 257.

³ نفسه، ص 254 - 257.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

وتطبيقاً للقانون السابق الذكر، تأسست عدة مدارس إعدادية في الدولة العثمانية، ومنها أيضاً في بلاد الشام، ففي سنة 1888م، تأسست إعدادية مدنية في دمشق، وإعدادية في مدينة حلب. وفي سنة 1889م أنشئت إعدادية في مدينة القدس ثم مدرسة أخرى في عكا سنة 1895م ومدرسة رابعة في نابلس سنة 1897م، وبلغ عدد طلبتها جميعاً 620 طالباً، وكانت المدارس تضم بين صفوفها، صفوفاً للدراسة الابتدائية، وفي ولاية حلب تأسست ست مدارس رشيدية في أغلب مراكز الأقضية وخاصة مركز الولاية. وبنهاية القرن 19م بلغ عدد المدارس الحكومية في بلاد الشام 11 مدرسة إعدادية، 212 مدرسة ابتدائية ورشيدية، ويضم القسمان الأخيران 6994 طالباً وطالبة¹.

ومع أن هذا التوسع في إنشاء المدارس الحكومية كان أواخر العهد العثماني، إلا أن الدولة العثمانية استطاعت من خلاله الرّد على المدارس التبشيرية بواسطة دائرة معارفها في ولاية سوريا من خلال إنشاء العديد من المدارس، معتمدة في ذلك على إيرادات صندوق المعارف من مخصصات أميرية، وإعانات سنوية من الأهالي، ومخصصات الأوقاف والرسوم التي تحصل عليها من طلبة المدارس السلطانية².

ففي عام 1901م، وضعت إدارة المعارف مبلغ 445 ألف قرش لإنشاء مدارس رشيدية في مراكز أقضية جبل الدروز الذي كان مهدداً بالغزو البروتستانتية، وفي نفس العام فتحت مدرسة ابتدائية في قرية الشيخ مسكين في مركز لواء حران، وفتحت 12 مدرسة ابتدائية في قضائي درعا وبصر الحرير³.

¹ هيثم محيي طالب الجبوري وزينب حسن عبد الجبوري: «أثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر»، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية، مج 23، ع 3، 2015م، ص 1454.

² عوض: مرجع سابق، ص 259.

³ الجبوري وزينب حسن عبد الجبوري: مرجع سابق، ص 269.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

كما اهتمت الدولة بلواء الكرك اهتماما كبيرا، وذلك بعد تسرب الإرساليات التبشيرية إليه حيث قررت تخصيص 100 ألف قرش سنويا لإنشاء المدارس في هذا اللواء¹.

وبهذه السياسة التي انتهجتها الدولة العثمانية، وصل عدد المدارس الحكومية في دمشق وحدها 103 مدرسة ابتدائية عام 1880م. أما باقي اللواء فيه 81 مدرسة، في حين ضمت مدينة حماه عام 1885م أكثر من 23 مدرسة وفي لواء حوران 27 مدرسة².

كما أن الدولة العثمانية تنبعت لأطماع فرنسا في ولاية سوريا وفي جبل لبنان بشكل خاص وذلك بعد حوادث 1860م، ولفت انتباهها نشاط المبشرين الفرنسيين في مدينة بيروت والمدن السورية الأخرى، حيث أقاموا عدة مدارس تمكنوا من خلالها من استمالة أبناء الطوائف المسيحية. كما لاحظت الدولة العثمانية اهتمام قنصل فرنسا بفرض نفوذ بلاده في منطقة بيروت، مما دفع بالدولة إلى فصل بيروت عن ولاية سوريا في سنة 1887م لتشكل ولاية جديدة وربطها مباشرة باستانبول ليسهل عليها مراقبة نشاط القناصل الأجانب فيها، وللدخول من تدخلاتهم³.

كما عملت الحكومة العثمانية على وضع العراقيل والصعوبات أمام الإرساليات التبشيرية، وذلك بإغلاق المطابع وعدم إصدار تصاريح البناء والسفر، مما زاد في ازعاج رجال الإرساليات حيث صرح المجلس الأمريكي بذلك في عام 1882م بأن: «الحكومة التي تسامحت ولكنها لم تحاب أو تفضل وجود أعمال المنصرين قد أبدت في الآونة الأخيرة روحا أقل تحررا»⁴.

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 65.

² عوض: مرجع سابق، ص ص 260 - 261.

³ نفسه، ص ص 331 - 332.

⁴ الغالي: مرجع سابق، ص 250.

ومما يدل على خوف الدولة العثمانية من العمل التبشيري، هو تلك المراسيم السلطانية التي كانت تصدرها من حين لآخر. ففي سنة 1884م أرسل حاكم لواء القدس إلى كبار مشايخ قرى اللواء منشورا سلطانياً يقول فيه: « وصل أمر من وزارة الداخلية بتاريخ 14 فيفري 1884م رقم 167، أن جلالة السلطان يمنع دخول أولاد المسلمين إلى أية مدرسة أجنبية في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، وأن من يخالف هذا الأمر سيتحمل نتائج مخالفته ... هذا وإذا لم يخبر المخاتير في القرى الحكومية عن مخافة ما، فإنهم سيتعرضون لأقسى العقوبات ...»¹. كما أنه في عام 1888م أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الأمريكيين، بحجة أنها فتحت بدون رخصة حكومية².

رغم الضعف الذي كانت عليه الدولة العثمانية خلال القرن 19م، إلا أنها لم تدخر جهداً في التصدي لنشاط الإرساليات التبشيرية إما عن طرق منعها من النشاط، أو القيام بأنشطة موازية تعارض أهداف الإرساليات.

2 - موقف أهل الشام من العمل التبشيري:

ومنذ أن جاءت الإرساليات التبشيرية إلى بلاد الشام تفتن أهلها إلى الدسائس التي تحيكها ضدهم، فبدأوا بالتصدي لها، ولم يكن المسلمون فقط في مواجهتها بصفاتهم المستهدف الأول من ورائها، فقد كان إلى جانبهم أيضاً المسيحيين الشوام الذين أحسوا أنهم أيضاً مستهدفين من قبل الإرساليات.

فمنذ ظهور التبشير البروتستانتي في لبنان عام 1820م وتمركزهم في بيروت، أثارت حركتهم قلق الكنيسة المارونية في مناطق جبل لبنان، حتى أن البطريرك الماروني منع أتباعه من إرسال أولادهم إلى المدارس الإنجيلية، بل وأصدر أمراً بإحراق الأنجيل

¹ أمل الخصري: مرجع سابق، ص 78.

² خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 119.

البروتستانتية المظلة بالنسبة إليهم، كما رفض المرسلين البروتستانت لأن وعظهم التبشيرية كانت تهدد تماسك طائفة الموارنة¹.

ومما يوضح الموقف المتشدد لطائفة الموارنة ضد المبشرين الأمريكيين البروتستانت، هو أن البطريرك الماروني كان يهدد كل ماروني يقترب من البروتستانت أو يعاملهم أو يؤجرهم سكناً أو يزورهم أو يلبي لهم طلباً أو يساعدهم على البقاء في البلاد بالحرمان الكنسي²، وكان الغرض من ذلك، حماية طائفة الموارنة والتخوف من انجذاب بعضهم إلى الطائفة البروتستانتية الجديدة والدخيلة على المنطقة³.

وكمثال على هذا نستشهد بقصة المعلم "أسعد الشدياق" أخو المفكر "فارس الشدياق" الذي كان ينتمي للطائفة المارونية وأعلن انضمامه للإرسالية الأمريكية واعتناقه البروتستانتية وعجز بطريرك الموارنة عن رده إلى مذهب، عندها احتجز في غرفة من غرف الدير التابعة للموارنة، ووضع تحت التعذيب إلى أن مات عام 1830م. وهكذا سار الموارنة على هذا النهج في تعذيب كل من يعتنق المذهب البروتستانت⁴.

كما عارض أهل البلاد الأرثوذكس إلى جانب الموارنة مجيء البروتستانت ودعوتهم، وذلك باضطهاد المبشرين وأبناء الوطن الذين انحازوا إليهم. ولقد مارس الأرثوذكس المحليين كذلك الاضطهاد على البروتستانت ومنعوا رعاياهم من الاتصال بالمبشرين البروتستانت، وكان تخوفهم مثل تخوف الموارنة⁵، ولم يكن عدائهم للإرسالية الأمريكية أقل من عدا الموارنة لهم. ففي حمص عذبت فتاة لمجرد زيارتها لزوجة مبشر أمريكي⁶.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 167.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 136.

³ صايغ: مرجع سابق، ص 50.

⁴ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 328.

⁵ صايغ: مرجع سابق، ص 51.

⁶ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 329.

كما أن الكنائس المحلية في "عبيه" في لبنان لعبت دورًا كبيرًا جدًا في توجيه نقد إلى عمل المبشرين الأمريكيين، من أجل وقف نشاطهم الذي اعتبروه مناف لهم، لأنه يستهدف تحويل اتباعهم للبروتستانتية، حيث يذكر تقرير للإرسالية الأمريكية عام 1850م: «بأن هناك في القرية شعور قوي ضدنا باعتبارنا مبتدعين دينيين»¹.

وفي المقابل، فإن أعمال البروتستانت لقيت قبولا من طرف سكان فلسطين من تأسيس للمدارس والعيادات وتقديم حتى المساعدات المادية، مما أدى إلى تكون طائفة بروتستانتية محلية، الأمر الذي ازعج الطوائف المحلية من الأرثوذكس والكاثوليك وغيرهم، مما جعلهم يشنون حملات معادية ضد المرسلين البروتستانت، واستعمال العنف معهم وكل من تبعهم في مذهبهم².

أما عن ردود أفعال المسلمين، فقد أثارت تلك المدارس التبشيرية التي انتشرت في بلاد الشام الشك والرؤية عند غالبية المسلمين، فامتنعوا عموما عن تعليم أبنائهم فيها³. ومن مواقفهم ضد المبشرين، أنه في سنة 1860م قام مبشر أمريكي يدعى آدمز بحث الناس على زيارة القدس وانتظار عودة المسيح فيها، وتبعته قرابة ثلاثون عائلة أمريكية بروتستانتية، وما إن وطأة أقدامهم أرض يافا الفلسطينية حتى قامت قيامة المسلمين ضدهم، وأجبروهم على العودة من حيث جاؤوا⁴.

وعندما اشتد التنافس بين الإرساليات التبشيرية في النصف الثاني من القرن 19م، وظهر ذلك جليا في تشييد المدارس الأجنبية، عندها دخل معهم أهل البلاد المسلمين حلبة

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 88.

² أمل الخضري: مرجع سابق، ص 76.

³ أحمد طربين: تاريخ المشرق العربي المعاصر، المطبعة الجديدة، د ط، دمشق، 1985 - 1986م، ص 377.

⁴ عارف باشا: تاريخ القدس، ص 262.

التنافس بإنشاء المدارس في شتى أنحاء الشام، وذلك بفضل جمعية المقاصد الخيرية ومدحت باشا حاكم سوريا (1878 - 1880م) الذي ساعد في تأسيسها¹.

فقد بذل جودا كبيرة لمواجهة المدارس التبشيرية التي تزايدت بشكل سريع في بلاد الشام، فشكل لذلك جمعية من العلماء المسلمين وقاموا بجمع الإعانات وأصلحوا العديد من المساجد ليحولوها إلى مدارس، وما أن رأى الأهالي المسلمين هذا الاهتمام حتى راحوا يكونون جمعيات خيرية تسهر على بناء المدارس لتعليم أبناء المسلمين، ومن أبرز هذه الجمعيات "جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية"² التي كان لها دور كبير في نشر التعليم في صفوف المسلمين في بيروت³، لأنها أنشأت لدرء الأخطار التي تعرض لها المسلمون اثر الهجمة الشرسة من الإرساليات التبشيرية الأجنبية التي غزت بيروت وجبل لبنان، خاصة بعد فتنة 1860م⁴.

لقد تأسست هذه الجمعية عام 1878م بجهد فريق من العلماء المسلمين، وقد تزايد عدد المدارس بفضل هذه الجمعية في كافة أرجاء الشام. ففي ثلاث سنوات زاد عدد مدارس دمشق ومعلميها وطلابها⁵. وفي نفس السنة التي تأسست فيها جمعية المقاصد الإسلامية تأسست أيضا جمعيات أخرى وبالأسم نفسه في مدن بلاد الشام كالقدس ودمشق وحمص وبيروت وغيرها⁶.

¹ برو: مرجع سابق، ص 16.

² جمعية المقاصد الخيرية: وهي جمعية ذات اتجاهات إسلامية وطنية أنشئت المدارس المسماة باسمها بدعم من حاكم دمشق مدحت باشا لتبلي الحاجات المتزايدة للتعليم ولتقلل من التوجه إلى المدارس الأجنبية. ينظر: مفيدة ابراهيم: مرجع سابق، ص 111.

³ عوض: مرجع سابق، ص 263.

⁴ عصام محمد شبارو: تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، دار مصباح الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، بيروت، 1987م، ص 194.

⁵ معاشي: مرجع سابق، ص 63.

⁶ الجبوري وزينب حسن عبد الجبوري: مرجع سابق، ص 1453.

لكن في أواخر عام 1882م، استبدلت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية "بمجلس معارف" من طرف الدولة العثمانية، يتولى تسييره مجموعة من علماء السنة، وذلك للتصدي لمدارس الإرساليات التبشيرية لأنها كانت تدرس اللغة العربية وآدابها، ولذلك قررت الحكومة العثمانية القيام بعمل ينافسها وإلاّ تحول الشباب إليها وشب على الأفكار الغربية التي لا تخدم الدولة¹. وقد ظهرت على غرار هذه الجمعية الخيرية جمعيات مماثلة في مدينة حمص ساهمت بقدر كبير في بناء المدارس بالمطقة، زيادة على اصلاحها للمساجد وتحويلها إلى مدارس حتى أصبح عدد المدارس التابعة لهذه الجمعيات 45 مدرسة عام 1896م، ضمت 69 معلما و 494 تلميذا. أما لواء حوران، فقد اهتم المسلمون ببناء المدارس الابتدائية في القرى منذ عام 1865م، وبلغ مجموع تلك المدارس عام 1882م 35 مدرسة، بالإضافة إلى 15 مدرسة في قضاء عجلون، وكل هذه المدارس كانت تعتني باللغة العربية وآدابها².

ومن أهم أعمال جمعية المقاصد الإسلامية إلى جانب المدارس التي افتتحتها لتعليم أبناء المسلمين، أنها في سنة 1879م قررت أفاد خمسة طلاب لدراسة الطب في المدرسة الخديوية الطبية في مصر وهم: كامل قريطم، وعبد الرحمان الأنسي، وسليم سعد الدين، سلام وحسن الأسير، ومحمد سلطاني، فكان هؤلاء بمثابة أوائل الأطباء المسلمين في بيروت والسبب في ذلك أن معظم الأطباء المسلمين كانوا من الحلاقين والحجامين ولم يكن في بيروت طبيب واحد مسلم من أبنائها يحمل شهادة جامعية³.

¹ برو: مرجع سابق، ص 17.

² عوض: مرجع سابق، ص ص 264 - 265.

³ شبارو: مرجع سابق، ص ص 195 - 196.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

ومما جاء في سياسة والي الشام مدحت باشا، أنه كان يشجع الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس في عهده، كما فرض عقوبة على ولي كل طفل يبلغ السادسة من العمر ولم يرسله والده إلى المدرسة¹.

وهناك كثير من الجمعيات الخيرية الإسلامية التي انشأت للرد على الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام، منها على سبيل المثال لا الحصر "الجمعية الخيرية الإسلامية" في دمشق بأمر من واليها مدحت باشا (1869-1871م) للعمل على توعية الناس وتحبيب العلم وترغيبهم في تحصيله. وقد افتتحت هذه الجمعية عدة مدارس، منها ستة عام 1879م في دمشق، كما انشأت الجمعية الخيرية الإسلامية في لواء القدس وجمعية البر والإحسان في يافا، وكذلك جمعية الدعوة والارشاد في طرابلس².

لقد لجأت الطوائف الإسلامية إلى مقاطعة مدارس الإرساليات التبشيرية الأجنبية في البداية وذلك بعدما لاحظت أن تعليمها هذا يهدف إلى إعداد نخبة موالية، وتحويلها إلى قيادة البلاد، خاصة بعد تقربها من المسيحيين، وتمسكت تلك الطوائف الإسلامية بهويتها الإسلامية العثمانية في وجه الثقافة المسيحية خاصة الفرنسية، وحاولت أن تؤسس مدارس خاصة، بها لكن ثقافة المبشرين ومدارسهم كانت أقوى حيث تفوقت على مدارس المسلمين³.

كما رد المسلمون في بلاد الشام على المدارس التبشيرية بإنشاء المدارس الإسلامية، فكان أهمها "الكلية الوطنية الإسلامية" في طرابلس عام 1879م، و"الكلية العثمانية الإسلامية" ببيروت، التي تعد أهم الكليات الإسلامية الوطنية بالمنطقة آنذاك، حيث أدت أكبر دور في نشر الثقافة الإسلامية والوعي في صفوف المسلمين بكامل المنطقة، وتخرج منها العديد من المفكرين الذين دعوا إلى التمسك بالإسلام وإحياء مبادئه لمسايرة الأفكار

¹ محمد أحمد: مرجع سابق، ص 315.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 324 - 325.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 79.

الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها

العصرية ومحاربة التدخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية للبلاد، وتوحيد الشعوب الإسلامية تحت راية الجامعة الإسلامية¹ التي كان ينادي بها جمال الدين الأفغاني² ومحمد عبده³ وغيرهم من علماء المسلمين⁴.

وبالرغم من وجود الجامعة الأمريكية وكلية الطب في بلاد الشام، فإن جمعية المقاصد قد أرسلت طلابها إلى مصر لدراسة الطب وابعادهم عن المؤسسات التبشيرية المتواجدة في لبنان. وفي سنة 1897م، أسس أحد مسلمي بيروت السنيين، وهو أحمد عباس الأزهرى مدرسة أطلق عليها اسم "المدرسة العثمانية". أما الدروز، فكانوا يرسلون أبناءهم للمدارس المسيحية في مناطقهم، خصوصا المدارس الإنجيلية لكن لم يستمر الحال على ذلك، فبوصول المتصرف داود باشا لحكم لبنان، أنشأ للدروز معهدا خاصا بهم في عبيه، عرف "بالمدرسة الداودية"، وذلك لإبعاد أبنائهم عن المدارس المسيحية⁵.

¹ الجامعة الإسلامية: هي تيار سياسي ظهر في الدولة العثمانية مع اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني للعرش سنة 1876م، وكانت تهدف إلى توحيد المسلمين من عرب وفرنس وهنود وعجم تحت لواء خلافة إسلامية واحدة، وذلك لوضع مقدرات الأمة الإسلامية في يد خلافة موحدة، ومن روادها جماد الدين الأفغاني ومحمد عبده. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: مرجع سابق، ط2، 1985م، ص ص 18 - 19.

² جمال الدين الأفغاني 1838 - 1897م: ولد في قرية أسد أباد في همدان، سافر إلى الهند وتلقى العلوم النقلية والعقلية، ورحل إلى الحجاز ثم رجع واستقر بكابل ثم رحل إلى استانبول وعين عضوا في مجلس المعارف ثم رحل إلى مصر وكان من فيها رواد الحركة الإصلاحية في الدين والسياسة، ثم انتقل إلى باريس حيث أسس مع رفيقة محمد عبده المصري جريدة العروة الوثقى، وبعد رحلة طويلة توفي في استانبول ونقلت رفاته إلى مسقط رأسه ومن أثاره "تاريخ الأفغان". ينظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، د ط، ج 1، دمشق، 1957م، ص 502.

³ محمد عبده: ولد في قرية صغيرة بمصر من أبوين فقيرين، درس في الجامع الأحمدى في مدينة طنطا ثم جامع الأزهر، وكان أحد تلاميذ جمال الدين الأفغاني، اشتغل في عدة مناصب علمية بين التدريس، والتحرير في صحيفة الوقائع المصرية، والكتابة في الدوائر الرسمية، ثم نفي إلى سوريا، ومنها رحل إلى باريس حيث إلتقى بأستاذه الأفغاني، فأنشأ جريدة العروة الوثقى، ثم عاد إلى مصر وتولى مهنة القضاء، وأخيرا عين مفتي للديار المصرية حتى وفاته عام 1905م، ومع ذلك خلف أثارا عدة تخلد ذكره. ينظر: زيدان: تراجم مشاهير الشرق، ج 1، ص ص 322 - 323.

⁴ معاشي: مرجع سابق، ص ص 61 - 62.

⁵ كمال سليمان الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ط 7، بيروت، 1991م، ص 183.

أما عن الشيعة العلويين، فلم تتمكن الإرساليات التبشيرية من اختراقهم وذلك راجع لتمسكهم الشديد بمعتقداتهم، إذ كانت ردة فعلهم أعنف من الدروز وأهل السنة، مستخدمين في ذلك العنف مع المبشرين المسيحيين وخاصة اليسوعيتين الذين كانت لهم دراية مسبقة وعدم الاتفاق الحاصل بين العلويين والدولة العثمانية، حيث رأوا أنه المكان الأنسب لدعوتهم وذلك من خلال استهدافهم في مخططاتهم التبشيري، لكن محاولاتهم باءت بالفشل¹.

ومن المعروف أن من بين الطوائف الموجودة في بلاد الشام اليهود، وبالتالي كان لهم رد فعل على العمل التبشيري الكاثوليكي بينهم، حيث نظروا له على أنه هجوم على معتقداتهم وعاداتهم القديمة، لذا تصدوا له وذلك بتبنيه أبناء الطائفة اليهودية من خطر تعليم أبنائهم في المدارس الكاثوليكية².

ومن خلال ما سبق، نلاحظ أن الموقف من التبشير كان متشابها سواء من الدولة العثمانية أو من طرف أهالي الشام، فالكل كان غير راضي عن هذه التحركات الأمر الذي دفعها إلى اتخاذ إجراءات عملية للوقوف في وجه التبشير. فكان التعليم هو الوسيلة الأنجح للمواجهة. والملاحظ أن هذه الاستراتيجية في المواجهة حققت نتائج ايجابية في الميدان وذلك من خلال انتشار المدارس ذات الطابع العربي والإسلامي.

¹ Verdeil, Op . cit., p p. 88 - 89 .

² Jérôme bocquet, « un exemple de minorité au levant à la fin de l'empire ottoman, les chrétiens du quartier de bâbtûma à damas ». revue des mondes musulmans et de la méditerranée, N 107-110 , septembre, 2005, p 35.

الباب الثالث

أهداف الإرساليات التبشيرية ووسائلها المستخدمة في بلاد الشام

الفصل الأول: أهداف الإرساليات التبشيرية

- 1- التنصير وتحويل عقائد السكان
- 2- القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية واسترجاع الأراضي المقدسة
- 3- بسط نفوذ دولها على بلاد الشام
- 4- خلق فئة موالية للغرب في البلاد الشامية

الفصل الثاني: وسائل التبشير

- 1 - استعمال السياسة في التبشير
- 2- التعليم
- 3- المطابع
- 4- الجمعيات
- 5- ترجمة الكتب وإنشاء المكتبات
- 6- الصحف والمجلات
- 7 - المستشفيات والملاجئ

الفصل الأول: أهداف الإرساليات التبشيرية

جاءت الإرساليات التبشيرية إلى بلاد الشام لتحقيق عدة أهداف، والسؤال المطروح: هل نشاط الإرساليات كان مستقلاً عن السلطة السياسية لحكام بلدانها؟ أم أن هناك تنسيق بين الطرفين لتحقيق أهداف دينية، وسياسية...؟ ونحاول خلال هذا العرض الإجابة عن الأسئلة المطروحة وتحديد الأهداف.

1 - التنصير وتحويل عقائد سكان الشام

تمثلت الأهداف التي سطرتها الإرساليات التبشيرية التي جاءت إلى بلاد الشام في تحويل المسلمين عن دينهم إلى النصرانية، لأن الإسلام كان أشد كرها عند المبشرين الذين افترضوا أنه في كتاباتهم، ولذا كانوا يتمنون أن ينصروا المسلمين كلهم، وهذا كان حلم كل المبشرين على اختلاف مذاهبهم، حتى أن المبشر الأمريكي المستر ستيفن بنروز¹ رئيس الجامعة الأمريكية يقول: «إن المبشرين يمكن أن يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات...» ثم قال: "ولقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجؤوا إليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان"².

وكان السبب في تنصير المسلمين، هو ذلك الحقد التاريخي للصليبية على الإسلام منذ زمن الحروب الصليبية، حيث يقول أحد رجال التبشير، وهو غارنر: «إنه وإن كان قد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين، ليقموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي، لكن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة، بقدر ما كانت لتدمير

¹ ستيفن بنروز: رئيس سابق للجامعة الأمريكية منذ عام 1948م وتوفي في 9 ديسمبر عام 1954م. ينظر: خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 46.

² نفسه، ص 46.

الإسلام»¹. وهذه المقولة تبين مدى الحقد الصليبي على الإسلام والكره العميق له والذي برز مع تلك الحروب الصليبية والذي ظل مستمرا لقرون عدة.

ويذكر المستشرق الألماني بيكر Becker: «أن هناك عداء من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا منيعا في وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لوصولانها»².

فالكره للدين الإسلامي واضح في أقاويل الكثير من المبشرين الذين يسعون إلى تحطيمه بوسائلهم التبشيرية، ولعل أبرزهم، المبشر الأمريكي هنري هاريس جسب³، حيث قال: «إن الإسلام مبني على الأحاديث أكثر مما هو مبني على القرآن، ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الإسلام شيء...»، ويقول مبشر آخر اسمه نلسن عن الإسلام، إنه مقلد ومحاسنه مأخوذة من النصرانية، أما باقيه مأخوذ من الوثنية. وللنيل من المسلمين يقول مبشر اسمه جون تاكلي: «يجب أن نستخدم كتابهم أي - القرآن الكريم - وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه لنقضي عليه تماما، يجب أن نري هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا»، وإذا تكلموا عن المسلمين، قالوا عنهم أنهم: «أعداء الصليب وأعداء الديانة الكاثوليكية»⁴.

وفي أحد كتب المبشرين اسمه "طرق العمل التبشيري بين المسلمين" يُبينون حيلهم لإبعاد المسلمين عن دينهم، فيقولون: «لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون في الدرجة الأولى بأننا نحبههم فنكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم ... يجب على المبشر أن يحترم في

¹ البساطي: مرجع سابق، ص ص 31 - 32.

² محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط 3، القاهرة، مارس 1961م، ص 516.

³ هنري هاريس جسب: يعتبر من أشهر المبشرين الأمريكيين البروتستانت في لبنان في القرن 19م، حيث عرف بنشاطه الكثيف في التبشير خاصة في بلاد الشام. ينظر: خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 - 1870، دحلب، د ط، الجزائر، د س ن، ص 75.

⁴ خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص ص 39 - 40.

الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يصغي إليها، وعليه أن يتحاشى أن يقول عن المسيح أنه ابن الله حتى لا ينفر منه أولئك الذين لا يؤمنون هذا الايمان، فيستطيع أن يقاربهم حينئذ بما يريد أن يدعوهم إليه»¹. وراحوا يجادلون المسلمين في مدارسهم التبشيرية محاولين إبراز فضل النصرانية على الإسلام وذلك في سبيل نشر المسيحية².

ولم يقتصر عمل المبشرين على تنصير المسلمين، بل تعداه إلى هدف آخر، وهو محاولة إضعاف وهدم عقيدتهم الإسلامية ومحاولة تشكيكهم فيها، إذ يقول هوارد بلس رئيس الجامعة الأمريكية الأسبق في بيروت: «التعليم في مدارسنا وجامعتنا هو الطريق الصحيح لزلزلة عقائد المسلم وانتزاعه من قبضة الإسلام»³.

فالهدف الأول للمبشرين هو تحويل المسلمين إلى نصارى، أو محاولة تشكيكهم في عقيدتهم ليتركوا الإسلام وليتحولوا إلى نصارى في المستقبل⁴، وإضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين حيث يقول الدكتور محمد حسين هيكل في ذلك: «إن هدف التبشير هو توهين الروح المعنوية في قلوب المسلمين من جميع طبقاتهم، وأن إضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين بها، هي استمرار للنضال التاريخي القديم بين الشرق والغرب، والإسلام والنصرانية... إن هذه الغاية التي تعمل لها الأمم الأوروبية وترصد لها الأموال الطائلة، وتجند لها من الدعاة جيش ضخم من صور المعلمين والمبشرين والمبشرات والأخبار»⁵.

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 52.

² نفسه، ص 50.

³ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 164.

⁴ البساطي: مرجع سابق، ص 31.

⁵ نفسه: ص ص 43 - 44.

لتهوين عقيدة وإضعاف أهم الروابط التي تربط بين أبناء الأمة الإسلامية، وهي الرابطة الدينية، ومن أجل إضعاف الأمة ليسهل غزوها والسيطرة عليها بعد ذلك، ومما يؤكد ذلك اعترافات بعض المبشرين أنفسهم، ومنهم المبشر صمويل زويمر¹ كبير المبشرين في البحرين حيث ذكر في أحد المؤتمرات التبشيرية، فقال: «إن مهمة التبشير الذي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست ادخال المسلمين في المسيحية وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها»².

ومن أجل تنصير المسلمين في بلاد الشام، أنشأوا العديد من المدارس³، ويعترف المبشرون أنفسهم أن التبشير وسط المسلمين قد فشل⁴.

ومن بين أهداف الإرساليات التبشيرية البروتستانتية خاصة، وهي ضرورة تنصير اليهود، وتذكيرهم بالمسيح المنتظر، وتذكيرهم بأن تجمعهم في فلسطين هو مؤشر أكيد على قرب المجيء الثاني للمسيح⁵، ومن أجل تنصير اليهود الذين يتم تجميعهم في وطنهم القومي القومي بفلسطين كما يدعي المبشرون البروتستانت، فقد تأسست أول أسقفية بريطانية بروسية في القدس الشريف عام 1841م، والتي كانت ترمي لتنصير اليهود، ولذلك تم اختيار أول أسقف لها من اليهود المتنصرين يدعى مايكل سولومون ألكزاندر. وكان من أهم ممثلي

¹ صمويل زويمر: يُعد زويمر من أكبر أعمدة التبشير في العصر الحديث، وقد أسس معهداً باسمه في أمريكا لأبحاث تنصير المسلمين، كان رئيس إرسالية التبشير العربية الأمريكية في البحرين التي دخلها عام 1890م، وأنحصر نشاطه في مجال التطبيب في الخليج العربي ورئيس جمعيات التنصير في الشرق الأوسط. كما كان يتولى إدارة مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية التي أنشأها سنة 1911م، وتعتبر من أخطر المجلات الأمريكية في الوقت الحاضر لطابعها التبشيري. ينظر: حسن إبراهيم: مرجع سابق، ص 343.

² مفيدة إبراهيم: مرجع سابق، ص 102.

³ خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 78.

⁴ نفسه، ص 46.

⁵ أمل الخصري: مرجع سابق، ص 77.

بريطانيا في فلسطين، الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود. ولذلك فقد كان لتصير اليهود من أهم مهام الأسقف ألكزاندر، لكن نشاطه لم يفلح بسبب تمسكهم بعقيدتهم، مما دفع خليفته البروسي صامويل جوبات لتحويل نشاطه للتصيري من اليهود إلى نصارى فلسطين الأرثوذكس¹.

استهدفت الإرساليات الأمريكية في البداية السكان المسلمين واليهود في الإمبراطورية العثمانية، لكن لم تتأثر مشاعر أولئك السكان، وذلك راجع إلى تمسك المسلمين واليهود بدينهم ومعتقداتهم ونبذهم للثقافة الغربية التي يمثلها المبشرون الأمريكيون، مما أدى بهؤلاء الآخرين إلى تحويل عملهم إلى المسيحيين على اختلاف طوائفهم داخل الدولة العثمانية². ومن أجل تحقيق أهدافها، سارعت إلى إنشاء الكنائس في المدن والقرى وتوزيع الأناجيل البروتستانتية والمؤلفات المسيحية، فضلا عن إنشاء المدارس والمستشفيات³.

حاولت الدول الغربية منذ مطلع القرن 19م نشر المسيحية بين بعض الطوائف اليهودية المقيمين في أوروبا، ومن تلك الدول نجد بريطانيا التي أسست منذ عام 1809م جمعية لأجلهم تسمى الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود، والتي أخذت تشجعهم على الهجرة إلى أرض فلسطين. وأما عن الهدف من وراء ذلك، كان تجميع اليهود على أرض فلسطين والتخلص منهم في أوروبا لأنهم قد ذاقوا منهم ذرعا، وانتهز المبشرون سياسة "ابراهيم باشا" في الشام التي تنص على التسامح الديني، فأسسوا كنيسة صهيون، ثم استغل المبشرون القضية اليهودية في سبيل تحقيق مآربهم التبشيرية، من ذلك أن ملك بروسيا فردريك ويهلم

¹ أمل الخصري: مرجع سابق، ص 68.

² DEVRIM, OP . Cit., p. 43.

³ الأسدي: مرجع سابق، ص 24.

الرابع حاول أن يبني مركزا بروتستانتيا لإصلاح الكنائس الشرقية بصفة عامة، ولتنصير اليهود بصفة خاصة لتبسط نفوذها على كل بلاد الشرق¹.

أما غرض المبشرين الأمريكيين البروتستانت في بلاد الشام، كان موجهها في الأساس نحو العمل بين اليهود أكثر من الرغبة في إنشاء طائفة بروتستانتية في الشام، لأن اليهود عند البروتستانت هم شعب الله المختار وأن الله وعدهم بفلسطين².

إن المساعي التبشيرية التي بدأت في القرن 19م تهدف إلى إحضار المسيحية لشعوب الإمبراطورية العثمانية وإحياء المسيحية الشرقية³، ومحاولة التبشير بين المسلمين لكن امكانية تحويلهم إلى مسيحيين لم يكن أمرا سهلا حينها، لذلك ركز المبشرون الغربيون في المقام الأول على العديد من الأقليات المسيحية التي تعيش في الإمبراطورية العثمانية، بما في ذلك الموارنة واليهود⁴.

فعندما دخلت الإرساليات التبشيرية إلى بلاد الشام كان من بين أهم أهدافها، هو استقطاب عناصر جديدة لمذهبها مسيحية كانت أو مسلمة، مما جعلها تدخل في صراع مذهبي حاد وصل إلى حد التناحر أحيانا، فقد كان كل مبشر يسعى جاهدا لتوسيع رقعة مذهبه على حساب المذاهب المسيحية الأخرى. ولقد صرح مختلف المبشرين بهدفهم المذهبي وعلى رأسهم بابا الكنيسة الرومانية الذي صرح في 24 ديسمبر 1743م، قائلا: «إن هدف المبشر هو ادخال الشرقي إلى الكاثوليكية، فالكاثوليكية بالنسبة له هي الدين الصحيح ولا يرى في المذهب البروتستانتي خيرا للدين المسيحي»، في حين يرى المبشرون الأمريكيون

¹ محمد الجوهري: "علاقة التنصير بالصهيونية الغزو الفكري"، قسم الدعوة وأصول الدين، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية شاه علم، ماليزيا.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 70.

³ DOGAN, Op .Cit., p. 4.

⁴ Ibid., p. 4.

والإنجليز أن البروتستانتية هي الدين الصحيح عكس الكاثوليكية، ومن هذا المنظور سعوا إلى نشرها ونافسوا كل المذاهب في بلاد الشام. وقد قال أحد عمداء الكلية الأمريكية ببيروت وهو ستيفن بنروز: «إن الغاية الأولى من تأسيس الجامعة لم يكن تعليم العلم وإنما نشر المذهب البروتستانتي»¹.

فالهدف من وراء انشاء المدارس والكليات، هو نشر المسيحية في أرجاء الشام، حيث أن المبشر الأمريكي "هنري هريس جيب" في رسالة بعث بها إلى ستوارت دودج في 5 ديسمبر 1870م، يقول فيها: «لنبتهل إلى الله في سبيل تعميد نفوس أولئك الشباب الذين يترددون على الكليات» ويقول أيضا: «أن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية»، كما قال المبشر "جيب" قبل ذلك: "أن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير"².

وقد أنشأت الإرساليات التبشيرية من أجل نشر الديانة المسيحية العديد من الكنائس في المدن والقرى، وقامت بطباعة الأنجيل والمؤلفات المسيحية، واستعملت أكثر الوسائل أهمية للوصول إلى الناس وهي المدارس والمستشفيات التي أنشأتها تلك الإرساليات³. ولتجسيد ذلك الهدف، كانت الكلية السورية الإنجيلية في بيروت تفرض على طلابها سواء مسيحيين أو مسلمين دخول الكنيسة وعلى حضور درس التوراة⁴.

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 35.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 66 - 67.

³ الغالبي: مرجع سابق، ص 248.

⁴ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 81.

أما عن أهم الأهداف التي سطرته الإرساليات الكاثوليكية التي جاءت إلى بلاد الشام هي جذب اتباع المذاهب المسيحية الأخرى إلى الكاثوليكية وتنظيم الموارد وربطهم بروما¹، وتحويل المسلمين إلى المسيحية الكاثوليكية، وكذلك كل المخالفين للمذهب الكاثوليكي. وعندما أدرك المبشرون الكاثوليك أنه يستحيل عليهم تحويل المسلم عن دينه إلى المسيحية، عملوا على التركيز على الطوائف المسيحية المختلفة معهم في المذهب الموجودين في الأراضي العثمانية، وتلقين العقيدة المسيحية الكاثوليكية وترسيخها لدى غير المسيحيين الموجودين في ولايات الدولة العثمانية وتعليمهم الكتاب المقدس الإنجيل، والعمل على دمج كنيسة الشرق مع الغرب المسيحي في روما، والعمل على تنشئة مبشرين محليين لتسليمهم إدارة الكنائس في أوطانهم². ومن أجل الدفاع عن الكاثوليكية والإيمان الكاثوليكي حيث عمل اليسوعيون على تحقيق هذا الهدف وذلك بواسطة تأسيس المدارس والكليات في أرجاء الشام³.

مما سبق يتضح أن الإرساليات التبشيرية انطلقت لتحقيق هدف أساسي وهو نشر الديانة المسيحية في بلاد الشام وتوسيع نطاقها، وعندما تعذر عليها ذلك كثفت جهودها بهدف تحويل معتقلي المذاهب المسيحية نحو مذهب الإرسالية، مما أدى إلى تضاربها فيما بينها، وهو ما جعلنا نرتاب في صدق توجههم التصيري التبشيري.

¹ رافق: مرجع سابق، ص 429.

² إيمان عبد الرحمان هياجنة وحنان سليمان ملكاوي: «التبشير الفرنسي الكاثوليكي في ولاية الأناضول في القرن التاسع عشر (النشاط التعليمي نموذجاً)»، مجلة دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، مج 41، ملحق 2، 2014م، ص 730.

³ DACCACHE, Op . Cit., p. 8 .

2 - القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية واسترجاع الأراضي المقدسة

تمثلت أهم أهداف العمل التبشيري الذي سطرته الدول الغربية لإرسالياتها في القضاء على الدولة العثمانية، حامية الإسلام والخصم المعاصر لهم، والتي امتدت أطرافها إلى قلب أوروبا المسيحية، فانتشرت الدعوات بين الآباء والرهبان: «لإعادة المسيح إلى موطنه وطرد المحتل من الأماكن المقدسة» وتحرض الملوك «لإعادة البحر المتوسط مسيحيا كما كان». وقد تعالت الأصوات التي تطالب بسقوط الأتراك الذين لقبوا عندهم بأسماء وهي اللصوص، والقتلة، والمجرمين، ووصل الأمر بأحد الرهبان اليسوعيين يسمى "الأب جوزيف" في ظل تلك الظروف إلى تأليف قصيدة شعرية تكونت من 4037 بيتا باللغة اللاتينية، يتحدث فيها عن الحرب المقدسة ضد الإسلام أطلق عليها اسم "La Turciade" "لا تركياد" نسبة إلى تركيا¹.

فكان لابد عليهم التركيز على الوسائل التبشيرية حينها، لأن الظروف لم تكن لتسمح بشن حرب صليبية جديدة وتحرير الأرض المقدسة بقوة السلاح وحماية المسيحيين. فتزامنت دعوات الآباء والرهبان مع انتشار الإرساليات التبشيرية في كل أقطار الدولة العثمانية، أملا في التمكن من توجيه الضربة إلى إمبراطورية "الشیطان" كما يسمونها، فوصل أربعة يسوعيين إلى استانبول عام 1609م بقيادة "كانيلاك" وأقاموا قرب السفارة الفرنسية. أما الكبوشيون أسسوا مركز لبعثتهم في حلب عام 1630م، وتبعهم اليسوعيون عام 1650م. كما أرسل "الأب جوزيف" ثلاث مجموعات من البعثات حوالي عام 1654م، الأولى إلى استانبول واليونان، والثانية إلى صيدا امتدت منها إلى سوريا ومصر. وثالثة إلى بلاد فارس في زمن الشاه عباس، لكن قوة الدولة العثمانية التي كانت متشددة حيال تلك البعثات لم يسمح لها

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 23.

طيلة ما يقارب ثلاثة قرون من تحقيق هدفها، ألا وهو التخلص من تلك الدولة العثمانية إلاّ مع بداية القرن 19م، زمن التحولات الكبرى في أوروبا¹.

إن القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية يؤدي إلى تجزئتها والاستيلاء على أقطارها الواحدة تلو الأخرى، ومن ثمة الاستيلاء على بلاد الشام التي تعد من أهم الأقاليم العثمانية، فالشّام تُعدّ بعداً استراتيجياً خاصة اقتصادياً، فهي تربط أوروبا بالشرق الأقصى الذي يعتبر مصدراً مهماً للكثير من المواد الأولية التي تحتاجها أوروبا في صناعتها، خاصة وأنها شهدت خلال القرن 19م ازدهاراً كبيراً في مجال الصناعة، كما تعتبر سوقاً استهلاكية واسعة لموادها المصنعة ولترويج منتوجاتها، ولأنه من الصعب أخذ الشام والخلافة الإسلامية قائمة، كان من الواجب القضاء عليها، ضف إلى ذلك أن بلاد الشام تضم في تركيبها البشرية عدة طوائف مسيحية يخضعون لحكام مسلمين، ويرون أنهم مضطهدون وأن الدول الغربية هي التي تحميهم، بحجة حماية النصارى التي منحتها إياها الامتيازات العثمانية، وبالتالي رحبوا بالمبشرين لأنهم رأوا فيهم أداة لخلاصهم وتحريرهم من الحكم الإسلامي العثماني، وبالتالي ساعدوا كثيراً على تجسيد ذلك الهدف، وهو القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية من طرف الدول الغربية.

فبقاء الخلافة الإسلامية يعني وجود نظام سياسي يجمع شمل المسلمين، مهما بلغ واقع حال هذا النظام من الضعف والتضعع، كما أن بقاء الخلافة دليل على استمرارية تاريخ المسلمين في ظل كيان سياسي موحد، وبقاؤها أيضاً يعني بقاء الرباط الذي يبرر للمسلمين الاشتراك والمساهمة في الدفاع الدولي عن بلاد المسلمين وحقوقهم، وإقامة ألوان التعاون فيما بينهم².

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 23 - 24.

² حبنكة الميداني: مرجع سابق، ص 321.

ولهذا كان هدف الدول الكبرى، هو القضاء على الدولة العثمانية والسيطرة على أملاكها، خاصة بعدما ضعفت وأصبحت تعرف بالرجل المريض الذي ان الأوان لتقسيم تركته التي يطمع فيها الكل¹، ومن بينها بلاد الشام، ولقد خططوا لذلك، وتجمعت كل القوى المعادية للإسلام لتعمل معا من أجل تحقيق ذلك².

ومن أهدافهم، السيطرة على العالم الإسلامي الذي يملك موقع مهم واستراتيجي، فهو ملتقى القارات من ناحية طرق المواصلات، وهو غني بالموارد والثروات الطبيعية، وكان هدفهم استنزاف تلك الثروات ووضع الحواجز الجغرافية للفصل بين شعوب المنطقة الإسلامية³.

فالدولة العثمانية كانت تضم وقتها قرابة 35 مليون مسلم وتترع على مساحة شاسعة تمتد على قارات ثلاث، وتترعم العالم الإسلامي، ولذا كانت تمثل الهدف المباشر للقوى المسيحية الغربية لتمزيقها⁴ وتفتيت وحدة المسلمين لأنها تشكل حاجزا أمام استعمار الشعوب الأوروبية وعلى استغلالها واستنزافها لثروات المسلمين. وفي هذا الصدد يقول لورانس براون: «الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار»⁵. فوجهت إرسالياتها التبشيرية إلى ولايات الدولة العثمانية بصورة مكثفة، فكانت البداية ببلاد الشام ومنها وصلت إلى مصر⁶.

لقد خطط المبشرون للقضاء على الخلافة العثمانية مبكراً وتجمعت كل القوى المعادية للإسلام لتعمل معا من أجل تحقيق ذلك الهدف الذي تمكنت منه فعلا. ففي عام 1900م قال

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 45.

² أحمد عبد الوهاب: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 2001م، ص 175.

³ محمود عبد الرحمان: التنصير والاستغلال السياسي، دار النفائس، ط 1، بيروت، 2009م، ص 57.

⁴ محمد نعيم: مرجع سابق، ص 23.

⁵ البهي: مرجع سابق، ص 515.

⁶ محمد نعيم: مرجع سابق، ص 23.

رئيس إرساليات التبشير الألمانية في تقرير له عن أعمالها: «إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتنا في آسيا وأفريقيا، بل ستكون في المراكز التي يستمد الإسلام منها قوته وينتشر، سواء كان في أفريقيا أم في آسيا، وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولي وجهها نحو الأستانة عاصمة الخلافة، فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبناننتنا فيها، ويجب أن يكون جل ما نتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية، هو بذل مجهوداتنا نحو هذه العاصمة وهي قلب العالم الإسلامي»¹.

وفي مقال نشرته مجلة العالم الإسلامي التبشيرية جاء فيه: أن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي من الإسلام، ولهذا الخوف أسباب، منها: أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً، بل أتباعه يزدادون باستمرار².

يقول المبشر غلادستون: «ما دام القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»³. ويقول أحد القساوسة يدعى سيمون: «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية، والتنصير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة»⁴.

إن الإرساليات التبشيرية في ظاهرها كانت دينية لكنها سياسية في حقيقتها، إذ أن الدول الأجنبية كانت تريد تحطيم الإمبراطورية العثمانية حتى تستطيع بسط نفوذها على بلاد

¹ طعيمة: مرجع سابق، ص 183.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 131.

³ إبراهيم بن مسعود المالكي: "النشاط التنصيري في منطقة الخليج وأهدافه وأبعاده وسبل مقاومته"، (بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة)، إشراف: يحيى محمد ربيع، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1429هـ، ص 25.

⁴ محمود عبد الرحمان: مرجع سابق، ص 58.

الشرق، ولذا لجأت الدول الغربية إلى استغلال الأقليات الطائفية في الدولة العثمانية، والغرض من ذلك، هو أن ينفذوا بمشاريعهم الاستعمارية إلى بلاد العرب والمسلمين¹.

فالقضاء على الدولة العثمانية يمكن الدول الغربية من القضاء على وحدة العالم الإسلامي وتفككه، ثم السيطرة عليه وأخذ بلاد الشام التي كانت تتنافس عليها تلك الدول والحصول على موقع وسط العالم الإسلامي.

وكان لدستور 1908م الذي أعلنته الدولة العثمانية والذي ينص على اعلان الحرية العثمانية، أثر كبير في تجسيد هدف القضاء على الدولة العثمانية، حيث رأى فيه المبشرون فرصتهم السانحة لنجاح حركة التبشير، فقال "هنري جيب" المبشر الأمريكي: «إن القضية التي تواجهنا بطبيعة الحال هي: ماذا يكون من أمر هذا الانقلاب العظيم على دين الإمبراطورية؟ .. إن هذا سيساعد على طبع الكتب البروتستانتية، وسيصبح المرء حراً في أن يغير دينه»².

ويقول الكولونيل لورانس في عام 1916م في تقرير للمخابرات البريطانية: «إن أهدافنا الرئيسية تفتتت الوحدة الإسلامية بدحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، فسيقون في دوامة الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة متنافرة غير قابلة للتماسك»³. ويؤكد لورانس براون بقوله أن الهدف من التبشير هو أن: «...يبقوا - العرب - متفرقين حتى لا يكون لهم وزن ولا تأثير إذ أن تجمع العرب يساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية»⁴.

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 182.

² طعيمة: مرجع سابق، ص 183.

³ حبنكة الميداني: مرجع سابق، ص 335.

⁴ معاشي: مرجع سابق، ص 34.

ولطالما كانت هذه طريقة البلاد الغربية في الوصول إلى غاياتها ومأربها من خلال إحلال الفوضى لتكون ذريعة لتواجدها في المنطقة، وكى تستخلصها كحجة للتدخل وإحلال السلام وهذا ما تشهده البلاد العربية في الوقت الحالي.

لم تنحصر أهداف المبشرين في القضاء على الدولة العثمانية والعالم الإسلامي، بل كان من بين أهم غايتهم هو استرجاع الأراضي المقدسة في فلسطين، حيث كتب أحد أساقفة الدومينيكان الذين ظهروا في الشام عند مستهل القرن 13م، وهو "وليم الطرابلسي" عام 1270م كتابا جاء فيه: « نريد مرسلين لا جنودا، لاسترداد الأرض المقدسة»¹.

وانتشرت في ذلك الوقت دعوة صريحة للاستيلاء على فلسطين تحت شعار " الحملة الصليبية السلمية"، كما شاعت الدعوة إلى الامتلاك الفعلي للأرض المقدسة، وذلك بين الكاثوليكية والبروتستانتية، وظهر الاعتقاد بضرورة العمل على استرداد فلسطين عن طريق حملات دينية وثقافية وخيرية، وكلف المبشرين الغربيين بذلك العمل حتى تدخل الأرض المقدسة وسكانها تحت راية المسيح، وبذلك زادت رحلات الحجاج إلى الأرض المقدسة وتوافد إليها المبشرون، وقاموا بنشر الكثير من المعلومات التفصيلية حول فلسطين، لدرجة جعلت الرأي العام الأوروبي يقتنع بضرورة تملك فلسطين قبل أي مكان في العالم².

فمنذ فشل الحروب الصليبية والنصارى الغربيون يسعون لتحقيق حلمهم، وهو استرجاع القدس الشريف من أيدي المسلمين بشتى الوسائل، وعن ذلك يقول أحدهم، وهو ليفونان فيري : « لقد أحب الصليبيون أن ينتزعوا القدس من أيدي المسلمين بالسيف ليقوموا للمسيح مملكة في هذا العالم»، ولكن بعد خيبة الصليبيين وفشل حروبهم العسكرية، أرادت الدول الغربية: « أن تثير على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التبشير، فاستخدمت لذلك الكنائس

¹ حبكة الميداني: مرجع سابق، ص 30.

² أمل الحضري: مرجع سابق، ص 68.

والمدارس والمستشفيات ...»¹. وفي الاجتماع العاشر للاتحادات الكاثوليكية في ألمانيا عام 1858م، ردد المجتمعون الكاثوليك دعاء للصليبيين، جاء فيه: «أيها الرب، ساعد الأرض المقدسة، حرر القبر المقدس من أيدي الكفار»².

ويقول المستشرق "هانوتو" وهو مستشار سياسي لوزارة المستعمرات الفرنسية في أواخر القرن 19م عن أهدافهم: «لقد تركزت أهداف الحروب الصليبية قديما في استرداد بيت المقدس من المسلمين البرابرة ولا يزال مما يزعج الغرب المسيحي»³.

ويقول القس اليسوعي مینر في معرض حديثه عن سياسة فرنسا الدينية في الشرق: «إن الحرب الصليبية الهادئة التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر، لا تزال مستمرة إلى أيامنا هذه ... ولقد احتفظت فرنسا طويلا بروح الحرب الصليبية، وبالحنين إلى تلك الحروب حية في نفسها .. وكان من غايات الامتيازات الأجنبية دائما أن تحتفظ - فرنسا - بالدور الذي يلعبه رهبانها، وقد اعترف لقناصلنا وسفرائنا بالحماية للنصارى... وكثيرا ما اختارت فرنسا قناصلها وسفرائها من رجال الدين-».

ويقول اليسوعيون في عرض نشاطهم التبشيري في بلاد الشام: «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين، أولم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي، ولنعيد في ظل العلم الفرنسي وباسم الكنيسة مملكة المسيح»⁴، وتتمثل في استرجاع الأماكن المقدسة التي خسرها الأوروبيون خلال حروبهم الصليبية في البلاد الإسلامية وذلك بواسطة التبشير بإقناع المسلمين للإيمان بالمسيحية، وعلى أساس ذلك قامت الإرساليات التبشيرية⁵.

¹ أمل الحضري: مرجع سابق، ص ص 146 - 147.

² نفسه، ص 69.

³ سعد الدين صالح: مرجع سابق، ص 33.

⁴ نفسه، ص 172.

⁵ صايغ: مرجع سابق، ص 108.

لقد شكلت الدولة العثمانية حصناً منيعاً للإسلام وكياناً شاملاً يضم مختلف الإمارات والدويلات تحت رايته، وهو ما لم ترض عنه الدول الأوروبية، ولاستحالة تجديد الحروب الصليبية، رسمت الدول الغربية هدفاً لها هو القضاء على رمز الخلافة الإسلامية الذي تمثلته الدولة العثمانية، والاستحواذ على ما يملكه العالم الإسلامي من مؤهلات.

3 - بسط نفوذ دولها على بلاد الشام :

إن ظاهر الأهداف للإرساليات التبشيرية في بلاد الشام هو نشر الدين المسيحي في ربوع الشرق، لكن هذا الهدف يمثله أشخاص قلة على أن أكثرهم ممن يمولون تلك الحملات التبشيرية لا صلة لهم بالهدف الحقيقي للتبشير أو حتى بالدين¹، بل المصلحة السياسية ومن ورائها الاقتصادية هي أساس التبشير الغربي في البلاد العربية.

ولم يكن تنافس تلك الإرساليات التبشيرية إلاّ ضرباً من ضروب السياسة التوسعية التي كانت تسعى لها الدول الاستعمارية الكبرى لاقتسام أملاك الرجل المريض، مستغلة في ذلك حقها في حماية الطوائف المسيحية بالشام، مما سمح لها بالتدخل في شؤون البلاد الداخلية، فتنافست على إرسال مبشريها لتمهيد الطريق أمامها والإبقاء على نفوذها بالمنطقة².

ومنه فقد تكالبت وتنافست الإرساليات التبشيرية من مختلف الدول الغربية على العالم الإسلامي، واتفقت للقضاء على معتقداته الدينية بنشر الديانة المسيحية في كافة أنحاء، هذه المسيحية التي لم تكن إلاّ وسيلة للوصول إلى أهدافهم، وعن ذلك قال شكيب أرسلان³ : « إن كان المقصود من التبشير دعوة الإسلام إلى الإنجيل، فالمسلمون يؤمنون بالإنجيل

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 34.

² معاشي: مرجع سابق، ص 29.

³ شكيب أرسلان: من مواليد 1869م في قرية الشويفات بجبل لبنان، درس دراسته الأولية بمسقط رأسه ثم أتم تعليمه ببيروت، وهو من المتأثرين بمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني سافر إلى مصر 1889م وذلك في طريقه إلى الاستانة وزار عدة مدن غربية مثل لندن وفرنسا وموسكو. ينظر: الأمير شكيب أرسلان: سيرة ذاتية، جم وتحر: سوسن النجار نعم، دار التقديمية، ط 1، لبنان، 2008م، ص ص 8 - 14.

الشريف و برسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه، وإن كانت الدعوة هي الإنجيل في الظاهر والسيطرة الأوربية في الباطن، فهذا حلم من أحلام المبشرين»¹.

واستغلت تلك الدول الأوربية ضعف الدولة العثمانية وبدأت تتنافس لوضع يدها على سوريا ولبنان، فكانت الطوائف المختلفة هي السند الرئيسي الذي اعتمده المتنافسون للوصول إلى مقاصدهم في المنطقة، واعتبر كل سفير أوربي في الاستانة نفسه وسيطا بين دولته والطائفة التي ترتبط ببلاده بها².

لقد تنافست الدول الغربية في دعم الإرساليات التبشيرية بإنشاء المدارس في أنحاء البلاد العربية، حيث ركزت فرنسا جهودها في ذلك المجال في سوريا، وكانت كل مدرسة تدعو لتأييد سياسة الدولة الداعمة لها لتكسب لها صنف من المؤيدين، فالمدارس التي تدعمها روسيا كانت تدعو لتأييد سياسة روسيا ودعم مصالحها في المنطقة، كذلك فعلت المدارس التي تدعمها بريطانيا³.

ولتحقيق مآربها في بلاد الشام، لجأت البابوية في روما وكذا الحكومات الأوربية والأمريكية إلى توثيق الصلات بالطوائف الدينية غير الإسلامية وبزعمائها ومؤسساتهم الدينية والتعليمية، خاصة وغيرها، وتزودهم بالأموال والمعلمين وبعض رجال الدين والعملاء، وهكذا حتى نجحت بريطانيا في بسط حمايتها على الدروز، وبسطت روسيا القيصرية حمايتها على الروم الأرثوذكس. أما فرنسا، فبسطت حمايتها على الموارنة الكاثوليك⁴، وهكذا أصبحت كل طائفة من طوائف بلاد الشام تتلقى الحماية من طرف الدول الغربية المسيحية،

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 33.

² صايغ: مرجع سابق، ص 111.

³ مفيدة إبراهيم: مرجع سابق، ص 108.

⁴ الشناوي: مرجع سابق، ج 2، ص 60.

وأصبح لتلك الدول اتباع وعملاء في بلاد الشام وداخل الدولة العثمانية، وكان الهدف من ذلك، انجاح مخططاتهم الرامية إلى تفتيت الدولة العثمانية والظفر ببلاد الشام.

وكما ذكرنا، فإن فرنسا كانت في مقدمة الدول الغربية التي وظفت الإرساليات التبشيرية ودعمتها بكل الوسائل لتحقيق أهدافها في المنطقة، فتنازع وبقوة على بلاد الشام لتبسط نفوذها عليها، إذ لم تبرح بلاد الشام مخيلة ملوك فرنسا، وذلك منذ انتهاء الحروب الصليبية التي شنت على العالم الإسلامي، بل بقيت تراود أحلامهم ويحنون للعودة إليها وتثبيت أقدامهم فيها وطرده المسلمين من الأماكن المقدسة، ولذا أصبحت بلاد الشام جزءا من مخطط ملوك فرنسا السياسي، الرامي للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط، ففرنسا كان لها في بلاد الشام ماضٍ سياسي وديني تريد بعثه من جديد، بل أن ملوكها لم يتنازلوا عن لقب ملك بيت المقدس. وما ساعدها في تحقيق حلمها، هو تلك العلاقات الحسنة التي ربطت فرنسا بالدولة العثمانية بعد معاهدة الامتيازات سنة 1535م، فهي ساعدتها على التغلغل في كثير من أجزاء الدولة العثمانية، ومن بينها بلاد الشام وخاصة وأنها لاحظت مدى أهميتها بالنسبة لتجارتها، كما أنها منطقة تجارية لا يمكن الاستغناء عنها¹.

فقد اقترح الملك الفرنسي لويس التاسع أن تكون الأماكن الساحلية في لبنان وفلسطين قاعدة لفرنسا في قلب العالم الإسلامي، تتخذها فرنسا نقطة ارتكاز لقواتها الحربية ولدعوتها السياسية والدينية².

وبموجب معاهدة الامتيازات، اكتسبت فرنسا حقوقا وامتيازات تجارية وملاحية جعلت منهم يتفوقون على الأجانب الآخرين في موانئ الشرق العربي، وتبع ذلك تدفق كثير من التجار الفرنسيين على حلب، وطرابلس، الشام، ويافا، وعكا، وحيفا، حيث استوطنوا بها،

¹ الصباغ: مرجع سابق، ص ص 911 - 912.

² السيد صالح: مرجع سابق، ص 33.

وأسسوا بها وكالات تجارية كثيرة، ثم أخذت تتوافد على بلاد الشام البعثات التبشيرية الفرنسية، والتي أنشأت المعاهد والمؤسسات العلمية والدينية، والتي كانت تبث الدعاية للمسيحية الفرنسية. ومع الزمن، تزايد نفوذ فرنسا في سوريا ولبنان، حيث ادعت حمايتها لنصارى الشرق وخاصة الطائفة الكاثوليكية، ومن بينهم موارد جبل لبنان الذين أحاطتهم فرنسا بعناية خاصة لتجعل منهم اعداء لها على بسط نفوذها هناك¹.

كما كان لفرنسا صلات مودة مع موارد الشام، ولذا رأت أنهم ركيزة يمكن أن تستفيد منهم في تثبيت أقدامها في الأراضي العربية، وتحقيق أطماعها فيها، وترجع تلك الصلات مع الموارد إلى زمن الحروب الصليبية، إذ أن ملك فرنسا لويس التاسع منحهم حمايته واعتبرهم جزءاً من الأمة الفرنسية عام 1250م. وفي القرن 17م، رجعت الفكرة تراود الفرنسيين وأخذوا يلتفتون إلى صداقة الموارد وحمايتهم، واعتبار ذلك خطوة أساسية في سبيل غزو بلاد الشام، وبالفعل أصدر ملك فرنسا في 28 أفريل 1649م، ما يسمى بصك الحماية ويضم الامتيازات الممنوحة للموارد دون غيرهم من نصارى الشرق. ولقد تابعت فرنسا سياسة التودد بعد ذلك الصك، وعينت قناصل لها منهم في بيروت من "أسرة آل الخازن المارونية". وهكذا كان الموارد حجر الاستناد في السياسة الفرنسية في بلاد الشام، ومن ثمة تعمل وتخطط لإزالة الإمبراطورية العثمانية أو اقتسامها والحصول على بلاد الشام، وتوثيق علاقتها مع الموارد وإرسال بعثاتها التبشيرية إلى بلاد الشام وحمايتها وتشجيعها وتمكنها من الحصول على اعتراف من الدولة العثمانية رسمياً بحماية جميع المسيحيين في الدولة. وهكذا كانت فرنسا أسبق الدول الغربية في التفكير بإيجاد ركيزة سياسية لها في بلاد

¹ حلمي محروس اسماعيل: تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني الى نهاية الحرب العالمية الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، د ط، الاسكندرية، 1997م، ص ص 316 - 317.

الشام، المتمثلة في الموارد وعن طريق بعثات التبشير الكاثوليكي ورعايتها له، وعن طريق استمالة الوطنيين الذين اعتنقوا الكاثوليكية، وكل ذلك في سبيل تثبيت نفوذها في الشرق¹.

وعن الإرساليات التبشيرية والغرض من إرسالها، يقول نابليون الأول ملك فرنسا في جلسة مجلس الدولة في 22 ماي 1804م: «إن في نيتي إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية، فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عوناً كبيراً في آسيا وأفريقيا، وسأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار، إن ملابهم تحميهم وتخفي أية نوايا اقتصادية أو سياسية»². فالتستر وراء الدين وإرسالياته عند فرنسا، كان حيلة لتحقيق أهداف فرنسا السياسية والاقتصادية وهذا يتجلى بوضوح من خلال مقولة نابليون.

وقد كان لفرنسا دوافع اقتصادية في المنطقة، فمنذ القرن 19م ونتيجة لبعض الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها فرنسا بسبب نقص المواد الخام لصناعة النسيج فيها³، وأولها القطن والحرير. ففي جنوب فرنسا فتكت الأمراض بدود الحرير عام 1855م، مما ترتب عليه إغلاق الجزء الأكبر من مصانع النسيج، ولما كانت بريطانيا تسيطر على أسواق الحرير في آسيا الصغرى وفارس والصين واليابان، توجهت فرنسا إلى سوريا ولبنان اللتان تتوفر فيهما مادة الحرير⁴. كانت ليون مركزاً رئيسياً لشراء الحرير من لبنان وسوريا، لذا فقد كانت ترسل الأموال لدعم تلك الصناعة هناك، وكذلك دعم شبكات التبشير والجمعيات الدينية وخلق نخب تجارية ذات تعليم فرنسي من بلاد الشام⁵.

¹ الصباغ: مرجع سابق، ص ص 912 - 915.

² أحمد عبد الوهاب: مرجع سابق، ص 128.

³ عبد فتوني: مرجع سابق، ص 35.

⁴ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 376.

⁵ عبد فتوني: مرجع سابق، ص 35.

لم يكن هدف التبشير عند معظم المبشرين إلا السيطرة على العالم الإسلامي والأراضي المقدسة خاصة. فقد صرح العديد من المسؤولين السياسيين والمبشرين أنفسهم بهذا الهدف ومنهم النائب الفرنسي فرناند انجران الذي حث على تشجيع المبشرين لأنهم يمهدون للاستعمار ثم يثبتونه، فقال: «إن المبشر يعمل من أجل ازدهار الفكرة الاستعمارية للبلاد التي ينصرها»¹. وقد عملت فرنسا بهذه النصيحة، فكانت تختار مبعوثين من قناصلها ليكونوا على دراية بأهدافها السياسية، كما كانت تختار في معظم الأحيان قناصلها وسفراءها من رجال الدين².

وبالرجوع إلى الأسباب التي دفعت الدول الأوروبية إلى التدخل في شؤون بلاد الشام واثارة الفتن والقتال، نجد أن الأسباب لم تكن بالدرجة الأولى تقف وراءها دوافع دينية، بل كانت دوافع سياسية وأخرى اقتصادية³. ففرنسا كانت تسعى لفرض مشروعها الاستعماري الهادف إلى إيجاد موقع في محيط إسلامي يكون منفذا لانطلاق قوتها الاستعمارية في البلاد العربية، فمخطط فرنسا يقضي بانتزاع سوريا ولبنان والأردن وفلسطين من الدولة العثمانية⁴.

ويقول رئيس الوزراء الفرنسي بوانكاريه Poincaré في 20 جانفي 1912م عن أهداف فرنسا في بلاد الشام ما يلي: «إننا مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا بكل قوة، وعازمون على المحافظة على تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق، وإننا سنعمل كل ما يجب من أجل صيانة كرامتنا القومية المقدسة التي لا تمس باليد، ولسنا بحاجة إلى القول إن مصالحنا تقليدية في سوريا ولبنان على وجه الخصوص، وإننا مصممون على حمل الجميع على

¹ بقطاش: مرجع سابق، ص 12.

² معاشي: مرجع سابق، ص 33.

³ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 145.

⁴ عبد فتوني: مرجع سابق، ص 45.

احترام المصالح ... وأننا لن نتخلى عن أي عاطفة من العواطف التي كسبناها، ولن نترك إحدى فوائدها أو مصالحنا تتعرض لأي خطر»¹.

ومن أجل الحفاظ على مصالحها في القرن 19م، دخلت فرنسا في منافسة حادة مع الإنجليز على المنطقة وظهر ذلك جليا خاصة أثناء فترة حكم محمد علي باشا للشام، حيث نشطت دسائس الطرفين لإبعاد الحكم المصري عن البلاد ولتحتيم الوحدة بين سوريا ومصر حتى يتسنى لهما بسط النفوذ هناك². وكانت فرنسا تتدخل في شؤونهم الداخلية، ويزداد تدخلها كلما لمست ازدياد اهتمام بريطانيا في الشرق والتي تعتبر أكبر منافس لها في المنطقة³.

ومما يؤكد هدف فرنسا التي كانت دائما تتذرع بحماية المسيحيين في الدولة العثمانية وخاصة في سوريا ولبنان، وهو السيطرة على بلاد الشام وتدعيم نفوذها، وعن ذلك يقول الشاعر "لامارتين" الذي زار الشرق ووصل إلى لبنان عام 1833م: «ان الأوان، برأيي، لإقامة مستعمرة أوربية في هذه الزاوية من آسيا - الشرق - بالاستناد إلى مسيحيي الشرق كرأس حربة في الإدارة والتجنيد»⁴.

ومن ثمة أخذت فرنسا توسع في نفوذها الاقتصادي في سوريا ولبنان، فأسست عدة شركات فرنسية لمد خطوط السكك الحديدية، وإنشاء الطرق والموانئ حتى تحصلت فرنسا على اعتراف الدول الأوربية بأن سوريا ولبنان قد أصبحتا منطقة نفوذ لفرنسا، ومن ذلك أن

¹ الزيدي: مرجع سابق، ص 127. ينظر الهامش.

² محروس اسماعيل: مرجع سابق، ص 319.

³ صابغ: مرجع سابق، ص 108.

⁴ الزيدي: مرجع سابق، ص 125.

إنجلترا في اتفاقية سايكس بيكو 1916م، وافقت على أن تكون المنطقتين من نصيب فرنسا، وهذا ما كانت فرنسا تسعى لأجله¹.

إن فرنسا كانت أكثر الدول الأوروبية نشاطا تبشيريا في سوريا ولبنان، ومما يؤكد أن هدفها الأساسي كان سياسي وليس دينيا، أنها كانت تطرد الرهبان من أرضها ثم تحتضنهم في الخارج ليحققوا لها شهواتها الاستعمارية، ولذلك كانت تتفق الأموال على المدارس التبشيرية لتمرير ثقافتها ولغتها الفرنسية²، وكان التبشير الديني عند الإرساليات التبشيرية الفرنسية في لبنان خاصة، هو لجعل هذه الأخيرة ركيزة فرنسا في المشرق الإسلامي³.

ولذا نجد أن هدف مختلف الدول الغربية من وراء حمايتها للحركة التبشيرية، هو الحفاظ على مصالحها السياسية والدليل على ذلك، أن علاقة فرنسا مع الطائفة اليسوعية في بلدها كانت علاقة سيئة طيلة القرنين 18م و19م وصلت إلى اضطهاد اليسوعيين في فرنسا، لكن نجد هذه الأخيرة تحمي إرساليات اليسوعيين في الخارج، خاصة في بلاد الشام⁴.

ولذا، فمساعدة فرنسا للإرساليات التبشيرية وتسهيل مهمتها في الأراضي العثمانية، لا سيما في لبنان وسوريا، ما هو إلا لخدمة مصالحها الكبرى وذلك حسب رأي فرنسا، لا يكون إلاّ بنشر الديانة المسيحية الكاثوليكية، ونشر اللغة والثقافة والأفكار والعادات والتقاليد الفرنسية، التي تكرسها المؤسسات التربوية التابعة للإرساليات التبشيرية. وكان من أبرز الإرساليات التي دعمتها فرنسا بسخاء لتحقيق أهدافها، الإرساليات الكاثوليكية اليسوعية التي كانت لها مؤسسات تربوية خاصة في لبنان⁵.

¹ محروس اسماعيل: مرجع سابق، ص 319.

² خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 170.

³ الزيدي: مرجع سابق، ص 136.

⁴ معاشي: مرجع سابق، ص 33.

⁵ الزيدي: مرجع سابق، ص 132.

ومما يؤكد أهداف فرنسا السياسية على حساب الأهداف الدينية أيضا، هو عدم الأخذ باقتراح مشروع إنشاء إمارة مسيحية كاثوليكية في لبنان من طرف قنصلها بواريه Boirée الذي أرسل هذا الاقتراح إلى حكومته في باريس بتاريخ 21 ماي 1840م، وأكد أن اقتراحه لا يهدف إلا إلى تمكين نفوذ فرنسا ويحول دون تغلغل النفوذ البريطاني أو الروسي، وكلاهما عدو للمصالح الفرنسية. وأيد فريق من المرسلين اليسوعيين المتواجدين في لبنان هذا الاقتراح، لكن الحكومة الفرنسية راسلت الفاتيكان ليأمر اليسوعيين بعدم التدخل في أمور السياسة¹.

لقد تمثلت أهداف اليسوعيين في المنطقة في اقامة دولة مسيحية مارونية، وذلك منذ عودتهم وممارسة نشاطهم في المنطقة منذ فترة الحكم المصري للشام، وكانوا مستائين من علاقة فرنسا مع الاكليروس الماروني، وأرادوه أن يبقى تحت سلطتهم بعيدا عن الحكومة الفرنسية التي مارست عليهم الضغط وواجههم المواردنة بالرفض ما أفسد مخططهم، ومع ذلك لم يتوقفوا خاصة بعد مغادرة قنصل فرنسا بواريه بيروت بعد سنة 1840م، وانسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام، كثفوا نشاطهم وأكدوا على موقفهم من الدولة المسيحية، حيث قام الأب ريلو Ryll بتحريض الفلاحين المواردنة للثورة من أجل دولة مسيحية وأتهم الحكومة الفرنسية بمساندة الباب العالي ضد المسيحيين²، كل ذلك عندما كان اليسوعيون والفرنسيون على خلاف، وبالتالي لم يكونوا راضين عن تصرف الحكومة الفرنسية الذي اعتبروه لا يخدم أهدافهم في المنطقة.

ولتأكيد أن المصالح السياسية هي محور توجهات السياسة الفرنسية في المشرق بصفة عامة ولبنان بصفة خاصة وليست العاطفة الدينية، إذ نجد أن الحكومة الفرنسية عام 1881م

¹ اميل خوري وعادل اسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 الى سنة 1958، دار النشر للسياسة والتاريخ، د ط، ج 2، بيروت، 1960 - 1961م، ص ص 229 - 230.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 70 - 71.

حلت الجمعيات الدينية في فرنسا وطردت رجال الدين اليسوعيين منها، إلا أنها في نفس الوقت كانت تفاوض اليسوعيين في لبنان لتأسيس مدرستهم الطبية في بيروت، متعهدة بتقديم الأموال الطائلة من أجل انجاز ذلك المشروع¹.

ويقول المبشرون اليسوعيون في الكتاب المؤي لهم وبعد أن أصبحت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ما يلي: «أجل، لقد كنا نعتمد على مساعدة فرنسا الظافرة، والأن ها هي فرنسا هنا»²، ويبدو أن هدف فرنسا من مساعدة اليسوعيين، هو بسط نفوذها في المنطقة وسيطرتها على سوريا ولبنان.

ولم يكن الهدف الأسمى للإرساليات التبشيرية هو تنصير السكان، بل كان لأعضائها أهداف سياسية واقتصادية وحتى اجتماعية سعوا لتحقيقها لمصلحة الدول الغربية، التي بعثت بهم إلى بلاد الشام، حيث كان المبشرون يَكُونُ العداوة والحقْد نحو العرب والمسلمين خاصة، وعداوة أخرى نحو المسيحيين المختلفين عنهم في المذهب. وكان اليسوعيون أشد المبشرين تعصبا للروح الصليبية العنيفة³، وقالوا: «ألم نكن ورثة الصليبيين، أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي ولنعيد في ظلّ العلم الفرنسي وباسم الكنيسة مملكة المسيح»⁴.

ومما يؤكد أهداف فرنسا في الحفاظ على مصالحها السياسية في المنطقة، أنها تخلت على الموارنة الذين لطالما توعدت بحمايتهم لأنهم نصارى، واتضح ذلك في القرن 19م عندما دعمت فرنسا حليفها محمد علي باشا في احتلاله لبنان وسوريا في الفترة الممتدة من 1832م إلى 1840م، متجاهلة مطالب الثوار اللبنانيين في رفض الاحتلال المصري،

¹ الزبيدي: مرجع سابق، ص 133.

² حبنكة الميداني: مرجع سابق، ص 112.

³ الشناوي، مرجع سابق، ج 2، ص 59.

⁴ خالدوي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص ص 115 - 116.

والضرائب الباهضة التي فرضها عليهم ابنه ابراهيم باشا، ولم تتجاوب حكومة فرنسا مع شكاوي البطريرك الماروني يوسف حبيش وسكان جبل لبنان المسيحيين، لأن الأولوية بالنسبة إليها كانت الحفاظ على مكانتها ونفوذها في المنطقة، والوقوف في وجه انجلترا التي كانت تنافسها على المنطقة، فكان رهان فرنسا في الشرق، ضمان مصالحها الاقتصادية والسياسية وليس مصالح من تحميهم من المسيحيين، ولذلك نجدها أقالت قنصلها في بيروت بواريه في جويلية 1840م، عندما أظهر تعاطفا كبيرا مع الثوار المسيحيين والدروز ضد الاحتلال المصري للبنان. واعتبرت الحكومة الفرنسية هذا التعاطف مضرا بمصالحها الكبرى في بلاد الشام. ويقول المفكر جورج قرم اللبناني عن ذلك في محاضرة له في باريس أن الأوروبيين استغلوا تعددية المجتمع العثماني وامتيازات الحماية لتحقيق مآرب سياسية على حساب الأقليات المسيحية وغير المسيحية الطامحة إلى التحرر من السلطة العثمانية والتمتع بالاستقلال¹.

ولقد صرحت فرنسا بذلك وأبلغت قناصلها في لبنان عندما كانت الدول الأوروبية تتباحث في قضية محمد علي في لندن عام 1840م لإنهاء الثورة اللبنانية، فأخبرتهم أن مصلحة فرنسا العليا تقضي بمساعدة محمد علي باشا ولو غضب الموارد، لأن مصالحها التجارية والاستراتيجية في مصر أكثر أهمية من ارتباطاتها المعنوية بكاثوليك لبنان².

ومن أجل توسيع دائرة النفوذ وهو الهدف الأسمى تحول النشاط الإرسالي للبعثات التبشيرية والتعليمية إلى ميدان للصراع والتنافس لكسب الموارد في بلاد الشام، حيث يعبر ممثل فرنسا عن قلقه من ابتعاد الموارد، خاصة بعد انتهاء فترة حكم محمد علي باشا للشام عنهم، فيقول: «...سوء تصرف قناصلنا سيستفيد منه منافسوننا الطليان والروس والألمان

¹ ابو نهرا: مرجع سابق، ص 25.

² خوري وعادل اسماعيل: مرجع سابق، ج 2، ص 228.

الذين يسعون بجميع الوسائل لإبعاد الموارد عنا..¹، ثم أعادت فرنسا تمتين العلاقة مع طائفة الموارد لمساندتها من جديد في المنطقة.

ومن خلال كلام ممثل فرنسا، يتضح لنا حدة التنافس بين الإرساليات المسيحية للسيطرة على البلاد، من خلال الارتكاز على طائفة محلية وهي طائفة الموارد الكاثوليك لتكون سنداً لهم لتحقيق مآربها، علماً أن الإيطاليين الذين تخوف منهم الفرنسيون هم أيضاً كاثوليك المذهب مثل الفرنسيين، وهذا ما يؤكد أن الهدف هو السيطرة على بلاد الشام وليس نشر الديانة الكاثوليكية.

وبالتالي لو كان غرض فرنسا هو التبشير للمسيحية لكانت وقفت إلى جانب المسيحيين، وخاصة الكاثوليك الموارد الذين كانوا في حاجة ماسة إليها، خاصة في أواخر حكم محمد علي باشا للشام، حيث عانوا من سياسته معهم كثيراً، لكنها فضلت الحفاظ على مصالحها الخاصة ووقفت إلى جانب محمد علي باشا المسلم على حساب اتباعها في الدين والمذهب، على الرغم من تواجد بعثاتها التبشيرية في هاته الفترة والتي وصلت إلى لبنان لغرض التبشير سنة 1834م، ضف إلى ذلك شكت باليسوعيين الكاثوليك إلى الفاتيكان عندما ساندوا قنصلها بواريه في لبنان في مقترحه القاضي بإنشاء إمارة مسيحية كاثوليكية في لبنان وأمرتهم بعدم التدخل في سياستها، ويتضح جلياً أن فكرة إرسال البعثات التبشيرية الكاثوليكية لنشر الديانة المسيحية ماهي إلا ذريعة لبسط نفوذها في المنطقة.

ولم يقتصر الأمر على فرنسا وحدها، بل امتد إلى الدول الأوربية الأخرى التي شعرت منذ القرن 17م بالدور الذي كانت تلعبه فرنسا لتثبيت نفوذها في المنطقة، فسعت هي الأخرى إلى بسط نفوذها باتباع نفس خطوات فرنسا منها إنجلترا التي باشرت بإرسال بعثاتها التبشيرية إلى أرض الشام وأخذت تتغلغل في أوساط الدروز لتكون لها طائفة تستند عليها

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 172.

ويكون لها حق التدخل كما فعلت فرنسا مع الموارد، كذلك فعلت روسيا في القرنين 18م و19م حيث اجتهدت لربط الروم الأرثوذكس بها والحصول على حق حمايتهم. وهكذا أصبحت بلاد الشام حلبة صراع ديني سياسي بين الدول الغربية¹ التي استغلت الامتيازات التي منحت لها لبسط نفوذها في المنطقة بعد تمتين العلاقة مع الطوائف المحلية بالشام.

فقد كان لبريطانيا مطامع ومصالح هي الأخرى في بلاد الشام مع أنها لم يكن لها طائفة تشترك معها في المذهب، لأن البروتستانتية لم تنتشر في بلاد الشام إلا في نهاية القرن 19م، على عكس فرنسا التي كانت تعتمد على طائفة الموارد والتي كانت تحت حمايتها بموجب اتفاقيات الامتيازات الأجنبية التي تحصلت عليها من طرف الدولة العثمانية، والتي جعلت الموارد يؤمنون أن فرنسا هي حليفهم الأولى، وترجع المصلحة البريطانية في الشرق إلى الحروب الصليبية التي عرّفت بريطانيا مثل فرنسا على المشرق وكنوزه، وتأسيس وكالات تجارية في بلاد الشام منذ القرن 16م، وازداد الاهتمام الإنجليزي بسوريا في القرن 18م عندما أصبحت الهند وشرقي آسيا محورين أساسيين في المجال الاقتصادي البريطاني، ولذا أخذت بريطانيا ترسل عشرات الرّحالة والباحثين لدراسة أحوال سوريا كطريق رئيسية تؤدي إلى الهند، ودرست الحكومة البريطانية مشروع مد خطوط برية ومجاري بحرية بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي عبر بلاد الشام، وكان ذلك في عام 1835م - 1837م². كما أن بريطانيا كانت تود استعمار فلسطين منذ القرن 19م وإقامة حامية فيها لحراسة طريق الهند، ولم يكن بإمكانها أن تفعل ذلك إلا عن طريق التبشير³.

¹ الصباغ: مرجع سابق، ص 915.

² صايغ: مرجع سابق، ص ص 108 - 109.

³ خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 185.

وأكبر دليل على هدف بريطانيا السياسي وليس التبشير في حد ذاته، هو مناصرتها للدروز المختلفين معها في المذهب وضربها للموارنة المسيحيين أبناء دينها¹، حيث مننت بريطانيا علاقاتها مع الدروز وعقدت معهم اتفاقاً عام 1841م، نص على:

- أن يدافع الإنجليز على مصالح الدروز
- أن يتعلم أبناء الدروز في المعاهد الإنجليزية في بريطانيا.
- أن تطلق الحرية للمبشرين البروتستانت للعمل في المناطق الدرزية².

ومن بين أهم الشخصيات البريطانية التي مارست التبشير في بلاد الشام وبينت أن غرض بريطانيا سياسي وليس ديني كما تدعي، هو المبشر هنري تشرشل الذي عمل جاهداً في سبيل خدمة بلاده ومذهبه، فكان يقف ضد حكومته ويلومها على وقفها إلى جانب الدولة العثمانية في حروبها ضد محمد علي، وهو القائل بأنه إذا كانت إنجلترا ترى أن من مصلحتها الإبقاء على الدولة التركية وإبقاء هذه الأقاليم العربية الغنية بعيدة عن منافسة الدول الغربية، فإن هذه الأقاليم ستفتح بسرعة إذا ما أصبحت مسيحية: «وسيزيد الطلب على فنونها - بريطانيا- ومصنوعاتها عشر وخمسين ومائة مرة...». كما كتب سنة 1853م يحدد مصير لبنان، فيقول: «عندما ينفصل لبنان عن السلطنة يجب أن يصبح ولاية إنجليزية...»³.

ومما يؤكد أن الدول الغربية استغلت الإرساليات التبشيرية لخدمة مصالحها السياسية، وأن المبشرين ساعدوا دولهم على ذلك، هو تأييد وزير خارجية بريطانيا بلفور الذي أعلن دعمه لحركات التبشير في تصريح له جاء فيه: «إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 34.

² بان غانم أحمد الصائغ: «سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية (1839 - 1914م) دراسة تاريخية»، مجلة التربية والعلم، ع 5، مج 19، 2012م، ص 32.

³ معاشي: مرجع سابق، ص 46.

المستعمرة وعضدها في كثير من الأمور الهامة ولولاها لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيرا من العقبات»¹.

أما روسيا فاهتمامها ببلاد الشام كان في إطار المنافسة مع بريطانيا وفرنسا على وراثة الدولة العثمانية، وهي التي فتحت موضوع المسألة الشرقية في معاهدة كوجاك كينارجة 1774م التي أعطتها حق حماية طائفة الأرثوذكس في الدولة العثمانية، مما سمح لها بالتدخل في شؤون سوريا الداخلية². ومن أهداف روسيا أيضا، التوسع والوصول إلى المياه الدافئة³.

كانت لروسيا القيصرية غايات وأهداف سياسية واقتصادية في بلاد الشام، أرادت تحقيقها بواسطة إرسالياتها التبشيرية الأرثوذكسية، حيث مثلت تلك الإرساليات عيون روسيا وجهازها الاستخباراتي في المنطقة، وتقلت بين اصقاعها بحجة التبشير، وأرسلت الكثير من التقارير التي تضمنت مشاهداتها فيها بما في ذلك رصد نشاطات الدول الغربية أيضا في تلك المنطقة، عن طريق إرسالياتهم التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية. كما حاولت روسيا إيجاد موطن قدم لها في المنطقة عن طريق إرسالياتها التبشيرية، إذ شكلت الإرساليات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية عامل دفع وتشجيع غير مباشر للحكومة الروسية على اتباع هذا الأسلوب، وذلك بعدما لاحظت أن الولايات المتحدة الأمريكية قد جعلت من إرسالياتها وسيلة تساهم في عرض البضائع والمنتجات الأمريكية في بلاد الشام⁴.

ولم يخفي الروس حقيقة أهداف الإرساليات التبشيرية في القدس وغيرها من الأقاليم، إذ مثلت تلك الإرساليات العيون والاستخبارات الروسية في الأقاليم العثمانية، ولم تكن بعيدة عن

¹ السيد صالح: مرجع سابق، ص 54.

² صايغ: مرجع سابق، ص ص 108 - 109.

³ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 165.

⁴ محمود صالح: مرجع سابق، ص ص 197 - 198.

كل حدث فيها بحجة التبشير، بل أنها رصدت عن طريق المبشرين جميع تحركات الدول الغربية المنافسة لها في المنطقة، فظهرت الإرساليات التبشيرية كجزء من الدبلوماسية الروسية العامة، إذ عمقت الحكومة الروسية أثرها في المنطقة عن طريق إرسالياتها التبشيرية¹.

ومما يؤكد أغراض روسيا أيضا، هو حرب القرم، ففي سنة 1852م اشتد الخلاف بين روسيا وفرنسا بشأن الأماكن المقدسة في الشام، وذلك أن لفرنسا بمقتضى معاهدات قديمة وحقوق ثابتة حماية معنوية على الكاثوليك في الشرق، وقد توصلت بواسطة ذلك الامتياز إلى جعل مفاتيح كنائس القدس بأيدي الكاثوليك، لكن روسيا كانت تريد أن تمكن لمذهبها الأرثوذكسي وذلك بتسليم مفاتيح الكنائس في القدس إلى القسوس الأرثوذكس ليزداد نفوذها في الشرق، وهذا يخالف مصلحة فرنسا في الشرق، فلذلك احتجت الحكومة الفرنسية على المطلب الروسي، وطلبت من الباب العالي أن يتدخل في هذا الخلاف ويفصل فيه بمقتضى الحقوق والمعاهدات، والذي بدوره أثبت أن للكاثوليك وحدهم الحق في امتلاك الكنائس في القدس، وصدر مرسوم سلطاني ينص على ذلك في 9 فيفري 1852م، مما أدى إلى غضب الروس واندلاع حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية التي تساندها فرنسا وإنجلترا في جوان 1853م والتي استمرت حتى عام 1856م².

وبعد انتهاء حرب القرم وتحسن العلاقات من جديد بين روسيا والدولة العثمانية، وافقت وزارة الخارجية الروسية على إرسال بعثة تبشيرية ثانية إلى سوريا والأراضي المقدسة عام 1857م، وكانت الأهداف التي تتوخاها من ورائها جلها سياسية، وهذا ما تؤكد قرارات الخارجية الروسية التي بينت: «أولا أنه يجب أن يكون وجودنا في الشرق ليس سياسيا وإنما

¹ مشعل الشمري: مرجع سابق، ص 171.

² مصطفى كامل: المسألة الشرقية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، مصر، 2012م، ص ص 76 - 80.

بواسطة الكنيسة لأن الأتراك والأوروبيين الذين لهم بطارقة في المدينة المقدسة لا يمكنهم الاعتراض على ذلك، فالقدس مركز العالم ويجب أن تكون مهمتنا الأساسية هناك، وثانياً يجب مد يد العون والمساعدة للعرب الأرثوذكس...»¹.

يتبين من خلال هذا التقرير مدى حرص روسيا على بسط نفوذها في المنطقة بطريقة غير مباشرة والتي مثلتها الإرسالية التبشيرية للحفاظ على وجود نفوذ روسيا السياسي في المنطقة، خاصة بعد انهزامها أمام الدولة العثمانية وحلفائها، ثم تقربها من العرب في حد ذاته وسيلة مساعدة للروس لأن العرب يمثلون أغلبية في فلسطين، فإذا كسبت ودهم أمنت لنفسها المكان.

ويضاف إلى قائمة الدول الغربية الولايات المتحدة الأمريكية التي بدأت تتقرب إلى دول المنطقة ومنها سوريا ولبنان، حيث حاولت ضم بلاد الشام إلى دائرة نفوذها نظراً لما لها من أهمية سياسية وجغرافية واستراتيجية.

فطالما شغلت بلاد الشام الكثير من المفكرين والساسة الغربيين لما بلغته هذه المنطقة من أهمية استراتيجية وسياسية واقتصادية مؤثرة في العالم، فوقعها على طريق المواصلات وإطلالتها على البحر الأبيض المتوسط، أضفى عليها أهمية كبيرة، وخاصة في القرن 19م الذي شهد بروز دول غربية جديدة حاولت الوصول إلى هذه المنطقة العربية من خلال إيجاد موطن قدم لها، وفي مقدمة هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية التي بدأت نشاطها بإرسال البعثات التبشيرية إلى بلاد الشام عن طريق قناصلها العاملين هناك، من أجل تأسيس كيان يدفع باتجاه إيجاد مناطق نفوذ سياسية في تلك المنطقة، وذلك من خلال مراقبتها المركزة لأحداث بلاد الشام في القرن 19م².

¹ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 61.

² الجنابي: مرجع سابق، ص 254.

فكان التبشير يُعدُّ من الوسائل التي اعتمدتها عدة دول أجنبية لتعزيز نفوذها في الدولة العثمانية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. فقد لاحظ الكثير من المفكرين حقيقة بأن المبشرين يمزجون الدين بالسياسة، ورأوا أيضا أن الدين كان الوسيلة، أما السياسة، فكانت الهدف الحقيقي¹.

أما ألمانيا، فمن أهم الأهداف التي سطرته مع ضعف الدولة العثمانية وظهور ما يعرف بالمسألة الشرقية، هو السيطرة على الأماكن المقدسة في فلسطين. ففي عام 1841م، طرحت الحكومة البروسية مشروع "هيلموت فون مولتكه" الذي أطلق عليه اسم ألمانيا وفلسطين، يطالب بجعل فلسطين مركزا للحضارة الأوروبية ونموذجا للتنمية الاقتصادية، لكن مشروعه رفض من طرف الدول الأوروبية آنذاك، لأن فيه تهديدا لمصالحها المختلفة في أراضي الدولة العثمانية. ولم يتوقف تشجيع القناصل الألمان للمبشرين الألمان على إقامة مستعمرات ألمانية في فلسطين، وتجسد ذلك بشكل خاص في نشاط جمعية الهيكل الألمانية التي تأسست عام 1868م، ورغم نجاحها في بناء مستوطنات لها في حيفا ويافا بدعم من القنصل الألماني السر زيفوس Mr. Zepbos، فقد بقي تأثيرها محدودا بسبب ضعف تواصل العرب مع المبشرين الألمان وفشلهم في الحصول على اعتراف عثماني بوجودهم في فلسطين².

لم تكن إيطاليا أيضا بعيدة عن ميدان المنافسة الدولية على بلاد الشام حيث كانت ترمي إلى بلوغ أهداف سياسية، فزرعت البلاد بمدارس دينية لكن نجدها صادرت أموال الأديرة الدينية في إيطاليا نفسها³.

¹ الجنابي: مرجع سابق، ص 255.

² الشيخ حيدر: مرجع سابق، ص ص 18 - 20.

³ خالدى وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 170.

وهكذا كانت كل دولة ترسل مبشريها وتحثهم على العمل على حماية مصالحها وعلى خدمة ضمان بقاء نفوذها في بلاد الشام¹. كما أن الدول الغربية جاءت للسيطرة السياسية ولم تأت للتبشير الذي كان وسيلة لا غاية في حد ذاته، ومما يؤكد ذلك ما قاله المبشر الأمريكي "هنري جيب" عندما كثرت الاختلافات بين المبشرين في بلاد الشام: «يجب ألا يكون ثمة نعوت مثل هذه: أمريكي، إنجليزي، اسكوتلندي أو ألماني، تتعت أعمالنا التي نقوم بها في سبيل المسيح، إن الخصم المشترك متحد في مقاومتنا... فليكن اسمنا نصارى». وعلى هذا الأساس من التقاهم بدأت الدول الغربية تقتسم مناطق النفوذ في الشرق فيما بينها ثم تقذف فيها بمبشريها ليشقوا لها الطريق إلى الاستعمار².

إذن فإن المعركة بين المبشرين وبين الأديان غير المسيحية ليست معركة دين، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية، حتى أن المسيحيين أنفسهم كانوا لا يكتفون بأن يظل المسيحي بروتستانتيا بل أن يصبح مسيحيا كاثوليكيًا³.

وفي الأخير نستطيع أن نقول أن الإرساليات التبشيرية التي ظهرت بشكل مكثف في بداية القرن 19م في بلاد الشام ذات الموقع الاستراتيجي، ماهي إلا وسيلة لتحقيق مآرب الدول الأوروبية في اطار تنافسها الاقتصادي والسياسي على ممتلكات الدولة العثمانية التي دبَّ في داخلها الضعف والتي كان سقوطها في تلك الفترة لا يخدم مصالح بعض الدول التي رأت ضرورة الحفاظ عليها، ولم تكتف بذلك بل وتسابقت على إرسال البعثات التبشيرية لتمهيد الطريق الاستعماري لها، وللحفاظ على مصالحهم تحت ستار الدين المسيحي، وتجلى ذلك واضحا بالانتداب على بلاد الشام الذي أصبح حقيقة في القرن العشرين. فالملاحظ أن لبنان التي كانت محط الإرساليات التبشيرية الفرنسية أصبحت منتدبة من فرنسا. وكذلك

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 45.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 169.

³ نفسه، ص 45.

الأمر بالنسبة لفلسطين التي أصبحت تحت السيطرة البريطانية، ذلك بعد تسهيل الطريق لها من قبل بعثاتها التبشيرية، وهذا يؤكد أن هناك تنسيق بين الإرساليات ورجال السياسة.

وهكذا مثل التبشير ونشر المسيحية في الشام وسيلة عملت الدول الغربية على إيجادها، وتفعيلها ليس حبا خالصا في المسيح أو في نشر ديانة التسامح، وإنما لخدمة أغراضها التوسعية في منطقة الشام، واستعمار المنطقة على حساب تراجع وضمحلل الدولة العثمانية، وتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية لدول الإرساليات.

4 - خلق فئة موالية للغرب في بلاد الشام

إن من أهم الأهداف التي كلفت المدارس التبشيرية التابعة للإرساليات بتحقيقها هي خلق فئة من أهل البلاد المحليين تكون تابعة للغرب في شتى الميادين ومؤيدة له في أوطانها، بحيث يقول هنري جب عن ذلك: «إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية، هذه الغاية، هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراد مسيحيين، وأن المدرسة شرط أساسي لنجاح التبشير، وأن المدرسة قوة لجعل الناشئة تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى، ثم أن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما قادة أوطانهم»¹.

حيث نجد فرنسا منذ بداية القرن 18م قد خصصت اثنتي عشرة منحة دراسية للأطفال من أبناء الطوائف المسيحية الشرقية ليتعلموا في مدرسة "لوى لجران" في فرنسا، والغرض من ذلك أن ينشأ أولئك الأطفال على المذهب الكاثوليكي وأن يشبوا على الثقافة الفرنسية، وليكون منهم سند من المترجمين في القنصليات الفرنسية في بلاد المشرق وخاصة بلاد

¹ مفيدة ابراهيم: مرجع سابق، ص 105.

الشام، ومع أن هذه التجربة فشلت وقتها، إلا أنها تبقى محاولة من طرف فرنسا الكاثوليكية لخلق فئة موالية لمسارها في المشرق¹.

إذ نجد الإرساليات التبشيرية وخاصة اليسوعية في برامجهم التربوية التي انتهجت في التعليم تهدف إلى تحويل نفوس الطبقات العليا ذات النفوذ السياسي من المجتمع اللبناني خاصة، لجعلها نخبة موالية ومن خلالها يتمكنوا من السيطرة على كافة طبقات الشعب وهي الهدف الرئيسي لهم²، حيث يقول بول هوفلان: «أن تعليم الناس لغتنا، لا يعني ألفة أفواههم وأذانهم للصوت الفرنسي، بل يعني فتح نفوسهم على الأفكار الفرنسية، وعلى العواطف الفرنسية وأن نجعل منهم فرنسيين من ناحية ما... هذه السياسة تؤدي إلى فتح بلد بواسطة اللغة»³.

كما قال كليبر عن التربية الوطنية في سوريا: «كانت بكاملها في أيدينا، وفي بداية حرب 1914-1918م، كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا وكان من بين هؤلاء فتیان وفتيات ينتمون إلى عوائل إسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تأسست في باريس، تعلن عام 1917م أن جميع قلوب السوريين وعواطفهم تتجه إلى فرنسا». وقال في هذا الشأن أيضا: «إن كلية عين طورة في لبنان هي وسط ممتاز للدعاية الفرنسية... مؤسساتنا تعمل دون ملل لتغذية النفوذ الفرنسي مثل معهد الدراسات العبرية في القدس، ومعهد الدراسات الإسلامية في القاهرة..»⁴.

ولذا كانت غايتهم من التعليم العالي الذي ظهر في شكل الكليات التي حظيت بها بيروت خاصة، هي أن يؤثروا في حكام البلاد، وهذا التأثير لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان

¹ ينظر للهامش: عبد العزيز محمد عبد العزيز: مرجع سابق، ص 327.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 88.

³ نفسه، ص 135.

⁴ مفيدة ابراهيم: مرجع سابق، ص ص 105-106.

هناك مؤسسات تعليم عالي في البلاد، ولذا انشأ المبشرون البروتستانت الكلية السورية الإنجيلية في بيروت والتي أصبحت تعرف بالجامعة الأمريكية¹.

وبما أن بريطانيا مدارسها موجودة بكثرة في الشام وخاصة في فلسطين، وهي أيضا موجودة في مصر بعد احتلالها عام 1882م، سوف نستدل بأحد أقوال مندوبيها الساميين في مصر لأن أهداف بريطانيا هي نفسها تريد تحقيقها سواء في الشام أو مصر أو غيرها.

ففي خطاب للمندوب السامي البريطاني في كلية فكتوريا بالإسكندرية يؤكد فيه أن مهمة تلك المدارس التبشيرية فيها هي اعداد فئة من طلبتها تتعاطف مع الدول الغربية حيث يقول في هذا الشأن: «كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفعل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا... هذه الكلية تنمي فيهم من الشعور الإنجليزي ما يكون كافيا لجعلهم صلة وصل للتفاهم بين الشرق والغرب»².

وبالتالي كان هدف الدول الغربية من وراء فتح المدارس، هو خلق جيل يتخلق بأخلاقها ويتبنى فكرها، ويمهد لها طريق الاستيلاء، ثم يساعدونها ويقدمون لها الدعم لتسيير شؤون بلادهم³، وتوجيههم وفقا لأغراضهم الخاصة الهادفة إلى فصلهم عن دولتهم ومساعدتهم على تشكيل دول مستقلة عن مركز الدولة⁴.

ومن خلال ما سبق التطرق إليه، لاحظنا أن التبشير كان له عدة أهداف ويحمل غايات لتحقيقها، والتمتع لهذه الاهداف والغايات يرى أنها تنقسم إلى قسمين أساسيين، هما أهداف مباشرة وأهداف غير مباشرة. فالملاحظ أن التبشير يعتبر غطاء لغاية محددة

¹ خالدى وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 79.

² مفيدة ابراهيم: مرجع سابق، ص 105.

³ نفسه، ص 107.

⁴ ايمان عبد الرحمان هياجنة وحنان سليمان ملكاوي: مرجع سابق، ص 730.

الباب الثالث: أهداف الإرساليات التبشيرية ووسائلها المستخدمة في بلاد الشام

الفصل الأول: أهداف الإرساليات التبشيرية

وممنهجة ألا وهي التمكين للقوى الأوربية المتصارعة على تقسيم تركة الرجل المريض من الاستيلاء على بلاد الشام، فالتبشير غطاء للسيطرة السياسية والاقتصادية وهذا ما تؤكدُه العلاقات السائدة بين الطوائف المسيحية والإرساليات التبشيرية السابقة الذكر.

والملاحظ أيضا أن دول الإرساليات التبشيرية جعلت نصب أعينها هدفا أساسيا يمثل في تغريب المجتمع الشامي عن طريق ايجاد فئات تؤمن مصالح الدول الغربية أنيا بتسهيل مهامها للسيطرة على المنطقة ومستقبليا للسهر على مصالحها.

الفصل الثاني: وسائل التبشير

1 - استعمال السياسة في التبشير:

كان التبشير في بلاد الشام يأخذ عدة اشكال ويتغلغل فيها بعدة طرق، وكان من بين هذه الطرق والأساليب بأن تضافرت جهود المبشرين مع رجال السياسة، ويتضح هذا جليا من خلال الدور الذي لعبه قناصل الدول الغربية في دعم الإرساليات التبشيرية، فإلى زمن ليس ببعيد كانت تكتفي بجهود مبشرها فقط سبيل بلوغ أهدافها، لكن في الأخير رأت أن تعزز هذه الجهود بمنحهم الحماية السياسية¹ من طرفها لتسهيل سير أعمالهم²، ولهذا رضي المبشرون أن يضعوا أنفسهم آلة طيعة في يد دولهم وذلك لتحقيق مصلحتهم المزدوجة، فالدول الغربية تحقق أطماعها ومصالحها في بلاد الشام، والمبشرون يحصدون نتائج أسرع في التبشير³.

ومن مظاهر تدخل القناصل وحمايتهم للتبشير، نجد حمايتهم لرجال الدين المسيحيين الذين يتدخلون في شؤون لبنان، فمن أمثلة ذلك أنه إذا طلب الوالي من رؤساء الطوائف المسيحية دفع الأموال الأميرية المترتبة عليهم كانوا يحاولون التملص بتأثير من القناصل الأجانب⁴. ومن مظاهر تدخل القناصل أيضا، نجد أنه بعد معاهدة لندن سنة 1840م وخروج محمد علي من بلاد الشام، ترتب عن ذلك فراغ سياسي، الأمر الذي استغلته الدول الكبرى الغربية التي أرادت بسط نفوذها على مصر وسوريا ولبنان بكل الوسائل، فكان عامل الدين أكثر الوسائل قوة وأبعدها أثرا، حيث استعمله الغربيون كقاعدة لنشاطهم، خاصة في لبنان

¹ في سنة 1924م وقعت الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا اتفاقية تقضي بضرورة التعاون بينهما لتسهيل نشاط الإرساليات، فحسب الاتفاق لا يجب أن تخضع هذه الإرساليات لأي تدبير يضيق مجال عملها في سوريا ولبنان، وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول حتى سنة 1943م. ينظر: خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 162.

² نفسه، ص 162.

³ نفسه، ص 113.

⁴ عبد فتوني: مرجع سابق، ص 28.

الذي جعلت منه هذه الدول مركزا لنشاطها، فأخذت ترسل إليه قناصل تثق في دهائهم وسعة حيلتهم وتؤمن بأنهم يسخرون أنفسهم لمصالح بلدانهم وأهدافها، وتحقيقها بكل الوسائل بما في ذلك السعي لخلق المشكلات واثارة الفتن والنعرات الطائفية والفتن، وذلك للتمهيد للتدخل في جميع شؤون البلاد¹.

كانت أبرز الفتن التي ظهر فيها التدخل الأجنبي واضحا، ولعب قناصل الدول الغربية دورا بارزا في تحريك أحداثها هي فتنة 1841م في جبل لبنان بين الدروز الذين يحظون بالدعم الإنجليزي، والموارنة الذين يتمتعون بالحماية الفرنسية، حيث كان الفرنسيون يخططون لحكم ماروني جبل لبنان. وكان الإنجليز من جهتهم يخططون كي يصبح نفوذهم في جبل لبنان بوابة إلى فلسطين، فوجد مثلا أن قنصل إنجلترا "رتشارد وود" لم يقف على الحياد في هذه الأحداث، فهو قد قام بإرسال كتاب إلى سليم باشا والي صيدا بتاريخ 28 أكتوبر 1841م يحذر فيه الدولة العثمانية من التدخل في هذه الأحداث².

ومن أبرز قناصل بريطانيا أيضا "الكولونيل روز" الذي قدم إلى بيروت 1840م، وقد جاء للبلاد بغرض تحقيق أهداف كان قد سطرها من قبل، في مقدمتها القضاء على النفوذ الفرنسي في بلاد الشام، فحسبه أن محاربة النفوذ الفرنسي ليس واجبا سياسيا فقط، بل شهوة روحية وجسدية معا³. وبالإضافة إلى ما ذكر سابقا، كان من بين أهداف روز، وضع الباشوات العثمانيين في سوريا ولبنان بصورة غير مباشرة تحت وصاية بريطانيا، وأيضا اختيار طائفة تكون قاعدة دعم للسياسة البريطانية والوسيلة الفعالة للتدخل⁴. وقد استفاد "روز" في تطبيق سياسته السالفة الذكر مما كان لبريطانيا من نفوذ لدى الباب العالي

¹ خوري وعادل اسماعيل: مرجع سابق، ج 3، ص ص 9 - 10.

² عبد فتوني: مرجع سابق، ص ص 37 - 38.

³ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص 357.

⁴ خوري وعادل اسماعيل: مرجع سابق، ج 3، ص 10.

وليجعل كلمته نافذة على الحكام العثمانيين في بلاد الشام بما فيها لبنان. وحذا في ذلك حذو من سبقه من عملاء بريطانيا منذ عام 1836م في استخدام وسائل الإغراء التقليدية كتوزيع المال والسلاح والذخيرة¹.

وبهذا كان القنصل البريطاني روز يطبق الأهداف التي سطرها بالتنسيق مع حكومته، فهو كان على اتصال مستمر معها ويطلعها على كل المستجدات واحدة بواحدة، فقد كتب لحكومته في أول أكتوبر 1841م عن وضع المنطقة قائلاً: «إن الموارنة مستسلمون روحاً وجسداً إلى فرنسا ... وعليه فلم يبقى لإنجلترا أن تختار في الأمر، بل أمسى عليها عضد الدروز»².

وكما أشرنا، فقد كان نشاط القناصل البريطانيين مدعماً بنفوذ بريطانيا لدى الباب العالي، فقد أيدت بريطانيا اقتراح النمسا الرامي لحل الأزمة في لبنان، وقد راسل السفير البريطاني في الاستانة الوزير العثماني للخارجية في 15 ديسمبر 1842م، أخبره: «بأن حكومته يطيب لها أن تبلغ الباب العالي، أن قراره الخاص بوضع الدروز في لبنان تحت إدارة زعيم منهم والموارنة تحت إدارة زعيم ماروني يدل دلالة واضحة على ثقته بصداقة الدول الأوروبية الخمس واحترامه رأياً»³.

وبالإضافة إلى بريطانيا، فقد كانت فرنسا من بين الدول الأوروبية التي رعت التبشير خاصة في لبنان، فقد كان قناصلها هم أيضاً يسعون لإشعال الفتنة وزعزعة استقرار المنطقة كي يتسنى لها تحقيق مخططاتها، حيث أن فرنسا خشيت أن يؤدي ذلك النشاط المتزايد للدول الأوروبية، خاصة بريطانيا إلى إضعاف نفوذها، فقررت أن ترسل بواريه قنصلاً لها في

¹ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 357.

² أبو نهرا: مرجع سابق، ص 24.

³ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 361.

بيروت، وقد تم اختياره بعناية فهو خبير بأمور الشرق والسياسة العثمانية، كما كانت تربطه بأعيان لبنان والإكلروس الماروني صداقة قديمة ومتينة، وبهذا استطاع بوريه استمالة زعماء الطائفة المارونية، مستعملين في ذلك كل الوسائل المادية والمعنوية المتاحة¹. ومن ضمن المخططات التي رسمتها فرنسا، هي انشاء إمارة مسيحية في لبنان تكون تحت وصايتها وتحمي مصالحها في المنطقة. وكان بوريه صاحب هذا المشروع لكن مشروعه لم يحظ بالقبول من طرف الموارنة²، وهكذا أصبحت فرنسا حامية للطائفة المارونية الشيء الذي عبر عنه القنصل دوملواز سنة 1840م حيث كتب من بيروت: «في هذا البلد لم يعد المحميون يسعون حظوة من يحميهم، بل أضحي الحماة يتنافسون لنيل رضى المحميين»³.

لم تكن فرنسا وبريطانيا هما الدولتان الوحيدتان اللتان تدخلتا في لبنان ومن ورائه بلاد الشام، بل كان هناك دول أوربية أخرى أصبحت تسعى لإيجاد مكان لها في المنطقة، وجعلت حماية الأقليات المسيحية ذريعة للتدخل، ومن بين تلك الدول روسيا. وقد مثلها هناك قنصلها "بازيلي" الذي أصبح عام 1843م قنصلا لروسيا في بيروت ومشرفا على القنصليات والممثلات الروسية في حلب واللاذقية وصيدا والقدس⁴.

وقد شرع قنصل روسيا إثر ذلك في اثارة النعرات المذهبية والعمل على حشد صفوف الطائفة الأرثوذكسية تحت راية روسيا وتوسيع الخلاف بين الأرثوذكس والموارنة. وقد كتب عنه أحد رفاقه مؤكدا جهوده في هذا المجال، قائلا: «وفق في ذلك إلى حد بعيد فرفع الطائفة الأرثوذكسية من الصيغة التي كانت تتردى فيها، وأوجد عندها شعورا بحقيقة قيمتها

¹ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 358.

² خوري وعادل اسماعيل: مرجع سابق، ج 3، ص 12.

³ ابو نهرا: مرجع سابق، ص 24.

⁴ سعد ابو جابر: مرجع سابق، ص ص 41 - 42.

وأنشأ صلات بينها وبين المعاهد والجمعيات الدينية في المدن الروسية، وهكذا أنشأ في سوريا ولبنان نفوذا دينيا جديدا يجاهد النفوذ الفرنسي القديم»¹.

وكذلك انضمت النمسا لهذا التنافس حيث وقع اختيار المستشار النمساوي مترنيخ عقب حوادث 1840م على فون دي فكبيكير، فأرسله قنصلا عاما للنمسا إلى بيروت موصيا إياه بأن يستغل الخيبة التي أصابت الكاثوليك بسبب عجز السياسة الفرنسية، وذلك ببسط حماية فيينا على الموارد الكاثوليك وغيرهم من الطوائف الكاثوليكية². وقد صرح فكبيكير عقب وصوله إلى بيروت بقوله: «إن حماية الكاثوليك في الشرق أصبحت الآن من حق النمسا ... بعد أن فقدت فرنسا كل حق في أن تستقل بهذه الحماية، والعرش النمساوي الكاثوليكي الذي تشده إلى السلطان روابط اللؤد القوي، والذي أرسل أسطوله وكتائب من جيشه إلى لبنان لإنقاذ النصارى من مظالم الحكم المصري الذي كانت تؤيده فرنسا، أحق من أي عرش كاثوليكي آخر بالاضطلاع بهذه الحماية»³. كما قدم لبطريك الموارنة باسم النمسا أربعة آلاف وخمسمائة ليرة ذهباً ليوزعها على المنكوبين من طائفته في حوادث 1840م، وقال: «إن حكومته مستعدة لدفع مليون فرنك للطوائف الكاثوليكية إذا قبلت هي حماية النمسا»⁴.

وأصبح اللبنانيون نتيجة هذا التنافس أشبه بقبائل متحاسدة لا شيء يجمعها، وكل شيء يفرق بينها وتدخل القناصل في كل كبيرة وصغيرة، تدعيما لنفوذ بلدانهم ولم يتوقف دورهم عند هذا الحد، بل كانوا يتدخلون في تسيير شؤون لبنان التي كانت صلاحيات الدولة العثمانية، فنجد مثلا أن قناصل الدول الغربية احتجوا على تعيين عمر باشا في 16 جانفي 1842م - كأول والي عثماني - وأبدوا اعتراضهم على الإجراءات التي قام بها في البلاد،

¹ خوري وعادل اسماعيل: مرجع سابق، ج 3، ص 11.

² نفسه، ص 11.

³ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 358.

⁴ خوري وعادل اسماعيل: مرجع سابق، ج 3، ص 12.

وتحت هذا الضغط الأوربي، سحبت الدولة العثمانية عمر باشا من حكم جبل لبنان¹، هنا تدخل مترنيخ مستشار النمسا مقترحاً شكل الحكم الذي يجب أن يطبق في لبنان، حيث اقترح أن يقسم لبنان إلى قائمقاميتين إحداهما إسلامية والثانية مسيحية، وحظي هذا المقترح بتأييد فرنسا وبريطانيا وعين أحمد ارسلان على القائمقامية الدرزية وعين الأمير حيدر ابي اللمع قائمقام على النصارى وكان من الطائفة المارونية، كان تعيين هذا الأخير محل اعتراض من الأرثوذكس فطلبوا تعيين قائمقام منهم مؤيدين من قنصل روسيا، وأعلن أنه لن يقبل أن يخضع اتباعه الروم الأرثوذكس لسلطان الموارنة، وطلب أن يكون القائمقام أرثوذكسيا ولكن اقتراحه لم يلقى التأييد اللازم².

وفي سنة 1845م، ساءت الأحوال في لبنان مرة ثانية فاندلعت الحرب الطائفية والتي سميت بالحركة الثانية، فكانت هذه الأحداث محل تدخل من قبل فرنسا ورأت أن خير وسيلة لإنهاء الحرب وإعادة الاستقرار والأمن، هي إلغاء نظام القائمقام والعودة إلى نظام الإمارة اللبنانية، لكن مقترح فرنسا لم يلقى التأييد الكافي من باقي الدول الأوربية، وقد ردّ شكيب أفندي وزير خارجية السلطان العثماني آنذاك، سبب الحوادث التي وقعت في لبنان في مذكرة بعث بها إلى الدول الأوربية إلى سياسة قناصل الدول الأوربية في بيروت، وتدخلهم في جميع شؤون البلاد، وما أن وصل شكيب أفندي إلى لبنان في 14 سبتمبر 1845م حتى وجه دعوة إلى قناصل الدول الأوربية الخمس، وهي فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وروسيا، وطلب منهم ألاّ يتدخلوا مطلقاً في شؤون لبنان الداخلية، وكلفهم باستدعاء رعاياهم من الجبل فوراً بما فيهم الإرساليات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية في مدة أقصاها 10 أيام، ولكن

¹ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 358 - 360.

² نفسه، ص 361 - 362.

بمغادرة شكيب أفندي لبنان حتى عاد قناصل الدول الأوروبية في بيروت إلى نشاطهم الواسع¹.

ومن هنا يظهر أن السياسة ما هي إلا وسيلة من وسائل التبشير لتحقيق مطامع تلك الدول الغربية في بلاد الشام، ولعل ما يؤكد ذلك أن فرنسا التي هي حامية الموارد والكاثوليك عامة في الإمبراطورية العثمانية لم تلتزم بواجب الحماية في القرن 19م، حيث دعمت حليفها محمد علي باشا في احتلاله لبنان وسوريا 1832م - 1840م، متجاهلة مطالب اللبنانيين في رفض الاحتلال المصري والضرائب الباهضة التي فرضها عليهم ابنه إبراهيم باشا، ولم تتجاوب فرنسا مع شكاوى البطريرك الماروني يوسف حبش لأن الأولوية بالنسبة لها، هي الحفاظ على مكانتها ونفوذهم في المنطقة ومحاربة منافسة بريطانيا لها. فكان رهان فرنسا الأول في الشرق ضمان مصالحها الاقتصادية والسياسية وليس مصالح من تحميهم من المسيحيين، لذلك نجدها أقالت بواريه قنصلها في بيروت في جويلية 1840م لأنه أظهر تعاطفا كبيرا مع الثوار المسيحيين والدروز ضد الاحتلال المصري في لبنان، معتبرة أن هذا التعاطف مضرا بمصالحها الكبرى في بلاد الشام².

كانت الدول الأوروبية تدعي العلمانية وفصل الدين عن الدولة، خاصة في القارة الأوروبية، ومع ذلك فقد ارتبطت السياسة والساسة في الشام بالإرساليات التبشيرية وهو ما يعبر عن تناقض كبير.

¹ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص ص 367 - 369.

² أبو نهرا: مرجع سابق، ص 25.

2 - التعليم: كانت الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام تبحث عن الطرق والوسائل المناسبة لإيصال مشروعها وتحقيقه. وبعد دراسة الأوضاع فيها، رأت أن الطريقة الأمثل هي التعليم وذلك لحاجة السكان إليه. فالأوضاع التعليمية هناك كانت متدنية والسكان بحاجة لتعليم أولادهم وتنويرهم، وكذلك لأن التعليم يوصل أفكارهم إلى طلاب مازالت أذهانهم قابلة لامتصاص الأفكار الجديدة مع صغر سنهم، لذا فإن التعليم سوف يحقق أغراضها حتى ولو استغرق الأمر فترات زمنية طويلة، لكن في الأخير سوف تخلق من خلال التعليم فئة تتبنى أفكارها حتى ولو لم يتحولوا إلى مسيحيين.

عندما وصلت البعثات التبشيرية إلى بلاد الشام من مختلف الدول الغربية صاحبة المصالح في المنطقة، استخدمت مختلف الطرق والوسائل في سبيل التبشير، فالأطباء والمعلمين والوعاظ والمترجمين تكرست جهودهم جميعا في خدمة التبشير¹.

ويعتبر التعليم عندهم دائما أحسن وسيلة للتغيير، ولا يمكن أن تتم أي عملية لإحداث التغيير بدونه، خاصة إذا كانت عملية التغيير راسخة عند الإنسان تخص القيم والعادات والتقاليد الخاصة به، خاصة إذا كانت تلك القيم والعادات نابعة عن عقيدة دينية راسخة.

ولهذا اهتمت الدول الأوروبية صاحبة المصالح، بإرسال الإرساليات التبشيرية وفتح المدارس الإرسالية التي ازدادت بداية القرن 19م، حيث نشطت الإرساليات التبشيرية الأجنبية في فتح المدارس في أنحاء مختلفة، وبدأت تتسابق على ذلك لتحقيق أغراضها، حيث يقال: «إن الدول الغربية ما طمحت إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من قارة إفريقيا، أو من الشرق عموما، إلاّ وسبقت إليها بافتتاح المدارس..». كما كانوا يعملون بجمع المعلومات تحت ستار البحوث العلمية².

¹ ليث الجناني: مرجع سابق، 256.

² مفيدة إبراهيم: مرجع سابق، ص ص 101 - 103.

وعن التعليم يقول المستشرق "هنري جب": «إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية فقط .. هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية ..»¹. ولذا تعتبر المدارس شرطاً أساسياً لنجاح التبشير لأنها كما يقول جب: «لن تفرز إلاً هياكل بشرية خالية من الفضائل والأخلاق والمثل، ولأنها لتفريخ مسوخ أدمية متكرة لدينها ووطنها وأبناء جلدتها»².

ويقول محمد اقبال عن التعليم: «... هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكونها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيماوية، وهو الذي يستطيع أن يحول جبل شامخاً إلى كومة تراب»³.

ضف إلى ذلك أن المدرسة والتعليم التي كانت ضمن أولويات خطط المبشرين تعود لسببين مهمين وهما: حاجة الناس إلى العلم لا تنقطع، فالإقبال عليه غريزة دافعة إلى طلبه، وأن التعليم يتضمن تنشئة الأجيال وهذه المدارس تصبغهم بصبغتها وتوجههم بوجهتها⁴.

ولنجاح التبشير رتبوا منهاجهم على أن تكون ثمة مدارس حتى يستطيع المبشر أن يتصل بالناس مباشرة ويدعوهم إلى مذهبه، وفي هذا الشأن يقول اليسوعيون: «إن المبشر الأول هو المدرسة»، واشترطوا أن يكون المعلم أجنبياً ليس من أبناء الشام، وإذا دعت الحاجة ليكن معلم وطني مسيحي متمرناً على التبشير⁵.

¹ مصطفى الشقيري: ماذا تريد الصليبية الحديثة؟، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط 1، القاهرة، 2003م، ص 94.

² محمد السليمان الجبهان: حقائق عن التبشير والنصرانية، د ط، الرياض، د س ن، ص 102.

³ محمد الطاهر عزوي: الغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي، دار الهدى، د ط، ميله الجزائر، 1999م، ص 31 - 32.

⁴ بكر بن عبد الله أبو زيد: المدارس العالمية الأجنبية - الاستعمارية تاريخها ومخاطرها، دار ابن حزم، ط 1، القاهرة، 2006م، ص 25.

⁵ خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 70 - 71.

وغالبا ما يتجه المبشرون نحو تعليم الأطفال قصد نشر أفكارهم والدعوة إلى الديانة المسيحية، وسبب اهتمامهم بالأطفال، يرجع إلى أن المدرسة هي المكان المناسب للاحتكاك بالسكان مباشرة والتغلب على كل المشاكل التي تواجه المبشرين كالتعصب الديني، وسهولة التأثير على الأطفال وتلقينهم مبادئ المسيحية لأنهم لم يتشبعوا بعد بدين أجدادهم¹.

ولقد وجد المبشرون العالم العثماني مجالا خصبا لنشاطاتهم، ولم تجد الإرساليات التبشيرية التابعة للدول الغربية أي صعوبة في تأسيس مدارس تبشيرية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية بما فيها الولايات العربية. واستغلت عدم وجود أي قانون يقيد عملها، بل على العكس من ذلك، كانت الامتيازات الممنوحة للدول الغربية تتيح لها المضي قدما في هذا المجال. وكان بمقدورها تأسيس أي مدرسة وفي أي مكان، وبالعدد الذي ترغب لفتحها، وإدارتها حسب رغبتها، وتنظيمها وتسييرها بشكل يتناسب وتوجهاتها².

ومما يلاحظ في لبنان خلال النصف الثاني من القرن 19م، شدة تنافس الإرساليات التبشيرية على بناء المدارس في المدينة الواحدة، وكان هذا التنافس على أشده بين الفرنسيين والأمريكيين خاصة، حيث يقول المبشر الأمريكي الدكتور "فان ديك" عن هذه المنافسة: « حيث يذهب الدكتور فان ديك يتبعه الجزويت»، وهذه الرواية تصور واقع الحال في شدة التنافس، فحيث يفتح المرسلون الأمريكيون مدرسة يتبعهم المرسلون اليسوعيون بفتح مدرسة أخرى في ذات المكان³.

ومن أجل استقطاب الأهالي إلى المدارس التبشيرية، استعملت في بدايات عملها بالشام اللغة العربية كلغة تدريس أساسية، لكن ما أن استقر بها المقام حتى تخلت عنها في تعليمها

¹ واعلي محمد الطاهر: "التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904 دراسة تاريخية تحليلية"، (رسالة ماجستير في علوم التربية)، اشراف: تركي رابح، جامعة الجزائر، معهد علم النفس وعلوم التربية، 1988 - 1989م، ص 76.

² فاضل بيات: المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، ص 676.

³ علي برو: مرجع سابق، ص 16.

واستبدلتها بلغتها الخاصة، فأصبحت الإنجليزية لغة المدارس البروتستانتية والفرنسية لغة المدارس اليسوعية¹.

ويعود تاريخ تأسيس المدارس التبشيرية في بلاد الشام إلى منتصف القرن 18م عندما بدأت إرسالية الآباء اللعازريين الكاثوليك المدعومة من طرف فرنسا عملها في دمشق منذ عام 1755م، حيث أسست بعد عشرين عاما من ذلك مدرسة للذكور في دمشق².

وفي عين طورة أنشأ الآباء اللعازريون مدرسة عام 1834م، وفي السنة الموالية أنشأ القس الأمريكي وليم طمسن مدرسة في بيروت، وفي سنة 1847م أسس الأمريكيون مدرسة عبية في لبنان، وفي نفس السنة أسس الآباء اليسوعيون مدرسة غزير في لبنان واشتدت المنافسة بين الطرفين في انشاء المدارس. ولقد شهدت هذه المدارس مرحلتين، مرحلة بطيئة تمثلت في النصف الأول من القرن 19م، ومرحلة سريعة بدأت بعد حوادث 1860م³.

وتعتبر كلية عين طورة التي أسسها اللعازريون الفرنسيون الكاثوليك، من أبرز المؤسسات التي تركها لهم اليسوعيون في نهاية القرن 18م إثر رحيلهم من بلاد الشام، ومع الزمن تحولت هذه الكلية إلى مركز رئيسي لنشاط اللعازريين بمساعدة فرنسا التي كانت تقدم لهم الدعم، حيث اهتمت بتعليم الشبان الفرنسيين المتواجدين في سوريا كأبناء القناصل والسفراء، بالإضافة إلى أطفال عائلات الموارنة، على أمل أن يكونوا مترجمين وموظفين وكتبه عندهم. أما التعليم في هذه الكلية، فهو نظير للتعليم في الكليات الفرنسية، وهذا ما زاد في شهرتها في المنطقة، كما كان يسمح لطلاب هذه الكلية بمتابعة دراستهم في فرنسا،

¹ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مر وتغ: شوقي ضيف، دار الهلال، ج 4، القاهرة، ص 40.

² عوض: مرجع سابق، ص 266.

³ زيدان: مرجع سابق، ص 37.

وانصب الاهتمام في هذه الكلية على إعداد الطلبة في ميادين التجارة، وهذا ما ضمن لفرنسا أمناً مخازن ومترجمين يوفرون عليهم اللجوء إلى وسطاء في المنطقة¹.

ولقد شهدت بلاد الشام بعدها وتيرة سريعة في إنشاء المدارس من طرف الإرساليات التبشيرية الأجنبية لم تشهدها من قبل، الأمر الذي جعل عددها يرتفع ارتفاعاً كبيراً في تلك الفترة بحيث لم تصل سنة 1885م حتى أصبح عدد المدارس الأجنبية في دمشق وحدها 28 مدرسة تعليم عالي، منها 23 مدرسة للذكور فيها 1550 تلميذ، و 5 مدارس للإناث وفيها 743 تلميذة و 10 مدارس ابتدائية للذكور فيها 661 تلميذاً، و 3 مدارس ابتدائية للبنات وفيها 363 تلميذة. أما قضاء حاصبيا، ففيه مدرستان عاليتان بناهما اللعازاريون وعدة مدارس للروم الأرثوذكس، بالإضافة إلى المدرسة الإنجيلية والبطريركية الكاثوليكية والمدارس السريانية الكاثوليكية والأرمن وغيرها من المدارس، التي اشتركت الإرساليات التبشيرية في تأسيسها مع بعض الطوائف المسيحية المحلية من أهل البلاد².

وكانت الحكومة الفرنسية تمدُّ بالمال المدارس الكاثوليكية في بلاد الشام، كما أن الجمعيات البروتستانتية كانت تتفق على مدارسها بسخاء وافر³.

ولقد أسس المبشرون اليسوعيون العديد من المدارس في بلاد الشام في إطار المنافسة مع المبشرين البروتستانت، منها مدارس في بيروت عام 1839م وغزير عام 1843م وزحلة عام 1844م ودمشق 1872م وحلب 1873م. ولقد قدر لمدرسة غزير أن يكون لها شأن كبير بعد انتقالها إلى بيروت عام 1875م، فأصبحت جامعة تعرف باسم "القديس يوسف اليسوعية"، كما أسس الإنجليز والألمان والروس عدة مدارس، لكنها لم تكن ذات تأثير مثل

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 162 - 163.

² عوض: مرجع سابق، ص ص 266 - 267.

³ دي طيرازي: مرجع سابق، ج 2، ص 6.

المدارس اليسوعية والأمريكية. ولقد فتحت تلك المدارس للمسلمين والمسيحيين على حد سواء وإن اقتصرَت على المسيحيين في البداية¹.

لقد تمكن اليسوعيون من تأسيس عدة مدارس ابتدائية للذكور والإناث التي توزعت في لبنان على غزير وبكيفيا وتغنايل وكسارة وزحلة، وأسسوا بعض المدارس الإكليريكية لإعداد رجال الدين المحليين. ففي عام 1846م أنشأوا المدرسة "الإكليريكية المركزية الآسيوية" التي ضمت رجال الدين وأبناء كبار عائلات الجبل أمثال: الخازن وحبيش ودحداح وعائلة خوري. ولقد احتفظ اليسوعيون بعدد كبير من المدارس في جبل لبنان حتى بعد مغادرتهم لغزير وانتقالهم إلى بيروت عام 1875م. وزاد اليسوعيون مدارسهم الابتدائية في مختلف بقاع لبنان بعد الاتفاق الفرنسي وزيادة الدعم الفرنسي لهم، وامتد نشاطهم التعليمي إلى صيدا وصور وحتى صفد في فلسطين، ومن زحلة تقدموا إلى بعلبك ورأس العين والقاع حتى وصلت مدارسهم الابتدائية عام 1875م حوالي ثلاثين منطقة وقرية في جبل لبنان، لأنهم يعتبرون أن المدارس الابتدائية هي أفضل وسيلة لتغلغل النفوذ².

ومن مميزات التعليم اليسوعي بعد استئناف نشاطهم، أنه ارتكز على أسس متينة أساسها الانضباط والصرامة والشدة، تسمح لهم بإعداد التلاميذ إعدادًا شاملاً للحياة. وجهاز الهيكل التعليمي اليسوعي بمدير ونظار وأساتذة يتميزون بالمهارة العالية على الإعداد الأخلاقي ويتابعون تلاميذهم حتى خارج أوقات الدراسة، فالتلميذ يكون مراقب دائماً، وذلك لغرس العقيدة الدينية المسيحية في قلوب الأطفال قبل دراسة العلوم الإنسانية، لأن التعليم ليس سوى وسيلة للوصول إلى الأهداف³. وأهتم اليسوعيون في بداية عملهم في بلاد الشام بالتعليم الديني لاعتقادهم أنهم إذا سيطروا على رجال الدين المسيحيين بإدخالهم إلى

¹ رافق: مرجع سابق، ص 430.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 121 - 122.

³ نفسه، ص ص 123 - 124.

مدارسهم يستطيعون بذلك السيطرة على كافة القرى المسيحية في بلاد الشام، واعتمدوا اللغة الفرنسية في تعليمهم منذ عام 1864م إلى جانب اللغة العربية¹.

لقد لجأ اليسوعيون بعد سنوات من العمل المتواصل إلى إعداد الدعاة المحليين كوسيلة لتثبيت مستقبل العمل التبشيري في المشرق، ولمساعدتهم على تجاوز مشكل اللغة العربية التي أعاقت تواصلهم بالسكان المحليين الذين يتوجهون إليهم، فبالنسبة إليهم إعداد أساتذة محليين ومعلمين ومعلمات عربيات يساعدهم بالذهاب إلى كل القرى وممارسة عملهم التبشيري بكل سهولة، لأنهم متمكنين من اللغة العربية ويعرفون كل عاداتهم وتقاليدهم².

وركزت المؤسسات التعليمية اليسوعية والمبشرون الفرنسيون خاصة على إرسال منح للدراسة في فرنسا، وكانت مخصصة لأبناء المشايخ والأمراء الموارنة. وكان من أوائل المستفيدين آنذاك أبناء العائلات الكبيرة والمعروفة في لبنان منها: "آل شهاب" و"الخازن" و"حبيش" و"الدحاح" و"خوري" و"تابت"³.

ولمواجهة المدّ البروتستانتي الذي كان يهدد نشاط اليسوعيين في جبل لبنان، ظهرت رغبة اليسوعيين لإنشاء مؤسسة كبيرة للدراسات الثانوية والعليا بجميع فروعها لكي تجذب إليها جميع الكاثوليك وحتى المسلمين، عندها أسسوا كلية عام 1875م وأصبحت أساساً لتعليم ثانوي تطور طيلة النصف الثاني للقرن 19م، وحتى بدايات الانتداب وقسم إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى: التعليم الثانوي الكلاسيكي وتتضمن دراسة اللغة الفرنسية والعربية والإنجليزية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية والفلسفة، وفي آخر السنة يجتاز الطلبة امتحاناً لدورتي البكالوريا الفرنسية، وتعين المفوضية الفرنسية مسؤولي الامتحانات

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 111.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 82 - 83.

³ الزبيدي: مرجع سابق، ص 159.

التي يشرف عليها جامعيون من فرنسا، كما يتطابق برنامج التعليم فيها مع برنامج التعليم الفرنسي¹.

المرحلة الثانية: تخص التعليم الثانوي الخاص وتشبه مواد التعليم الكلاسيكي، ويسمح لطلابه بالتقدم لاجتياز امتحانات البكالوريا اللبنانية بفرعها الأدبي والعلمي، كما يمكن للذين أنهوا دراستهم بنجاح من الحصول على إفادة من الجامعة اليسوعية حتى إذا لم يتقدموا لامتحانات اللبنانية، ويخصص هذا التعليم فروع للغات، خاصة الفرنسية والعربية.

المرحلة الثالثة: تخصص الدروس التحضيرية للذين لم يتمكنوا من متابعة دراساتهم العليا ومدة الدراسة فيها سنة واحدة.

المرحلة الرابعة: الصفوف التمهيديّة، فهي السنوات الابتدائية الأربع، وتضم عدة أقسام، ويشرف على قسم الصغار فيها أخوات يسوع ومريم².

وتستقبل كلية "غزير" طلابا داخليين ونصف داخليين، ويتراوح سن القبول ما بين الثامنة والثامنة عشر، ونصف طلابها من الموارنة والباقي من جميع الطوائف المسيحية الأخرى، وتضاعف عدد طلابها ثلاث مرات منذ انتقالها إلى بيروت وحتى بدايات الانتداب الفرنسي، إذ ارتفع بين سنة 1875م و 1924م من 276 إلى 735 طالبا. ولقد تفوق اليسوعيون في مجال التعليم عن غيرهم من الإرساليات³.

وأهم ما توج العمل التبشيري اليسوعي في بلاد الشام، هو تأسيس "الكلية اليسوعية" التي تحولت إلى "جامعة القديس يوسف" السابقة الذكر فيما بعد، والتي أبصرت النور عام 1873م، وذلك بعدما وافقت الحكومة الفرنسية على المشروع الذي تقدم به اليسوعيون

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 127 - 128.

² نفسه، ص 128.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 129.

بخصوص انشاء هذه الجامعة، والتي كانت بدايتها بافتتاح كلية طب فرنسية سنة 1883م، وذلك لمواجهة النفوذ البروتستانتي المنافس من جهة، ولبسط النفوذ وتطويع عقول الذين تدرسوا في الثانويات الفرنسية، وسوف يتابعون دراستهم لمدة ست سنوات جامعية في كلية الطب¹. ومن خلال ذلك، سوف تغرس في عقولهم طريقة فرنسية في الحديث والتفكير، بالإضافة إلى باقي المواد الدراسية في الصيدلة والأمراض والعلاج ستوجههم نحو الطرائق والأدوية والكتب والوسائل الفرنسية وإلى فرنسا حتما سيذهب معظمهم للتخصص. وكان أصحاب فكرة هذه الكلية، هما جامبتا Gambetta والكاردينال لافيغري Lavigerie اللذين عبر عنهما السفير الفرنسي في استانبول وأشاد بهما، حيث قال أنهما أرادا: « إيجاد مدرسة فرنسية في سوريا يؤمها شباب البلد من أجل العلوم الطبية، والتعمق في دراسة لغتنا، كي ينتشروا فيما بعد في أنحاء الشرق كافة كأصدقاء لنفوذنا وحضارتنا...»².

لقد رأى بعض المؤسسين لجامعة القديس يوسف من اليسوعيين مدى الأهمية التي وصلت إليها مدينة بيروت عام 1870م، خاصة بعد تأسيس الكلية البروتستانتية السورية التي أنشأت عام 1866م، فطالبوا بنقل كليتهم من غزير وأخذوا يجمعون الأموال من الكاثوليك المتواجدين في الولايات المتحدة الأمريكية ما بين سنوات 1871م و1875م لشراء الأرض في بيروت وبناء المباني التي ستصبح جامعة القديس يوسف، ثم تأسست كلية الطب بمساعدة فرنسا التي خصصت لليسوعيين في بيروت ميزانيات كبيرة لتأسيس هذه الكلية ودعم قنصل فرنسا في بيروت والملحق العسكري الفرنسي في استانبول³.

¹ خليل إبراهيم أحمد: المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، مكتبة الوعي العربي، د ط، د م ن، 1964م، ص 44.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 129 - 130.

³ DACCACHE, Op . Cit., p. 5.

ولقد نجحت في نشر الثقافة الفرنسية في كامل التراب السوري من خلال برنامجها التعليمي الفرنسي، ونتيجة لأعمالها منحها البابا لقب الجامعة، واعترفت بها سنة 1883م وزارة التربية الفرنسية ووافقت على دعمها بمنحها مساعدات مالية سنوياً¹.

كما بادر الأباء اليسوعيون بإنشاء كلية للطب والصيدلة في بيروت عام 1883م كجزء من جامعة القديس يوسف، وكانت في البداية تمنح الدبلوم في الطب بعد دراسة ثلاث سنوات، ثم أصبحت سنوات التدريس أربعة منذ سنة 1887م، وكانت اللجنة المخصصة لامتحان الدكتوراه تأتي من فرنسا منذ عام 1895م، وكانت شهادة هذه الكلية معادلة لشهادة الطب التي تمنحها الجامعات الفرنسية. وبدأت الكلية بتسعة طلاب وزاد العدد ليصل عام 1905م إلى 237 طالباً من بلاد الشام ومصر².

لقد أنشئت الجامعة اليسوعية لتحبيب فرنسا إلى أهل لبنان خاصة³، حيث تلقت المساندة من طرف بابوية روما، إذ نجد أن البابا غريغوريوس السادس عشر هو الذي شجع اليسوعيين للذهاب إلى بلاد الشام عام 1831م وأمرهم بالعمل فيها. فإن البابا ليون الثالث عشر أجاز لليسوعيين في بلاد الشام عام 1881م حق منح الشهادات بأنواعها، ومن ثمة أصبحت جامعة القديس يوسف جامعة بابوية⁴.

وتولى اليسوعيون إدارة تلك الكلية والحكومة الفرنسية الإشراف المالي عليها، والهيئة التعليمية من فرنسا، وتزور الكلية كل عام لجنة فرنسية للتدقيق في الامتحانات والشهادات، ولقبول الطلاب فرضت عدة شروط أثارت استياء السفير الفرنسي واعتراضه عليها وكتب

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 41 - 42.

² علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798 - 1914 الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع، ط 5، بيروت، 1987م، ص 211.

³ خالدي وعمر فروج: مرجع سابق، ص 93.

⁴ نفسه، ص 77.

إلى مسؤوليه يحتج قائلاً: «إن الهدف السياسي الذي وضعناه لأنفسنا يتراجع اليوم أمام ما يزعمونه من فوائد علمية». ومن بين هذه الشروط أن الذي يلتحق بالكلية يجب أن يكون متحصلاً على البكالوريا الفرنسية وأن يكون من الشرقيين والأوروبيين المولودين في الشرق الذين استقرت عائلاتهم هناك¹.

وفي عام 1889م، ألحق بكلية الطب كلية للصيدلة، وألحقت كلية الطب في بيروت بكلية الطب في ليون واتبعت ماليا للمساعدات الحكومية. وهكذا أضحت كلية الطب مع كلية الصيدلة أرضاً خصبة للتوسع الفرنسي تخرج منها مئات الأطباء يحملون الدبلوم الفرنسي ويبشرون بنفوذها ليس في سوريا فقط، بل في كافة أرجاء الدولة العثمانية².

وأسس الفرنسيون المكتبة الشرقية عام 1889م والتي تحولت إلى معهد اللغات الشرقية عام 1902³، وتوسعت الجامعة وفتحت لها فروعاً منها كلية القانون والهندسة عام 1913م، حيث كان عدد الطلاب في 14 نوفمبر خلال محاضرة افتتاح كلية الحقوق بحضور 31 طالباً من بيروت وجبل لبنان وبعض المناطق السورية. ولقد ساعد اليسوعيون على تأسيس هذه الكليات هي جامعة ليون بفرنسا والتي ساهمت في وضع هيكل هيئة التدريس⁴.

كما أن التبشير في مرحلة التعليم الجامعي والثانوي، كان يأخذ أسلوب المناقشة والبحث العلمي ويحاول المبشر أن يعتمد كثيراً على الكتب الإنجليزية أو الفرنسية. ومما لوحظ أن أولئك الطلبة ليسوا على دراية كافية بأمور الدين، وهذا ما يساعد على العمل التبشيري مساعدة إيجابية⁵.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 131.

² نفسه، ص 132.

³ الزيدي: مرجع سابق، ص 134.

⁴ DACCACHE, Op . Cit., p p. 6 – 7.

⁵ إبراهيم أحمد: مرجع سابق، ص ص 60 – 61.

أما المبشرون الأمريكيون، فقد بدأوا كإخوانهم اليسوعيين بالاهتمام بالتعليم عندما جاؤوا إلى لبنان، لأنهم كانوا يؤمنون كما يؤمن غيرهم من المبشرين بأن التعليم أداة فعالة في توجيه الفكر وخاصة في السن المبكرة، ولذا تقول عن ذلك إحدى مبشراتهم تسمى "أنا ميليفن": «إن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم النصراني أكثر من كل قوة أخرى... لأن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في أوطانهم»¹.

لقد أدركت الإرساليات الأمريكية البروتستانتية أن التعليم أحسن وسيلة تنشر دينها، كما أن التعليم يضمن تنشئة أجيال تصبغ على أيدي معلمها بالصبغة التي يريدونها، ومن ثمة أقبلت الإرساليات الأمريكية على التعليم ورصدت له الأموال الكثيرة وزودته بالمبشرين المتحمسين. وهكذا أخذت مدارس الإرساليات الأمريكية في الانتشار في أرجاء الدولة العثمانية، وتطورت بعض تلك المدارس إلى كليات وشجعت المدارس الأمريكية على دراسة اللغات العامية والعلوم الحديثة، وأصبحت أفكار الثقافة الغربية تقدم باللغات المحلية وتجد طريقها في أوساط القرى والأرياف².

ولقد بلغ عدد مدارس البروتستانت في جبل لبنان وحده عام 1883م حوالي 70 مدرسة، منها 53 للبنين و17 للبنات، وعدد المعلمين 60 والمعلمات 24، أما التلاميذ حوالي 2500 والتلميذات نحو نصف هذا العدد. أما في بلاد الشام كلها، فقد بلغ عدد تلك المدارس 130 مدرسة موزعة على مختلف مدن وقرى الشام، وأهم ما تميزت به الفترة الممتدة من سنة 1860م إلى بدايات القرن 20م، هو الانتشار الكبير للتعليم الأمريكي في بلاد الشام³.

¹ الشهري: مرجع سابق، 26.

² الغالبي: مرجع سابق، ص 267.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 124 - 125.

كما تعاونت "جمعية المدارس الإنجليزية" في سوريا والتي تشكلت في لندن مع المرسلين الأمريكيين وتم افتتاح المراكز التعليمية للذكور والإناث ومراكز حتى للمعاقين والعميان، واستعمال أسلوب الترغيب في العمل التبشيري وذلك بتقديم الكتب والأوراق وحتى الثياب مجاناً¹. وقد وصل عدد المدارس البروتستانتية البريطانية في فلسطين وحدها عام 1882م إلى 35 مدرسة للإناث والذكور وكانت تضم 1635 تلميذا وتلميذة².

وعند إنشاء المدارس الابتدائية في معظم أرجاء الشام، ظهرت الحاجة الملحة لإنشاء المدارس العليا، وذلك من أجل تخريج المدرسين للعمل معهم في ميدان التبشير وخاصة من الوطنيين من أبناء الشام، وهكذا بادرت الإرسالية الأمريكية بإنشاء المدارس العليا في بيروت للبنات والبنين، وكانت أشهر مدارسهم العليا هي مدرسة "عبية" العليا التي أسسها المبشرون الأمريكيون فيها، وهي تقع في قلب جبل الدروز والتي تمثل بؤرة النشاط التعليمي الأمريكي. وكان الغرض من انشائها في ذلك المكان، هو اجتذاب الدروز لصفوفهم، خاصة أنهم كانوا يعيشون في منطقة يعم فيها الجهل والحرمان، ولذا اعتبرها المبشرون الأمريكيون المكان المناسب لعملهم التبشيري، ومن ثمة عملت الإرسالية على التقرب من الدروز واستغلال بعض التشابه بين المعتقدات الدرزية والمسيحية في بعض الجوانب، منها مسألة صلب المسيح، كذلك حاولوا استغلال سوء العلاقة بين الدروز والسنة في التقرب من الدروز ونشر المذهب البروتستانتي بينهم³.

افتتحت مدرسة عبية في نوفمبر 1846م لغاية تدريب وتنشئة مبشرين بالإنجيل ومعلمين لتعليم الأجيال الصاعدة، وهذا ما يؤكد أن غرضها هو التبشير وليس تعليم العلوم.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 169.

² سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 69.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 136 - 145.

ولقد انشأ تلك المدرسة الدكتور الأمريكي فان ديك بمساعدة بطرس البستاني¹، وهو من أبرز المساعدين الوطنيين الذين ارتبط اسمهم بالإرسالية الأمريكية².

لقد توج العمل التبشيري البروتستانتي في لبنان في النصف الثاني من القرن 19م، بتأسيس "الكلية السورية الإنجيلية" في بيروت، والتي أصبحت تعرف في ما بعد بالجامعة الأمريكية في بيروت. ولقد أقرت الإرسالية الأمريكية التي كانت تعرف "بالإرسالية السورية"، تأسيس الكلية سنة 1862م، وحصلت على ترخيص لها خاص صادر من ولاية نيويورك، وفتحت الكلية أبوابها عام 1866م برئاسة مؤسسها الدكتور "دانيال بلس". وفي 7 ديسمبر 1871م وضع الحجر الأساسي لأولى بناياتها، وسرعانما تطورت هذه الكلية وأصبحت أحد المراكز الرئيسية للتعليم العالي في الدولة العثمانية³.

وفي الأساس كانت هذه الكلية عبارة عن مدرسة في عبية والتي أسسها الأمريكيون عام 1847م، لكن تحولت إلى كلية بعد نقلها إلى بيروت، وتعتبر هذه الجامعة من أهم المؤسسات التي لعبت دورا ثقافيا وسياسيا في المنطقة⁴.

فقد سافر دانيال بلس إلى نيويورك عام 1862م وخطب في ماي عام 1863م في الكنيسة المشيخية يؤكد حاجة الكلية إلى أطباء وتعليم ديني تكون التوراة فيه كتاب تدريس

¹ بطرس البستاني 1819 - 1883م: من سوريا نشأ في كنف عائلة أنجبت عددا من العلماء وتربى في الدير الماروني في عين ورقة حيث تلقى أصول اللغة العربية، ولغات أخرى، وعمل البستاني فترة عند المرسلين الأمريكيين في بيروت واعتنق مذهبهم البروتستانتي واشتغل في معاهدهم. ينظر: عمر عبد العزيز عمر: في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، د ط، مصر، 2005م، ص 147.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 146.

³ الصليبي: مرجع سابق، ص ص 180 - 181.

⁴ زيدان: مرجع سابق، ص 39.

دائم، وأكد على أن يكون عمل الكلية هو وضع كتب مسيحية تساعد على الاتصال بملايين الناس في آسيا وإفريقيا لنشر المسيحية¹.

ولقد كان عدد طلاب الكلية سنة تأسيسها 29 تلميذاً منهم 16 تلميذ من بيروت و12 تلميذ من جبل لبنان وتلميذ واحد من طرابلس، وتضم ثلاثة اساتذة يرتدون الزي العربي ويدرسون باللغة العربية.

وُقُسم التعليم في هذه الكلية إلى ثلاث مراحل: الأولى وهي التحضيرية وتستمر مدة ثلاث سنوات يتعلم فيها الطلاب مبادئ العربية والحساب والبلاغة الإنجليزية والفرنسية والجبر والجغرافيا، والمرحلة الثانية وهي العلمية وتلي التحضيرية في الترتيب، وتستمر أربع سنوات، وفي نهاية التعليم فيها، يتحصل التلميذ على شهادة في العلوم. أما الأخيرة، فهي المرحلة الطبية مدتها أربع سنوات. وفي عام 1867م بوشر العمل في القسم الطبي فيها، وكان يتم تمويلها مالياً بأرصدة تجمع لها في أمريكا².

وأخذت الجامعة الأمريكية تتسع شيئاً فشيئاً بفضل القائمين عليها من أمريكيين ولبنانيين وسوريين، وبفضل الإعانات التي كانت تردّها من الأثرياء الأمريكيين، أقبل الطلاب عليها من مختلف البلدان والأديان والمذاهب حتى أصبحت من أعظم جامعات الشرق³.

وأنشئت مدرسة الطب والصيدلة كجزء من الكلية السورية الإنجيلية في بيروت عام 1867م، وبدأت التدريس باللغة العربية حتى عام 1887م ثم أصبح باللغة الإنجليزية، بعد ذلك كانت دراسة الطب فيها لأربع سنوات، وكانت بدايتها مع 14 طالباً، ولم يتجاوز عدد الطلبة فيها الخمسين حتى عام 1899م، ثم زاد تدريجياً حتى بلغ 120 طالباً عام 1909م. أما

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 96.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 169 - 170.

³ شبارو: مرجع سابق، ص 192.

عدد خريجي المدرسة بين 1871م و1907 فلم يزد عن 154 خريجاً من بلاد الشام و75 خريجاً من مصر وثلاثة من العراق و64 خريجاً من بقية ولايات الدولة العثمانية¹.

وأصبح اسمها الجامعة الأمريكية عام 1931م والتي أصبحت تضم عشية الحرب العالمية الأولى 26 كلية ومدرسة، منها كلية للطب وأخرى للصيدلة ومدرسة إعدادية للمعلمين ومدرسة للتجارة وكلية لطب الأسنان ومدرسة زراعية ومدارس ثانوية وتحضيرية تابعة لها، تتلقى الدعم من الحكومة الأمريكية وبعض الأفراد هناك².

كان من مبادئ تولي التدريس بالجامعة الأمريكية، أن يقسم المدرسون على أن يوجهوا جميع أعمالهم نحو هدف واحد، وهو التبشير، وأن يتقنوا هاته المهمة ولا يقبل منهم أن يكونوا نصارى فقط، كما كانت الجامعة تحرص على أن تظهر أساتذتها بمظهر المبشرين بل كانت تجبرهم على حضور المؤتمرات التبشيرية³.

لقد كانت المدارس التبشيرية ومنها الجامعة الأمريكية تجبر طلابها على دخول الكنيسة يومياً والاستماع إلى دروس التوراة والإنجيل حتى ولو كانوا مسلمين، وحينما احتج طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت من المسلمين على دخولهم الكنيسة، أصدرت الجامعة منشوراً قالت فيه: «إن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي، هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية وكل هذا قد فعله هؤلاء ليجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده، فنعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه»⁴.

¹ المحافظة: مرجع سابق، ص 211.

² الزيدي: مرجع سابق، ص 162.

³ الجليند: مرجع سابق، ص 107.

⁴ السيد صالح: مرجع سابق، ص 77.

ولقد قرر مؤسسوها أن تكون مؤسسة تبشيرية وأخفوا ذلك في بداية نشاطها، خوفا من السلطات العثمانية، ولكن مع مرور الزمن اشتد عودها وابتعدت عن التستر وأصبحت تفرض دروسها الدينية البروتستانتية علنا على طلابها، وتسعى جاهدة لنشر مذهبها بينهم، بل كانت تفرض عليهم دخول الكنيسة يوم الأحد لأداء الصلاة الخاصة بهم، كما كانت تستغل دروس اللغة الإنجليزية في نقل نصوص التوراة الإنجليزية إلى اللغة العربية ومن ثمة تبدأ المناقشات الدينية¹.

ومما يؤكد أن هذه الجامعة هي مؤسسة تبشيرية، أقوال بعض المبشرين حيث يؤكد الدكتور ستيفن بنروز رئيسها عام 1954م أن الجامعة الأمريكية كانت ولا تزال مؤسسة تبشيرية، بل ويقول إن التبشير كان المبرر الوحيد لتأسيسها، إذ صرح، فقال: «إن الغاية القصوى للكلية السورية الإنجيلية، أن تحتضن التبشير المسيحي وتبذر بذور الحقيقة الإنجيلية»².

وهكذا فقد برهن التعليم أنه أقوى وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتتصير سوريا ولبنان، ومن أجل ذلك تقرر أن يختار رئيس الكلية البروتستانتية الإنجيلية من مبشري الإرسالية السورية أي الأمريكية³.

ورغبة في كسب المسلمين إلى إدارتها وتعليمها، عمد مسؤولو الكلية عام 1920م إلى تغيير اسمها من الكلية السورية إلى الجامعة الأمريكية، وذلك لإبعاد الصبغة الدينية عنها ولمنافسة جامعة القديس يوسف⁴.

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص، ص 97 ، 105.

² نفسه، ص 99.

³ نفسه، ص 67.

⁴ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 171.

لقد استطاعت هذه الجامعة نشر الأفكار الأمريكية في كامل ربوع الشرق العربي، لأنها استقطبت طلاباً من مختلف البلاد العربية، وفرضت اللغة الإنجليزية كلغة أولى بها بعد أن كانت اللغة العربية في بداية نشأتها لغتها الأساسية، وكانت الحجة قلة الكتب العلمية العربية وتعدد جنسيات طلابها، مما يصعب مهمتها إذا استعملت اللغة العربية¹.

كما انتشرت الكليات الأمريكية في القرى بعد تأسيس الكلية السورية الإنجيلية، وذلك عندما أدرك المبشرون الأمريكيون أنهم بحاجة لممارسة التبشير في القرى، فأنشأوا كلية جيرارد أو كلية الأمريكان في صيدا ومثلها في عدة مدن سورية منها في خربوط وعينتاب ومرعش وطرسوس وطرابلس وحلب، مخصصة لإعداد المعلمين ومساعدين على التبشير في القرى².

أما عن السمة العامة التي ميزت التبشير في مرحلة التعليم الجامعي والثانوي، أنه يأخذ أسلوب المناقشة والبحث العلمي ويحاول المبشر أن يعتمد كثيراً على الكتب الإنجليزية أو الفرنسية، ومما لوحظ أن أولئك الطلبة ليسوا على دراية كافية بأمور الدين، وهذا ما يساعد على العمل التبشيري مساعدة ايجابية³.

كما شهدت بلاد الشام انتشار المدارس الروسية الأرثوذكسية خاصة في جبل لبنان. زما يحسب للمدارس الروسية أنها اعتمدت على التعليم باللغة العربية أكثر من باقي المدارس التبشيرية الأخرى. وكانت هذه المدارس تشيد تحت رعاية الجمعية الروسية الإمبراطورية الفلسطينية التي تأسست في روسيا في أواخر القرن 19م، وكانت أولى مدارس الروس التي تأسست في الجبل عام 1898م، وذلك بإشراف الجمعية الفلسطينية الروسية السابقة الذكر،

¹ معاشي: مرجع سابق، ص ص 40 - 41.

² خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 110.

³ إبراهيم أحمد: مرجع سابق، ص ص 60 - 61.

حيث أسسوا مدرستين في كل من بسكنتا وبتغرين، وبلغ عدد المدارس الروسية عام 1906م خمس مدارس¹.

وقد اهتمت الإرساليات التبشيرية بتعليم المرأة خاصة لأنها تعتبر عنصراً فعالاً ومؤثراً بشكل كبير في بناء المجتمع، ولذا كانت أول مدرسة مخصصة لهن قام بتأسيسها المبشرون الأمريكيون، هي مدرسة بيروت للبنات عام 1830م والتي تعد أول مدرسة للإناث في العالم العربي والإمبراطورية العثمانية حينها، حيث قال المبشر الأمريكي "جسب" عنها: «إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني... وها هي قد أثارت اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية». كما أسس المبشرون الأمريكيون مدرسة للبنات في عبيه عام 1847م تحت إدارة السيد دي فورست وزوجته، وأخرى في نفس المنطقة عام 1859م².

كما اهتم المبشرون بالمدارس الداخلية للبنات وقالوا: «إن التبشير يكون أتم حبكا في مدارس البنات الداخلية لما يكون فيها من الأحوال المواتية والفرص السانحة، إن المدرسة الداخلية... تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق، ولأنها تنتزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية»، ويفرح المبشرون إذا اجتمعت في مدارسهم الداخلية بنات من أسر عريقة لأن نفوذهن سيكون أعظم³.

كما لجأ اليسوعيون إلى إنشاء مدارس خاصة بتعليم البنات إلى جانب المدارس التي تعلم الذكور، فكان المركز الأول باسم "أخوات مريم" في بكيفيا والمركز الثاني لأخوات القلب الأقدس في زحلة في لبنان، كما أرسلوا في طلب "أخوات مار يوسف الظهور" اللواتي وصلن لبنان عام 1847م، لكن الموقف الفرنسي المعارض لليسوعيين آنذاك، منع نشاطهم،

¹ سعاد سليم: مرجع سابق، ص 116 - 118. وينظر: بيات: المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، ص 708.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 80 - 95.

³ نفسه، ص 87.

فاضطروا إلى مغادرة لبنان، ولم يعدن إليها إلا بعد التقارب اليسوعي الفرنسي. ولقد أخذت بعثة الأخوات بإنشاء المدارس والمي�ام والمدارس الداخلية في بيروت وصيدا وحلب ودير القمر وصور وغيرها من المناطق لتعليم الموارنة خاصة¹.

فمدرسة صيدا كانت من أهم المدارس المناهضة للبعثات البروتستانتية في المنطقة، ومدرسة دير القمر كانت هي الوحيدة التي تدرس اللغة الفرنسية في منطقة هامة تكتظ بالموارنة، حيث تقول إحدى أخوات البعثة عن ذلك: «أتت نساء مختلف القناصل لرؤيتنا، وأبدت كل واحدة منهن إعجابها بتقدم تلميذاتنا العزيزات... كان الصف يضم عام 1874م مئة تلميذة مارونية»، ولقد انتشرت المدارس المسيحية الخاصة بالبنات التابعة لأخوات يسوع ومريم كافة أرجاء لبنان وذلك راجع لكثافة الوجود المسيحي الماروني هناك، مقارنة بالمناطق السورية الأخرى التي انتشرت فيها البعثات اليسوعية².

أما النصف الثاني من القرن 19م، فكانت أقدم تلك المدارس للبنات في العمل وأهمها المدرسة الإنجليزية التي أنشأتها "مسز بوين طمسن" عام 1860م والتي تعرف باسم "مسز موط"، ثم المدرسة الكلية الإنجيلية الأمريكية للبنات عام 1861م، ولقد تفرع منهما عدة مدارس في بيروت ولبنان. كما انشئت مدارس أخرى تبشيرية للبنات، منها مدرسة الراهبات اللعازريات ومدرسة راهبات المحبة والناصرية ومدرسة بروسيا ومدرسة "مس تيلر"، ومدرسة زهرة الإحسان للروم الأرثوذكس وغيرها من المدارس المخصصة لتعليم البنات³.

وتأملا في نجاح العمل التبشيري في أوساط النساء، طلب المبشرون الأمريكيون عام 1870م مبلغ 30 ألف دولار لمدرسة دينية للبنات في بيروت، وكانت حجتهم في ذلك قيمة المرأة الكبيرة في الحياة البيئية، وأن تلك المدرسة سيكون لها تأثير كبير في تنصير سوريا

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 125.

² نفسه، ص 126.

³ زيدان: مرجع سابق، ص ص 37 - 38.

في المستقبل¹. كما كان للإرساليات الألمانية في فلسطين مدارس، منها كلية شميدت للبنات التي تأسست عام 1886م من طرف الجمعية الكاثوليكية للأرض المقدسة، والتي خصصت لتعليم البنات العربيات وتدريبهن على الأعمال المنزلية حتى المستوى الثانوي العالي².

وافتح المبشرون الإيطاليون الكاثوليك أول مدرسة للبنات في يافا عام 1849م وأخرى في بيت لحم عام 1853م. وفي عام 1884م، افتتحت مدرسة أخرى للبنات في بيت لحم سميت مدرسة راهبات الباطن³.

من خلال ما سبق، يمكن تقسيم التعليم الى مرحلتين أساسيتين سواء من ناحية الانتشار أو من ناحية تحقيق النتائج، ففي النصف الأول من القرن 19م كانت مرحلة بطيئة خاصة في الانتشار ذلك بسبب القيود المفروضة عليها من قبل السلطات العثمانية، خاصة فيما يتعلق باستخراج التصاريح المتعلقة بفتح المدارس. فالدولة العثمانية كانت متخوفة من هذا الاهتمام الغربي بالتعليم، وهذا التضيق أثر أيضا على حصد النتائج الايجابية فكانت، مرحلة بطيئة أيضا في تحقيق النتائج.

أما المرحلة الثانية، فتميزت بكثافة انتشار التعليم التبشيري والمدارس التابعة للإرساليات. وقد ساعد في هذا الانتشار عاملان أساسيان تمثل الأول في ذلك التنافس الحاد بين الإرساليات التبشيرية في تشييد المدارس الذي ساهم بشكل كبير في انتشار المدارس المسيحية في مختلف أرجاء بلاد الشام، أما عن العامل الثاني، فقد تمثل في بداية الضعف للدولة العثمانية والتي أصبحت غير قادرة على مواجهة التغلغل المسيحي المدعم والمحمي من طرف الدول الاستعمارية الكبرى، فلم يعد أمامها سوى التساهل في بعض الاجراءات، والتي من بينها منح التراخيص لبناء مثل هذه المدارس، وعليه فقد أصبح التعليم يحقق بعض

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 87.

² سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 72.

³ امل الحضري: مرجع سابق، ص 93.

النتائج المرجوة من ورائه، خاصة فيما يتعلق بخلق فئات موالية للعقائد المسيحية والأفكار الغربية.

كما يتبين أن المبشرين عولوا على العنصر النسوي في التبشير سواء من خلال الاعتماد على المرأة في التبشير من خلال الاعتماد على مبشرات في الميدان، أو من خلال استهداف المرأة لاستدراجها نحو المسيحية وذلك من خلال فتح مدارس مخصصة لتعليم البنات، وذلك إيماناً منهم بقيمة العنصر النسوي من حيث تأثيره في المجتمع الشامي، فإذا تشبعت المرأة بأفكار المبشرين نشرتها في أسرتها ومن ثم تنتشر في كل محيطها، فهم كانوا يهدفون للتوغل داخل الأسر من خلال التأثير في المرأة.

ولهذه الاعتبارات كان التعليم أهم وأخطر وسيلة راهنت عليها الدول الغربية لضمان نجاح الإرساليات عن طريق تكوين الناشئة على الديانة المسيحية كهدف أولي ثم الحصول على أفراد من أهل الشام يدعمون هذا المسعى بعد تخرجهم من المؤسسات التعليمية للإرساليات، ويباشرون النشاط التبشيري دون أن ننسى التركيز في التعليم على المرأة لما تمثله من ركن أساسي في الأسر وعليه ضمان توسع المذهب على أكبر نطاق.

3- المطابع: من أهم الوسائل التي استعملت في العمل التبشيري في بلاد الشام هي المطابع، وذلك لخدمة أهدافهم المنشودة. وكان الغرض من انشاء المطابع من طرف الإرساليات التبشيرية، هو طبع ونشر الكتب المقدسة والدعاية إلى إنجيل المسيح في بلاد الشام، ثم خدمة الثقافة الغربية وبعد ذلك تعليم شيء من العربية¹.

ففي سنة 1838م، طبعت المطبعة الأمريكية حوالي 9500 نسخة من الكتب الدينية والكراسات الصغيرة، التي كانت توزع على طلبة المدارس التابعة للإرسالية، وكذلك أجزاء

¹ كرد علي: مرجع سابق، ج 4، ص ص 86 - 87.

صغيرة من التوراة. ومع مرور الزمن، توسع عمل المطبعة، فأصبحت تطبع الكتب التي ألفها أعضاء الإرسالية أو التابعين لها من أبناء الشام الذين ارتبطوا بالإرسالية. وأهم كتاب طبعته هذه المطبعة هو ترجمة الكتاب المقدس الذي خرج من الشام الى بقية البلدان العربية، كما طبعت الصحف الخاصة بالإرسالية وكذلك الأطلال¹.

كما تمكن المرسلون البروتستانت من استعمال الطباعة في خضم نشاطهم التعليمي، وذلك لنشر أفكارهم وكتبهم المدرسية ومجلاتهم الأسبوعية، حتى أصبح في بيروت عام 1870م من بين أربع جرائد تصدر منها ثلاث ذات ميول بروتستانتية².

وفي اطار المنافسة التبشيرية ظهرت المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين عام 1848م، كانت حجرية في بدايتها ثم أصبحت عام 1854م تطبع على الحروف وأصبح عملها كبيرا في طبع الكتب المختلفة وقد كانت أتقن المطابع السورية وأكبرها³.

واستعمل المبشرون اليسوعيون الكاثوليك المطبعة بعدما توسعت مؤسساتهم التربوية لتلبية حاجياتهم وذلك لطبع النشرات الدينية والعلمية، فكان من أهم منشوراتهم الدينية، كتب الوعظ الديني والصلوات والتعليم المسيحي وتاريخ القديسين وطرق الصليب وغيرها، بينما تنوعت منشوراتهم المطبوعة على كتب القراءة والقواعد والقواميس والتاريخ والجغرافيا وبين التاريخ المسيحي وتاريخ لبنان والموارنة. ومن تلك الكتب، مختصر التاريخ المقدس، وتاريخ الكنيسة، وتاريخ لبنان، وتاريخ أساقفة الطائفة المارونية، وتاريخ بيروت، وتاريخ بعلبك، وتاريخ خان الفرنسيين في صيدا وغيرها من الكتب⁴.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 200 - 203.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 171.

³ زيدان: مرجع سابق، ص 45.

⁴ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 133.

وما أن جاءت نهاية القرن 19م حتى أصبحت المطبعة الكاثوليكية التي أسسها اليسوعيون في لبنان من أكبر مطابع البلاد لكمية الكتب العلمية والمدرسية التي أنتجتها في ذلك القرن¹. وأهم منشوراتهم الأسبوعية مجلتي البشير والمشرق، فالأولى يشرف عليها مرسلون يحظون بحماية فرنسا، ويدافعون على الكاثوليكية إلى جانب مجلة المشرق التي تشترك معها في نفس المهمة².

كانت الحاجة لوجود المطابع ملحة، فالتعليم كان بحاجة ماسة لطبع الكتب والمطويات بأعداد كبيرة، ومن المستحيل توفيرها من أوروبا، لذا نجد أن الإرساليات التبشيرية جلبت المطابع من بلدانها لتسهيل عملها، وبالتالي تمرير أفكارها خاصة مع تطور الأحداث وانتشار الصحف والمجلات.

4- تأسيس الجمعيات الفكرية: سبق المبشرون الأمريكيون غيرهم في تأسيس الجمعيات المتعددة الأغراض العلمية والأدبية، فأنشأوا أول جمعية في بلاد الشام والعالم العربي عام 1847م بمساعدة بعض الشوام وهي "الجمعية السورية" في بيروت، والتي كان معظم أعضائها من أساتذة الكلية الأمريكية، ومنهم المبشران "إيلي سميث" و"فانديك كورنيليوس" الأمريكيان و"هنري تشرشل" المبشر الإنجليزي، وبالإضافة إلى الأستاذ "بطرس البستاني" و"ناصيف اليازجي"³. ولم يمض عامين على تأسيسها حتى بلغ عدد أعضائها خمسين عضواً أغلبهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت، كانت تعقد اجتماعات مرة كل

¹ الصليبي: مرجع سابق، ص 181.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 134.

³ ناصيف اليازجي 1800 - 1871م: من أسرة كاثوليكية حمصية الأصل يعد من أهم رواد الشعر العربي، ولقد استعان به المرسلون الأمريكيون لتعليمهم اللغة العربية، ولترجمة الكتاب المقدس إلى العربية، وله العديد من المؤلفات في علوم اللغة العربية وآدابها. ينظر: طربين: مرجع سابق، ص 387.

أسبوعين، حيث يلقي بحث لأحد الأعضاء في كل اجتماع، واستمر عمل هذه الجمعية لمدة خمس سنوات إلى غاية 1852م¹.

كما أنشأ المبشرون الأمريكيون "جمعية بيروت الإنجيلية" عام 1872م والتي كان الغرض منها هو نشر الإنجيل، حيث كانت تتلقى التبرعات لطبع وبيع الكتب الدينية البروتستانتية التي يؤلفها أعضاء الإرسالية الأمريكية في بيروت².

وأسس على يد الإرسالية الأمريكية "المجمع العلمي الشرقي" في بيروت عام 1882م بمساعدة بعض الشوام المسيحيين، وتولى رئاسته الدكتور الأمريكي "فان ديك كرنيليوس"، لكن مدة عمل هذا المجمع كانت قصيرة بسبب هجرة بعض السوريين إلى مصر، ومع ذلك كان هدف هذا المجمع هو جمع المعلومات عن الشام في كافة المظاهر والنواحي وجمع الآثار ونشر الأفكار القومية والتبشيرية بين السكان³.

ولم يتوقف الأمر عند المبشرين الأمريكيين، بل سار على حذوهم الأباء اليسوعيون الذين أسسوا أول جمعية لهم عام 1850م تحت اسم "الجمعية الشرقية" على نفس الأسس الأمريكية، كانت تعقد اجتماعات دورية تلقى فيها بعض الأبحاث، وكان من بين أعضائها سوريون من النصارى. ولقد توقفت عن العمل في نفس الفترة التي توقفت فيها الجمعية السورية التي أسسها الأمريكيون⁴.

أما المبشرون الإنجليز البروتستانت، فأسسوا بدورهم جمعية دينية في بيروت خاصة بهم عام 1869م وهي فرع لجمعية اتحاد الشباب المسيحيين بإنجلترا، تحت اسم "جمعية شمس البر" التي انضم إليها عدد من أدباء بيروت وسوريا المسيحيين وأكثرهم من المتخرجين

¹ انطونيوس: مرجع سابق، ص 17.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 78.

³ نفسه، ص ص 255 – 256.

⁴ انطونيوس: مرجع سابق، ص 118.

من المدارس الأمريكية. ولقد انتشرت هذه الجمعية وأصبح لها فروع في كافة أرجاء البلاد وحتى خارجها، منها فروع في مصر¹.

أما الأهداف التي كانت من وراء تأسيس تلك الجمعيات، هي بث الأفكار الغربية والتبشيرية في عقول الأهالي وخاصة المثقفين منهم وذلك عن طريق الحوار والمجادلة وتبادل الآراء².

كان الهدف من انشاء مثل هذه الجمعيات، هو احتواء النخب المثقفة والسيطرة على أفكارهم وتحركاتهم لكي لا يكونوا ناشطين بعيدا عما تدعوا له الإرساليات التبشيرية، فهم بذلك سوف يبقون تحت مراقبتها ومع مرور الوقت، سوف تكون هذه النخب أداة لنشر أفكارها.

5- ترجمة الكتب وإنشاء المكتبات: كانت المشكلة التي واجهت المبشرين الأجانب الذين جاؤوا إلى بلاد الشام خلال القرن 19م، هي الكتب المدرسية والنقص الذي تعاني منه اللغة العربية في كتب العلوم الحديثة، فكان الحل الوحيد هو الترجمة، وخاصة عند المرسلين الأمريكيين، ولذا قام بهذا العمل في بدايته مجموعة منهم والذين درسوا وتمكنوا من اللغة العربية وأمنوا أن الترجمة إحدى أهم الركائز في العمل التبشيري³.

وفي طليعة المبشرين الأمريكيين الذين اهتموا بالترجمة، نذكر المبشر "إيلي سميث" والدكتور "كرنيليوس فان ديك" وذلك منذ عام 1844م حيث توليا مهمة وضع ترجمة عربية

¹ زيدان: مرجع سابق، ص 70.

² معاشي: مرجع سابق، ص ص 72 - 73.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 204.

جديدة للكتاب المقدس، مما أدى إلى صدور ترجمة عربية للكتاب المقدس طبعت عام 1865م¹.

كما كانت الإرسالية الأمريكية تختار الكتب التي يتم ترجمتها بعناية، لأنها تحمل بين طياتها أفكارا وتوجيهات تريد غرسها في النفوس والدعوة إليها من خلال الكتب، ولذا كانت البداية بترجمة الكتب الدينية أو المرتبطة بها، من ذلك ترجمة رواية "ابن حور" التي ألفها بالإنجليزية "ليوولص" وترجمها للعربية الدكتور "فان ديك". وأهم ما أرادت الرواية الوصول إليه وبثه، هو أن اليهود نموذج للمروءة وعزة النفس والعفة بينما المصريون القدامى أهل خبث ودهاء، وخلاصة القول أن المصريين ظلموا اليهود في خروجهم من مصر، ضف إلى ذلك ترجم كتاب أصداء التوراة الذي يتناول الاكتشافات الأثرية في فلسطين، لأنها جاءت متفقة مع ما ورد في التوراة كالكتابات والآثار التي تشير للخلق والطوفان واستعباد بني إسرائيل وهم في مصر وخروجهم منها².

كما ترجم الآباء اليسوعيون التوراة التي عرفت بالتوراة اليسوعية وعمدوا إلى ترجمتها لمنافسة المبشرين الأمريكيين ومقاومة سعيهم في نشر مذهبهم، وقد اعتمدوا في تصحيح لغتها وضبط عباراتها وأسلوبها على الشيخ ابراهيم اليازجي ابن ناصيف اليازجي³، في عام 1890م، وذلك للحفاظ وخوفا على أتباعهم من قراءة نسخة للكتاب المقدس تختلف عما يؤمنون به من أفكار كاثوليكية⁴.

¹ صليبي: مرجع سابق، ص 186.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 205 - 206.

³ زيدان: مرجع سابق، ص 203.

⁴ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 212.

وفيما يخص المكتبات، كان المبشرون يؤسسون المكتبات العامة ويؤثثونها بكل وسائل الراحة ويدعون القراء إليها لقراءة الكتب ويزودونها بمختلف أنواع الكتب في شتى الميادين¹، وكان أهمها مكتبة الكلية الأمريكية التي احتوت 17 ألف مجلد أكثرها باللغة الإنجليزية، وفي المكتبة غرفة خاصة للمطالعة مزودة بالمعاجم والمجلات والجرائد المهمة²، والمكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين التي تأسست عام 1880م وكانت تابعة للكلية اليسوعية في بيروت والتي حوت بدورها على 40 ألف مجلد من مختلف اللغات، ومكتبة الآباء اليسوعيين بحمص بما فيها من كتب، وكان الغرض من تأسيس تلك المكتبات، هو تزويد ومساعدة مدارسها التبشيرية في بلاد الشام³.

كانت ترجمة الكتب من أهم الوسائل التبشيرية وذلك أنه في بداية القرن 19م لم تكن هناك حركة تأليف عربية فما كان على النخب المتعلمة سوى قراءة الكتب المترجمة إلى العربية، والتي كانت تحمل بين طياتها أفكار التبشير والكثير من الأفكار الغربية، وبالتالي ساهمت حركة الترجمة في التأثير على النخب المتعلمة والمتقفة، فأنشأت جيلا متأثرا بالثقافة الغربية، هذا إن لم نقل مولعا بها، ونلمس هذا التوجه من خلال النهضة الفكرية التي شهدتها بلاد الشام أواخر القرن 19م بداية القرن 20م.

6- الصحف والمجلات: استعمل المبشرون عدة وسائل لتوصيل ونشر أفكارهم من ذلك استعمال الصحف والمجلات. وكان أسبق الإرساليات إلى استعمالها، هم المبعوثون الأمريكيون، وذلك عام 1851م بإصدار نشرة أو مجلة دينية بقلم القس "إيلي سميث"، تتحدث على أمور دينية وعلمية وجغرافية، وكانت تصدر مرة واحدة في السنة ثم أصبحت تصدر

¹ خليل أحمد: مرجع سابق، ص 66.

² زيدان: مرجع سابق، 124.

³ معاشي: مرجع سابق، ص ص 70 - 71.

مرة كل أربعة أشهر¹، وهي أول مجلة عربية في بيروت وأسمها "مجموع الفوائد"². وفي عام 1855م، ظهر منها ثلاثة أجزاء ثم توقفت عن الصدور. أما عدد صفحاتها، فبلغ 144 صفحة³. وكانت الغاية من إصدارها، نشر العلوم الدينية الخاصة بمذهبهم لما لها من اتصال وثيق بالسياسة التبشيرية الأمريكية في بلاد الشام⁴.

وفي عام 1863م، أنشأ المرسلون الأمريكيون في بيروت جريدة "أخبار عن انتشار الإنجيل في أماكن مختلفة" على يد المبشر الدكتور كارنيليوس فان ديك، وتعتبر أول جريدة عربية مصورة ومن أهم الصحف الدينية، وكان الغرض من انشائها، هو نشر أخبار المرسلين البروتستانت في أقطار العالم وتعميم انتشار الإنجيل بين القبائل المختلفة في الشرق، فكانت تطبع في البداية في صفحتين صغيرتين ثم نشرت في أربع صفحات ثم توقفت عن الصدور عام 1865م وأنشأ مكانها مجلة "النشرة الشهرية"⁵، وهي عبارة على جريدة شهرية دينية مصورة ذات ثماني صفحات صغيرة، وظهر العدد الأول منها في غرة جانفي 1866م على انقاض الصحيفة السابقة الذكر، وكان الغرض من إصدارها بث تعاليم المذهب البروتستانتي مع نشر أخبار المبشرين البروتستانت وذكر أعمالهم بين الشعوب الناطقة بالضاد، وكان يحزر فيها قساوسة الطائفة البروتستانتية. ولقد عاشت خمس سنين وتوقفت عن الصدور عام 1871م لتخلفها جريدة "النشرة الأسبوعية" التي استمرت في الصدور حتى في القرن العشرين⁶.

¹ زيدان: مرجع سابق، ص 53.

² كرد علي: مرجع سابق، ج 4، ص 80.

³ دي طرازي: مرجع سابق، ج 1، ص 53.

⁴ زيدان: مرجع سابق، ص 56.

⁵ دي طرازي: مرجع سابق، ج 1، ص، ص 32، 66.

⁶ نفسه، ص 69.

و"النشرة الأسبوعية" هي صحيفة أنشأها المرسلون الأمريكيون عام 1871م، وهي دينية أسبوعية مصورة خلفا لجريدة "النشرة الشهرية"، فيها ثماني صفحات صغيرة. ولقد تولى ادارتها وتحريرها في بداية أمرها الدكتور "فان ديك"، وقامت بمناقشات مع غيرها من الصحف في بيروت مثل جريدة "البشير"¹ الخاصة باليسوعيين سنة 1888م، فيما يتعلق ببعض القضايا المختلف عليها بين الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت. وأصبح لهذه الجريدة عام 1890م نسخة شهرية ذات صفحتين ينشرها المرسلون الأمريكيون عوضا عن جريدة "كوكب الصبح المنير" الملغاة، وهي مخصصة لصغار التلاميذ في المدارس البروتستانتية². ومما يؤكد أن النشرة الأسبوعية هي مجلة تبشيرية، هو مواضيعها التي تتحدث عن المذهب البروتستانتي والتعريف به بشتى الطرق وذكر العديد من الوعظ لجذب القراء للانضمام للكنيسة الإنجيلية البروتستانتية، والدعوة لبذل المال في سبيل العمل التبشيري الإنجيلي، ولا يخلو عدد من أعدادها تقريبا دون ذكر لأخبار الإرساليات البروتستانتية في العالم، وكانت تكتب بلغة سهلة التناول مما يسهل للقارئ فهمها³.

وفي نفس سنة 1871م أصدر المبشرون الأمريكيون جريدة "كوكب الصبح المنير"⁴، وهي عبارة على نشرة شهرية دينية مصورة ذات أربع صفحات متوسطة الحجم وكانت توزع مجانا على تلاميذ مدارسهم البروتستانتية وجعلوا شعارها هو: "المجد لله في الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة". وكان عنوانها مكتوبا بشكل كوكب تنبعث اشعته على بيروت، وعلى جانبي العنوان شعار آخر يمثل احدهما بناية الكنيسة الإنجيلية مع برج

¹ أنظر الملحق رقم 5.

² دي طرازي: مرجع سابق، ج 2، ص ص 20 - 21.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 234 - 235.

⁴ زيدان: مرجع سابق، ص، ص 53، 56.

الساعة الأمريكية في هذه المدينة، وتوقفت عن الصدور في أوت 1890م، ومن أهم الذين كتبوا في هذه الجريدة، الدكتور فان ديك المبشر الأمريكي¹.

وقد استعمل كذلك الأباء اليسوعيون في إطار المنافسة، الجرائد، فكان أولها جريدة "البشير" التي صدرت عام 1870م²، ليقفوا بها في وجه الجرائد البروتستانتية للدفاع عن مذهبهم ونشر آرائهم. وقد حمت فرنسا مع الكلية اليسوعية هذه الجريدة طوال فترة وجودها³، وهي عبارة على صحيفة كاثوليكية دينية إخبارية أسبوعية أنشأت لخدمة الطوائف المسيحية الكاثوليكية الشرقية. وكانت في بداية عهدها عبارة على صحيفة صغيرة تصدر في ثماني صفحات ثم تحولت في سنة 1872م إلى جريدة منشورة بأربع صفحات متوسطة، ومع الزمن أصبحت ذات شأن ومن أكبر الصحف وأكثرها أخباراً. وفي جانفي 1911م، أصبحت تصدر مرتين في الأسبوع، وأصبحت نسخ جريدة "البشير" تباع بكثرة في أسواق بيروت وسائر بلاد الشام وكثر قراءها من الكاثوليك وغيرهم. وكانت جريدة البشير تقوم بالمجادلات الدينية وبالمناظرات العلمية في مواضيع مختلفة بينها وبين أهم الصحف العربية⁴.

وفي أواخر عهد الانتداب الفرنسي على لبنان، أصبحت جريدة "البشير" من أهم وأخطر الصحف التبشيرية الخاصة باليسوعيين⁵، وتعتبر من الصحف الموالية لتوجهاتها لفرنسا في لبنان، وتمثل معاهد الإرساليات الكاثوليكية وعلى الأخص جامعة القديس يوسف والمدارس التابعة لها⁶.

¹ دي طرازي: مرجع سابق، ج 2، ص ص 18 - 20.

² زيدان: مرجع سابق، ص 56.

³ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 214.

⁴ دي طيرازي: مرجع سابق، ج 2، ص ص 11 - 18.

⁵ محمود عبد الرحمان: مرجع سابق، ص 100.

⁶ الزبيدي: مرجع سابق، ص 183.

كما أنشأ اليسوعيون جريدة "الكنيسة الكاثوليكية" عام 1888م، وهي عبارة على رسالة شهرية تعليمية تاريخية وهي متكونة من ثماني صفحات صغيرة وإدارتها للآباء اليسوعيين الذين نشروها لحسابهم في مطبعتهم الكاثوليكية، وفي عامها الثاني اتسع نشاطها، فأصبحت تصدر 32 صفحة مرتين في الشهر، واستمر عملها إلى غاية بدايات القرن 20م¹.

إذن فقد كانت الصحف والمجلات وسيلة فعالة في التبشير، فهذه الصحف تُصوّر عبر صفحاتها وفي مقالاتها صورة العالم الغربي المتمدن والمتحضر، والذي يرجع الفضل في تطوره إلى تمسكه بتعاليم الدين المسيحي، وتذكر هذه الصحف بالجهد الذي تبذله الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام في سبيل ترقية الفرد العربي ليصل إلى مصاف الفرد الغربي.

7- بناء المستشفيات والملاجئ: منذ الحروب الصليبية سعت الكنيسة المسيحية إلى الاعتماد على الإرساليات التبشيرية لنشر مبادئها وعقيدتها، ومن ثمة أدركت الدول التي أرسلت بعثاتها التبشيرية مدى أهمية الطب والأعمال الخيرية والإنسانية في مجال التبشير، وجاء هذا الإدراك في تقرير إحدى ركائز الحركات التبشيرية بهذه الصبغة: «هناك بعض المجالات للإرساليات يبدو أن الأطباء فقط هم الذين يستطيعون اكتساب أي نفوذ كبير فيها، وثمة كراهية متعصبة للمسيحية لا يمكن هدمها إلا بإظهار التعاطف لما يحدث من ألام للجسد مصحوبة بالقدرة على تخفيفها، ويبدو أنه لا يمكن إلا من خلال العمل الطبي وحده العثور على ثغرة للنفاذ إلى قلوب هؤلاء الناس»².

¹ دي طيرازي: مرجع سابق، ج 2، ص 67.

² زكي مبارك: "الطب الاستعماري من عمل انساني إلى أداة للتسرب الاستعماري السلمي"، أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمال بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007م، ص 112.

وفي وصية إحدى المبشرات تدعى ايراهيس للأطباء المبشرين حيث تقول « يجب أن تنتهز الفرصة لتصل إلى أذان المسلمين وقلوبهم فتكرز - فتبشر - لهم بالإنجيل، إياك أن تضع الطبيب في المستوصفات والمستشفيات، فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق»¹.

ويقول أحد المبشرين: « إن مكان التصير إنما هو في مستشفيات الإرساليات التبشيرية»، ثم يذكر أن المستشفيات قد استغلت لهذه الغاية بصراحة². ويؤكد هذا أيضا أحد المبشرين في حديثه عن سبب استعمال الطب كوسيلة عندما سئل، فأجاب: « ومن السهل معرفة السبب بأن المسيح كان معلما ومداويا، وفي الواقع كان طبيبا، إن ما نفعله هو تأثير خطاه»³. كما يعتبر المبشرون المستشفيات لا تتفصل عن العمل التبشيري، بل يجب أن تكون امتدادا لها⁴.

لقد سخر المبشرون الطب كوسيلة للوصول لأهدافهم⁵، فالطبيب بفضل عمله يستطيع الوصول إلى كافة طبقات الناس، ولذا يرى المبشرون أن الطبيب المبشر بإمكانه أن يحول مرضاه إلى نصارى، أو أن يدخل الشك في عقيدتهم⁶، فيقولون عن ذلك: « حيث تجد بشرا تجد ألاما، وحيث تكون الألام تكون الحاجة إلى طبيب، وحيث تكون الحاجة إلى طبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير"، ولذلك لم يتوان المبشرون عن استغلال أي شيء من أجل الوصول إلى أهدافهم وتحقيق مخططاتهم، حتى ألام المرضى، لذلك حرصوا على انشاء

¹ عبد الرؤوف رحيم يوسف السامرائي: "الدعوة الإسلامية في مواجهة التهويد والتتصير وسبل النهوض بها"، (رسالة تقدم بها إلى المجلس كلية الإمام الأعظم وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير)، اشراف: عمر محمود السامرائي، رئاسة ديوان الوقف السني، كلية الإمام الأعظم الدراسات العليا، تخصص دعوة وخطابة، د س ن، ص ص 72 - 73.

² مصطفى خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 63.

³ عبد المالك خلف التميمي: التبشير في منطقة الخليج العربي، دار الشباب، ط2، قبرص، ومؤسسة الكميل الكويت، 1988م، ص 28.

⁴ نفسه، ص 29.

⁵ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 186.

⁶ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 59.

المستشفيات والمستوصفات، لخدمة مأربهم حيث يقول الطبيب المنصر الأمريكي "بول هاريسون" في كتابه التطبيب في بلاد العرب: "لقد وجدنا في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى"¹.

ولقد ظهرت أهمية الطب كوسيلة من وسائل التبشير في النصف الثاني من القرن 19م، وأصبح التطبيب في العمل التبشيري من الوسائل الفعالة وأبلغ اثرا، لأنه موجه إلى كل فئات المجتمع على حد سواء. ومن ناحية أخرى له وقع في نفوس الأفراد لأن الأمر يتعلق بمعالجة أمراضهم والتخفيف من حدة الآلام².

والسمة التي تتميز بها الخدمات الطبية المقدمة للمرضى من طرف المبشرين أنها تقدم بصورة مجانية، وتقدم باسم المسيح ليؤمن على المرضى بالشفاء والخير والراحة كما يزعمون. وكان المرضى يلجؤون إليها لأنه لا يوجد البديل. وعن المعاملة داخل المراكز الطبية التبشيرية كانت راقية تمثلت في الابتسام الدائم أمام المرضى وتقديم التحية لهم من قبل الأطباء والممرضين والممرضات، مما ينسيهم الآلام، ويسهل عليهم مهمة توزيع الأناجيل الصغيرة والنشرات المبسطة³. كما أنه تلقى الدروس والوعظ في المستشفى من طرف رجال الدين وتوزع على المرضى النشرات لقراءتها والتسلي بها⁴.

لقد استغل اليسوعيون الطب منذ وصولهم إلى بيروت بين عامي 1831م و 1832م كوسيلة لمزاولة نشاطهم التبشيري. ولقد ساعدهم في ذلك، انتشار أعراض الكوليرا وظهور مرض الطاعون في بيروت، وبرز من أعضاء البعثة اليسوعية الطبيب "هانز" الذي عالج الأمير بشير الشهابي الثاني، مما ساعد في شهرته وكسب بذلك خطوة له ولرفاقه، وانهاالت

¹ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 186.

² واعلي: مرجع سابق، ص 83.

³ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 188.

⁴ ابراهيم احمد: مرجع سابق، ص 60.

عليه الاستشارات من كل جانب. كما الحق بالبعثة عام 1834م مرسل يسوعي بصفة طبيب، وذلك بعد إرسال كمية كبيرة من الأدوية المطلوبة. وهكذا استطاع اليسوعيون من خلال تقديم الخدمات الطبية أن يتوجهوا لمختلف فئات الشعب بعدما تقربوا من الأمراء والأعيان والعائلات ذات النفوذ وذلك لترسيخ وجودهم في الشرق¹.

ويقول أحد اليسوعيين عن أهمية الطبيب ما يلي: «في بلاد الشرق هذه، وأكثر من أي مكان آخر، يعتبر الطبيب شخصا هاما، أن تعليمه والاحترام الذي يحيط بمهنته وحياته الكريمة، يكسبه خصوصا في القرى، سلطة معنوية وحجة لا تناقش، تمكنه من الدخول إلى أكثر الأماكن انغلاقا بسبب الدين والتقاليد، إن الحكيم ... يستطيع أن يمارس تأثيرا حقيقيا»². ويقول أيضا: «إنهم يعملون لضم الخراف الضالة أو المهملة إلى حظيرة المسيح الملك». وهكذا اتخذ المبشرون الطب ستارا يتقربون تحته من المرضى³، وأدركوا أنه وسيلة لتحقيق غاية، ولذا نجد أن اليسوعيين الكاثوليك قد أسسوا مراكزهم التبشيرية بالقرب من المراكز الطبية في بلاد الشام⁴.

لقد زاول الرهبان والمبشرون من فرنسيين وأمريكيين مهنة الطب في بلاد الشام وأعطوها اهتماما بالغا باعتباره وسيلة للتأثير في الناس وجذبهم نحوهم، لذا يصح القول: «أن المبشرين الأمريكيين كانوا أول من أدخل النشاط الطبي في العمل التربوي الأجنبي إلى سوريا ولبنان»⁵.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 81-82.

² نفسه، ص 81.

³ حسن ابراهيم: مرجع سابق، ص 332.

⁴ خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 61.

⁵ الزبيدي: مرجع سابق، ص 159.

كما ساعدت المعاناة الصحية في المناطق اللبنانية أيضا المرسلين البروتستانت حيث التحق ببعثتهم بعد وصولهم إلى لبنان طبيب من بوسطن، وكان الطب بالنسبة للبروتستانت وسيلة كالتربية وليس غاية¹.

كما أنه في العمل الطبي عند المبشرين الأمريكيين يعتقد أن المسيح يسوع كان المعالج وأن العلاقة الحميمة والموثوقة التي تنشأ بين المريض والطبيب ستكون مكانا لانتشار تعاليم الإنجيل، ولذلك أعطى المبشرون اهتماما لإنشاء المستشفيات في الأماكن التي يعملون فيها².

كما أن الطبيب الأمريكي دانيال بلس الرئيس الأول للجامعة الأمريكية في بيروت طلب من الأطباء تقديم نسخة من الإنجيل للمريض لينصرف بها، فيقول عن ذلك: «وبعد أيام يكشف المريض أن إنجيل الطبيب كدوائه»³.

ومن أهم الأطباء الأمريكيين الذين مارسوا الطب التبشيري، وهو كارنيليوس فاندريك الذي أرسل إلى بلاد الشام. ولقد أجمع المبشرون على استعمال كل الوسائل للوصول للتبشير من ذلك قولهم: «كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير، ويجب أن يبقيا كذلك»⁴.

وكان من أبرز أعمال المبشرين الطبية في بلاد الشام، هو إقامة المستشفيات في الأوساط الشعبية لجلبهم وبث الأفكار بينهم، حيث يقول الأمير "شكيب أرسلان" عن ذلك: «..استثمار أمراضهم وعللهم وكروبهم وخصاصاتهم» في نشر دعوتهم الدينية. ولقد أكد المبشرون على فعالية هذه الوسيلة في معظم مؤتمراتهم، كما أكدوا على أن الهدف من هذه

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 168.

² DEVRIM, Op . Cit., p. 17.

³ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 63.

⁴ نفسه، ص 48.

الأعمال ليس الإنسانية في حد ذاتها وإنما هو التبشير قبل كل شيء¹، حيث نجد طبيب إرسالية التبشير في طرابلس الدكتور "أراهارس" وهو يؤكد فعالية هذه الوسيلة، فقال: «يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد ذلك»². ولهذا السبب اهتمت الإرساليات التبشيرية البروتستانتية الإنجليزية منذ دخولها إلى القدس بالعناية الطبية. وقد تطورت هذه العناية بإنشاء مستشفى لها عام 1848م³.

وكان للألمان الفضل في تأسيس أحد أكبر المستشفيات في القدس عرف باسم "المستشفى الألماني". وكان تأسيسه عام 1851م، حيث أن ملك بروسيا تبرع بجزء من نفقاته مع شركة وزارة الأديان في برلين⁴. وبعد ذلك التاريخ زادت المستشفيات والمراكز الطبية في سوريا وفلسطين وغزة ونابلس وغيرها من مدن الشام، حيث أسس الألمان مستشفى في بيروت يعرف "بالمستشفى الألماني". وفي سنة 1897م بنى المبشر الألماني "يتوفيلوس والدمير" أول مستشفى للأمراض العقلية "مستشفى العصفورية" قرب الحازمية، كما كان للأمريكان نصيبهم في هذا العمل حيث بنت المرسلات الأمريكية ماري أدي مستشفى شمال شرق صيدا. ولقد كانا هذان المستشفيان الأخيران وحيدتين بالمنطقة لمدة طويلة، يأوي إليهما المرضى من معظم البلاد المشرقية⁵.

ومن أهم المستشفيات التي أسست في بلاد الشام على سبيل المثال لا الحصر نذكر منها:

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 42.

² ا. ل شاتليه: الغارة على العالم الاسلامي، تر: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط 2، جدة، 1387هـ، ص ص 61 - 62.

³ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 262.

⁴ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 71.

⁵ معاشي: مرجع سابق، ص ص 42 - 43.

- **مستشفى سانت لويس الفرنسي:** يقع في لقصيعة على مسافة قصيرة من باب توما بدمشق. وقد لعب دورا حاسما في القضاء على الأوبئة والوقاية منها، من خلال تقديم اللقاحات الخاصة بالكوليرا والكزاز والتطعيم، بل وحتى اللقاحات والأمصال المضادة للمكورات السحائية. وقد وصف هذا المستشفى من قبل سكان دمشق نتيجة لنشاطه بأنه « المنزل الذي يشفى فيه المرء».¹
- **مستشفى مار يوحنا:** يقع في البقعة في القدس على طريق الخليل المحطة وهو مخصص للعيون، بني عام 1861م يسميه الإنجليز مستشفى سان جون وهو تابع للإرسالية التبشيرية البريطانية². ومنذ عام 1875م، انشئت الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام مراكز طبية في عدة مدن، منها غزة ونابلس وفي سوريا وفلسطين، بل كان لهم أطباء متنقلون حتى في القرى.³
- **مستشفى الطنطور:** أسسه أتباع الإرسالية النمساوية الكاثوليك في فلسطين عام 1876م والذي كان في بدايته عبارة على عيادة طبية ثم تطور واتسع عام 1894م حتى عمت خدماته القدس وبيت لحم وغيرها من المدن الفلسطينية⁴.
- **المستشفى الفرنسي:** تأسس في القدس عام 1880م بنته الكونت دي بيلالا Count De Piellat ويسميه الفرنسيون مستشفى القديس لويس⁵، يتلقى الدعم المالي سنويا من فرنسا، كما يوجد فيه كنيسة تعرف باسم كنيسة ماريوس⁶. وتم تشييد مستشفى آخر في بيت لحم عام 1889م وسمي بالمستشفى الفرنسي أيضا⁷.

¹ BOCQUET, Op . Cit., p. 44.

² العارف: تاريخ القدس، ص 205.

³ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 61.

⁴ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 93.

⁵ العارف: تاريخ القدس، مرجع سابق، ص 205.

⁶ أمل الحضري: مرجع سابق، ص ص 89 - 90.

⁷ نفسه، ص 90.

- **مستشفى الإرسالية الإنجليزىة:** ويسميه البريطانيون مستشفى جمعية يهود لندن، يقع غرب مدينة القدس، بناه المطران جورج فرنسيس بوبهام بلايث George Francis Popham Blyth ما بين سنوات 1887م و 1914م¹.
- كما أفتتح الروس الأرثوذكس في 29 نوفمبر 1897م مستوصفا في دمشق، وكان استقبال المرضى فيه مجانا على اختلاف أديانهم مسلمين كانوا أو مسيحيين².
- **مستشفى مارلوقا:** ويعرف باسم المستشفى الإنجليى العربي في نابلس. وكان هذا المستشفى منذ تأسيسه لا يلقى تجاوبا من قبل الأهالي المحليين وحكامهم، مما عطل بناءه فترة من الزمن إلى أن تدخل سفير بريطانيا في استانبول الذي صادف وجوده في القدس آنذاك وتمكن من استصدار قرار من الحاكم هناك وتم استكمال العمل في المستشفى حتى جدد عام 1901م وافتتح مرة ثانية. ولقد كان أحد الأطباء في هذا المستشفى لا يعالج المرضى إلا بعد أن يجثوا على ركبتيه للصلاة، وحدث أن اعترض عمله والددة إحدى المريضات، فدار بينهما الحوار التالي: "يا دكتور استدعيناك لإسعاف المريضة وليس للصلاة، فأجابها: يا سيدتي أنا اطلب معونة الرب يسوع الذي بدونه لا فائدة من عملي". ومع ذلك، كان المرضى يضطرون لقبول هذه التصرفات لعدم وجود علاج في مكان آخر على الرغم من عدم ارتياحهم لها³.
- وبالرغم من تعرض المبشرين للأوبئة والأمراض، خاصة في صيف 1875م حين عمت الكوليرا بدمشق وتضرروا منها بشدة مثل بقية السكان، فوصل عدد الضحايا أحيانا إلى أكثر من ثلاثمائة، وكان بإمكانهم الفرار بعيدا عن الوباء ورغم ذلك فضلوا مداواة المرضى ولم يفرطوا في هدفهم التبشيري، فاستغلوا هذا الوباء لنشر المسيحية بين المصابين وذلك بمساعدة الجمعيات التبشيرية، منها جمعية "بنات الإحسان" و"أخوات القديس يوسف" لإعطاء

¹ العارف: تاريخ القدس، مرجع سابق، ص 205.

² محمود صالح: مرجع سابق، ص 190.

³ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 94.

صورة حسنة عن خدمة الكاثوليك للمسيحية في المشرق، وما ساعدهم في ذلك، هو إهمال السلطات العثمانية للجانب الصحي خاصة فيما يتعلق ببناء المستشفيات¹.

ومن أهم الأطباء الذين جاؤوا إلى بلاد الشام وهم في نفس الوقت مبشرون أمثال الدكتور جورج بوست جاء إلى طرابلس عام 1863م كطبيب مبشر، وكذلك "كورنيليوس فان ديك" وابنه "هنري فان ديك" و"يوحنا ورتبات" كلهم أطباء² عرفتهم بلاد الشام خلال عمل الإرساليات التبشيرية فيها خلال القرن 19م.

كما اهتم المبشرون بالتبشير في مستشفيات النساء والمستوصفات، بل جندوا الطبيبات والمرضات المبشرات وأرسلوهن للعمل داخل البيوت والقرى للاتصال المباشر بالنساء، وأنشأوا من أجلهن مدارس للتعليم³.

وهناك من الراهبات اللواتي نذرن أنفسهن لخدمة المرضى وتعليم الجاهلين ومواساة المساكين في سبيل التبشير بالمسيحية، حيث يقول عنهن اليسوعيون في كتابهم الذي أصدره في بيروت عام 1931م: « إن الأخوات لسن راهبات معلمات فقط، ولكنهن أيضا راهبات مبشرات، إنهن يعملن إلى جانب عملهن التعليمي أعمالا تبشيرية»⁴.

لم يبق طريق إلا وسلكه المبشرون للوصول إلى أهدافهم. فإلى جانب التعليم والمستشفيات، ظهرت الأعمال الخيرية الاجتماعية، فكان للراهبات اليسوعيات الفرنسيات نشاط كبير في ذلك، حيث أسست راهبات القديس يوسف من مرسيليا عام 1846م، ملاجئ للأيتام ومؤسسات خيرية متنوعة في عدة مدن، منها بيروت وصور وصيدا وغيرها. ونفس النشاط بادرت به راهبات الناصرة من ليون الفرنسية عام 1871م، وغيرهن من الراهبات

¹ BOCQUET, Op . Cit., p. 43.

² خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 104.

³ نفسه، ص 64.

⁴ نفسه، ص 48.

الفرنسيات الكاثوليكيات¹. كما أسس اليسوعيون المياتم لتعليم المهن كالطباعة والحدادة والنجارة وتعليم اللغتين الفرنسية والعربية إلى جانب التعليم الديني بإشراف معلمين أجانب، حيث كان لهم ميتم في منطقة تعنايل وآخر في بيروت².

وأسس الأب أنطوني بلوني من الإرسالية الإيطالية الكاثوليكية في فلسطين دار أيتام داخلية عام 1863م، وأطلق عليها اسم الميتم الكاثوليكي، وجعل فيه مدرسة وكنيسة ومعامل صناعية، ثم أنشأ مدرسة داخلية للذكور عام 1877م تدرس كلاهما عدة لغات وتعلم مهن مختلفة، منها خياطة الملابس الأفرنجية، وصناعة الأحذية، والأثاث الخشبي والحدادة والخرطة وغيرها من المهن التي لم تكن قد عرفت في فلسطين بعد³.

ولم يقتصر الأمر على الخدمات التي يقدمها الكاثوليك، بل قلدهن الراهبات البروسيات ذات المذهب البروتستانتي، فقمّن ببناء العديد من المؤسسات الطبية والخيرية عام 1860م في صيدا وبيروت⁴.

ومن أهم الأعمال التي تصب في الجانب الخيري الاجتماعي، دار الأيتام السورية التي في فلسطين والتي أسسها القس الألماني يوحنا لودفيغ شنلر بتاريخ 11 نوفمبر 1860م، معتمداً على المساعدات التي كانت تأتيه من ألمانيا، حيث كان طلابها من الأيتام اناث وذكور، إذ اشتهرت هذه المؤسسة الخيرة بتعليم الصناعات كالنجارة والحدادة والخياطة والطباعة وصنع الفخار والخزف والأحذية والموسيقى⁵، ووصل عدد الأيتام فيها عام 1911م، نحو 230 يتيم و30 يتيمة وخصص فيه فرع للعميان ومدرسة خارجية كما كان له

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 44.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 134.

³ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 92.

⁴ معاشي: مرجع سابق، ص 44.

⁵ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 71.

فروع في يافا والناصرية. ولقد فتح لكل الطوائف على اختلاف معتقداتها¹، وقدمت هذه المؤسسة أعمالاً كبيرة في الجانب الاجتماعي لكنها بعد عام 1948م بسبب المضايقات اليهودية، فنقلت معظم أعمالها إلى عمان. كما كان للألمان مدرسة تعرف باسم طاليثا قومي وهي عبارة على ميتم للبنات².

كما قامت الإرسالية التبشيرية الإنجيلية الألمانية ببناء مأوى للمجذومين في القدس عام 1867م، كما أنشأت مستشفى للأطفال عام 1872م³.

ومن بين أهم النشاطات التي يتم تعليمها في دور الأيتام التابعة للإرساليات التبشيرية، هو تعليم الأطفال الخياطة والتطريز والطبخ والغسيل والتنظيف⁴

وفي الأخير، يمكن القول أنه كان هناك تكامل في عمل الوسائل التبشيرية، فالواحدة منها مكملة للآخرى، فالتعليم ما كان ليحقق أهدافه دون عمل المطابع، والمطابع بدورها شجعت على انتشار الكتب وترجمتها، مما كون في الأخير المكتبات التي أصبحت مكاناً لنشر التعاليم والأفكار التبشيرية.

وما يمكن الخروج به أيضاً، أن الوسائل التبشيرية قسمت إلى شطرين، الشطر الأول اهتم بالجانب التربوي والتوعوي ويدخل تحت هذا الإطار كل من التعليم وجانب المطابع، وإحداث حركة ترجمة وإنشاء المكتبات، وفي الأخير تكوين الجمعيات الفكرية، وتأسيس الصحف والمجلات لتكون الخاتمة في هذا الشطر باستعمال السياسة كوسيلة للتبشير.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 101.

² سعد ابو جابر: مرجع سابق، ص 71.

³ الشيخ حيدر: مرجع سابق، ص 17.

⁴ DHUNES, Op . Cit., p. 94.

أما الشطر الثاني، فقد اهتم بالجانب الاجتماعي فالفئات التي لم تتمكن من الوصول إليها بالوسائل التربوية والتوعوية، سوف تتمكن بفضل الوسائل الاجتماعية من الوصول لهم، وتمثلت هذه الوسائل أساساً: في بناء المستشفيات، والملاجئ، فبهذا تضمن لنفسها الوصول لجميع شرائح المجتمع الشامي.

فالعامل الخيري في أوساط المنكوبين كان أحد الوسائل الفاعلة التي ركزت عليها الإرساليات التبشيرية كالعناية بالمرضى ورعاية الأيتام وبناء المؤسسات التي تتكفل بذلك مستشفيات وملاجئ، وهو مناخ ملائم جداً لتمرير المفاهيم التبشيرية، خاصة وما نعلمه عن الوضع العثماني العام الذي يتميز بتدهور الخدمات الصحية، ولا يهتم بالمراكز الاستشفائية، وعليه انفساح المجال للإرساليات.

الباب الرابع

أثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام

الفصل الأول: الأثار السياسية

- 1 - انفصال لبنان عن سوريا وظهور دولة لبنان الكبير
- 2 - اثاره الفتن والنعرات الطائفية
- 3 - ظهور فئة موالية للغرب من المسيحيين العرب
- 4 - التمكين لليهود في المنطقة العربية

الفصل الثاني: الأثار الثقافية والدينية

1 - ظهور النهضة العربية

أ - الطباعة

ب - ظهور الصحف والجرائد العربية

ج - ازدهار حركة الترجمة

د - كثرة المدارس وانتشار التعليم

هـ - ظهور الجمعيات الفكرية

2- تكريس اللغة الفرنسية في لبنان

3- أثار دينية

الفصل الأول: الأثار السياسية

1 - فصل لبنان عن سوريا وظهور دولة لبنان الكبير

إن فكرة إنشاء لبنان الكبير كانت موجودة ضمن المخطط الفرنسي، فبالرجوع إلى زمن الامتيازات نجد أن فرنسا حاولت من خلالها التوغل داخل بلاد الشام للوصول إلى الأسواق المحلية، ولم يكن ليتحقق هذا، إلا بإيجاد سند لهم في المنطقة حتى يتمكنوا من التنقل من ليون ومرسيليا لبلاد الشام دون قيود أو ضرائب، خاصة التجار منهم، ومنه جاء تعيين القناصل والسفراء، وقد حمل القناصل والسفراء والتجار إلى جانب أهدافهم التجارية، أهداف تبشيرية. وبالتالي سعوا إلى ايجاد فئة من المحليين يعولون عليها لبدأ العمل، فكان الموارنة هم أفضل سند لهم، ومنه بادروا إلى تكوين إمارة مسيحية في لبنان تكون كوطن قومي يملأه الفرنسيون والموارنة¹.

وقد طغت عدة طرق ووسائل لتجسيد هذا المخطط، الذي تجلت مظاهره في ظهور فكرة التحرر في بلاد الشام، خاصة بعد فتنة 1860م. وكان من أبرز أسبابها، الاختلاط مع الأجانب الممثلين في البعثات التبشيرية، ومطالعة كتبهم وخصوصا ما يتعلق باستقلالهم وثوراتهم. ولقد ساهم التعليم الأجنبي في نشر الأفكار التحررية، وعلمهم المطالبة بحقوقهم، وأخذت أقلام الكتاب تكتب في كل المواضيع دون قيود².

وكان لبنان أكثر جزء من الشام تأثرا بالأفكار الغربية، حيث أخذت هذه الأخيرة تتقرب إليه، خاصة بعد فتنة 1860م وذلك من خلال المدارس والمعاهد البروتستانتية والكاثوليكية التي جاءت من أمريكا وفرنسا وإنجلترا وغيرها من الدول المسيحية³.

¹ JIHANE SFEIR, Histoire de l'Empire ottoman, S. L, 2014 – 2015, p p 77 – 78.

² زيدان: مرجع سابق، ص ص 65 – 66.

³ البساطي: مرجع سابق، ص 39.

الباب الرابع: أثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام

الفصل الأول: الأثار السياسية

ومن ثمة اعتقد المفكرون المسيحيون العرب في لبنان أن الغرب هو الحامي لهم وسندا لقضيتهم، وكانوا يرون في امتداد النفوذ الغربي في الدولة العثمانية مدعاة للاطمئنان¹، خاصة وأن بلاد الشام كانت تعاني من الممارسات العثمانية ضدهم، ولهذا سعت بعض الفئات في بلاد الشام، للتخلص من هذه الممارسات، هذا ما أوجد التقارب بينها وبين الغرب الذين استغلوا هذه النقطة من خلال دعوة المسيحيين العرب لتوعية شعبهم وتنبيههم للممارسات العثمانية ضدهم، وضرورة إيجاد السبل للتخلص منها.

فخلال القرن 19م لم يشعر المفكرون المسيحيون يوما أن من واجبهم الحفاظ على الدولة العثمانية والتخوف من انهيارها². وتمكنت الدول الغربية بواسطة مدارسها التبشيرية أن تكسب ثقة وحب العديد منهم، خاصة المسيحيين، حتى أن بعضهم أصبح يستحسن الوجود الأوربي ويدعوا إلى انفصال لبنان عن سوريا الكبرى، ومن هؤلاء الدكتور "فليب حتي" الذي قال: « لم تكن حركة الستين (أزمة 1860م) كلها شؤما وظلاما، فقد كان لها فضلا عن كونها السبب المباشر في استقلال لبنان وضمان استقلاله من قبل الدول الأوربية، نواحي أخرى مشرقة، فإنها استثارت عطف الدول البروتستانتية نحوه...»³.

وذلك نتيجة للتعليم الذي أخذوه من مدارس الإرساليات التبشيرية المختلفة والتي زرعت في عقولهم أنهم مضطهدون من طرف العثمانيين المسلمين، وأن الغرب موالي لهم في الدين والحامي لهم ولذا يجب التحرر من قيود الحكم الإسلامي العثماني⁴.

¹ الصليبي: مرجع سابق، ص 184.

² نفسه، ص 185.

³ معاشي: مرجع سابق، ص ص 52 - 53.

⁴ طلال عتريسي: «السياسات الدينية للقوى الاستعمارية في البلاد الإسلامية»، مجلة دراسات استشرافية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ع 1، السنة الأولى، صيف 2014م، مرجع سابق، ص 31.

كانت الإرساليات التبشيرية ومن ورائها الدول الغربية في بلاد الشام تعمل وفق خطين متوازيين، فمن جهة كانت تسعى لزراعة العلاقة بين بلاد الشام والدولة العثمانية، ومن جهة أخرى تسعى إلى فصل أجزاء البلاد الشامية عن بعضها مستغلة سياسة فرق تسد.

وفي الأخير تمكنت الإرساليات التبشيرية من خلال مدارسها أن تقطع أواصر الصلة بين أهل الشام من لبنانيين وسوريين، إذ فرقت الوحدة التي كانت تجمع بين أبناء البلد الواحد¹. فلطالما كان لبنان مدة أربعة قرون في ظل الحكم العثماني الإسلامي يعيش وفق سياسة التعايش بين كل أطراف المجتمع، ولم يعرف التمييز العنصري بين مسلم ومسيحي وموارنة ودروز، إلا بعد كثرة التدخلات الأجنبية التي تكاثرت عليه، خاصة في النصف الثاني من القرن 19م، وخاصة بعد فترة الستين².

وبدأت عملية فصل لبنان عن سوريا والدولة العثمانية تتجسد على أرض الواقع في سنة 1861م، عندما طالبت روسيا وأيدتها اليونان بتأسيس إمارة أرثوذكسية في شرقي لبنان، مستقلة عن لبنان الماروني والدرزي. وطالبت بريطانيا بتأسيس إمارة مستقلة للدروز في جنوب لبنان، لكن تضارب المصالح السياسية حال دون ذلك، واتفقوا على مشروع آخر خططت كل دولة أن تستفيد منه من زاوية مصلحتها الخاصة، حيث منحوا لبنان استقلالاً إدارياً تحت إدارة متصرف مسيحي تعينه الدولة العثمانية بعد موافقة الدول الكبرى بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، وانضمت إيطاليا ووافقت على المشروع عام 1868م. وقد أرادت تلك الدول من ذلك المشروع، جعل لبنان بلداً

¹ البساطي: مرجع سابق، ص 40.

² Le Liban Une identité complexe au risque de l'Histoire, Op. Cit., p p. 11 – 12.

الباب الرابع: آثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام
الفصل الأول: الآثار السياسية

مسيحياً، ووضعت لبنان تحت نظام المتصرفية منذ 09 جوان 1861م وظل هذا النظام يسير لبنان إلى غاية الحرب العالمية الأولى 1914م¹.

وقد وقفت فرنسا وراء الموارنة تشجعهم على الاستقلال والمطالبة بالوطن اللبناني، خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وظهر حكام الأمير فيصل العربية كحكومة مؤقتة في سوريا والذي ساعده الإنجليز في ذلك، وهذا ما جعل فرنسا تسرع إلى إرسال جيشها إلى لبنان في أكتوبر 1918م، مما أدى إلى انسحاب الأمير فيصل من لبنان، وألغت فرنسا الحكومة الفيصلية ووضعت إدارة فرنسية، وعندها أصبح لبنان تحت حكم فرنسا المباشر. وبعد عقد مؤتمر الصلح في نوفمبر 1918م في باريس، طالب الموارنة باستقلال لبنان وحماية فرنسا، فحين طالب المسلمون بالوحدة السورية ورعاية أمريكا أو بريطانيا، وظلت طلبات الموارنة إلى فرنسا حتى وعدتهم بالانتداب الذي كان لها عام 1920م في مؤتمر سان ريمو، عندها ثار أتباع الأمير فيصل في دمشق ضد هذا الوعد وأيدهم المسلمون في لبنان الذين استعملوا أسلحة بريطانية بينما استعمل الموارنة أسلحة فرنسية، مؤيدين قرارات مؤتمر سان ريمو. وانتقمت فرنسا من كل الثائرين الذين كان معظمهم من المسلمين، وحاربت فرنسا الدعوة الفيصلية الرامية للوحدة العربية بأن شجعت الدعوة اللبنانية الاستقلالية، وأظهرت العرب على أنهم يريدون التخلص من المسيحيين، وصوروا على أن الإسلام دين دخيل على لبنان².

مما سبق يتضح لنا مدى نجاح فرنسا في زعزعة وحدة البلاد حيث بدأت تظهر مظاهر التمزق، من خلال الاقتتال الذي حدث بين المسلمين والمسيحيين في أعقاب مؤتمر سان ريمو.

¹ صايغ، مرجع سابق، ص ص 124 - 126.

² نفسه، ص ص 140 - 143.

الباب الرابع: أثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام

الفصل الأول: الأثار السياسية

وتحقق حلم فرنسا في المنطقة بإعلان الانتداب سنة 1920م بمساعدة الموارد الذين سهلوا المهمة على الفرنسيين¹، وفي ذلك يقول المؤرخ "كمال صليبي" من أن: « المصالح الفرنسية المارونية قد تلاقت آنذاك ... لأن فرنسا كانت بأمس الحاجة إلى (لبنان مسيحي) صديق كمركز لسياستهم في المنطقة. وكان الموارد وسواهم من مسيحي لبنان يشعرون بحاجة إلى الحماية الفرنسية ضد مطامع القوميين العرب في الوحدة الشاملة»²، وبدت تلك الحماية ضرورية آنذاك، خاصة في الأعوام التي تلت انتهاء الحرب العالمية الأولى، خاصة لفرنسا التي كانت تريد إسكات الرأي العام، هذا من جهة³ ومن جهة ثانية كانت تسعى للتصدي لمشروع الأمير فيصل بن الحسين وحكومته العربية في دمشق الذين كانوا يسيطرون على المنطقة الشرقية من سوريا وينادون بوحدة سوريا العربية بحدودها الطبيعية⁴.

ورحب الموارد بهذا المشروع مع أنهم كانوا يدركون بأنه يعني ضم لبنان إلى فرنسا وليس استقلاله عنها. أما الأغلبية المسلمة فيه، فطالبوا بالوحدة السورية وعارضوا فكرة الضم إلى لبنان، لكن فرنسا لم تهتم بمطالبهم فباشرت اجراءاتها لتكريس الكيان اللبناني حيث وضعت دستوراً للبنان⁵ عام 1926م⁶، وحولت بمقتضاه لبنان الكبير إلى جمهورية⁷.

¹ Pierre Viénot: Le mandat français sur le Levant, Politique étrangère, 21/04/2016, p 106.

² عمار خالد رمضان الربيعي: «الانقسام الوطني اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (1920 - 1943)»، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، ع 16، حزيران، 2014م، ص 215.

³ Viénot, Op . cit., p. 103.

⁴ الربيعي: مرجع سابق، ص 215.

⁵ الدستور اللبناني صدر في ماي 1926م مستوحى من النظام البرلماني الفرنسي لعام 1875م، حيث تنص المادة 95

منه على توزيع الوظائف في التوظيف العام وفي تشكيل الوزارة حسب الطوائف بشكل عادل بينها. ينظر: Le Liban

Une identité complexe au risque de l'Histoire, Op. cit., p. 21.

⁶ الربيعي: مرجع سابق، ص ص 225 - 226.

⁷ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1973م، ص 763.

وبهذا استطاعت فرنسا فصل لبنان عن الدولة العثمانية وعن سوريا حيث أعلن الجنرال الفرنسي غورو Henri.J.Gouroud¹ في أول سبتمبر 1920م عن تأسيس دولة لبنان الكبير بعد اقتطاع مناطق من سوريا وضمها إلى جبل لبنان. وكانت ركيزة هذا العمل وأساسه، الإرساليات التبشيرية التي احتل فيها اليسوعيون موقع الصدارة².

لقد برعت الإرساليات براعة قل مثيلها ليتجسد ذلك في الثقة التي يجب أن تشعر بها فرنسا وهي تعلن بلسان جنرالها "هنري جوزيف غورو" ولادة دولة لبنان الكبير 1920م، لأن هذه الدولة المولودة لن تكون إلا ضمن الدائرة التي رسمها الجنرال أو الفلك الذي تدور فيه سياسة فرنسا، وهذه الثقة لن تكون سوى ثمرة الجهد اليسوعي الكاثوليكي بشكل خاص، والذي بذلته الإرساليات التبشيرية منذ منتصف القرن 19م، لإعداد القادة الأوفياء والنخبة المؤهلة لقيادة الأمم المحررة، كما يقر بذلك أكثر من أب وقنصل في أكثر من اعتراف³.

فلقد نجح اليسوعيون في التأثير على مستقبل الكيان اللبناني، والذي تحول عام 1920م إلى دولة لبنان الكبير، وذلك بعدما زاجوا بين التعليم والتبشير وبين التعليم والسياسة، ومما ساعدهم في ذلك، الحضور الكاثوليكي في المنطقة من جهة، والحضور الفرنسي السياسي والاقتصادي والعسكري من جهة أخرى⁴.

وقد ضمت دولة لبنان الجديدة عدة مدن، أهمها طرابلس وصيدا وصور إضافة إلى بيروت وسهل البقاع الخصيب بما فيهم من أغلبية مسلمة، وكل ذلك بعدما قسمت فرنسا

¹ هنري جوزيف غورو: وهو المفوض السامي في سوريا والقائد العام للقوات الفرنسية في الشرق آنذاك. ينظر: CONRAD, Op. Cit.,

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 76.

³ نفسه، ص ص 13 - 14.

⁴ نفسه، ص 27.

سوريا إلى دولتين، وهما لبنان وسوريا¹، ووضع لبنان كدول مستقلة تحت الإنتداب الفرنسي بموجب القرار الذي أصدره الجنرال "غورو" في 01 سبتمبر 1920م، تطبيقاً للمخطط الفرنسي القائم على سياسة فرق تسد².

وهكذا فعند تأسيس الكيان اللبناني عام 1920م، كانت فرنسا الأم الحنون للموارنة، إذ عملت من خلال سياساتها المباشرة وسياساتها التعليمية والاقتصادية على ربط الموارنة خصوصاً والمسيحيين عموماً بها، وأصبح جبل لبنان مركزاً للإرساليات التعليمية من اليسوعيين والعاذاريين والكرمليين وسواهم من الذين تدعمهم فرنسا، حيث عملت تلك الإرساليات على تغيير الواقع الثقافي بين الطوائف اللبنانية لصالح الموارنة.

وظلت فرنسا دولة منتدبة على لبنان إلى غاية سنة 1943م، ثم أعلنت استقلاله الذي تم على أساس ما سمي بالتسوية التاريخية بين المسلمين والمسيحيين، أي أن يتخلى المسلمون في لبنان عن المطالبة بالالتحاق بسوريا، ويتخلى المسيحيون بالمقابل ببقاء السيطرة الفرنسية عليهم، وهذا ما سعت فرنسا إلى تجسيده من خلال قوانينها خلال فترة الانتداب على سوريا ولبنان، وفي الأخير كان لها ذلك³.

لقد نجحت مدارس الإرساليات التبشيرية وخاصة الكاثوليكية منها في لبنان، وقد تمثل ذلك النجاح في ولادة فكرة القومية اللبنانية المسيحية والتي شجعتها خاصة الأوساط السياسية والدينية الفرنسية، ثم نمت وترعرعت تلك الفكرة في ظل دولة لبنان الجديدة. فبعد أن كان التعليم تمهيداً لها، عمل على تأكيد جذورها الحضارية والتاريخية، وأصبحت الكتب المدرسية

¹ محمد فاروق الخالدي: المؤتمر الكبرى على بلاد الشام (دراسة تحليلية للنصف الأول من القرن العشرين)، دار الراوي للنشر والتوزيع، ط1، المملكة العربية السعودية، 1421هـ - 2000م، ص 336.

² CONRAD, Op . Cit.,

³ عتريسي: السياسات الدينية للقوى الاستعمارية في البلاد الإسلامية، ص 25 - 31.

والأنشيد والقصائد تربي الأجيال على حب فرنسا التي زرعت هذه الفكرة وقامت برعايتها من خلال مدارسها التبشيرية¹.

وهكذا كانت الإرساليات التبشيرية من بين أهم الوسائل التي ساعدت بإلحاق سكان جبل لبنان المسيحيين بفرنسا على كافة الأصعدة، وانعكس ذلك سلباً على المسلمين في تلك البلاد حيث ألحقوا قسراً بتلك الكيانات الحديثة، وتقطعت أوصالهم الجغرافية ووحدتهم مع العالم الإسلامي. ولم يكن هذا الإلحاق صدفة أو عبثاً، بل حددت أطره ومعالجه مسبقاً منذ عشرات السنين بعد أن مهدت له خطط عسكرية دولية وثقافة تبشيرية محلية².

وبالرجوع إلى الوراء قليلاً، نجد أن هذا من بين الأهداف التي سطرته الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام والتي كانت كل واحدة منها تسعى إلى تكوين فئة موالية لها تكون أداة لتنفيذ مخططاتها، ففصل لبنان عن سوريا يعتبر نجاحاً للإرساليات الكاثوليكية، والمدعمة من طرف فرنسا، فلبنان أصبح ضمن النفوذ الفرنسي رسمياً بعد اعلان معاهدة الإنتداب 1920م.

2- اثارة الفتن والنعرات الطائفية:

لعبت تلك الإرساليات التبشيرية دوراً لا يستهان به في تقويض قوة الدولة العثمانية والعبث داخلها ليس للقضاء على الإسلام وحسب، بل للحد من النفوذ العثماني، ولما لا القضاء عليه ما أن سنحت الفرصة، لذا كانت لها اليد الطولى في معظم الأزمات التي مرت بها الدولة العثمانية، لكن لحسن حظ الدولة أن تلك الإرساليات والدول الغربية التي كانت ورائها لم تتفق على طريقة موحدة للنيل من الدولة العثمانية، فاتخذت كل إرسالية طائفة معينة تحرضها على الأخرى أو النهوض ضد الحكومة العثمانية، وذلك حسبما يتلاءم مع

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 79.

² نفسه، ص 27.

مصلحة الدولة الحامية لها، حيث قال المبشر الأمريكي "هنري جيب" في ذلك ما يلي: «إن المبشرين استغلوا جهودهم لخدمة دولهم وأذكوا نار العداوة في الذين كانوا يبشرون بينهم»¹.

كانت إثارة النعرات والفتن الداخلية هي إحدى وسائل إضعاف الدولة العثمانية، فالدول الغربية أصبحت واعية وعلى دراية كافية بالنسيج الطائفي في بلاد الشام وخاصة لبنان، ولذا سعت إلى إشعال الفتن بين هذه الطوائف لتصب اهتمام الدولة العثمانية عليها وتتشغل عن ما كان يحاك ضدها خارجيا.

ومنه فبلاد الشام مثلت مهمة لنشاط الإرساليات التبشيرية وأطماع دولها والذي أكدته تنافسها فيما بينها، فلقد أدى انتشار المدارس التي رافقت عمل الإرساليات إلى ظهور الصراعات الطائفية في بلاد الشام بولاءات ثقافية وسياسية تحتضنها الإرساليات، وبدعمها القناصل والتجار الأجانب².

فكان لبريطانيا مثلا العديد من العملاء اختلفت فئاتهم، فمنهم المبشرون والمدرسون والقناصل رجال السياسة والتجار وغيرهم، تنوعت أدوارهم لخدمة مصالح بريطانيا، وساهموا في إثارة الفتن داخل بلاد الشام من ذلك المبشرين وعلى رأسهم الكاهن الإيرلندي الأصل "ريتشارد وود" الذي أرسلته بريطانيا خصيصا لتجنيد الثوار ولمساعدة الدولة العثمانية ضد ابراهيم باشا عام 1839م، مما سبب أزمة درزية مارونية حادة وتحول الصراع الفرنسي البريطاني على ممتلكات الدولة العثمانية إلى أزمة داخلية بين الدروز والموارنة عام 1840م والتي خلفت مئات الضحايا من العرب النصارى والمسلمين من أبناء البلد الواحد. وكانت بريطانيا تقف إلى جانب الدروز في حين وقفت فرنسا إلى صف الموارنة، كما أن ذلك الكاهن وعد أحد بطاركة لبنان يسمى حبش بمساعدة بريطانيا لإعلان جبل لبنان إمارة

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 45.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 27.

الباب الرابع: أثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام

الفصل الأول: الأثار السياسية

مارونية مقابل وقوفه إلى جانب بريطانيا ومصالحها، ولكن عندما لم يجد استجابة، تحول في مسعاه إلى إثارة الدروز ضد الموارنة واستغلالهم لخدمة مصالح دولته¹.

ولقد أدرك الإنجليز عجزهم عن استمالة الموارنة المسيحيين بعد بذل جهود جبارة من قبل قناصلهم وعملاءهم لكن دون جدوى، حيث أجابهم البطريرك الماروني حبيش بعدما عرضوا عليه عدة اغراءات، فقال: «إن حب فرنسا جار مع الدم في عروق كل ماروني». كذلك أرسل الكولونيل "روز" البريطاني إلى وزارة الخارجية البريطانية عن ذلك، فقال: «إن الموارنة مستسلمون نفسا وجسدا إلى فرنسا وعليه فلم يبق لإنجلترا في الأمر بل أمسى من المحتم عليها عضد الدروز»، ضف إلى ذلك أنه لا توجد في بلاد الشام طائفة البروتستانت، عندها لجئت بريطانيا إلى طائفة الدروز المسلمة واستعمالها كوسيلة لمواجهة المد الفرنسي في الشام².

وفي تقرير رفعة قنصل فرنسا بواريه Boirée في 28 ديسمبر 1841م يلخص فيه سياسة الدول الأوربية في اختراق الطوائف والتحكم فيها وفق ما يخدم مصالحها حيث يقول: «إن القناصل في بيروت قد تبناوا ذهنية الطوائف في لبنان وسوريا وأصبح كل منهم مصدر الوحي والتوجيه والارشاد والحماية لطائفة معينة، فكلما حدثت هزة روحية أو اكفهر الجو السياسي، تتجه أنظار العرب الكاثوليك إلى القنصلية الفرنسية، فإليها دون سواها يقصدون طلبا للرأي ... ومثل هذا تفعل الطوائف الأخرى من غير الكاثوليك لدى قنصلي روسيا وبريطانيا، إذ تدق أبوابها طالبة الحماية من مظالم تعلم أن ممثلي الباب العالي يدبرونها ... وإذا انحدر شيخ معمم أو غير معمم من قريته الجبلية ودخل بيروت من بابها

¹ معاشي: مرجع سابق، ص 46.

² صايغ: مرجع سابق، ص 116.

الجنوبي أو من بابها الشرقي، فكل إنسان يعرف إلى أي قنصل هو ذاهب وماذا هو أت ليقول»¹.

ويقول جبران خليل جبران عن التشتت الذي نتج عن المدارس الأجنبية: «في سوريا كان التعليم يأتي من الغرب بشكل صدقة، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة، لأننا جياع متضورون ولقد أحيانا ذلك الخبز، ولما أحيانا أماتنا أحيانا، لأنه أيقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليل، وأماتنا لأنه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا، وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة معسكرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب،... فالشباب الذي تناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي والشاب الذي يجرع رشفة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيرا فرنسيا، والشاب الذي لبس قميصا من مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا إلى آخر ما هنالك من مدارس، وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء...، فالذين درسوا العلوم باللغة الإنجليزية يريدون أمريكا أو إنجلترا وصية على بلادهم، والذين درسوا بالفرنسية يطلبون فرنسا لتتولى أمرهم»².

ومن أهم الفتن التي تسببت فيها الدول الغربية ووظفت إرسالياتها وقناصلها فيها، هي الحرب الأهلية التي عرفت بفتنة الستين، حيث كثرت الدسائس الفرنسية مع رجال الدين الموارنة للانفراد بحكم جبل لبنان وحياسة خيراته وأراضيه، فكان الفرنسيون والإكليروس يؤمنون بفكرة التطهير للعنصر الدرزي من الجبل، ويعتقدون إما أن يكون هناك دروز أو موارنة ووجود طائفتين معا يبقي الجبل في حالة صراع دائم. ولقد تملك المسيحيون الموارنة فكرة أنهم يفوقون الدروز في العدد والثروة. وكان من مصلحة فرنسا هناك، هو أن تحدث القلاقل في جبل لبنان لتتيح لها عمل حملة عسكرية بحجة حماية النصارى. وهناك ما يثبت

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 78.

² مفيدة ابراهيم: مرجع سابق، ص ص 109 - 110.

أن عملاء فرنسا لم يقتصرُوا على تحريض الكاثوليك للوقوف ضد الدروز، بل أنهم كسبوا بعض العملاء من الدروز وحرصوهم على اثاره فتنة طائفية في جبل لبنان تستوجب تدخل فرنسا حتى تستطيع بسط نفوذها على جبل لبنان وتسيطر على جبل لبنان وتحقق أهدافها¹.

فقد قام المبشرون أثناء فتنة 1860م بإذكاء نار الفتنة والاضطرابات بين الموارنة والدروز، بل أن بعضا منهم اشترك فيها وقتل مثل الراهب اليسوعي فردناند في مدينة زحلة².

وكتب مسؤول بعثة اللعازريين الدينية التعليمية في دمشق إلى رئيسه في سنة 1861م عن فتنة 1860م بين الموارنة والدروز، يقول: «إن سبب الثورة هو حضارة الغرب التي تتقدم بخطى متسارعة نحو الشرق الفاسد، الذي سنقوم بإعادة اصلاحه»³. كما كان لعملاء بريطانیا دور في الفتنة حيث كانوا يقفون إلى جانب الدروز ليس حبا فيهم وإنما لتحقيق مصالحهم والتصدي لفرنسا التي كانت تعتمد على الموارنة للوصول إلى غاياتها⁴.

فذكرت المصادر أن المبشر "هنري تشرشل" الإنجليزي هو المدبر للهجوم الذي شن على مدينة زحلة أثناء فتنة 1860م الشهيرة في لبنان، كما كان يوجه نداءاته في كل مناسبة إلى كافة الدول الغربية لتخليص الرعايا المسيحيين من السيطرة العثمانية الإسلامية⁵.

ففي لبنان كان الموارنة والدروز يقبلون بأمر واحد يحكمهم ويحاربون جنبا إلى جنب في صراعاتهم العائلية والحزبية، بل كانوا يتزوجون من بعضهم البعض وهذا ما أكدته سجلات المحاكم الشرعية الخاصة بعقود الزواج، حيث سجلت في حلب عام 1795م تسجيل

¹ ياسر طالب الخزاعلة: دور الإدارة الأمريكية والقوى الغربية في لبنان (1943 - 1961) دراسة تحليلية للأزمات اللبنانية في ضوء وثائق تكشف عنها لأول مرة، دار الخليج، ط1، الأردن، 2012م، ص 139.

² سلامة عبد المالك: مرجع سابق، ص ص 74 - 75.

³ عتريسي: السياسات الدينية للقوى الاستعمارية في البلاد الإسلامية، ص ص 25 - 26.

⁴ ياسر طالب الخزاعلة: مرجع سابق، ص 139.

⁵ معاشي: مرجع سابق، ص 47.

44 زواجا مختلطا وكان الشهود على الزواج معظمهم من أعيان المسلمين في المدينة، بل وكانوا يمارسون الصناعة وتجارة النسيج مع بعضهم البعض¹، حيث أكد كثير من المؤرخين ومنهم بعض الأوروبيين على أن أتباع الديانات جميعا تعايشوا في ظل الحكم الإسلامي لمئات السنين، ولم تحدث بينهم مذابح إلا عندما تدخلت الدول الأوروبية في شؤون المسيحيين وانتشرت إرسالياتهم التبشيرية ومدارسهم².

وعن الفتن التي تسبب فيها القناصل يقول قنصل بريطانيا الذي خدم في القدس بين عامي 1853 - 1856م أن أول قنصل لفرنسا وهو بول إميل بوتا قام قبل سنوات برفع العلم الفرنسي فوق القنصلية الفرنسية، مما أغضب السكان المسلمين الذين نادوا بإنزال العلم الفرنسي وجروه على الأرض في شوارع المدينة³.

كما عمل القناصل على إثارة الفتن مع الأهالي في سوريا، من ذلك أنه أثناء حرب القرم 1854 - 1856م بين الدولة العثمانية وروسيا، حاول القناصل الأجانب خلق فتنة في جبل نابلس في فلسطين والسبب في ذلك المتمتعون بحماية بريطانيا تمادوا في شتم الأهالي الآخرين، مما جعل بعض الجند التابعين للدولة العثمانية يهينون قنصل بريطانيا في دمشق⁴.

لقد أدى النشاط التبشيري إلى الانقسام المذهبي وأصبحت كل طائفة تسعى للاعتراف الرسمي بها من طرف الدولة العثمانية، حيث تأسست في بلاد الشام عام 1850م بطريركيان للروم الأرثوذكس منفصلتان عن كنيسة القسطنطينية واحدة في القدس وأخرى في انطاكية وقام بينهما تنافس حاد، واعترف السلطان العثماني للسريان الكاثوليك بكنيسة مستقلة باسم بطريركية انطاكية للسريان الكاثوليك وكان مركزها حلب. وأصبح في وطن واحد انقسام كبير

¹ أبو نهرا: مرجع سابق، ص 12.

² مفيدة ابراهيم: مرجع سابق، ص 104.

³ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 41.

⁴ عوض: مرجع سابق، ص 332.

في الكنائس ولم يعد هناك شعور بالانتماء لرابطة واحدة تجمع الكل رغم التعدد والتنوع، بل زاد الشعور بالانتماء للغرب الذي لعبت مؤسساته التعليمية التبشيرية دورا هاما في بروز وعي طائفي مرتبط بالخارج¹.

ومن خلال ما سبق فقد تبين أن الإرساليات التبشيرية الأجنبية التي عملت في بلاد الشام قد أسهمت في إذكاء حدة التعصب الديني بين الطوائف المسيحية وفي إثارة العداء والكراهية بين البروتستانت والكاثوليك ورجال الدين المحليين. وإذا كانت الإرساليات التبشيرية الأمريكية قد حصرت نشاطها على التعليم والتتصير وتحويل المسيحيين من المذاهب الأخرى إلى المذهب البروتستانتي، فقد أوجدت في بلاد الشام طائفة دينية جديدة هي الكنيسة السورية المشيخية البريسبيتيرية على الرغم من أنه لم تكن في بلاد الشام طائفة بروتستانتية عندما جاء المبشرون الأمريكيون إلى بيروت سنة 1820م، قادمين إليها من مالطة، وهكذا أدلت الولايات المتحدة الأمريكية بدلوها في زيادة عدد المذاهب الدينية، وبالتالي في زيادة التنافس والشقاق بين المواطنين المسيحيين².

لم تكتف الدول الغربية بإثارة الصراعات الطائفية في بلاد الشام التي ساهم قناصلها ومبشريها فيها، بل تمادت في ذلك بخلق فتن مع ولاة الدولة العثمانية في بلاد الشام والرعية التابعة لها.

لقد كان للدول الأوروبية دور فعال في إذكاء الصراع من خلال قناصلها في بلاد الشام، ولا سيما قناصل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا، لأن تلك الفترة شهدت تنافسا أوروبيا حادا على لبنان خاصة³.

¹ السعيد حبيب: مرجع سابق، ص ص 443 - 444.

² الشناوي: مرجع سابق، ج 1، ص 96.

³ الصائغ: مرجع سابق، ص 30.

الباب الرابع: أثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام
الفصل الأول: الأثار السياسية

فكان معظم القناصل أنفسهم يعملون أحيانا في ميدان التبشير، بل أكد أحد الآباء اليسوعيين يدعى ميير أن فرنسا كثيرا ما اختارت قناصلها وسفرائها من رجال الدين لتجسيد سياسة فرنسا الدينية في الشرق¹، ومع ذلك فلقد لعب القناصل دورا لا يستهان به في ارباك الإدارة العثمانية من خلال بث الدسائس وإثارة الفتن بتحريض الطوائف على الثورة والعصيان.

لقد كانت القنصليات الأجنبية في ولاية سوريا أوكارا للدسائس والتآمر على الحكم العثماني والتدخل في شؤون ولاة البلاد، مما جعل حكام سوريا يتذمرون ويشكون منهم ومن تصرفاتهم التي كانت تضايقهم إلى الباب العالي في معظم تقاريرهم، ومن ذلك تدخل قنصل بريطانيا سنة 1840م الذي تسبب في عزل والي العثماني على دمشق، المدعو علو باشا. واستمر هذا القنصل في سياسة التدخل، والتسبب في عزل الولاية بالتحريض وبث الشائعات ضدهم للباب العالي. ولم يقتصر الأمر عند قناصل الإنجليز، بل تعداهم إلى قناصل الدول الأخرى حيث شكى منهم والي سوريا عبد اللطيف صبحي باشا عام 1871م، وخاصة قنصل إيطاليا في دمشق واتهمه بإثارة المشاكل للحكومة المحلية بمحاولته التدخل في شؤون طائفة الأرمن السريان².

ومن بين مظاهر التدخل، نجد أن روسيا استغلت الحركات القومية في الأقاليم العثمانية وإثارتها ضد الحكم العثماني في البلقان والأقاليم العربية في بلاد الشام إلى جانبها عن طريق المبشرين الروس. وقد أبدت روسيا تأييدها لهم وتقديم دعمها العسكري للتخلص

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص، ص 119، 127.

² عوض: مرجع سابق، ص ص 323 - 329.

من الحكم العثماني، لكن العرب رفضوا ذلك وفضلوا أن تؤيدهم سياسيا وإعلاميا عند الضرورة¹.

كما أن مدارس الإرساليات التبشيرية الأجنبية كانت تحاول التخلص من المدارس المحلية والوطنية بالدعاية وبتحريض السلطات العثمانية عليها بإظهار عجزها لإبعادها عن طريقها، بل كانت تتأمر عليها مثلما فعل قنصل بريطانيا في دمشق سنة 1880م في رسالة له بتاريخ 2 أوت أنه وجد مناشير ثورية أمام باب بيته، فقال: «إنه من الواضح أن المنشور بقلم أحد العلماء لأن جانبا منه صبغ بلغة قرآنية، ومع ذلك فهو ثوري لأنه يدعو للقيام والتخلص من حكم الذين امتهنوا مبادئ القرآن وتصرفوا كمشركين... وجلبوا البؤس والدمار إلى المؤمنين في سورية... وتشير تقارير القناصل... إلى الدور الأساسي كان لجمعية المقاصد الخيرية»².

وبالتالي إثارة الفتن والقلق بين السكان المحليين الذين يقفون حجرة عثرة أمام نشاط المدارس التبشيرية والسلطة العثمانية لتدنيس العلاقة بينهما وإزاحتها حتى يسهل العمل في أوساط السكان بإبعاد المدارس المحلية والوطنية.

فلم تتمكن الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام من تحقيق هدفها الأول ألا هو تنصير المسلمين، لكنها تركت أثارا عميقة مست البنية الاجتماعية بإثارة الفتن والقلق بين المسلمين والمسيحيين أبناء المنطقة وبين السلطة الحاكمة للانفصال عنها³.

من خلال ما سبق يمكن القول إن الإرساليات التبشيرية كانت في الكثير من الأحيان سبباً مباشراً في إثارة القلاقل بين أهل الشام مستغلة تعددهم الطائفي، فهي كانت على دراية

¹ الشمري: مرجع سابق، ص ص 168 - 169.

² مفيدة ابراهيم: مرجع سابق، ص 111.

³ معاشي: مرجع سابق، ص 45.

بأهمية الدين بالنسبة للفرد العربي، لذا استغلت هذه النقطة بالذات في ضرب وحدة المجتمع، وكانت ذروة هذه الفتن هي فترة 1860م في لبنان بين الدروز والموارنة والتي ظلت أثارها في البلاد إلى وقت طويل.

وقد ساهمت هذه الفتن والقلق في تنفيذ البلاد الغربية في بلاد الشام والتحكم فيها، هذا ما ساعدها على تحقيق ما كانت تسعى له، سواء على المستوى السياسي أو المستوى الاقتصادي، فهي تمكنت منها سياسياً بمجرد إعلان الانتداب على بلاد الشام واقتسامها بين الدول الأوروبية. وهذا ما سيفتح لها الباب واسعاً للاستغلال الاقتصادي.

3 - ظهور فئة موالية للغرب:

تمكنت الدول الغربية بواسطة عمل إرسالياتها الدؤوب من خلق فئة موالية لها من أبناء الشام، وهذا ما يؤكد المبعثر الأمريكي "هنري جيب" بقوله: «من العناية الإلهية العظيمة أن المطبعة الأمريكية والمدارس الأمريكية في سورية كانت وسيلة لإعداد رجال ونساء كثير ليكنوا مواطنين أمريكيين». كما استطاعت بريطانيا صاحبة المصالح في المنطقة من تثبيت وجودها من خلال رجال الدين التابعين لها، من ذلك أنها كلفت القسيس روبسون وهو من الإرسالية المشيخية الأيرلندية بأن يعلم ابني سعيد بك جنبلاط، وهو أحد رجال الإقطاع الكبار من الدروز في لبنان، على نفقتها حتى تضمن ولاء الدروز نحوها وتجتنب وقوفهم ضدها¹.

ومن ناحية أخرى كان هدف البابوية في روما منذ القرن 17م هو ربط مسيحي الشرق بها وظلت تسعى لتحقيق هذه الغاية إلى أن تمكنت من ربطهم بروما عام 1736م، وبهذا أصبح لهم فئة موالية في بلاد الشام، حيث قام المبشرون الكاثوليك بالتدرج في إيجاد أتباع

¹ خالدي وعمر فروج: مرجع سابق، ص 170.

الباب الرابع: أثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام

الفصل الأول: الأثار السياسية

لهم من المذاهب المسيحية الأخرى في بلاد الشام، وإنشاء كنائس كاثوليكية رغم أن الدولة العثمانية لم تعترف بها حتى القرن 19م، وانحصرت رعايتها في الأرثوذكس الذين يتمتعون بنفوذ كبير في استانبول، إلا أن الكنائس الكاثوليكية استطاعت أن تثبت وجودها بعد صدام مع الأرثوذكس في الربع الأول من القرن 19م، بل أصبحت تتمتع بكيان مستقل داخل الدولة العثمانية¹، وذلك بسبب الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا والتي جعلتها حامية المسيحيين الكاثوليك في الشرق.

فبهذا استطاعت الإرساليات الكاثوليكية المدعمة من قبل فرنسا أن تجعل موارد لبنان أداة طيعة في يدها، وكان الفضل في ذلك لبعثات اليسوعيين الجزويت الذين اهتموا بهم وعملوا على تلقينهم اللغة الفرنسية عن طريق انشاء مئات المدارس في جبل لبنان وما جاورها، خاصة في عهد الحكم المصري لبلاد الشام والذي شجع على ذلك، فأزداد تطلّعهم وانجذابهم نحو فرنسا².

ومن خلال التأثير على أبناء المدارس الفرنسية، استطاعت البعثات التبشيرية اليسوعية التوغل داخل الأهالي من خلال نشر الأفكار الفرنسية بينهم وربطهم بفرنسا، حيث تمكنت المدارس الابتدائية اليسوعية وجامعتهم بعد سنوات من العمل في لبنان من إعداد نخبة قادرة على استيعاب سياسة جديدة وتنفيذها بما يتلاءم مع المصالح المسيحية والفرنسية في المنطقة، وكان أفراد النخبة من بين عائلات أعيان المواردن الذين تربطهم بفرنسا علاقة صداقة قديمة تعود لزمان الحروب الصليبية³.

هذه النخبة تضم القادة الأوفياء لفرنسا على حد تعبير أحد القناصل حيث قال: «التي ستقود الأمم المحررة»، لأن بعثة يسوع: «مارست في سوريا دورا فرنسيا خالصا، عبر التربية

¹ رافق: مرجع سابق، ص 429.

² عوض: مرجع سابق، ص 305.

³ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص ص 78 - 79.

التي تلقاها أولاد الأمراء والمشايخ والأعيان، والتي كان يضطلع بها أساتذة فرنسيون...»، تلك النخبة استلمت مقاليد الحكم عندما صك الانتداب على سوريا ولبنان، ومن ثمة تعاقب على سدة الحكم فيهما من تتلمذ على يد المرسلين اليسوعيين، واكتفى خريجو المدارس التركية والأمريكية وهم من عامة المسلمين بما دون ذلك من المناصب¹.

كما يفتخر المرسلون اللعازاريون الكاثوليك باعتبار أنفسهم أكثر الإرساليات التبشيرية الفرنسية مساهمة في تحقيق انتداب فرنسا على سوريا ولبنان، وذلك بسبب تعليمهم الذي خلق فئة متعلمة ومتقفة بثقافة فرنسية موالية لفرنسا، حيث يقول أحد الأباء اللعازريين وهو الأب لوروا: «... وأن مدراء الخدمات الرسمية في لبنان وسوريا وفي دولة العلويين أُنذاك كانوا جميعاً من طلاب العازاريين»².

واستطاعت الجامعتان الأمريكية واليسوعية اللتان أسستا في بيروت أن يصبحا مركزين هامين في بلاد الشام، حيث يأتيهما الطلاب من شتى ربوع العالم العربي، ولم يقتصر دورهما وفروعهما على الدراسة فقط، وإنما تعداه إلى السياسة، إذ لعبتا دوراً أساسياً كبيراً في كل من سوريا ولبنان، لكن النصيب الأوفر كان من حظ لبنان، لأنه مثل أرضية التدخل الأجنبي على هيئة إرساليات تبشيرية مسيحية. ومن لبنان انتشرت تلك الإرساليات في العالم العربي ثم الإسلامي، كما أن خريجي تلك الجامعات الدينية المسيحية انتشروا في ربوع العالم العربي والإسلامي³.

والمرجح أن أولئك المتخرجين تشبعوا بالأفكار الغربية وعملوا على نشرها وزرعها في أوطانهم، ولربما أن الكثير منهم ربطوا بلدانهم بالغرب وحضارته وكانوا فئة موالية للغرب في أوطانهم.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 135.

² نفسه، ص ص 163 – 164.

³ البساطي: مرجع سابق، ص 38.

لقد أثرت المدارس التبشيرية في عقول النشأ وتمكنت تلك المدارس من إيصال الأفكار الغربية إلى عقول الشباب العربي الذي اصطبغ بالصبغة الغربية حتى أصبح يدافع عن الغرب ويتفاخر بأمجاده وحضارته متكرراً لأصالته، إذ فاخر محبو الغرب في لبنان بالدور الذي لعبه الموارنة خلال فترة الحروب الصليبية بأنهم ساعدوا الصليبيين بثلاثين ألف نبال¹.

كما نتج عن المدارس الإرسالية التبشيرية المنتشرة في بلاد الشام فئة من الشوام المسيحيين الموالين للإنجليز وتدافع عن الاحتلال الإنجليزي لمصر بشكل سافر، وهؤلاء النخبة من الكتاب المسيحيين الشوام الذين هاجروا إلى مصر في الربع الأخير من القرن 19م، حيث يقول المؤرخ لويس عوض: «إن إنجلترا استأجرت أقلام الشوام ولا سيما المسيحيين منهم أمثال يعقوب صروف² وفارس نمر وشاهين مكاريوس³ وروفائيل مشاقة وسليم نقاش وميخائيل عبد السيد وسليم عنحوري و خليل اليازجي»، فهذه النخبة كرسَتْ نفسها لخدمته والدفاع عنه، بل وحاولت أن تقنع المصريين بضرورة وجود الإنجليز كمحتلين في

¹ معاشي: مرجع سابق، ص ص 50 - 51.

² يعقوب صروف 1852 - 1927م: هو يعقوب بن نقولا صروف الدمشقي الأصل، الحموي المنبت، أديب وكاتب وناظم وصحافي وفلكي رياضي وقصصي ومترجم عن الإنجليزية، ولد في الحدث ببيروت، حيث تلقى مبادئ العلوم في مدرسة سوق الغرب البروتستانتية، ثم انتقل إلى مدرسة عبيه الأمريكية، وتحصل على شهادة البكالوريوس في العلوم من الكلية الأمريكية في بيروت عام 1870م، وبعدها درس سنتين في مدرستي صيدا وطرابلس الأمريكيتين، وبعد دعوته الكلية الأمريكية إلى تعليم البيان العربي والعلوم، فدرّسَ فيها مدة 11 سنة، كما أنشأ مجلة المقتطف بالاشتراك مع زميلة فارس نمر وشاهين مكاريوس عام 1876م ببيروت، ثم رحل إلى مصر مع زميلة نمر، وأنشأ جريدة سياسية عام 1888م سماها المقطم، كما تولى رئاسة جمعية شمس البر في بيروت، ورئاسة المجمع العلمي الشرقي، وأجيز بالدكتوراه في الفلسفة من جامعة نيويورك، وتوفي بالقاهرة عام 1927م. ومن أثاره: أعلام المقتطف، بسائط علم الفلك، العلم والعمران. ينظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، د ط، ج 1، دمشق، 1957م، ص 131.

³ شاهين مكاريوس 1853 - 1910م: وهو صحفي ومؤرخ ولد في قرية إبل السقي بمرج عيون من أعمال لبنان، تعلم مبادئ القراءة ثم ذهب إلى بيروت، واشتغل بمطبعة الأمريكان وأنشأ بمساعدة فارس نمر جمعية شمس البر، كما عمل في التجارة وتولى إدارة مجلة المقتطف، ورحل إلى مصر مع يعقوب صروف وفارس نمر، وأنشأ فيها مجلة اللطائف، كما اشترك في إدارة المقطم والمقتطف، توفي في مصر ودفن بها، ومن أهم مؤلفاته: تاريخ الاسرائيليين، وكتاب تاريخ ايران. ينظر: كحالة: مرجع سابق، ج 4، ص 809.

مصر، حتى أن فارس نمر وصل به الحد إلى وصف الاحتلال الإنجليزي لمصر بأنه أكبر نعمة. كما امتدح شبلي شميل وجود الاحتلال الإنجليزي وسياسته لمصر بقوله: «إن مصر تحت سيطرة الإنجليز انتظم ريّها واتسعت زراعتها وأثرى فلاحها وصارت حياته ذات قيمة وانتظمت ماليّتها حتى صارت موضع ثقة العموم وبلغت الحرية فيها مبلغاً تفتحت له أبواب السجون»¹.

فلقد كانت صحيفة "المقتطف" و"المقطم" لسال حال الإنجليز والتيار الموالي لهم في مصر سواء من الشوام أو المصريين، حيث اشتهرتا بسياستهما التي تقوم على تدعيم سلطة الإنجليز في مصر مع تقويض سلطة الخديوي والباب العالي. ولقد استخدمهما الإنجليز كوسيلة لنشر سياستهم والدفاع عن مصالحهم، إذ حاولت "المقطم" اقناع المصريين بإيجابيات الاحتلال، فكتبت تقول: «لم لا نتبع خطة أسلافنا الانكليز القادرين على اصلاح شأننا أن يصلحوا ما فسد، قلتم إننا لا نسال غير المصريين وإننا لا نريد أحدا يأمرنا بأمر غير مصري أجبناكم: النبيان يوسف وموسى ليسا مصريين وحكما البلاد وساساها وأنقذاها من الويلات المجلوبة من غيرهم... فقوموا بأنفسكم وعالجوا هذا الداء وأطلبوا من الانكليز المصادقة والإخلاص»².

ليس هذا فحسب، بل سعت جريدة "المقتطف" للدعوة للتفرقة بين العرب والعثمانيين، وتنتشر آراء تشكك في العقيدة وذلك لإضعاف النعرة الدينية والوطنية، وكانت تعمل على

¹ ماهر محمد سعيد درويش: "هجرة الشوام إلى مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين"، (بحث مقدم لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في التاريخ)، اشراف: بهجت صبري، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2003م، ص 98.

² نفسه، ص 99.

إزاحة الفوارق بين العرب والأوروبيين، فكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين، ولا تكاد تجد لها ترجمة فيها لشخصية مسلمة من أبطال المسلمين¹.

من بين الآثار التي خلفتها الإرساليات التبشيرية في البلاد العربية عامة وبلاد الشام خاصة، أنها انتجت فئة متأثرة بالحضارة الأوروبية، وذلك بواسطة مدارسها التبشيرية المختلفة، حيث ظهر داخل الأسرة العربية الواحدة بعد تعلم أبنائها داخل تلك المدارس أن أصبحت الأم ذات ثقافة أمريكية والأب ذو ثقافة عربية والإبنة ذات ثقافة فرنسية والإبن ذو ثقافة إنجليزية. وعلى المستوى القومي، فيكون من هو متشيع للثقافة الفرنسية أو الأمريكية أو الإنجليزية أو غيرها، وهكذا نجحت المدارس التبشيرية في تشكيل نخبة من الشباب تشكياً يناسب اتجاهاتها وأغراضها سواء أكانت أغراض دينية أو اجتماعية أو سياسية، وتوجه تفكيرهم الوجهة التي ترغب فيها².

لقد تمكنت الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام من تكوين فئات موالية لها وذلك من خلال مدارسها التي نشطت خلال القرن 19م لتحقيق هذه الغاية، فكانت أولوية التعليم خلال هذه الفترة، نشر الأفكار الغربية بين أبناء الشام ومحاولة جذبهم نحو الدول الغربية، فكل إرسالية كانت تسعى للتأثير في اتباعها لحساب الدولة الحامية لها.

وبالرغم من هذا، إلا أن الإرساليات التبشيرية لم تتمكن من الوصول إلى كافة شرائح المجتمع الشامي، لكن في المقابل أوجدت لنا فئات أخرى متخلخلة لا هي متبنية للفكر الغربي ولا هي متمسكة بالدين الإسلامي والتراث العربي، وبهذا أصبحت الدول الغربية قادرة على التحكم فيهم بما يخدم مصالحها.

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 243.

² سعيد اسماعيل سعيد: الفكر التربوي العربي الحديث، عالم المعرفة، الكويت، د ط، ماي 1987م، ص 41.

4- تمكين اليهود في أرض فلسطين

لعبت حركة التبشير دورا خطيرا في المنطقة وذلك بالتمهيد لإغتصاب فلسطين من أيدي المسلمين وتسليمها لليهود، حيث قام المبشرون بفتح عدة جمعيات تبشيرية للعمل في فلسطين، والتي أخذت على عاتقها مساعدة اليهود في الوصول إلى غرضهم¹. ومن تلك الجمعيات "الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود" التي أسسها الإنجليز في عام 1809م. وكانت أمالهم عند تأسيسها كبيرة جدا، فكانوا يرون أن العمل يبدأ بجمع اليهود المتفرقين في العالم على أرض فلسطين، ومنذ ذلك الوقت أخذوا يشجعون اليهود على الهجرة. وانتهاز المبشرون فرصة حكم إبراهيم باشا ابن محمد علي للشام وسياسته المتسامحة مع الإرساليات التبشيرية، فوضعوا أساسا ما سموه "كنيسة صهيون"، وهي أول كنيسة بروتستانتية في الإمبراطورية العثمانية. وقد ظلت محاولات المبشرين مستمرة في استغلال القضية اليهودية في سبيل بلوغ أهدافهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن تنصير اليهود خاصة وجمعهم في فلسطين يسهل عليهم مهمتهم في الوصول إلى المسلمين، ولذا كانت الجمعيات التبشيرية بمختلف جنسياتها تعمل بدون ملل في فلسطين وتساعد اليهود على الهجرة بفتح أبواب فلسطين على مصرعيها².

والسبب في ذلك أن فكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين وتجميعهم فيها ثم تحويلهم للنصرانية وهدايتهم، ثم انتظار نزول المسيح المنتظر في نهاية الألفية الثانية للميلاد وبهزم قوى الشر، وبذلك تصبح السيادة للنصارى على فلسطين موجودة في المذهب البروتستانتي

¹ السيد صالح: مرجع سابق، ص 55.

² خالد وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 181.

الذي يدين به غالبية نصارى بريطانيا وأمريكا، هذا أصبحت هذه الفكرة جزءاً من ثقافتهم، مما ساعد على نشرها بين أتباعهم¹.

وهذه الفكرة ظهرت منذ القرن 16م حيث حدث انقلاب جذري تمثل في أن الكنيسة كانت تحتكر تفسير الكتاب المقدس، فثارت الحركة البروتستانتية على هذا الاحتكار، ونجحت في الاستقلال بفهم الكتاب المقدس دون الرجوع إلى الكنيسة الأم وبدأت المفاهيم المسيحية تختلط بالمفاهيم اليهودية بعد أن ضم البروتستانت التوراة إلى جانب الإنجيل وجعلوها مرجعاً أولياً لدينهم. وبفعل ذلك، تغيرت النظرة إلى اليهود أعداء الأمس، ومن ثم دعا البروتستانت إلى احتضان اليهود والتمكين لهم في العودة إلى الأرض المقدسة فلسطين، بعدما كانوا في نظرهم أنجاس كفرة ودم المسيح في أعناقهم².

إن بريطانيا التي دخلت في حلبة الصراع الدولي للحصول على مواقع اقدام لها في بلاد الشام، وذلك من خلال عملها في مجال التبشير البروتستانتية وحماية اليهود، فقد برز مشروعها في إعادة توطين اليهود الأوروبيين في فلسطين وبتدويل القدس. وترجع جذور هذا المشروع إلى شراء المبشر الإنجليزي نيكولايسون قطعة أرض في جبل صهيون لبناء هيكل للعبادة. ففي 29 سبتمبر 1838م، كتب يقول: «عندما تصبح فلسطين المكان المميز والطبيعي لتجمع اليهود الجدد، فقد تستخدم أيضاً كموطن للمهتدين المسيحيين - اليهود - وكمستعمرة للاقتصاد الإنجليزي الذي كان يسير في طريق التوسع»³.

¹ أمل الحضري: مرجع سابق، ص 146.

² إبراهيم بن مسعود المالكي: "النشاط التنصيري في منطقة الخليج أهدافه وأبعاده وسبل مقاومته"، (بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة)، اشراف: يحيى محمد ربيع، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، المملكة العربية السعودية، 1429هـ، ص 35.

³ العزاوي: مرجع سابق، ص 102.

عندما فشل الإنجليز في خلق فئة موالية لها من المسيحيين في بلاد الشام، اتجهت إلى البحث عن طوائف أخرى تكون مساندة لها، فكان الدروز في لبنان من بينهم، بينما في فلسطين رأت أن تعول على العنصر اليهودي، خاصة في ظل تقارب الأفكار بين البروتستانت واليهود، وكذا تلاقي المصالح، فاليهود كانوا يريدون وطناً قومياً لهم في فلسطين يجمعون فيه شتاتهم، وبريطانيا كانت تسعى إلى مد نفوذها في المنطقة.

إن القنصلية البريطانية في القدس والتي تأسست عام 1839م بجهود المبشر "نيكولايسن" تعتبر عنواناً للحماية البريطانية لليهود والبروتستانت في فلسطين، حيث اهتمت باليهود واهتم بهم أيضاً النبلاء الإنجليز أمثال السير "موزنتفوري" واللورد "اشيلي" والكولونيل "تشرشل" الذين سعوا على إعادة إرسال اليهود إلى فلسطين ليقوموا بالأعمال الزراعية فيها. فكان تشرشل إنجلياً متحمساً وعلى صلة باليهودي السير "مونتفيري" الذي قدم مبالغ مالية لمساعد الفقراء اليهود لدرجة أنه سمي حي في القدس باسمه حي مونتفيري¹.

وانطلق في عام 1841م من أوساط المبشرين البروتستانت نداء يطالب بمفاوضة الباب العالي في الدولة العثمانية، ومطالبته بنقل ملكية فلسطين إلى المسيحيين، ومن ثم تحويلها إلى إقليم مسيحي مستقل عن جسم الدولة العثمانية، يحكمه أمير مسيحي معترف به من طرف الدول المسيحية، وذلك برعاية أمراء أوروبا النصارى².

ولقد عملت القنصلية الإنجليزية منذ تأسيسها في فلسطين على حماية اليهود فيها، ومن ذلك أن المستر "جيمس فين" الذي تولى القنصلية عام 1845م ومكث فيها 17 عاماً كان أشد عطفاً عن اليهود حتى سماه بعضهم بحامي اليهود وقائدهم غير المتوج³.

¹ سعد أبو جابر: مرجع سابق، ص 40 - 43.

² أمل الحضري: مرجع سابق، ص 69.

³ العارف: تاريخ القدس، مرجع سابق، ص 260.

ومما يؤكد أن بريطانيا ومبشرها كانت من أكثر الدول التي ساعدت اليهود على إنشاء دولة في فلسطين، هو وعد بلفور في نوفمبر 1917م¹ الذي منحته لهم، والذي يتعهد بإقامة وطن قومي في فلسطين لليهود. وقد تولى المبشرون تنفيذه، حيث قام القنصل البريطاني في القدس بتحقيق ذلك الوعد فساند المشروعات التي ساعدت على استجلاب اليهود من خارج فلسطين، لإقامة دولة يهودية لهم في فلسطين بناء على وعد بلفور. وشارك ذلك القنصل في أعمال مؤتمر تبشيري عقد في أدنبرج عام 1910م، ومنح لقب رئيس الشرف، وقد قال في ذلك المؤتمر: «إن المبشرين هم ساعد تلك الحكومات في أمور هامة، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرا من العقبات، وعلى هذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين» وبالفعل انشأت لجنة لمتابعة ذلك العمل².

وفي مؤتمر سان ريمو وافقت بريطانيا أن تخضع فلسطين تحت انتدابها 1922م³، واختارت مندوبها السامي على فلسطين من اليهود وهو السير هربرت صمويل ليكون أول مندوب سامي لها في فلسطين، وفتحت باب الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين⁴.

كما أن المدارس التبشيرية البروتستانتية كانت تعمل على أن تهيء الطلاب العرب المسلمين والنصارى في فلسطين على أن يتقبلوا نزول اليهود في الأراضي الفلسطينية، كما أن تأسيس الدولة اليهودية كان أمرا مقررا عند المبشرين حيث كتب عنها أحد المبشرين

¹ وعد بلفور: صدر في يوم 02 نوفمبر 1917م عن وزير خارجية بريطانيا آرثر جيمس بلفور وجاء فيه: «إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية». ينظر: عبد العزيز نوار وآخرون: المجتمع الغربي والقضية الفلسطينية، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1981م، ص 427.

² أمل الحضري: مرجع سابق، ص 110.

³ أعلن مشروعه من قبل عصبة الأمم بتاريخ 06 جوان 1921م وصودق عليه في 24 جوان 1922م ووضع موضع التنفيذ في 29 سبتمبر 1923م، احتوى على 28 مادة تضمنت في مجملها تأكيد ما جاء في وعد بلفور. ينظر: عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1970م، ص 388.

⁴ بروكلمان: مرجع سابق، ص ص 768 - 769.

يدعى "جون فان أس" عام 1943م، وذلك قبل تأسيس الدولة، فأعلن حدوده، فيقول: «بأنها الدولة التي ستؤلف من معظم أراضي اليهودية (الجليل) جنوباً إلى خليج العقبة، ثم (أردنية) ويجعلها القسم العربي من فلسطين مع شرق الأردن الحالية»، وهذا يدل على أن أخبأ التقسيمات السياسية كانت في متناول المبشرين¹.

وفي أواخر القرن 19م، استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تجد لنفسها شريكاً يخدمها وهو الحركة الصهيونية العالمية². وراحت الأوساط السياسية الأمريكية منذ ذلك الزمن تدعمها تحت فكرة خلق القومية اليهودية والتي انتهت في الأخير بتأسيس الكيان الاستيطاني اليهودي الاسرائيلي³ في قلب المشرق العربي في فلسطين⁴. وهكذا كان نشاط الإرساليات التبشيرية يرمي إلى استعمار فلسطين لتحقيق أهداف خاصة، والدليل على ذلك أن البابوية والبروتستانت والصهيونية يتنافسون فيما بينهم في فلسطين. وكان أغنى رجال اليهود، روتشيلد يساعدهم جميعاً لبلوغ الهدف، إذ كانت الدول الأوروبية تعرف أن إنشاء دولة يهودية في فلسطين سيسمح لها بالتدخل في شؤون البلاد العربية للحفاظ على مصالحها فيها، ولذا كانت تتساهل مع اليهود في فلسطين إلى أن مكنتهم من قيام دولتهم عام 1948م

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص ص 183 - 184.

² الصهيونية: كلمة تشير إلى القيم الروحية والقرى التاريخية التي شكلت الشعور بالقومية اليهودية، ولا تعني العودة إلى جبل صهيون وقيام وطن قومي فقط، بل تهدف للبعث السياسي للأمة اليهودية واستعادت للأرض ذات الأصل التاريخي وأحيائها وخلق بنية قوي بها، تحولت لحركة سياسية في القرن 19م على يد تيودور هرتزل. ينظر: فتحي الأبياري: الصهيونية، دار المعارف، د ط، القاهرة، 1977م، ص ص 8 - 21.

³ أعلن قيام دولة إسرائيل في منتصف ليلة 15 ماي 1948م في نفس الساعة المحددة لإنهاء الانتداب. وذلك من طرف دافيد بن غوريون في مؤتمر يهودي بتل أبيل بعد أن سلمت سلطات الانتداب البريطاني أجهزتها وإداراتها للوكالة اليهودية التي تحولت إلى وزارات وهيئات حكومية. ينظر: عبد العزيز الرفاعي وعبد العال إبراهيم: دراسات في الشرق الأوسط، مكتبة النهضة المصرية، د ط، القاهرة، د س ن، ص ص 192 - 193.

⁴ محمد محمود صالح: مرجع سابق، ص ص 199 - 200.

الباب الرابع: آثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام
الفصل الأول: الآثار السياسية

وخاصة المبشرون البروتستانت الذين ساهموا في ذلك إلى حد كبير وساعدوا اليهود وذلك منذ الاحتلال الإنجليزي لفلسطين عام 1920م¹.

¹ خالدي وعمر فروخ: مرجع سابق، ص 182.

الفصل الثاني: الأثار الثقافية والدينية:

1 - ظهور النهضة العربية:

إن تنافس الإرساليات التبشيرية خلال القرن 19م، خاصة في مجال التعليم، أدى إلى ظهور بؤار نهضة ثقافية عربية في بلاد الشام، والتي بدأت فعلاً من لبنان وانتشرت منه في كافة أرجاء البلاد الشامية. وكان مرد ذلك، هو اقبال أهل المنطقة على تعليم أبنائهم في مدارس الإرساليات في ظل عدم وجود بديل عن ذلك. فالسلطات العثمانية لم تسعى إلى تطوير التعليم والذي يكلف ميزانياتها أموالاً هي بحاجة لها لسد العجز في مجالات أخرى، فأبقت على التعليم بطرقه التقليدية دون أي تطوير، بل نجد أن السلطات العثمانية والممثلة في "إبراهيم باشا" تبنت سياسة تشجيع العمل الثقافي والتعليمي للإرساليات، الأمر الذي استغلته هذه الأخيرة، فراحت تتنافس فيما بينها لجذب أكبر عدد ممكن من أبناء المنطقة، لكن النتيجة كانت لصالح أهل الشام والتي تمثلت في نهضة ثقافية كبيرة¹.

فالنهضة لم يكن سببها تكوين نخبة مثقفة في المدارس التبشيرية فقط، بل كان من أسبابها أيضاً هو إدخال التحديثات في جانب الطباعة والتأليف، فجلب المطابع إلى بلاد الشام كان له دور مهم في هذه النهضة، فبعد أن انكبت هذه المطابع على طبع الكتب باللغة الأصلية التابعة لها، توجهت في فترة متقدمة إلى طبع الكتب باللغة العربية الأمر الذي استفادت منه النخب المثقفة، حيث توجهت إلى التأليف باللغة العربية ومنه ظهرت حركة تأليف واسعة انتشرت في بلاد الشام، ضف إلى ذلك الترجمة الواسعة التي عرفت بها بلاد الشام، حيث احتاجت الإرساليات التبشيرية إلى مترجمين عرب يساعدونها في إيصال أفكارها إلى كافة شرائح المجتمع وذلك بترجمة كتبهم إلى اللغة العربية.

¹ معاشي: مرجع سابق، ص ص 58 - 59.

ومن الذين ساهموا مساهمة كبيرة في النهضة العربية وعملوا على خدمة العلم واللغة العربية، السوريين الذين نبغ العديد منهم في هذه الفترة في شتى المجالات العلمية واللغوية والتاريخية والدينية، ومن هؤلاء نجد:

في علوم اللغة، فقد برز ناصيف المعلوف¹ الذي اتقن عدة لغات وألف فيها جميعا 27 كتاباً، وكذلك الأمير محمد أرسلان اللبناني الذي ترك أثارا مخطوطة في علوم اللغة، وناصر اليازجي الذي يعد من أركان النهضة العلمية في سوريا وهو أول من راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية من المسيحيين²، كان عالما في اللغة وشاعرا. وقد تعاون مع المبشرين الأمريكيين، فألف لهم العديد من الكتب المدرسية التي انتشرت بين المدرسين والطلاب في النحو والمنطق والبلاغة والعروض، وظلت زمنا طويلا بعد وفاته توجه تدريس اللغة العربية. وقد اشتهر اليازجي بنزعه إلى القديم، فكان يحث على احياء التراث العربي القديم كسبيل وحيد لإحياء اللغة العربية³، وأن بعث الأدب العربي هو الطريق الأوضح لإشاعة روح التسامح ونبذ التعصب⁴. ومن مشاهير اللغويين، نجد أحمد فارس الشدياق (1804-1887م) الذي درس عند المرسلين الأمريكيين، ويعد أحد أعمدة النهضة العربية في

¹ ناصيف المعلوف: وهو ناصيف بن الياس منعم المعلوف ولد في قرية زبوجة ببلبنان مارس 1823م من أسرة مسيحية، عاصر أمير لبنان بشير الشهابي، درس مبادئ العلوم في دير القديس سمعان العمودي ومبادئ عدة لغات على يد المرسلين الكاثوليك كالفرنسية والاطالية، سافر إلى أزمير والتحق هنا بسلك أساتذة اللغات الشرقية في مدرسة تابعة للأباء اللعازريين، فأقن اللغة التركية والانجليزية واليونانية، وزار عدة مدن وعواصم أوربية، منها باريس ولندن، وعمل مترجما في القنصلية الإنجليزية في أزمير عام 1859م وخلالها أنكب على التأليف وتصحيح المطبوعات إلى غاية وفاته في ماي 1875م بأزمير ودفن في كنيسة الآباء اللعازريين، ومن أهم مؤلفاته مفتاح اللغة التركية طبع سنة 1846م بأزمير وكتاب محاورات فرنسية وعربية وإنجليزية طبع في نفس السنة. ينظر: جرجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج 2، ص ص 259 - 263.

² زيدان: مرجع سابق، ص 234.

³ انطونيوس: مرجع سابق، ص ص 110 - 111.

⁴ محمد الخير عبد القادر: نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية دراسة للقضية العربية في خمسين عاما 1875م/1925م، مكتبة وهبة، ط 1، مصر، 1985م، ص 40.

سوريا، حيث عمل مترجماً في المطبعة الأمريكية بمالطة، وقد خلف العديد من المؤلفات العربية في اللغة والأدب أشهرها كتابه "الساق على الساق فيما هو الفاريان" الذي أبرز فيه اثبات تفوق اللغة العربية، وغيره من المؤلفات التي بلغت 10 مؤلفات طبعت في الأستانة وأخرى غير مطبوعة¹.

وفي كتابة الموسوعات العربية برز الأستاذ "بطرس البستاني" المسيحي العربي صاحب دائرة المعارف في عدة أجزاء، ومحيط المحيط وكشف الحجاب وغيرها من المؤلفات اللغوية الى جانب ترجمته الكتب الدينية المسيحية، بالإضافة إلى نشاطه في ترجمة واختصار الكتب المدرسية التي كانت تدرس في المدارس الأمريكية وغيرها من المدارس، كما كان يعتبر منشئ القصة والرواية العربيتين².

في ميدان الشعر والأدب، ظهر في النصف الثاني من القرن 19م "فرنسيس فتح الله مرآش الحلبي"³ (1836 - 1873م) الذي اشتهر بكتابه غابة الحق الذي حث فيه العرب على انشاء المدارس الحديثة للخروج من دائرة التخلف، ودعاهم إلى حب الوطن للقضاء على الطائفية في البلاد⁴، والشاعر عمر الأنيسي⁵ من بيروت له ديوان مطبوع يسمى "المورد

¹ زيدان: مرجع سابق، ص 236.

² معاشي: مرجع سابق، ص 80.

³ فرنسيس فتح الله مرآش الحلبي 1836م - 1873م: ولد بحلب وتربى بها، اهتم بالأدب والعلوم ورحل الى باريس سنة 1867م ودرس الطب هناك لمدة ست سنوات، لكنه لم يكمل دراسته بسبب مرض أفقده بصره، ففقل راجعا إلى حلب التي توفي بها، ومن أشهر مصنفاته "غابة الحق" التي ألفها في باريس، وكتاب "مشهد الأحوال" ألفه في حلب وله كتاب بعنوان "شهادة الطبيعة بوجود الله والشرعية" طبع بمطبعة الأمريكان في بيروت بعد نشرها في النشرة الأسبوعية التابعة لهم. ينظر: زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج 2، ص 325 - 326.

⁴ ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة 1798 - 1939، دار النهار للنشر، د ط، بيروت، د س ن، ص 296.

⁵ عمر الأنيسي 1237هـ - 1293هـ: هو ابن محمد بن أعرابي بن إبراهيم بن حسين ولد في بيروت وتربى بها، في حياته المهنية تقلد عدة مناصب إدارية في بلاد الشام، ومع ذلك اهتم بالتدريس والشعر. ينظر: زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج 2، ص 335.

العذب" تزيد أبياته على 6500 بيت شعري، والحاج حسين بيهم البيروتي الذي كان عضواً في الجمعية "العلمية السورية". وقد اشتهر بالشعر والرواية الوطنية¹. كما ظهر الشيخ "خليل اليازجي" ابن "ناصر اليازجي" الذي تفقه بالرياضيات والطبيعات عند الأمريكيين في بيروت. وقد طبع له عدة دواوين، منها "نسمات الأوراق" ورواية شعرية قلد فيها كبار الكتاب الأوربيين. وتتألف هذه الرواية "المروءة والوفاء" من حوالي ألف بيت، و"أسعد طراد البيروتي"² وقد طبع له ديوان شعري في بعض المخترعات العصرية³.

ومن الذين أفادوا العرب بترجمتهم للعلوم والآداب الغربية، شاعر شقير اللبناني⁴ (1850 - 1896م) الذي ترجم عدة روايات فرنسية إلى جانب نواحي أخرى من نشاطه الأدبي، وجبرائيل دلال الحلبي الذي أتقن العديد من اللغات، والشيخ نجيب الحداد الذي امتاز بتعريب

¹ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص ص 216 - 217.

² أسعد طراد البيروتي 1835م - 1891م: ولد في بيروت وهو من عائلة شهيرة هناك درس في المدرسة الأمريكية في عيبة في لبنان، وفي سنة 1872م انتقل إلى مصر لممارسة التجارة ومات هناك، وبعد وفاته جمع ابن أخيه فضل الله طراد ما نظم من قصائد وصل عددها 1500 بيت طبعها في كتاب. ينظر: زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ج 2، ص 355.

³ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص ص 218 - 219.

⁴ شاعر شقير اللبناني 1850 - 1896م: وهو شاعر بن مغامس بن محفوظ بن صالح شقير، ولد في بلدة الشويفات بلبنان، وهو أديب وكاتب وشاعر ولغوي وقصصي وصحافي، ساعد بطرس البستاني في إنشاء دائرة المعارف، درس في عدة مدارس سورية وحرر في عدة جرائد ومجلات سورية، كما انتقل إلى مصر فأنشأ فيها مجلة الكنانة ثم عاد إلى الشويفات وتوفي بها، ومن آثاره كتاب العرب في صناعة الإنشاء، وكتاب مصباح الأفكار في نظم الأشعار، ولسان غصن البان في انتقاد اللغة العربية العصرية، وكتاب الذهب الأبريز في مدح السلطان عبد العزيز ويشتمل على 23 قصيدة، والمطربات وهي مجموعة تحتوي على أشهر القصص كما ألف العديد من الحكايات. ينظر: كحالة: مرجع سابق، ص 808.

وتأليف عدة روايات تمثيلية. هذا، بالإضافة إلى خليل الخوري¹ مؤسس الصحافة العربية في سوريا².

لقد كان هؤلاء من أهم اقطاب النهضة العربية في بلاد الشام حيث ساهموا في تنوير أفكار الشباب العرب بفضل كتاباتهم التي كانت في معظمها تدعو إلى الوطنية والأصالة العربية. وقد عمل هؤلاء بكتاباتهم على تحويل النهضة من مجالها الأدبي الثقافي إلى مجال السياسة متأثرين في ذلك بالأفكار الغربية وأساليب كتابها، وكانوا يدعون إلى القومية العربية ونبذ التعصب الطائفي³.

ومن رواد النهضة العربية الفكرية الذين ذاع صيتهم خارج بلاد الشام وهم من خريجي الكلية السورية الإنجيلية، يعقوب صروف (1852 - 1927م)، وفارس نمر (1860 - 1952م) اللذان أسسا في بيروت مجلة "المقتطف" عام 1876م بتشجيع الدكتور الأمريكي كارنيليوس فان ديك الذي اقترح لها هذا الاسم. وحين انتقل صروف ونمر إلى مصر عام 1883م، اصطحبا معها المجلة التي أصبحت أحد المنابر الكبرى للرأي الحر في مصر، ولم يكتفي صروف ونمر بمجلة "المقتطف"، بل أنشأ سنة 1889م جريدة "المقطم" التي نافست "الأهرام" في مصر. ولقد استمرت "المقتطف" و"المقطم" في الصدور حتى وفاة فارس نمر عام 1952م. وفي تلك الحقبة ظهر من رواد النهضة العربية جرجي زيدان⁴ المسيحي

¹ خليل الخوري 1836م - 1907م: ولد بالشويفات بلبنان وترى في بيروت حيث درس فيها بمدرسة لطائفة الروم الأرثوذكس حيث تعلم عدة لغات وأتقنها واهتم بالصحافة العربية ويعتبر أول مؤسس لها في البلاد الشامية من خلال جريدة "حديقة الأخبار" سنة 1857م. ينظر: زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج 2، ص 153.

² معاشي: مرجع سابق، ص 78.

³ نفسه، ص ص 80 - 81.

⁴ جرجي زيدان 1861 - 1914م: وهو جرجي بن حبيب زيدان، مؤرخ وصحفي وقصصي ولغوي، ولد ببيروت التي أخذ مبادئ العلم في بعض مدارسها الابتدائية وانتسب إلى الكلية البروتستانتية الأمريكية لتعلم الطب، ثم غادر لبنان إلى مصر ولم يكمل تحصيله الدراسي، فتولى تحرير جريدة الزمان ورافق الحملة الانجليزية إلى السودان كمترجم، ثم عاد إلى بيروت التي درس بها اللغتين البرية والسريانية ورحل إلى لندن ثم عاد إلى مصر، فحرر في جريدة المقتطف، وأنشأ جريدة الهلال وانقطع إلى التأليف حتى توفي فجأة بالقاهرة في 21 سبتمبر، ومن تصانيفه الكثيرة نذكر: تاريخ أداب اللغة العربية وآدابها في أربعة أجزاء، وكتاب تاريخ التمدن الإسلامي في خمسة أجزاء، وروايات تاريخ الإسلام، وكتاب تاريخ مصر الحديث وكتاب تراجم مشاهير الشرق. ينظر: كحالة: مرجع سابق، ج 1، ص 481.

الأرثوذكسي الذي درس الطب في الكلية السورية الإنجيلية والذي نزح إلى مصر وأنشأ في القاهرة مجلة شهرية على غرار "المقتطف" سماها "الهلال" التي احتلت مكانة مرموقة كمجلة عربية تعنى بالعلوم والآداب¹. وكانت كل تلك المجالات التي ظهرت في مصر والتي أسسها مسيحيو لبنان تدعو إلى الوطنية وحب الوطن. وأما عن سبب ذهابهم إلى مصر ونشاطهم فيها هو تعذر الكتابة الحرة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وكثرة القراء وحرية التعبير في مصر².

ومن مظاهر النهضة ما يلي:

أ- الطباعة: لقد اسلفنا سابقا الحديث عن المطابع في بلاد الشام حيث وجدت في حلب وبيروت مطابع حجرية خصصت لطباعة الكتب الدينية المسيحية والتي وجدت في بعض الأديرة، ولذا نستطيع القول إنها تكاد تكون معدومة في بلاد الشام قبل القرن 19م.

لكن في القرن 19م ظهرت الطباعة الحديثة حيث عرفت البلاد السورية مع دخول المبشرين الأمريكيين الذين نقلوا مطبعتهم من مالطة إلى بيروت عام 1834م، وذلك لتسهيل أعمالهم التبشيرية. وقد بدأت الإرساليات بواسطة هذه المطبعة بطبع الكتب المختلفة ولم تقتصر على طبع الكتب الدينية، بل طبعت الكتب العلمية والطبية والرياضية والمدرسية التي كان يؤلفها أو يترجمها أساتذة الكلية الأمريكية، والتي وصل إنتاجها من الكتب في سنة واحدة نحو 57500 مجلد عام 1881م، بيع منها في نفس السنة ما يناهز عن 15714 مجلد أدبيا ونحو 23472 مجلدا علميا، وهذا يدل على قوة نشاطها في تلك الفترة³.

وساهمت المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين التي أسست عام 1848م إلى حد كبير في نشر الأدب والتاريخ واللغة العربية، فضلا عن الكتب المدرسية والدينية، ولا سيما التوراة

¹ الصليبي: مرجع سابق، ص ص 190 - 191.

² مفيدة إبراهيم: مرجع سابق، ص ص 144 - 145.

³ برو: مرجع سابق، ص 19.

التي ترجمها الآباء اليسوعيون، وهي متعددة الحروف تطبع باللغة العربية والفرنسية واليونانية ولغات أخرى¹.

وما أن لاحظ العرب المتعلمون في بلاد الشام مدى فائدة الطباعة التي استغلها المبشرون في نشر ثقافتهم بين الأهالي، حتى سارعوا إلى اقتنائها والعمل بها على نشر الوعي بين أهل الشام²، حيث ظهرت عام 1857م المطبعة السورية لخليل الخوري والتي نبغت في نشر كتب القانون والأدب والتاريخ، تليها مطبعة المعارف للبستاني عام 1867م التي نشرت قاموس محيط المحيط ودائرة المعارف والجنان والجنة، وظهرت مطبعة ثمرات الفنون، فضلا عن المطبعة الأدبية التي انشئت عام 1874م، والتي تعرف باسم لسان الحال تطبع الصحف والكتب³.

لقد ساهمت الطباعة التي انتشرت في مدن الشام في النصف الثاني من القرن 19م، في النهضة العلمية، حيث خرج التراث العربي الثقافي إلى النور بعد أن كان حبيس المخطوطات في المنازل أو في بعض المساجد والأديرة أو لدى بعض الوراقين. كما ساهمت الطباعة في انتشار الوعي الوطني وأدت إلى انتشار الكتب وازدهار حركة التأليف العربي، وأدى ظهورها إلى ظهور العديد من المكتبات العربية، كما أدت إلى إخراج العرب من حالة الركود الثقافي الذي كان مستفحلا خلال العهد العثماني⁴.

¹ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 45.

² معاشي: مرجع سابق، ص 69.

³ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 46.

⁴ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 417.

إن الإرساليات التبشيرية الغربية خدمت الطباعة بأن ثبتت عليها الحروف العربية لأول مرة¹. ونشرت المطابع قصصا معربة وأشعارا ودواوين قديمة وحديثة وكتبا دينية ورسائل علمية في الكثير من المعارف².

ب- **ظهور الصحف والجرائد العربية:** من مظاهر النهضة في بلاد الشام خلال القرن 19م، هي انتشار الصحف والمجلات الناطقة بالعربية. وقد كان للحركة التبشيرية دور مهم في انتشارها، فهي قد رأت أنه من الضروري تأسيس صحف ناطقة باللغة العربية توصل من خلالها أفكارها إلى أفراد المجتمع الشامي أو على الأقل النخب المثقفة، فكانت تلك الصحف هي النواة التي تكونت منها الصحافة العربية خلال القرن 19م. ومن أشهر الصحف التي ظهرت باللسان العربي، هي صحيفة "مرآة الأحوال" عام 1855م، وهي أول جريدة عربية سياسية غير رسمية ظهرت بالأستانة أصدرها "رزق الله حسون الحلبي"³، لكنها لم تعمر طويلا بسبب مناهضتها للحكم التركي⁴.

وبعدها صدرت صحيفة "حديقة الأخبار" في بيروت عام 1858م، لصاحبها "خليل الخوري" وهي أول جريدة لبنانية عربية صدرت في الدولة العثمانية خارج الأستانة، وبعد عامين من صدورهما اندلعت فتنة 1860م، فأقترح على صاحبها أن يجعلها شبه رسمية وعينت له الحكومة راتبا شهريا وظلت تصدر إلى غاية 1909م⁵، ضمت آنذاك أفكار

¹ كرد علي: مرجع سابق، ج 4، ص 86.

² نفسه، ص 87.

³ رزق الله حسون الحلبي: أصله من بلاد الأرمن ولد في حلب عام 1825م التي نشأ ودرس بها مبادئ القراءة، ولما شب انتقل إلى كسروا في لبنان حيث درس في دير لرهنة الأرمن الكاثوليك، وتعلم عدة لغات وقام برحلة الى لندن وباريس ومصر نسخ خلالها عدة كتب، وله الفضل في انشاء أول جريدة عربية في الأستانة وهي مرآة الأحوال عام 1854م التي وصف فيها حرب القرم، كما اهتم بالشعر ونظم عدة أشعار. ينظر: زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج 2، ص ص 157 - 159.

⁴ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 53.

⁵ نفسه، ص ص 53 - 54.

اللبنانيين. وأما عن توجهها الأساسي، فكان اجتماعي أدبي ومتأثرة إلى حد كبير بفرنسا وحضارتها وثقافتها ولغتها¹.

كما ظهرت عام 1858م جريدتان عربيتان خارج الدولة العثمانية أسسهما رجال الأدب السوريون، الأولى تسمى "عطارد" ظهرت في مرسيليا لم يطل بقاءها، والثانية تحت اسم "برجيس باريس"، أصدرها الكونت "رشيد الدحداح" اللبناني في باريس²، ومديرها الأب "فرنسيس بورغاد" رئيس مدرسة القديس لويس. وكان رسم النسر الإمبراطوري الفرنسي يعلو عنوان هذه الجريدة التي تعد باكورة الصحف العربية بكبر حجمها، وجودة حروفها وإتقان طبعها واتساع مواضيعها، وقد ذاعت شهرتها، وكتب فيها العديد من الأدباء من شتى الأقطار العربية³، لكنها توقفت عن الصدور في عامها الخامس. وفي عام 1860م، ظهرت في الصحافة العربية صحيفة "الجوانب" في الاستانة لصاحبها أحمد فارس الشدياق. وكانت الجوانب ميدانا لأقلام الأدباء للمناظرة والمناضلة⁴. ولقد استمدت جريدة الجوانب أهميتها من كونها أول صحيفة تعنى بشرح أحداث السياسة العالمية، إذ حلل فيها الشدياق بالتفصيل مسار الحرب البروسية الفرنسية⁵ والمسألة الشرقية في السبعينات، كما نشر ترجمات لوثائق دبلوماسية وقارن بين الحياة الأوربية والشرقية مفضلا الأولى عن الثانية، ذلك لأن الأوربيين كانوا على حد قوله منظمين ومنتجين ومجتهدين تجمعهم وحدة اجتماعية تعلو على كل

¹ الزيدي: مرجع سابق، ص 183.

² زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 54.

³ دي طيرازي: مرجع سابق، ج 1، ص 60.

⁴ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 54.

⁵ استمرت من سنة 1868م إلى غاية 1870م انهزمت فيها فرنسا أمام الجيوش الألمانية وخسرت فيها مقاطعتي الألزاس واللورين لصالح ألمانيا، ومنه تكون فرنسا قد فقدت هيبتها داخل وخارج أوربا ووصلت أخبار الهزيمة إلى كل أصقاع العالم. ينظر: عمر عبد العزيز عمر: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر 1815 - 1919، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، 2000م، ص 191.

الفوارق في المعتقدات¹. وكذلك أنشئت جريدة "نفير سوريا" عام 1860م للبستاني التي كان يحث فيها على الاتفاق بين الطوائف والابتعاد عن التعصب الديني، ويدعوهم فيها إلى حب الوطن، وقد كان شعارها "حب الوطن من الايمان"، ودعا فيها للتتوير بواسطة المدارس والمكتبات².

وأما سنة 1870م، فكانت سنة الجرائد السياسية والعلمية في سوريا، حيث صدرت فيها جريدة "الزهرة" ليوسف الشلفون، وجريدة "الجنة" و"الجنان" لبطرس البستاني وهي مجلة علمية وأدبية وسياسية عمرت طويلا، وكان لها تأثير في النهضة العربية، تصدر مرتين في الشهر وكانت ميدانا فسيحا لأقلام كتاب العربية في ذلك العصر، في السياسة والأدب والتاريخ والشعر والعلم والطب والحقوق والزراعة والرياضيات وغيرها من ميادين المعرفة. كذلك صدرت في نفس السنة مجلة النحلة للقس لويس الصابونجي³، وهي مجلة علمية أدبية انتقادية، وظلت الجرائد تصدر بأسماء مختلفة في سوريا أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م، أشهرها جريدة لسان الحال عام 1877م⁴ لصاحبها خليل سركيس⁵. كما صدرت في غرة شهر جانفي 1878م مجلة "الطبيب" في بيروت لصاحبها الدكتور جورج بوست أستاذ

¹ عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 420.

² عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 4، لبنان، 2003م، ص 147.

³ لويس الصابونجي 1838 - 1931م: هو لويس بن يعقوب بن ابراهيم الصابونجي، أصله من ديار بكر، تعلم عدة لغات في سورية ورومية، أصدر مجلة النحلة ببيروت وجريدة الاتحاد العربي وجريدة الخلافة، انتقل إلى استانبول حيث عين أستاذا لأبناء السلطان عبد الحميد الثاني ومترجما خاصا له، ومات مقتولا في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أهم مؤلفاته: كتاب تهذيب الأخلاق، وكتاب الثورة العربية، وكتاب مرآة الأعيان في تسلسل الاديان. ينظر: كحالة: مرجع سابق، ج 4، ص ص 678 - 679.

⁴ زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مرجع سابق، ص ص 56 - 62.

⁵ خليل سركيس 1842 - 1915م: وهو خليل بن خطر سركيس، ولد ببلدة عبيه في لبنان، أديب ومؤرخ وصحافي أنشأ جريدة لسان الحال ومجلة المشكاة وأسس المطبعة الأدبية، ومن مؤلفاته: العادات، سلاسل القراءة، تاريخ القدس، معجم اللسان، ورحلة إمبراطور ألمانيا في القدس وفلسطين. ينظر: كحالة: مرجع سابق، ج 1، ص 683.

الجراحة والنبات في المدرسة الأمريكية، وهي مجلة شهرية طبية جراحية صيدلية تصدر في بيروت، وكان الغرض من انشائها هو نشر كل ما يهم الأطباء والصيادلة، فكانت مواضيعها تتطرق لعلم الكيمياء والنبات والحيوان والجماد والتشريح والمواد الطبية والطب الشرعي وغيرها، وفي عامها الرابع تسلم إدارتها شاهين مكاريوس وأصبحت تصدر مرتين في الشهر منذ 15 مارس 1884م وهي أول صحيفة دورية عربية استعملت لفظة مجلة بمعناها العصري. وفي سنة 1895م أصبحت تصدر مرة واحدة في الشهر، وكانت تنشر في مطابع بيروت ومعظم محرريها تخرجوا من الكلية الأمريكية أو درسوا فيها¹.

لقد اسهم اللبنانيون في إنشاء الصحف العربية الأولى في أواخر القرن 19م وذلك كان من نتائج تأثير سياسة فرنسا التعليمية الثقافية في لبنان²، حيث مارسوها في لبنان ثم في مصر، إذ انتقلوا إليها خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، هربا من قيود الحكومة العثمانية للصحافة³، وهناك صدرت عدة صحف منها، جريدة "الكوكب الشرقي" لسليم باشا حمودي عام 1873م و"الأهرام" عام 1876م من قبل اللبنانيين سليم وبشارة تقلا⁴، حيث لعبت دورا كبيرا في نشر الثقافة والوعي في الأوساط العربية وخاصة بعد انتقالها من الاسكندرية إلى القاهرة حيث تطورت وأصبحت سياسية دينية بزعامة رائد النهضة الإسلامية جمال الدين الافغاني، ثم صدرت صحيفة "المحرسة" لأديب اسحاق وسليم النقاش وصحيفة "المقتطف"⁵ التي ظهرت أولا في بيروت سنة 1876م ثم انتقلت إلى مصر مع هجرة أصحابها يعقوب صروف وشريكه فارس نمر عام 1885م. وعلى غرار غيرها من المجلات الشامية في مصر، أفادت "المقتطف" النهضة الثقافية والفكرية مما تضمنته صفحاتها من

¹ فليب دي طرازي: مرجع سابق، ج 2، ص 60.

² الزيدي: مرجع سابق، ص 183.

³ برو: مرجع سابق، ص 19.

⁴ زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص 57.

⁵ معاشي: مرجع سابق، ص 76.

موضوعات شملت مختلف حقول المعرفة، وتمتعت "المقتطف" بأسلوب لغوي وإنشاء صحفي على درجة عالية من الاتزان، فكانت لغتها راقية وبأسلوب بليغ ووضوح تام متجنباً الألفاظ والجمل المعقدة مراعية قواعد اللغة وملتزمة بأصولها وضوابطها من خلال اختيار الألفاظ التي تليق بالفكر والعلم والأدب بعيداً عن الصناعة اللفظية¹.

وعن موضوعاتها نجد "المقتطف" احتوت على مواضيع مختلفة في عدة مجالات لكنها ركزت على العلمية أكثر من غيرها كالعلوم الطبية، من خلال تعريفها بالأمراض وأسبابها وسبل علاجها، وكذلك التعريف بمضار العديد من المواد التي يتعاطاها الإنسان كالتبغ وتبين أثرها السيء على صحة الإنسان وغيرها من المواضيع العلمية².

واسهمت هذه الجرائد في تقويض الحكم التركي³، كما كان لها دور في نشر العلوم المختلفة، خاصة بعد ظهور تخصصاتها وكمثال على ذلك مجلة "الهلال" لصاحبها جرجي زيدان سنة 1892م والذي تلقى علومه في الكلية البروتستانتية السورية، إذ كان يحث العرب بواسطتها للعناية باللغة العربية وآدابها مع اقتناء العلوم الحديثة دون التخلي عن التراث العربي⁴.

فقد عملت الجرائد والمجلات على نشر الأفكار والآراء في بلاد الشام على الرغم من قلة الوسائل. وكان صوتها مسموعاً لما تحمله من معارف، وامتد نشاط الصحافة الشامية حتى إلى مصر حيث أنشأ الكثير من الكتاب والمفكرين الشوام العديد من الجرائد والمجلات،

¹ سعيد درويش: مرجع سابق، ص 120.

² نفسه، ص 120.

³ معاشي: مرجع سابق، ص 76.

⁴ حوراني: مرجع سابق، ص 294.

وكلها أبلت بلاء حسنا في خدمة الأفكار ونشر الآراء العلمية والأدبية والدينية، خاصة في عهد الاحتلال البريطاني لمصر¹.

لقد ساهمت الصحافة الدورية العربية بدور كبير في تطور الوعي القومي العربي. ومن المسلم به أن الصحافة العربية قامت على اكتاف المسيحيين العرب من أبناء الشام ومصر، وكان لها دور مكمل لما بدأت به الجمعيات الثقافية من نشاطات، لكن بشكل أوسع وأشمل، الأمر الذي حقق أكبر الأثر في نشر الوعي القومي، ومن أبرز الموضوعات التي ركزت عليها الصحافة العربية في تلك الفترة، هي:

اللغة العربية وضرورة التمسك بها وإعادة إحيائها من جديد، وذلك بإظهار مميزاتها وخصائصها التي انفردت بها عن اللغات الأخرى، وتقديم الشروحات والأدلة على أهميتها في حياة الأمة العربية، لأنها تعد من عوامل الوحدة بين الأفراد، واصرار الكتاب المسيحيين على ضرورة تعليم العلوم المختلفة باللغة العربية، والافتخار بالجنس العربي والتغني بأمجاده ومكانته بين الشعوب وأخلاقه المميزة، حيث بحث المسيحيون العرب في أصل الجنس العربي وصفاته الأخلاقية مثل الكرم والشجاعة، الدعوة إلى الألفة والتضامن، حيث حث الكتاب المسيحيون في كتاباتهم على ضرورة الإتحاد والألفة بين أفراد المجتمع، وذلك بهدف بناء مجتمع متماسك على اختلاف مذاهبه، ورفع شعار حب الوطن من الإيمان وظهر ذلك في الشعارات التي نادى بها الكتاب العرب والمسيحيون من ذلك: حرية الأديان، الحس الوطني، ومن ذلك ظهرت رغبتهم في تقديم رابطة الوطن على رابطة الدين في جميع مسارات الحياة. كما ركز الكتاب المسيحيون العرب على قضية المرأة العربية ودورها في

¹ كرد علي: مرجع سابق، ج 4، ص 81.

تنبيه الوعي القومي حيث شددوا على ضرورة تعليمها لأنها مصدر صلاح الأمة، فهي المدرسة التي يجب إعادة تأهيلها ثقافيا ومعرفيا وهذا ما تحتاج إليه الأمة لكي تتقدم¹.

وكانت موضوعات تلك الصحف تهتم بكل ما هو شرقي عربي وتبحث على الخصوص في أحوال سوريا ولبنان وتتناقش وتتناظر وتدافع عن اللغة العربية والعنصر العربي²، وكانوا يكتبون باللغة العربية والفرنسية³. ولقد ساهمت الصحافة السورية والعربية في بعث الوعي الثقافي والسياسي في المنطقة. ولقد عبر الأمير شكيب أرسلان عن أهمية هذا الدور بقوله: « لا نزاع في أن الصحافة العربية قد كانت من أقوى العوامل في هذه النهضة بما أثارت من حركة فكرية ونقلت من أخبار الغرب الناهض إلى أهل الشرق النائم»⁴.

ومنه كانت الصحافة من أهم الأثار التي خلقتها الإرساليات التبشيرية، فهي التي ساهمت بالدرجة الأولى في انتشارها في المنطقة، وذلك من خلال تسهيل الوسائل المساعدة لها من جلب المطابع وتكوين الكتاب والمحررين.

وما يلاحظ عن الصحافة العربية أنه في الفترة الأولى من ظهورها كانت تتناول مواضيع عامة، وتتركز أساسا في الأدب والشعر والتغني بالأخلاق والموكارم العربية، لكن بمرور الوقت أصبحت الصحف العربية أكثر تخصصا في موضوعاتها، فظهرت صحف ومجلات متخصصة منها التي تخصصت في الأدب والثقافة، ومنها التي تخصصت في الصيدلة، لكن ما أحدث تغيير في بلاد الشام هي ظهور الصحف السياسية التي أخذت تنتقد الأوضاع العامة وتدعوا للتغيير.

¹ نصيرات: مرجع سابق، ص ص 7 - 8.

² زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 64.

³ الزبيدي: مرجع سابق، ص 185.

⁴ معاشي: مرجع سابق، ص 76.

ج- ازدهار حركة الترجمة: استخدم المبشرون الترجمة كوسيلة لتحقيق أهدافهم، وبالرغم من ذلك كان لها أثارها الايجابية على بلاد الشام، حيث أتاحت وساهمت في النهضة الفكرية وأطلعت الشوام على منجزات الحضارة الغربية في شتى المجالات، كما خدمت العرب المسيحيين بأن ترجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث، وأصبح رجال الدين العرب يتلون الصلوات والمواعظ باللغة العربية في كل كنائسهم بعدما كانت تتلى بلغات أخرى غير العربية كال يونانية مثلا في الكنائس الأرثوذكسية¹.

إن الفضل الكبير في نقل العلوم العصرية إلى بلاد الشام يرجع إلى المدرسة الكلية الأمريكية التي تأسست عام 1866م في بيروت، إذ باشر أساتذتها في التعليم باللغة العربية إلى نقل الكتب إلى تلاميذهم عن مؤلفين أمريكيين وإنجليز. وكان من أبرزهم، الدكتور يوحنا ورتبات² والدكتور جورج بوست³ والمبشر الدكتور كارنيليوس فاندريك⁴.

كما أن أهم ما امتازت به الكلية الأمريكية هو ترك هامش للطالب للتعبير عن أفكاره بحرية، لذا كان طلابها من أنشط الكتاب والمفكرين والخطباء في بلاد الشام، فقد كانوا أول من قام بترجمة العلوم الطبية والطبيعية إلى اللغة العربية⁵.

ومن ثمة اعتنى الأطباء العرب الذين درسوا في المعاهد الأجنبية التبشيرية بترجمة العديد من المؤلفات الطبية إلى اللغة العربية، كما أقدموا على تأليف الجمعيات الطبية، منها

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 208 – 209.

² يوحنا ورتبات: هو من أساتذة المدرسة الكلية البروتستانتية الأمريكية، أصله أرمني ولد في سوريا وتنقّف على أيدي المبشرين الأمريكيين وأتقن اللغة الإنجليزية، وصار مبشرا ثم ترك التبشير واتقن الطب، وعين أستاذا في المدرسة الكلية لتعليم التشريح والفيسيولوجيا، فألف فيهما وكلها طبعت في المطبعة الأمريكية في بيروت. ينظر: زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 198.

³ جورج بوست: هو من أساتذة الكلية أمريكي الأصل جاء إلى سوريا مبشرا عام 1863م واتقن اللغة العربية وعين أستاذا للطب والنبات في الكلية عام 1866م، وتوفى عام 1909م. ينظر: زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 199.

⁴ نفسه، ص 196.

⁵ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 40.

جمعية الفنون الطبية في دمشق عام 1887م على أيدي الأطباء العرب والأجانب في المدينة من أجل البحث عن معارف العرب الطبية، وفيما يلي قائمة لبعض الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية، منها:

- كتاب مبادئ التشريح والهيكل والفسولوجيا لجورج بوست ترجمة الكلية السورية الإنجيلية، نشر هذا الكتاب في بيروت عام 1871م.
- كتاب التوضيح في أصول التشريح ليوحنا ورتبات ترجمة الكلية السورية الإنجيلية، نشر هذا الكتاب في بيروت في المطبعة الأمريكية عام 1871م.
- كتاب الوضاح في صناعة الجراح لجورج بوست ترجمة الكلية السورية الإنجيلية، نشر هذا الكتاب في بيروت عام 1873م.
- كتاب أصول الفيسولوجيا لورتبات ترجمة الكلية السورية الإنجيلية، نشر هذا الكتاب في بيروت عام 1877م.
- كتاب كفاية العوام في حفظ الصحة وتدابير الاسقام لورتبات ترجمة الكلية السورية الإنجيلية، نشر هذا الكتاب في بيروت عام 1881م¹.

ومن أهم الكتب التي نشرت باللغة العربية في تلك الفترة منها:

- كتاب المرأة الجليلة لهيئة القلب الداخلية لإسكندر الجريديني في بيروت عام 1872م.
- وكتاب رسالة في الهواء الأصفر لبشارة زلزل² في بيروت عام 1901م.
- وكتاب صحة الإنسان في وقاية الأسنان لخليل حداد في بيروت عام 1907م.

¹ المحافظة: مرجع سابق، ص ص 214 - 215.

² بشارة زلزل: من عائلة زلزل في لبنان درس في المدرسة الكلية الأمريكية، وكان من كبار الكتاب في الطب والعلوم الطبيعية، اشترك في انشاء مجلة الطبيب في بيروت عام 1884م، وله عدة مقالات علمية في مجلة المقتطف وغيره. ينظر: زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 200.

- وكتاب الوقاية من السل الرئوي لخليل سعادة ببيروت عام 1906م¹.

كما ترجموا العديد من كتب الفيزياء والنبات والحيوان إلى اللغة العربية وألفوا العديد من الكتب الدراسية للمدارس والمعاهد العالية، ومن هذه المؤلفات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- العروس البديعة في علم الطبيعة للمؤلف اسعد شدودي طبع في المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1877م.

- الدروس الأولية في الفلسفة الطبيعية للأستاذ جكسن طبع في المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1881م.

- الروضة البديعة في علم الطبيعة لمؤلفه كوزين ديبر ترجمه جرجس باز وطبعته المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1881م.

- طب الحيوان لمؤلفه جرجس طنوس عون طبع في المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1884م².

وفي مجال الرياضيات اقتضى انشاء المدارس والمعاهد العالية على الطراز الغربي ترجمة العديد من كتب الرياضيات الحديثة والتأليف بالعربية، ومن هذه الكتب نذكر منها:

- كشف الحجاب في علم الحساب لبطرس البستاني طبع في المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1848م.

- الروضة في الأصول الجبرية للدكتور فان ديك المبشر الأمريكي طبع في المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1853م.

- الأصول الهندسية للدكتور فان ديك طبع في المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1857م.

¹ المحافظة: مرجع سابق، ص ص 217 - 220.

² نفسه، ص ص 226 - 230.

- مرقاة الطلاب في مبادئ الحساب لميخائيل أصاف طبع في المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1871م¹.

د- **كثرة المدارس وانتشار التعليم:** تميز القرن 19م في بلاد الشام بنهضة اجتماعية أدبية كان من أهم ميزاتها انشاء المدارس الحديثة على النمط الأوربي لتعليم العلوم الحديثة، وانتشار الطباعة والصحافة وكثرة الجمعيات الأدبية والمكتبات. ففي النصف الثاني من القرن 19م وخاصة بعد فتنة 1860م في لبنان، ازداد نفوذ الدول الأجنبية، ففي الفترة الممتدة من عام 1860م حتى أواخر القرن 19م ازدهرت الحركة الثقافية ازدهارا كبيرا وظهر الكثير من الكتاب والمفكرين ممن أحيوا الثقافة العربية وألفوا الكتب في اللغة العربية وآدابها والمعاجم والموسوعات والقصص والدواوين الشعرية، ولعل من أشهرهم بطرس البستاني وناصيف وإبراهيم اليازجي وأحمد فارس الشدياق². وذلك جراء عمل الإرساليات التبشيرية، خاصة في المدارس التي تسابقت على انشائها منذ مجيئها إلى بلاد الشام، والتي ظهرت لها أثار ايجابية على المنطقة، خاصة لبنان التي تجلت فيها نهضة علمية لا يستهان بها. فكان الفضل في تخريج الكتاب والمتقنين ورجال العلم الذين اشتهر منهم عدد لا يستهان به للمدارس العالية وخاصة الكلية السورية الإنجيلية والتي تحولت للجامعة الأمريكية والتي تأسست عام 1866م، ثم كلية القديس يوسف اليسوعية التي أنشأها الأباء اليسوعيون في غزير ثم نقلوها إلى بيروت عام 1874م، كما ظهرت المدارس الكلية الوطنية التي أنشأها المعلم بطرس البستاني والمطران "يوسف الدبس"³ الماروني وغيرها⁴.

¹ المحافظة: مرجع سابق، ص 232.

² برو: مرجع سابق، ص ص 14 - 15.

³ **يوسف الدبس الماروني 1833-1907م:** وهو يوسف بن إلياس بن يوحنا الدبس اللبناني الماروني، وهو قس ومؤرخ ولد في كفر زينة في طرابلس الشام، أخذ مبادئ العلوم في مدرسة قريته ثم انتسب لمدرسة عين ورقة وتعلم فيها عدة لغات، ثم درس في مدرسة مار يوحنا مارون، واختير رئيسا لأساقفة بيروت، وأنشأ مدرسة الحكمة ببيروت، وتوفي في لبنان عام 1907م، ومن مؤلفاته الكثيرة: كتاب " تاريخ سورية في ثمانية أجزاء، وكتاب "المغني المعلم عن المعلم في الصرف والنحو". ينظر: كحالة: مرجع سابق، ص 146.

⁴ برو: مرجع سابق، ص ص 15 - 16.

ومع نهاية القرن 19م، أصبح لبنان بلا منازع أكثر أجزاء الإمبراطورية العثمانية تقدما في مجال التربية العامة، إذ اتسع مجال القراءة والكتابة بشكل ملحوظ في بيروت وصيدا وطرابلس ومعظم مناطق جبل لبنان، حيث أصبح التعليم الابتدائي متاحا للجميع. أما التعليم الثانوي، فكان من نصيب المقتدرين على نفقاته. وكانت في بيروت كليتان للتعليم العالي في الآداب والعلوم بما في ذلك الطب. كما كثرت الكتب العربية والمنشورات الدورية بسبب كثرة المطابع والتي كان في مقدمتها المطبعة الأمريكية والكاثوليكية في بيروت ولبنان¹.

كما أتاحت كثرة المدارس التي أنشأتها الإرساليات التبشيرية خاصة للمسيحيين العرب، فرصة الاطلاع والتتقيب على تاريخ العرب وآدابهم².

لقد كان لتلك الإرساليات التبشيرية جوانب ايجابية لا بد من الإشارة إليها وهي أنها أفادت بلاد الشام إنشاء المؤسسات التعليمية، وفتح العديد من المدارس والمعاهد والجامعات وتطوير التعليم بجميع ميادينها، ونبّهت الرأي العام العربي إلى فجوة التخلف بينه وبين العالم الغربي³.

ومن المآثر الكبرى التي توجت العمل التبشيري البروتستانتي، هي تأسيس الجامعة الأمريكية سنة 1866م باسم الكلية السورية الإنجيلية في بيروت، والتي افتتحت كلية للطب عام 1867م والتي تخرج منها أول طبيب بيروت عام 1871م وهو سليم فريخ، إضافة إلى خمسة أطباء آخرين وهم: سليم دياب من طرابلس ويوسف حجار من بمكين، وناصر حليم من حمانا ورشيد شكر الله من بعبدا وشبلي الشميل من كفر شيما⁴.

¹ الصليبي: مرجع سابق، ص 183.

² عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص 417.

³ الزبيدي: مرجع سابق، ص 136.

⁴ شبارو: مرجع سابق، ص 190.

ومن أهم الأثار الايجابية التي قدمها التعليم اليسوعي من خلال كلية الطب أنها قدمت للبلاد الأطباء المحليين المثقفين غالبيتهم من المسيحيين العرب¹.

فكان من النتائج التي ترتبت عن إنشاء جامعة القديس يوسف عام 1875م من طرف اليسوعيتين، وتأسيس ثلاث كليات فيها، وهي كلية الطب وكلية الحقوق والهندسة التي تأسست عام 1913م هي تخرج آلاف من اللبنانيين كأطباء، حيث تخرج حوالي 2890 طبيب ما بين 1883م و1983م وأكثر من 2000 آخرين بعد عام 1984م، و3850 من المهندسين ما بين 1913م و1986م و2600 مهندس منذ 1987م، وأكثر من 4700 محامي ما بين 1913م و1993م وألف محامي تقريبا منذ عام 1994م بالإضافة إلى آلاف من الخريجين في العلوم السياسية منذ عام 1922م، ولقد ساهمت الغالبية العظمى منهم في خدمة لبنان في عدة جوانب، منها على سبيل المثال خريجي كلية الهندسة ساهموا في اعادة وتطوير البنى التحتية العامة كالموانئ والسكك الحديدية والمدارس والمستشفيات والأشغال العامة².

كما استفاد لبنان من التعليم اليسوعي خاصة حيث أن خريجي كلية الحقوق التابعة لجامعة القديس يوسف هم من وضعوا دستور لبنان الحالي بالاستعانة بالنصوص المستوحاة من النصوص الفرنسية وتكيفها مع أوضاع لبنان.

كما خرجت كلية الحقوق التابعة لجامعة القديس يوسف مئات الأساتذة والمسؤولين الكبار في كل من السلطة القضائية والخدمة العامة. وبناء على تقارير الكلية، فإن من خريجها ستة رؤساء للجمهورية اللبنانية وعدد كبير من الوزراء والنواب وجميع رؤساء المجلس الأعلى للقضاء³.

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 131.

² Daccache, Op . Cit., p. 9.

³ ibid, P p. 10 – 13.

وبسبب انتشار المدارس التبشيرية المسيحية الأجنبية في المدن والقرى الشامية التي يكثر بها المسيحيون خاصة واعتمادها مناهج وطرق حديثة في التعليم واهتمامها باللغة العربية والأدب العربي، مما أدى إلى انتشار الأدب العربي بين المسيحيين خاصة أكثر من المسلمين ذلك أن المسلمين تأخروا في تأسيس المدارس الخاصة، وكان أولادهم يرتادون المدارس الحكومية التي كانت تهتم بتدريس اللغة التركية¹.

إن التحول عن اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية في المدارس التبشيرية مع زيادة النفوذ الأجنبي في بلاد الشام، جعل الوطنيين يتفطنون لخطر تلك المدارس التبشيرية على لغتهم العربية المقوم الأساسي لأمتهم، فراحوا يعملون على خلق تعليم وطني يراعي فيه مصلحة البلاد وأهلها، لذا تطوع الوطنيون لإنشاء مدارس على حسابهم الخاص وكان الهدف منها خدمة الوطن قبل كل شيء. وهكذا ظهرت المدارس الوطنية التي تعد من أهم مظاهر النهضة العربية الحديثة آنذاك، والتي كان أولها في الظهور المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني الذي درس على يد المبشرين البروتستانت الأمريكيين، فكان السباق في هذه النهضة العربية، حيث أنشأ مدرسته هذه عام 1863م في بيروت وسماها المدرسة الوطنية، وكانت متطورة في وقتها، فتقاطر عليها الطلاب من أبناء الوطن على اختلاف مللهم، وتخرج منها طائفة كبيرة من الأدباء وأرباب الأقاليم العرب في ذلك العهد كانوا رواد النهضة العربية في البلاد، كما ظهر من بينهم جماعة من أصحاب المناصب العالية في سوريا آنذاك، وكانت ذات صبغة وطنية وتميزت بحرية الدين والتعليم فيها، كما أنشأت الطوائف المسيحية المدارس الكلية الوطنية، أهمها المدرسة "البطيريكية" للروم الكاثوليك عام 1865م والتي نبغ من تلاميذها عدد من الأدباء العرب، كذلك مدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس

¹ أبو نهرا: مرجع سابق، ص 28.

والتي نقلت إلى بيروت عام 1866م فكانت من أهم المدارس الوطنية، ومدرسة الحكمة للمطران "يوسف الدبس"، أسست عام 1865م ترجع للطائفة المارونية¹.

وخلاصة القول أن من إيجابيات الإرساليات التبشيرية على بلاد الشام أنها أدت إلى انتشار وكثرة المدارس الأجنبية التابعة للمؤسسات التبشيرية، التي ساهمت في إتاحة التعليم للجميع في القرى والمدن وذلك عندما تنافست الإرساليات التبشيرية على المنطقة واستعمالها للمدارس كوسيلة تبشيرية، بذلك قدمت الإرساليات ومدارسها خدمة كبيرة لا يمكن إنكارها، وهو انتشار التعليم، وخاصة في الأحياء التي يكثر فيها المسيحيون الشوام العرب الذين رحبوا بالإرساليات وأدخلوا أولادهم لمدارسها للتعليم.

هـ - ظهور الجمعيات الفكرية: في إطار التحولات الفكرية التي شهدتها بلاد الشام ظهرت الجمعيات الأدبية والعلمية ثم الجمعيات ذات الأهداف السياسية لأول مرة في هذه الديار، والتي جمعت المثقفين، مما نتج عنه تطور الأفكار وظهور الجديدة منها. ولقد أدت الإرسالية الأمريكية الدور الأبرز في هذا المجال، حيث كانت نشأة أول جمعية أدبية في بلاد الشام على أيديهم وهي جمعية "الآداب والفنون"، وعملت تلك الجمعيات على تنمية المعارف بما كان يلقي من خطابات دورية بين أعضائها في شتى مجالات المعرفة الإنسانية، وعن طريقها انتشرت القراءة بين الشوام، وحدثت فيها العديد من المناظرات الفكرية، وبذلك لعبت الجمعيات دورا كبيرا في النهضة الفكرية التي ظهرت في بلاد الشام إبان القرن 19م. وقد بدأ ظهور الجمعيات في بيروت أولا وهي مركز الإرسالية الأمريكية ثم انتشرت في باقي المدن الشامية².

¹ زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص 38.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 246.

أ- الجمعيات الأدبية والعلمية: ومن أهم تلك الجمعيات نجد:

1 - جمعية الآداب والعلوم: جاءت فكرة انشاء جمعية علمية باقتراح من ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وذلك خلال السنوات الأولى من ارتباطهما بالإرسالية الأمريكية، بحيث تكون الغاية من انشائها رفع مستوى المعرفة بين الشباب. ولقد تم لهم ذلك بظهور هذه الجمعية عام 1847م في بيروت¹، ترأسها المبشر الأمريكي ايلي سميث، وكانت تعنى بإلقاء الخطب والمناظرات والمناقشات العلمية والأدبية، كما ضمت مكتبة احتوت منذ البداية على 516 مخطوطاً عربياً و11 مخطوطاً تركياً، وعددا كبيرا من الكتب المطبوعة المختلفة².

ولم يمض عامان على تأسيسها حتى أصبح أعضاؤها 50 عضوا أكثرهم من المسيحيين السوريين المقيمين في بيروت، ولم يكن فيها أي عضو مسلم، واستمر عملها مدة خمس سنوات، وكانت هذه الجمعية الأولى من نوعها في بلاد الشام بل في العالم العربي كله آنذاك³.

2 - جمعية شمس البر: تأسست في بيروت عام 1869م كفرع لاتحاد الشباب المسيحيين في إنجلترا. وقد انضم إليها الكثير من طلبة المدارس الأمريكية من أبناء الشام المسيحيين، وهي عبارة على جمعية أدبية خطابية، ومن أهم أعضاؤها فارس نمر ويعقوب صروف وجرجي زيدان. وانتشرت هذه الجمعية في كافة أنحاء سوريا ومصر، ولها فروع منها فرع دمشق باسم رباط المحبة انشئ عام 1874م. وكان من أهم أعمال هذه الجمعية في الجانب الثقافي، هو أنها اتحدت مع جمعية السيدات للامتناع عن المسكرات، وذلك لمحاربتها بكل

¹ هاشم بن خاطر عبد الرحمان البركي: "الدور التغريبي لبطرس البستاني في دائرة المعارف العربية"، (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير)، اشراف: عبد الله بن حسن بركات، جامعة أم القرى، كلية الدعوة واصل الدين، قسم الدعوة والثقافة، تخصص الثقافة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ص 31.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 247.

³ انطونيوس: مرجع سابق، ص 117.

أنواعها، كما بادرت بافتتاح العديد من النوادي وزودتها بالمكتبات ليتردد عليها الشباب بدلا من التردد على الحانات وأماكن اللهو، واهتمت بإقامة المناظرات في المسائل الفكرية المختلفة¹.

3 - جمعية زهرة الآداب: وهي من الجمعيات الوطنية التي تأسست في بيروت عام 1873م وانخرط في عضويتها طبقة من الأدباء، فيهم جماعة من متخرجي المدرسة الوطنية للبستاني أغلبهم من بيروت وطرابلس وحلب. فكانت تؤلف الروايات والغرض منها، هو التمرن على الخطابة وقوة الحجة والدرس والبحث².

جمعية باكورة سوريا: كان للنساء في بيروت دور في تأسيس الجمعيات الوطنية، منها جمعية باكورة سوريا عام 1880م وهي جمعية علمية خطابية اجتماعية صدرت أعمالها في كتاب عام 1881م³، ووجهت اهتماماتها لنشر الثقافة والفكر بين السيدات وتهذيبهن في شتى العلوم، كما اهتمت بإقامة المناظرات والخطب الرامية إلى ترقية أحوال المرأة الشامية ودفعها للقراءة والتزود بالعلوم. ولقد نادت هذه الجمعية بالأفكار الغربية لأن معظم مؤسساتها كن تلميذات في مدارس الأمريكان حيث طالبن بتعليم المرأة والمساواة بين الرجل والمرأة ثم خروج المرأة للعمل وهي المرة الأولى التي تظهر فيها مثل هذه الأفكار في تاريخ بلاد الشام كله⁴.

كما ظهرت عدة جمعيات أخرى، منها جمعية زهرة الإحسان لفتيات طائفة الروم الأرثوذكس تأسست عام 1880م، بالإضافة إلى جمعية الإبرة الذهبية والتي كان الغرض من تأسيسها تعليم الفتيات العربيات وترقيتهن، وجمعية تهذيب الشبيبة السورية التي تأسست عام

¹ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 253 - 254.

² زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص ص 70 - 73.

³ نفسه، ص 71.

⁴ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 257 - 259.

1902م، أسسها أساتذة ومعلمون من المدرسة الكلية الأمريكية خصصت لمساعدة طلاب العلم¹.

ومن أشهر الجمعيات العلمية "المجمع العلمي الشرقي" الذي انشئ في بيروت عام 1882م للبحث في العلم والصناعة، وجمعية "الصناعة" التي أسست عام 1882م في بيروت لتنشيط الصناعة. وانتشرت الجمعيات باختصاصات مختلفة أدبية وعلمية وتعليمية وخطابية وغيرها ناهيك عن الجمعيات الخيرية معظمها في بيروت وسائر المدن السورية. ففي حلب تأسست عام 1907م جمعية "النشأة التهذيبية" وكانت تعرض على انشاء الجمعيات لبث روح الرقي العلمي والأدبي بين الناشئة الحلبية، وفي حلب انشأت جمعية "الفنون الطبية" عام 1887م والتي انضم إليها الأطباء الوطنيون للبحث في المعارف الطبية وغيرها من الجمعيات².

وكان لهذه الجمعيات الأدبية والعلمية دور كبير في تنوير الأذهان ونشر الآداب والاشعار الحماسية بين أهل الشام، كما اهتمت بإحياء التراث العربي ورفع شأن اللغة العربية وساعدت على نمو الحركة القومية العربية. ولم تلبث هذه الجمعيات الأدبية والفكرية أن جنحت إلى الناحية القومية السياسية، فأضافت إلى أغراضها الثقافية أغراضا سياسية تهدف إلى تقرير الحكم الذاتي اللامركزي في بلاد الشام³.

ب- الجمعيات السياسية: لقد شجعت الإرساليات التبشيرية وخاصة الأمريكية في بلاد الشام على الاهتمام بالتراث العربي في الأدب، وبذلك ساعدت على وضع أساس الحركة القومية العربية، عن طريق الحركة التعليمية التي قامت بدور كبير في إحلال اللغة العربية محل

¹ زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ص 73.

² نفسه، ص ص 73-76.

³ محروس اسماعيل: مرجع سابق، ص 345.

الصدارة. كما عملت الإرساليات على استثمار جهود بعض العلماء، فعهدت إليهم بتأليف الكتب في شتى الموضوعات، ثم قامت بطباعتها وتوزيعها في أنحاء بلاد الشام¹، وهذا ما أدى إلى نهضة فكرية ثم تلتها نهضة سياسية تجسدت في ظهور فكرة القومية العربية.

وهكذا ظهرت الحركة القومية العربية على أيدي المسيحيين العرب في بلاد الشام، والذين درسوا في المدارس التبشيرية التي حرصت على تعليم اللغة العربية والأدب العربي والتاريخ العربي لتجذب السكان المحليين إليها، والتي كان روادها من المسيحيين الذين آمنوا بأن العرب أصحاب رسالة وحضارة برزت في ظل الإسلام².

كما ظهرت ارهاصات القومية العربية في الفترة الأخيرة من القرن 19م، على يد مجموعة من أساتذة وطلاب وخريجي الجامعة الأمريكية خاصة في بيروت، وممن تأثر بهم حتى من خارج الجامعة، ودعا أولئك إلى التحرر من قيود الحكم العثماني، وتحسين اللغة العربية وإحيائها كوسيلة للاستقلال الفكري ثم السياسي³.

كما ساعدت الإرساليات التبشيرية الأرثوذكسية على انبعاث الروح القومية في منطقة الشرق العربي، وخصوصا في الفترة الممتدة ما بين 1865 - 1880م وذلك من خلال مساهمتها بتدريس اللغة العربية في مدارسها وتعريب الكثير من المصادر، كما ألقى العديد من المبشرين المحاضرات وأقاموا الندوات التي بينوا فيها مساوئ الحكم العثماني، وذلك ساهم في وعي الشعب العربي وقضيته القومية، وساهم خريجو مدارس الإرساليات التبشيرية بتشكيل الجمعيات العربية⁴.

¹ الغالبي: مرجع سابق، ص ص 263 - 264.

² مفيد الزبيدي: موسوعة التاريخ العربي المعاصر والحديث، دار أسامة للنشر والتوزيع، د ط، عمان، الأردن، د س ن، ص 15.

³ صايغ: مرجع سابق، ص ص 132 - 133.

⁴ الشمري: مرجع سابق، ص 171.

كما أن المدارس الأرثوذكسية التابعة "للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية" التي كان قد أسسها الروس في فلسطين وبعض البلاد الشامية تعمل دائما على تربية تلاميذها العرب الأرثوذكس على حب وطنهم وقوميتهم العربية والاعتزاز بها وتحريضهم على النضال من أجل استقلال بلادهم وسيادتها من الحكم التركي¹.

ولكن إذا رجعنا بالتاريخ إلى الوراء نجد أن روسيا والدولة العثمانية دائما في حالة عداة وحروب دامية، أبرزها حرب القرم 1853 - 1856م واتفاقيات مبرمة بينهما. وبالتالي طبيعي أن تحرض المدارس الأرثوذكسية الروسية العرب الخاضعين للدولة العثمانية على النهوض عليها بحجة التحرر والاستقلال، وذلك للنيل من الدولة العثمانية، ضف إلى ذلك أنه خلال خلافة السلطان عبد الحميد الثاني طرحت فكرة الجامعة الإسلامية في أواخر القرن 19م، وهذه الفكرة لا تخدم الدول الغربية ولا تروق لها، ولضربها رأينا فكرة القومية العربية التي ظهرت بتحريض الغرب ومدارس المبشرين في بلاد الشام آنذاك.

الجمعية العلمية السورية: فعندما تنبه أبناء الشام لنشاط الجمعيات الأجنبية في بلادهم وكيفية بث أفكارها بواسطة المبشرين، عندها بادروا بنفس النشاط، مما أدى إلى ظهور عدة جمعيات وطنية تناشد العرب على اختلاف عقيدتهم أن يتحدوا لخدمة لغتهم، وهذا ما نادى به ناصيف اليازجي أحد رواد النهضة العربية، ودعوة البستاني إلى تحطيم كل السدود والفوارق، مما جعل المسلمين يتقدمون باقتراح يتضمن موافقتهم على الاشتراك في تأسيس جمعية عربية تتحد فيها جهود أهل العقائد الدينية جميعها لخدمة العلم، وشرط أن لا يكون للمبشرين أي يد فيها، فظهرت الجمعية العلمية السورية عام 1857م والتي بلغ عدد أعضائها 150 عضوا من العرب المسلمين والدروز والمسيحيين بكل طوائفهم تحت رئاسة العالم الدرزي الأمير محمد أرسلان لعدة سنوات، واعترفت بها الحكومة العثمانية عام 1868م،

¹ حبيب محمود صالح: مرجع سابق، ص 192.

ووسعت اشتراكها حتى ضمت أعضاء من خارج الشام، خاصة في استانبول والقاهرة¹، واستمر عملها إلى غاية 1868م².

إن انشاء هذه الجمعية هو أول مظهر للوعي الوطني الجماعي، وكان حافزهم في العمل منذ تأسيسها، هو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية، وأصبح الرابط الذي يجمع بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي³. وقد أدت هذه الجمعية دورا كبيرا في توعية المواطنين وبعث التراث الأدبي العربي من جديد واحياء اللغة العربية⁴، كما ساهمت في العناية بإدخال العلوم الحديثة ونشرها في البلاد، كذلك العناية بالتعليم الصناعي والمهني من أجل تقدم البلاد. كما كان لها دورا في نشر الثقافة والفكر في كافة المجالات الأدبية والعلمية. وتعود أهمية هذه الجمعية أنها حولت النقاش في الموضوعات الثقافية إلى حوار سياسي جماعي قومي، الهدف منه التخلص من الحكم العثماني وإخراجه من الديار الشامية، ومن هنا بدأ تبني الدعوة القومية كوسيلة للقضاء على الدولة الحاكمة⁵. فالجمعية "العلمية السورية" التي تأسست عام 1857م كان من بين اعضائها ابراهيم اليازجي ابن الأستاذ ناصيف اليازجي الذي نظم أول قصيدة وانشدها في اجتماع سري للجمعية عام 1867م يستنهض فيها العرب للثورة على الأتراك، وكانت أول قصيدة ثورية أثارت الهمم في النفوس وأخذت الناشئة العربية تتغنى بأبياتها بحماسة، ومن أبياتها:

أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب
فيالقومي وما قومي سوى عرب ولن يضيع فيهم ذلك النسب.

¹ انطونيوس: مرجع سابق، ص 119.

² اسماعيل علي: مرجع سابق، ص ص 37 - 38.

³ انطونيوس: مرجع سابق، ص ص 119 - 120.

⁴ معاشي: مرجع سابق، ص 73.

⁵ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 249 - 250.

وتلت هذه القصيدة قصائد أخرى تدعوا إما إلى الإصلاح أو الثورة علانية على الأتراك¹.

جمعية بيروت السرية (الجمعية السرية): انبثقت عن الجمعية العلمية السورية عام 1875م وعملت على تقويض الحكم التركي في البلاد الشامية، بدايتها كانت على يد مجموعة ممن تعلموا في المدرسة الكلية الأمريكية، وكانوا ضالعين في كافة أنشطة الإرسالية الأمريكية، وهم فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني، ووليم فاندريك، حيث كانوا يجتمعون في بناية بحرم الجامعة الأمريكية ببيروت، وهدفهم الأسمى سلخ لبنان وسوريا عن جسم الدولة العثمانية، أسست فروع في كل من دمشق وطرابلس وصيدا، أما عن اجتماعاتها، فكانت سرية خوفاً من بطش الحكام العثمانيين²، إذ كانت تتدد بمساوئ الحكم العثماني وتتدد بالفساد في البلاد العربية³، ولذلك علقوا المناشير على جدران بيروت والتي تأنب أهل الشام على خضوعهم للعثمانيين وتدعوهم لاتحاد جميع الطوائف المطالبة بحكم ذاتي موحد لسوريا ولبنان، وبالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية وإزالة كل القيود على حرية الرأي والتعبير ونشر التعليم⁴، واستخدام القوات المجنّدة من أبناء الشام في المهام العسكرية الداخلية فقط، كما أنكروا على السلطان العثماني حق الخلافة وأن العثمانيين اغتصبوها من العرب وأنهم خالفوا بذلك الشريعة. وفي سنة 1883م فرّ معظم أعضائها إلى مصر وذلك عندما حاول السلطان عبد الحميد الثاني معرفتهم وملاحقتهم⁵.

ولقد وضعت هذه الجمعية عدة مطالب للوصول إلى هدفها الأول وهو فصل لبنان عن الدولة العثمانية وهددت باستعمال القوة لتحقيق مرادها. وكانت أهم مطالبها هو استقلال سوريا ولبنان عن الدولة العثمانية. وكان الشعراء والأدباء يعززون فكرة الانفصال وينشرون

¹ انطونيوس: مرجع سابق، ص ص 11 - 14.

² عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص ص 251 - 252.

³ نمير طه ياسين: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الفكر، ط1، المملكة الهاشمية الأردنية، 2010م، ص 136.

⁴ حوراني: مرجع سابق، ص 328.

⁵ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 252.

القصائد التي تحرض أبناء العرب للنهوض على الحكم التركي. كما لعب المدرسون والكتاب من أعضاء هذه الجمعية دورا كبيرا في ترويح مبادئها وشعاراتها، ومن هؤلاء الياس حبالين الماروني المذهب الذي كان يستغل عمله كأستاذ للغة الفرنسية بالكلية السورية الأمريكية في بيروت للاجتماع بالطلبة وإثارتهم ضد الحكومة العثمانية، ولقد تمكن من خلق جيل يؤمن ويساند فكرة النهوض والانفصال والتخلص من الحكم التركي¹.

لقد كانوا يحلمون بتكوين أمة ينتمون إليها انتماء تاما وليس كالإمبراطورية العثمانية الإسلامية، وقد اتخذ هذا الحلم لديهم صورا مختلفة، منها لبنان مستقل يكون مركزا لحياة مسيحية حرة، وتحت حماية دولة أوربية كاثوليكية لكن الصورة السياسية التي رسموها كانت ضمن اطار سوريا المستقلة لا لبنان، أي صورة دولة تشمل جميع أنحاء سوريا الجغرافية من جبال طوروس إلى صحراء سيناء وصورة مجتمع يضم مسيحيين ومسلمين ودروزا ويهودا يتعاونون تعاوننا تاما فيما بينهم وتزول أهمية أكثرية أو أقلية.

صحيح أن هذه الجمعية لم تحقق أهدافها لكنها مثلت مظهر من مظاهر استيقاظ الوعي السياسي لدى المسيحيين السوريين الذين استمدوا ثقافتهم وأفكارهم العامة من مدارس الإرساليات التبشيرية². وكانت نموذجا واقعياً للاتجاهات الفكرية التي نجحت الإرسالية الأمريكية خاصة في بثه في نفوس المرتبطين بها من أبناء الشام والدليل على ذلك وجود وليم فان ديك ابن المبشر الأمريكي في هذه الجمعية³.

جمعية حقوق الملة العربية: تأسست عام 1881م من طرف بعض المثقفين العرب في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا، حيث قامت بتوزيع منشورات تحت العرب على اليقظة

¹ برو: مرجع سابق، ص ص 24 - 28.

² حوراني: مرجع سابق، ص ص 328 - 329.

³ عبد الرزاق عيسى: مرجع سابق، ص 252.

وتذكرهم بأمجادهم، وأن الأتراك اختلسوا الخلافة من العرب الذين قامت على أكتافهم الفتوحات¹، فحين شجعت فرنسا فكرة لبنان المسيحي المستقل عن البلاد الإسلامية².

جمعية النهضة اللبنانية: تأسست خلال الحرب العالمية الأولى في بيروت، وهي من بين الجمعيات التي كانت تطالب باستقلال لبنان عن الدولة العثمانية، والتي قام أعضاؤها بدعوة فرنسا لحماية الوطن اللبناني. ولقد اتهم سياسيو ذلك العصر فرنسا بأنها كانت تدفع الأموال لهذه الجمعية ولصحفها مثل: المراقب والاتحاد اللبناني والأحوال والنصير وزحلة الفتاة³.

وهكذا فإن النهضة الثقافية والحركة السياسية المناوئة للأتراك كان أغلب أفرادها من المسيحيين الشوام الذين تلقوا علومهم في المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات التبشيرية⁴، التي ساهمت في تشجيع وترويج الفكر القومي لدى النخب المثقفة العربية والمسيحية منها بوجه خاص، وأهم تلك المدارس التي ساهمت بقسط كبير في هذه العملية الجامعة الأمريكية والكلية اليسوعية في بيروت التي أنشأها الآباء اليسوعيون عام 1874م⁵.

وتجدر الملاحظة أن فكرة القومية العربية لم يكن انتشارها في البلاد العربية مقصوراً على الدور الذي قام به مسيحي العرب، بل ساهمت القوى الأوربية العظمى في الترويج لها في القرن 19م، وذلك بغرض اضعاف الدولة العثمانية وتفتيت أجزائها. وتعد عملية التبشير إحدى الوسائل الناجعة التي وظفتها الدول الغربية لتحقيق مشاريعها. وقد توصلت إلى تحقيق أهدافها إلى حد بعيد، وتجلى ذلك في الثورات التي اندلعت بين العرب والدولة العثمانية.

¹ محمد حبيب صالح: مرجع سابق، ص ص 196 - 197.

² صايغ: مرجع سابق، ص 136.

³ نفسه، ص 137.

⁴ سعيد درويش: مرجع سابق، ص 60.

⁵ ناصر حيدر: العلم العربي بين القومية العربية والجامعة الإسلامية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، عين مليلة، الجزائر، 2014م، ص ص 47 - 48.

2- تكريس اللغة الفرنسية

لقد ركزت الإرساليات التبشيرية الغربية جهودها في ولايات الشام بوجه خاص، ولم تشهد بقية الولايات العربية في الدولة العثمانية مثل ذلك النشاط التبشيري المكثف من حيث عدد الإرساليات أو نشاط أفرادها أو تغلغلهم في الأوساط الشامية، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل أهمها: كثرة عدد النصارى في بلاد الشام، ومعرفتهم لإحدى اللغات الأجنبية كالفرنسية أو الإنجليزية، وهذا سهل لهم أعمال الوساطة وارتفع مستواهم المادي والثقافي، وأصبحوا عنصراً قوياً في بلاد الشام. وكانت بعض العناصر المسيحية تظفر بتأييد فرنسا، بل بحمايتها في ظل نظام الامتيازات الأجنبية. وكان نصارى الشام أوثق اتصالاً بأوروبا، ولذلك قاموا بدور الوسيط بين الغرب الأوربي والأمريكي وبين العرب المسلمين في ولايات الشام، ولقد أتاح لهم هذا الوضع ان يتأثروا بالحضارة الغربية والفكر الغربي أكثر من المسلمين¹.

لقد أدى توسع المدارس الأجنبية التبشيرية إلى انتشار لغات الدول الغربية وثقافتها، خاصة في القرى والمدن المسيحية التي تعج بالمسيحيين وخاصة في حلب وبيروت والقدس وجبل لبنان التي كان نصيبها كبيراً من تلك المدارس².

ربما يتساءل البعض لماذا انتشرت اللغة الفرنسية في بلاد الشام وتفوقت عن غيرها على الرغم من وجود إرساليات تبشيرية إنجليزية وأمريكية وروسية وغيرها، فذلك راجع لوجود فرنسا وحضورها بقوة في المنطقة وتفوقها عن الدول الأخرى، فحلفاؤها هم الموارنة أصحاب جبل لبنان وتربطها صداقة متينة معهم منذ زمن الحروب الصليبية هذا من جهة، وحمايتها للكاتوليكية بموجب الامتيازات من جهة أخرى. أما البروتستانت الأمريكان والإنجليز، فهم

¹ الشناوي: مرجع سابق، ج1، ص ص 93-94.

² عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص 295.

طائفة جديدة عن المنطقة، وبالتالي لا حلفاء لديهم حتى يرتكزون عليهم. وأما الأرثوذكس الروس، فكان همهم الأماكن المقدسة في فلسطين فلم يوسعوا نشاطهم ولغتهم في باقي بلاد الشام وكل هذا ساعد فرنسا على نشر لغتها في بلاد الشام.

فموقع فرنسا في بدايات القرن 20م في البلاد السورية هو ثمرة عدة قرون من الدبلوماسية والجهود، وكان موقعها يفوق بقية الدول الكبرى الأخرى، حيث تميزت بمجموعة ضخمة من المؤسسات الدينية التبشيرية والتعليمية، وباستخدام اللغة الفرنسية على نطاق واسع ومما ساعدها في ذلك أن فرنسا كانت زعيمة الكاثوليك وكان رجال الكهنوت المحلي بمثابة عملائها المخلصين. وهكذا عم النفوذ الفرنسي وتغلغل عبر تداول الكتب والصحف الفرنسية وعبر التعامل الاجتماعي والاقتصادي المتواصل وبواسطة المعونة التي وفرها المال والاهتمام والاشخاص الفرنسيون لمدارس الطوائف الكاثوليكية والجمعيات التبشيرية الفرنسية¹.

لقد أصبحت تلك الإرساليات أداة لينة طيعة في يد الحكومات الغربية تعتمد عليها في بسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على البلاد التي سيطرت عليها أو تتطلع إلى امتلاكها، وأصبح النشاط التبشيري من أقوى الركائز الاستعمارية. ففي بلاد الشام اعتمدت الحكومة الفرنسية إلى حد كبير على الإرساليات التبشيرية لنشر الثقافة الفرنسية ودعم النفوذ الفرنسي، واغدقت حكومة باريس بعثاتها التبشيرية بالأموال الوفيرة، وتعاون أعضاؤها مع رجال الدين من الموارنة والملكانيين لتحقيق أهداف الحكومة الفرنسية، وتكاتفوا جميعاً على تقديم تعليم للأجيال الصاعدة استهدف تكوين عقولهم على النمط الفرنسي وتوجيه ولائهم

¹ ستيفن هامسلي لونغريغ: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، تر: بيار عقل، دار الحقيقة، د ط، بيروت، د س ن، ص ص 57 - 58.

الفكري إلى باريس لتكون قبلة لهم¹، ومن ذلك أن من مخططات العمل الكاثوليكي التبشيري الفرنسي هو غرس حب فرنسا واللغة الفرنسية في الناشئة من أطفال المدارس الكاثوليكية. فالملاحظ أنه إلى يومنا هذا هو تكريس اللغة الفرنسية خاصة في سوريا ولبنان، فنجد مثلاً أن اسم فرانك في المنزل هو مرادف للكاثوليكية²، بالإضافة إلى ظهور ما يعرف بالبيوت الفرنسية في بلاد الشام نتيجة التعليم التبشيري الفرنسي وأصبحت الكثير من البيوت العربية الشامية ذات طابع فرنسي في المعيشة³.

فرنسا أولت عناية خاصة في فلسطين حيث كانت المساعدات تأتي بشكل مفرط للتجمعات الكاثوليكية الفرنسية، وأصبح أطفال المدارس الكاثوليكية الفرنسية يعرفون كل إدارات وأقاليم فرنسا، فحين يجهلون حدود البلاد الشامية⁴.

إن الدور الذي قامت به الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام هو أن اللغة الفرنسية أصبحت لغة المجتمع والأعمال، وذلك رجع لتأثيرات إرساليات اليسوعيين التي كانت أكثر البعثات انتشاراً في منطقة بلاد الشام، والتي وسعت نشاطها في القرن 19م، حيث أصبحت اللغة الفرنسية منتشرة في كل المناطق بما فيها النائية يتكلمها معظم السكان من مسلمين ومسيحيين، وعن ذلك كتب المستشرق الفرنسي موريس باريه الذي زار لبنان قبل نشوب الحرب العالمية الأولى وكتب تقريراً عن زيارته صدر في باريس عام 1923م دون فيه ملاحظاته عن اللغة الفرنسية حيث قال: «إن اللبنانيين لديهم حب للغة الفرنسية، حيث أن الكثير منهم يتكلمها بلباقة من النادر جداً أن تجد لها نظير لدى غيرهم من الأجانب»⁵.

¹ الشناوي: مرجع سابق، ج1، ص 94.

² Dhunes, Op . Cit., p. 92.

³ Summerer, Op . Cit., p. 84.

⁴ Dhunes, Op . Cit., pp. 92 – 93.

⁵ الزبيدي: مرجع سابق، ص ص 146 – 148.

إن من أهم الآثار التي خلفها التعليم التبشيري في منطقة الشام، وهو انتشار اللغة الفرنسية، التي أصبحت اللغة الأولى، خاصة في مدارس المواردنة في لبنان، لتتماشى مع لغة المدارس اليسوعية ومدارس المرسلين الكاثوليك بشكل عام. وهكذا استطاعت فرنسا بواسطة إرسالياتها أن تجذب إليها أهل المنطقة في اللغة والفكر والانتماء¹. وأصبحت اللغة الفرنسية لغة الأغنياء وكبار التجار في بلاد الشام والفضل في ذلك يعود لمدارس الإرساليات الفرنسية كمدرسة الأباء اللعازيين في عين طورة ومدرسة الأباء اليسوعيين في غزير والتي انتقلت إلى بيروت².

لقد ظهرت ثمرة جهد عمل الإرساليات التبشيرية خلال النصف الأول من القرن 20م والتي كان نشاطها مكثفا خلال القرن 19م وخلال فترة الانتداب الفرنسي، حيث وضعت نظم غربية في كافة الدوائر الحكومية، والتي كانت بدايتها في مناهج التعليم وذلك لخدمة المصالح الأجنبية في المنطقة، حيث سمحت فرنسا لليسوعيين خاصة خلال فترة الإنتداب، السيطرة على التعليم الرسمي، ومن خلالهم تمكنت الثقافة والنظم الفرنسية من السيطرة على كافة مؤسسات التعليم المتواجدة في بلاد الشام سيطرة مطلقة³. وأصبحت اللغة الفرنسية في منظور السكان المحليين لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية⁴.

ومع فترة الانتداب الفرنسي على لبنان توطدت اللغة الفرنسية بشكل كبير مع ظهور دولة لبنان الكبير عام 1920م حين أصبحت مع اللغة العربية اللغة الرسمية في إدارات

¹ عتريسي: البعثات اليسوعية، ص 62.

² عبد المنعم شعيب: مرجع سابق، ص 15.

³ خالدي وعمر فروج: مرجع سابق، ص ص 84 - 86.

⁴ Summerer, Op . Cit., p. 84.

الدولة. ونصت المادة 11 من دستور لبنان الكبير في ماي 1926م على أن اللغة العربية لغة وطنية رسمية في جميع إدارات الدولة والفرنسية هي كذلك لغة رسمية¹.

ومن بين أهم الأثار التي خلفتها مدارس الإرساليات التبشيرية، خاصة اليسوعية في لبنان بشكل خاص حتى بعد ظهور دولة الاستقلال، هو تكريس اللغة الفرنسية في التعليم وفي المعاملات الإدارية حيث أصبحت اللغة الفرنسية لغة رسمية في جميع دوائر الدولة اللبنانية إلى جانب اللغة العربية، وصدرت مقررات تقرر برسمية اللغة الفرنسية. أما فيما يخص المناهج التعليمية في لبنان، فينص على أن تعليم اللغة الفرنسية هو كسائر اللغات الرسمية في سوريا ولبنان اجباري في جميع معاهد التعليم الخاصة. ففي فترة الانتداب صدرت أول المناهج رسمية أكدت على أن تدرس علوم الرياضيات والطبيعيات والكيمياء والعلوم الطبيعية باللغة الفرنسية².

وهكذا كان المبشرون اللاتين بمثابة الناقل الافضل للثقافة واللغة الفرنسية وذلك بواسطة مدارسهم التي كرست ذلك بين الكاثوليك الشرقيين، وظهر ذلك الأثر بشكل كبير في نهايات القرن 19م³.

3- الأثار الدينية: جراء نشاط الإرساليات البروتستانتية الأمريكية في بلاد الشام خلال القرن 19م ظهرت طائفة جديدة تعتنق المذهب المسيحي البروتستانتية الذي لم يكن موجودا في منطقة الشام قبل وصول البعثات البروتستانتية، وهذا يعد من أهم الإنجازات التي حققها

¹ الزيدي: مرجع سابق، ص 149.

² عتريسي: البعثات اليسوعية، ص15.

³ الزيدي: مرجع سابق، ص 124.

المبشرون البروتستانت¹، وكمثال على ذلك الأستاذ بطرس البستاني والأديب فارس الشدياق اللذين تنكرا لكنيستهم وطائفهم المارونية الكاثوليكية واعتناقهم المذهب البروتستانتي².

ومن أثار العمل التبشيري في بلاد الشام كذلك ترجم كتاب الإنجيل إلى اللغة العربية لأول مرة خلال القرن 19م، خاصة من طرف المبشرين البروتستانت³. وأصبح الإنجيل يتلى باللغة التي يفهمها سكان الشام، ضف إلى هذا تعريب الكنائس الأرثوذكسية من طرف المبشرين الأرثوذكس بعدما كانت تعتمد على لغات أخرى كال يونانية⁴.

ومن الأثار الدينية للإرساليات التبشيرية الكاثوليكية أيضا، هو ازدياد عدد المسيحيين الشاميين الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي، حيث كان عددهم عام 1625م ألف مسيحي كاثوليكي في حلب وذلك قبل وصول الكبوشيين واليسوعيين إليها، ووصل عددهم عام 1704م الى أكثر من أربعة آلاف شخص اعتنق الكاثوليكية. وقد وصل هذا العدد في منتصف القرن 19م الى 14478 شخصا كاثوليكي⁵.

أما عن تحول المسلمين عن عقيدتهم واعتناقهم للديانة المسيحية، فلا تذكر الكتب عن ذلك شيء، وهذا يدل على فشل المبشرين على اختلاف مذاهبهم وعدم نجاحهم في نشر مذاهبهم بين المسلمين في بلاد الشام، وهذا يدل أيضا على مدى تمسك المسلمين بدينهم وعقيدتهم الإسلامية وافشال المخططات الدينية التبشيرية بينهم طيلة القرن 19م.

¹ خالدي وعمر فروج: مرجع سابق، ص 35.

² معاشي: مرجع سابق، ص 53.

³ المحافظة: مرجع سابق، ص 129.

⁴ غربي: مرجع سابق، ص 217.

⁵ الصباغ: مرجع سابق، ص 831.

ومن ناحية نجد أن السلطات العثمانية كانت بالمرصاد للمرتدين عن الدين الإسلامي، فكل مرتد في القانوني العثماني كافر يجوز قتله، ومنه تؤكد المبشرين من استحالة العمل بين المسلمين لذا توجهوا للتبشير بين الطوائف الأخرى من مسيحيين ويهود¹.

وهكذا كان من نتائج وأثار النشاط التبشيري في الشام زرع الفتنة بين أبنائه التي انتهت بتقسيمه وانفصال لبنان عن سوريا، علاوة عن إثارة النعرات الطائفية التي ظلت تعصف بالمنطقة إلى أزمان متقدمة، كما أنها هيأت المناخ إلى تغريب المنطقة عن طريق خلق فئة متغربة تدافع عن مصالح دول الإرساليات في مختلف الأصعدة، وهو ما ساهم في توجه المنطقة نحو قطع صلاتها بالدولة العثمانية، والمساهمة في تدهور نفوذها هناك وتعزيز علاقاتها بالقوى الاستعمارية الغربية، لكن الحق يقال رغم الأثار العكسية للإرساليات التبشيرية لكنها ساهمت في إحداث نهضة عربية، عززت مكانة اللغة العربية وساعدت على نشر الوعي.

¹ Gagnon, Op . Cit., p. 31.

الخاتمة

بعد هذا العرض، يمكن أن نستخلص مجموعة من النتائج التي تتلخص في النقاط الآتية:

شهد القرن 19م الكثير من الأحداث والمتغيرات، فعلى الصعيد الغربي ظهر ما يعرف بالثورة الصناعية التي كانت وراء تغير المشهد الاقتصادي العالمي، ومن ثمّ السياسي، فالثورة الصناعية أدخلت العالم الغربي في دوامة من التنافس الصناعي والتجاري الحاد، هذا الأمر الذي حتم عليه التوسع خارج حدوده، وذلك لضمان تسويق منتوجاته، أو لجلب المواد الأولية التي تحتاجها مصنوعاته، لكن التجار الذين تحوّلوا إلى طبقة سياسية فيما بعد، اصطدموا بالكثير من العثرات في طريق تحقيق أهدافهم، فكانت الدولة العثمانية هي إحدى أكبر العثرات، فشكّلت لهم مثابة الحاجز الذي يحول بينهم وبين تجارة الشرق التي تلقى رواجاً في أوربا، وكذلك حائلاً بينهم وبين إفريقيا التي أصبحوا يتطلعون للسيطرة عليها خدمة لتجارهم.

ومنه كان لابد على العالم الغربي من إيجاد سبيل للتخلص من هيمنة ونفوذ العثمانيين على البحر المتوسط، فراحوا يتحينون الفرص للانقضاض عليها، وما أن حلّ القرن 19م حتى دبّ الضعف في جسد الدولة العثمانية نتيجة الكثير من القلاقل والفتن سواء المدبرة بفعل خارجي، أو بسبب ضعف التسيير والتناحر الداخلي.

لقد تزامن هذا التغيّر على الصعيد الغربي بالكثير من الأحداث على مستوى العالم العربي، وخاصة بلاد الشام التي تعاني في ذلك الوقت من الضعف في جميع المجالات خاصة السياسي. فمنذ عام 1832م، أصبحت البلاد خاضعة لحكم محمد علي باشا الذي أخضعها بالقوة بعد توجيه حملة عسكرية نحوها، وبعد السيطرة عليها ولّى عليها ابنه إبراهيم باشا، ومنذ ذلك أصبحت البلاد في حالة من الضعف والفوضى، إذ عمّت الثورات الداخلية، وقد حملت في كثير من الأحيان صبغة الطائفية، خاصة الصراع الديني، فمحمد علي سعى إلى تقريب الطوائف المسيحية واعطاها نوعاً من الحرية في ممارسة العبادات والنشاطات الأخرى خاصة الاقتصادية.

والملاحظ خلال القرن 19م أن الدول الغربية أصبحت تسعى لمد نفوذها نحو بلاد الشام، فكل دولة سعت لجذب طائفة ما، وقد ساعدها في ذلك تركيبة بلاد الشام التي تميزت بتعددتها وتنوعها الطائفي، حيث تُعد المنطقة الوحيدة في العالم العربي التي بها هذا التعدد في الطوائف، فكان هذا بمثابة عامل جذب للعالم الغربي، ففرنسا رأت أن تتقرب من الموارد وذلك بحكم العلاقات القديمة المتجذرة منذ عهد الحروب الصليبية بينها وبين الطائفة المارونية. أما بريطانيا فسعت للتقرب من الدروز رغم الاختلاف الديني بينهم، إلا أنها عولت عليهم لتحقيق أهدافها وذلك حتى تضمن لنفسها فرصة التدخل في بلاد الشام. وعلى غرار فرنسا وبريطانيا سعت الدول الغربية إلى مد نفوذها نحو بلاد الشام.

وفي ظل هذا الجو السياسي كانت الأوضاع الاقتصادية وكذا الاجتماعية متدهورة جداً، فالزراعة كانت متدهورة بسبب اعتماد الطرق التقليدية فيها، كما ظلت الصناعة بعيدة عن التحديث الحاصل في أوروبا وبعيدة عن تأثيرات الثورة الصناعية معتمدة على الطرق التقليدية، ويطبعها الطابع الحرفي.

وفي ظل هذه المتغيرات خاصة على الصعيد الداخلي الغربي، حيث أصبح من الصعب عليهم اتباع الطرق التقليدية في احتلال البلدان، فأصبحت الضرورة تُملّي عليهم تبني استراتيجية جديدة للتغلغل داخل جسم الدولة العثمانية التي عُرفت بالرجل المريض، ومدّ النفوذ نحو أجزائها، قصد السيطرة عليها مستقبلاً. فالحل العسكري، لم يعد مجدياً خاصة في ما تتطلبه الحملات العسكرية من ارتفاع تكاليف الانفاق على الجيوش والتجهيزات العسكرية. وفي ظل معارضة الرأي العام الداخلي للتدخل العسكري المباشر، أصبحت الدول الغربية تسعى لإيجاد سبل تعويضها على أسلوبها الاستعماري القديم. ففرنسا مثلاً كانت قد استنزفت قوتها العسكرية في الحملة على الجزائر عام 1830م، فلم تعد لها القدرة على ارسال حملات عسكرية أخرى لمنطقة الشام وتشيتت جهودها العسكرية، من هنا أصبحت تبحث عن حلّ يضمن لها السيطرة ومدّ النفوذ، وتجنب الحملات العسكرية، ففكرت في طريقة أكثر سلمية.

وبالتزامن مع هذا، شهد القرن 19م صحوة تبشيرية، فالمبشرين أصبحوا يبحثون عن من يحتويهم ويؤطرهم، فتلاقت هذه الجهود مع ظرفية الدول الغربية التي كانت تبحث عن وسيلة لتحقيق أهدافها، في حين يسعى المبشرون للبحث عن من يحميهم ويمول مشروعاتهم، فالمصلحة أصبحت مزدوجة، فالدول الغربية تحقق أطماعها ومصالحها في بلاد الشام، والمبشرون يحصدون نتائج أسرع ويصبح عملهم ذو طابع مؤسساتي، وهذا ما يعرف بالإرساليات التبشيرية في بلاد الشام .

وكانت العديد من العوامل وراء ظهور الإرساليات التبشيرية ببلاد الشام في مقدمتها فشل الحروب الصليبية، فتولدت القناعة لدى رجال الدين المسيحيين بضرورة إيجاد سبل تعويضهم عن خسارتهم في الحروب الصليبية، فاهتدوا إلى إيجاد طريقة سلمية تمكنهم من استرجاع مجدهم في الأرض المقدسة، ومنه ولدت فكرة التبشير التي نادى بها ملك فرنسا لويس التاسع في منتصف القرن 13م.

وما ساعدهم على تبني فكرة التبشير وقناعتهم بإمكانية نجاحه، هو اطلاعهم على كتب المستشرقين التي أعطتهم صورة متكاملة عن بلاد الشام من كل النواحي سواء سياسيا، ودينيا، واجتماعيا..إلخ، والأهم من ذلك بينت لهم نقاط ضعف البلاد التي يمكن استغلالها في التبشير.

يضاف إلى ذلك الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للدول الغربية، والتي استغلتها هاته الأخيرة ليس اقتصاديا وحسب، بل وظفتها في العمل التبشيري، فبعد فرنسا التي كانت لها السبق في عقد معاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية عام 1535م، سعت كل الدول الغربية على اقتفاء أثر فرنسا في عقد معاهدات الصداقة، ومن ثمّة تعرفوا على مواطن الضعف وأبواب الدخول، عندها بعثت التجار المبشرين، ثم اعتمد القناصل المبشرين ثم الرعايا المبشرين، كي يتسنى لها أخذ موطن قدم داخل الكيان الإسلامي، وهذا ما قامت به مع حسن استغلالها للواقع الاقتصادي في بلاد الشام التي تغلغلو بداخلها. وكذا واقعهم

الاجتماعي من خلال التّعليم والصّحة ومساعدتهم على اتمام مشاريعهم المعيشية. كل هذه الأعمال خلقت نوعاً من القبول بالتّبشير عند أهل الشّام، لأنّهم دخلوا في ثانيا حياتهم من خلال متطلباتهم اليومية. وما كان للتّبشير أن ينجح لو لا تساهل حكام آل عثمان وتظاهرهم بالتّسامح المفرط الذي عاد عليهم بالشّؤم على مستوى مسيرة الدّولة، كما أنّ سياستهم اتجاه الرعية في بلاد الشّام كانت قاسية ودموية نفرت منهم الأهالي وتركتهم يميلون إلى من يرعونهم ويخدمونهم.

وقد استفحل التّبشير في بلاد الشّام بالتحديد خلال القرن 19م، نتيجة سياسة التّسامح التي تبناها ابراهيم باشا مع الطوائف المسيحية، والذي سعى للتقرب إليهم بمنحهم مجموعة من الامتيازات لتسهيل ظروف معيشتهم، هذا الأمر الذي استغله المبشرون، حيث مكّنهم من الوُلوغ الى بلاد الشّام، والدّخول في جو من التّنافس بين الإرساليات التّبشيرية.

والشّي الملاحظ أنّه في القرن 19م دخلت الدّولة العثمانية في مرحلة من الضّعف والانهايار، الأمر الذي سهل على المبشرين التّغلغل داخل أقطارها، خاصة بلاد الشّام، وكان ذلك تحت حماية الدّول الغربية المتربصة بالدّولة العثمانية.

ومن هنا بدأت الإرساليات التّبشيرية بالتوافد على بلاد الشّام بتعدد مذاهبها من بروتستانتية، وكاثوليكية، وأرثوذكسية. وكانت كل إرسالية تحت حماية دولة ما. فالإرساليات البروتستانتية كانت تحظى بحماية الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وبروسيا. أما الكاثوليكية، فكانت تحت وصاية فرنسا إلى جانب النمسا وإيطاليا. والارثوذكسية فكانت تحت حماية القيصر الرّوسي. وانطلقت تلك الإرساليات التّبشيرية لتعم كافة مدن وقرى بلاد الشّام خاصة جبل لبنان، حاملة في أجندتها تحقيق غايتين أساسيتين، تمثلت الغاية الأولى في تحقيق نتائج ملموسة في التّبشير بتحويل المنطقة إلى المسيحية. والغاية الثّانية، تمثلت في تحقيق أهداف الدّول الحامية لها من خلال تجسيد مخطط السيطرة الغربية على بلاد الشّام عن طريق التّبشير.

لكن الملاحظ أنَّ عمل الإرساليات التبشيرية طبعه التنافس فيما بينها، وهذا راجع لانعكاس التنافس الذي كان حاصلًا بين الدُول الغربية على عملها، فتلك الإرساليات أصبحت تركز على استدراج المسيحيين من المذاهب المسيحية الأخرى المخالفة لها في ظلّ استعصاء العمل داخل الفئات المسلمة، هذا ما ولدَ نوعاً من الصِّراع بين الطوائف المسيحية التي سعت لتأديب المرتدين منها، ومواجهة الطائفة التي انتمى إليها المرتد.

هذا النشاط التبشيري قابله رد فعل سواء من السُّلطات العثمانية، أو من أهل الشَّام، فالدَّولة العثمانية كانت بالمرصاد لكل تحركات المبشرين خاصة عندما لاحظت دورهم في تسهيل عمل الدُول الغربية في التغلغل داخل أجزائها، لاسيما بلاد الشَّام، فأصبحت بمثابة المراقب لكل تحركاتهم، وسعت لوضع العراقيل أمام نشاطاتهم وبالرغم من الضَّعف الذي عرفته الدَّولة العثمانية في أواخر القرن 19م، إلّا أنها حاولت الوقوف الند بالنند لعمل المبشرين، بل سعت إلى مجاراتهم خاصة في مجال التَّعليم.

أما عن أهل الشَّام، فكانت ردود الأفعال متباينة تخضع لمنطق المصلحة، فالمسلمون من سُنَّة وشيعة علويين لم يستطع المبشرون التَّغلغل بينهم لرفضهم المطلق للعمل التبشيري، وذلك راجع لقوة عقيدتهم الإسلامية، بينما نجد الدُّروز قد قبلوا بحماية بريطانيا ومبشرها، وذلك لما تقتضيه مصلحتهم، والمتمثلة في الدَّعم البريطاني لهم ضد الموارنة، بينما الموارنة نجدهم احتضنوا المبشرين الكاثوليك دون سواهم، وذلك راجع إلى انتمايهم لنفس المذهب وللعلاقات التي تربطهم قبل هذا التَّقارب، أما اليهود فقد حصل تقارب بينهم وبين البروتستانت، وذلك للتشابه في العقائد المذهبية البروتستانتية واليهودية.

لقد تحركت الإرساليات التبشيرية للعمل في بلاد الشَّام وفق مخطط متكامل سطرت له الدُول الغربية غايات وأهداف لتحقيقها مقسمة أساساً إلى قسمين، أهداف مباشرة تمثلت أساساً في نشر الدِّين المسيحي، واستعادة مجد المسيحية في بلاد الشَّام. وأهداف غير مباشرة ظلَّت تسعى لتحقيقها في الخفاء، تمثلت أساساً في تحقيق مشروع استعماري يهدف

إلى تطوير بلاد الشام، والتّمهيد للسيطرة عليها من خلال الإرساليات التبشيرية، مركزين في عملهم على القضاء وإسقاط الدّولة العثمانية، لأنّه يستحيل عليهم التمكن من بلاد الشام في ظل وجود الدّولة العثمانية .

ولبلوغ هذه الأهداف، اتبعت الإرساليات التبشيرية عدّة وسائل كان في مقدمتها استعمال السّياسة في التّبشير، فبهذه الوسيلة ستضمن لنفسها الإطار القانوني الذي سيسهل لها النشاط، وفي نفس الوقت يمنحها الحماية في حال التّعرض للمضايقات.

وكان التّعليم بمثابة الركيزة الأساسية في عمل المبشرين، فهم من خلاله تمكنوا من الوصول إلى كافة طبقات المجتمع الشّامي، خاصة الفئات العمرية الصّغيرة التي سيسهل عليهم تمرير أفكارهم لها، وانشائهم وتربيتهم على الفكر المسيحي، وهذا ما سيحدث مستقبلا فئة موالية لهم، خاصة مع اهتمامهم بالتّعليم العالي، فنجدهم اهتموا بتشيد الجامعات والمعاهد العلمية لضمان تحقيق هذه الغاية.

وبالتوازي مع التّعليم، نجد أن هناك وسائل مُكمّلة له تهدف في مجملها لتحقيق غاية التّبشير، إذ نجد منها ترجمة الكتب وانشاء المطابع والمكتبات وتأسيس الصّحف والجمعيات ولم يقتصر الأمر على الجانب التّعليمي، بل تعداه إلى استغلال الجانب الاجتماعي في التبشير من خلال استعمال التّطبيب كوسيلة للتّبشير، فسعوا إلى تأسيس وانشاء المستشفيات والملاجئ، والتّكفل بالأيتام، فاهتموا بتعليمهم سواء في المدارس أو في المدارس المهنية. وقد أولوا للمرأة عناية خاصة، لاسيما في مجال التّعليم، فهم يعرفون مكانة المرأة في المجتمع العربي ومدى تأثيرها في الأسرة.

وبالتعرف على عمل الإرساليات التبشيرية، نجدها قد خلفت عدّة آثار على المنطقة ايجابية وسلبية. فمن بين الآثار السلبية، فقد نجح المبشرون في تجزئة بلاد الشام، وأولاً بفصلها عن الدّولة العثمانية، وثانياً بتجزئة بلاد الشام عن نفسها، فتظهر ولأوّل مرة ما يعرف

بدولة لبنان الكبير عام 1920م، وأيضاً تمكين اليهود من السّيطرة على فلسطين. كما نجحوا أيضاً في تمكين الدّول الحامية لهم من بسط نفوذها على المنطقة، خاصة فرنسا التي أصبحت مندوبة على لبنان عام 1920م.

وبظهور دولة لبنان الكبير أصبح للدول الغربية وخاصة فرنسا فئة موالية لهم تضمن مصالح الفرنسيين في لبنان، وتمكّنوا من ذلك من خلال إثارة الفتن والنّعرات الطائفية التي خلفت التّنّاحر والاقْتتال الطائفي الذي أدى في الأخير إلى فصل لبنان عن سوريا، والأكثر من ذلك ترسيخ الطائفية في المجتمع الشّامي.

وبالإضافة إلى جملة الآثار التي خلفتها الإرساليات التّبشيرية على بلاد الشّام، نجد شيوع الحضارة الغربية والتي تجلت أكثر بتكريس اللغة الفرنسية كلغة رسمية في لبنان، وهذا ما يثبت لنا تفوق الإرساليات التّبشيرية الكاثوليكية على غيرها من الإرساليات، فهي قد توصلت في الأخير إلى تحقيق معظم أهدافها من إيجاد فئة موالية لها في المنطقة تبنت استخدام اللغة الفرنسية في البلاد.

أما عن الإرساليات التّبشيرية البروتستانتية، فكان نجاحها يتجلى في خلق طائفة دينية جديدة تمثلت في وجود المذهب البروتستانتي الذي لم يكن متواجداً قبل هذه الفترة في بلاد الشّام.

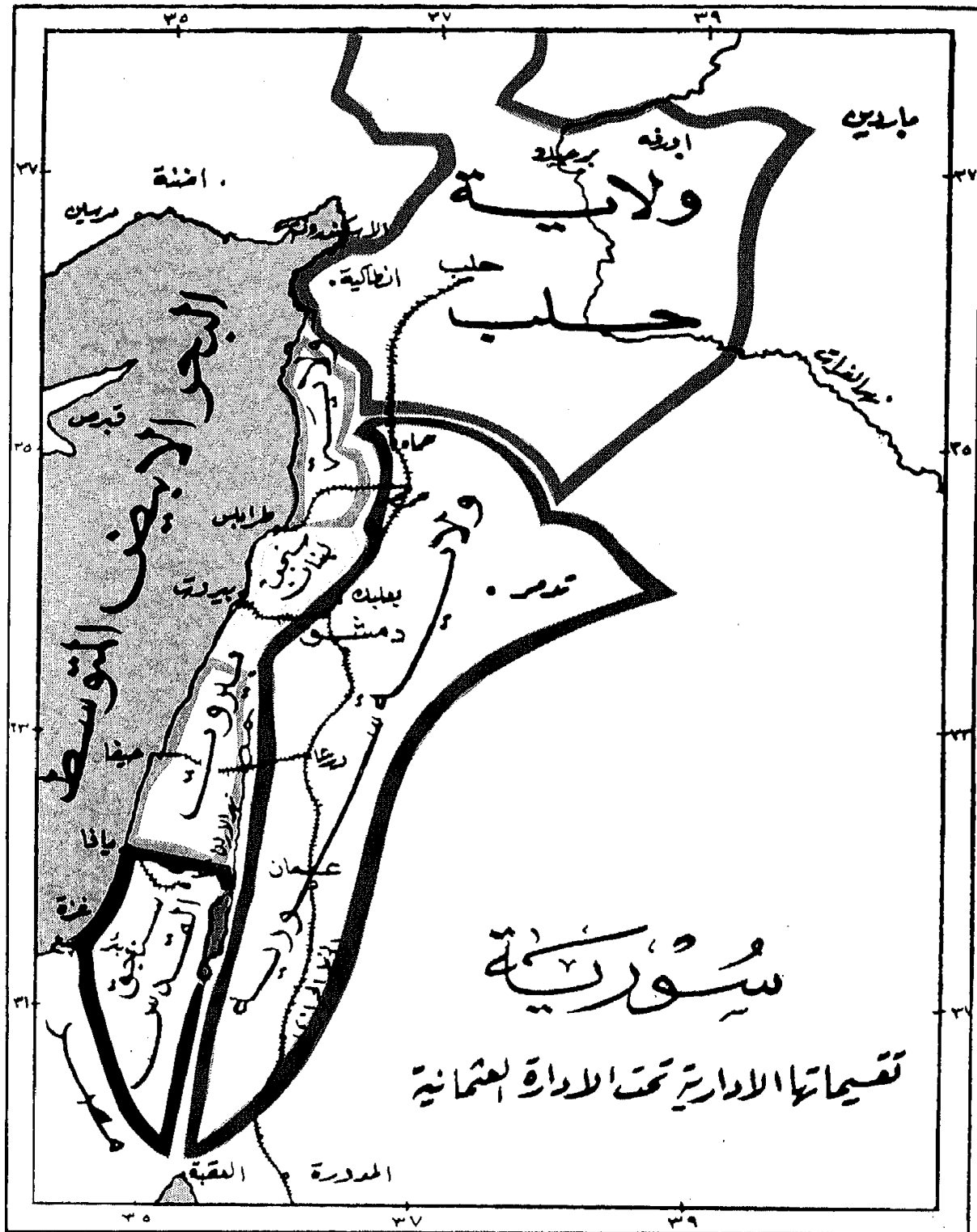
ورغم ذلك لا يكمن انكار الآثار الايجابية التي خلفتها الإرساليات التّبشيرية، خاصة في مجال التّعليم الذي خلق نهضة واسعة في المجتمع الشّامي ومن ورائه المجتمع العربي. فالملاحظة التي يجب أن ننوه بها، هو أنّ المدارس التّبشيرية ومن ورائها الإرساليات، ساهمت في تنوير الوعي العربي المتعّش إلى الاطلاع والاستفادة، وذلك نتيجة الاحتكاك المباشر بالأمة الغربية عن طريق المدارس والتّعليم، مما ساهم بدوره في انتعاش اللغة العربية وحركة الطباعة والترجمة والنّسخ والتّأليف، وظهور كوكبة شامية متتورة كان لها صدى فعال

في تاريخ النهضة العربية، خاصة في بلاد الشام مثل: بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق وغيرهما.

وخلاصة القول، أن التّشّير ما كان له لينجح داخل الدّولة العثمانية بصفة عامة وبلاد الشام بصفة خاصة لو لا الرّعاية السّياسية التي وجدها من قبل الدّول الغربية التي جعلته كممهد لسياستها الاستعمارية في البلاد العربية.

الملاحق

ملحق رقم 1: خريطة إدارية لبلاد الشام خلال الحكم العثماني



أنطونيوس: مرجع سابق، ص 271.

ملحق رقم 2: صورة للمبشر البروتستانتى الأمريكى إيلي سميث.



الدكتور علي سميث
مؤسس مجلة «مجموع فوائد»

دي طرازي: مرجع سابق، ج 1، ص 54.

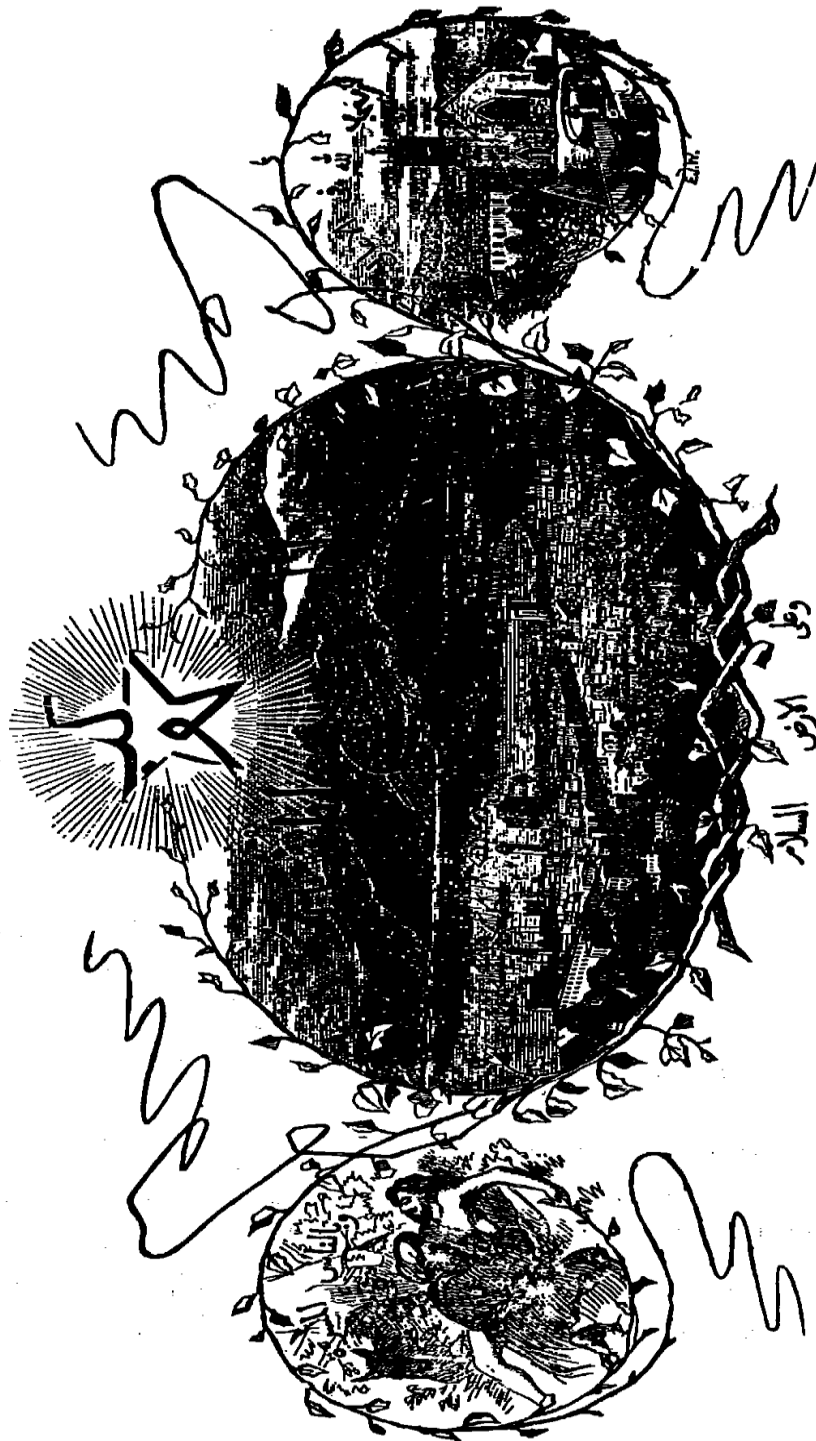
ملحق رقم 3: صورة للمبشر البروتستانتي الأمريكي كرنيليوس فان ديك



✱ الدكتور كرنيليوس فانديك ✱

دي طرازي: مرجع سابق، ج 1، ص 144.

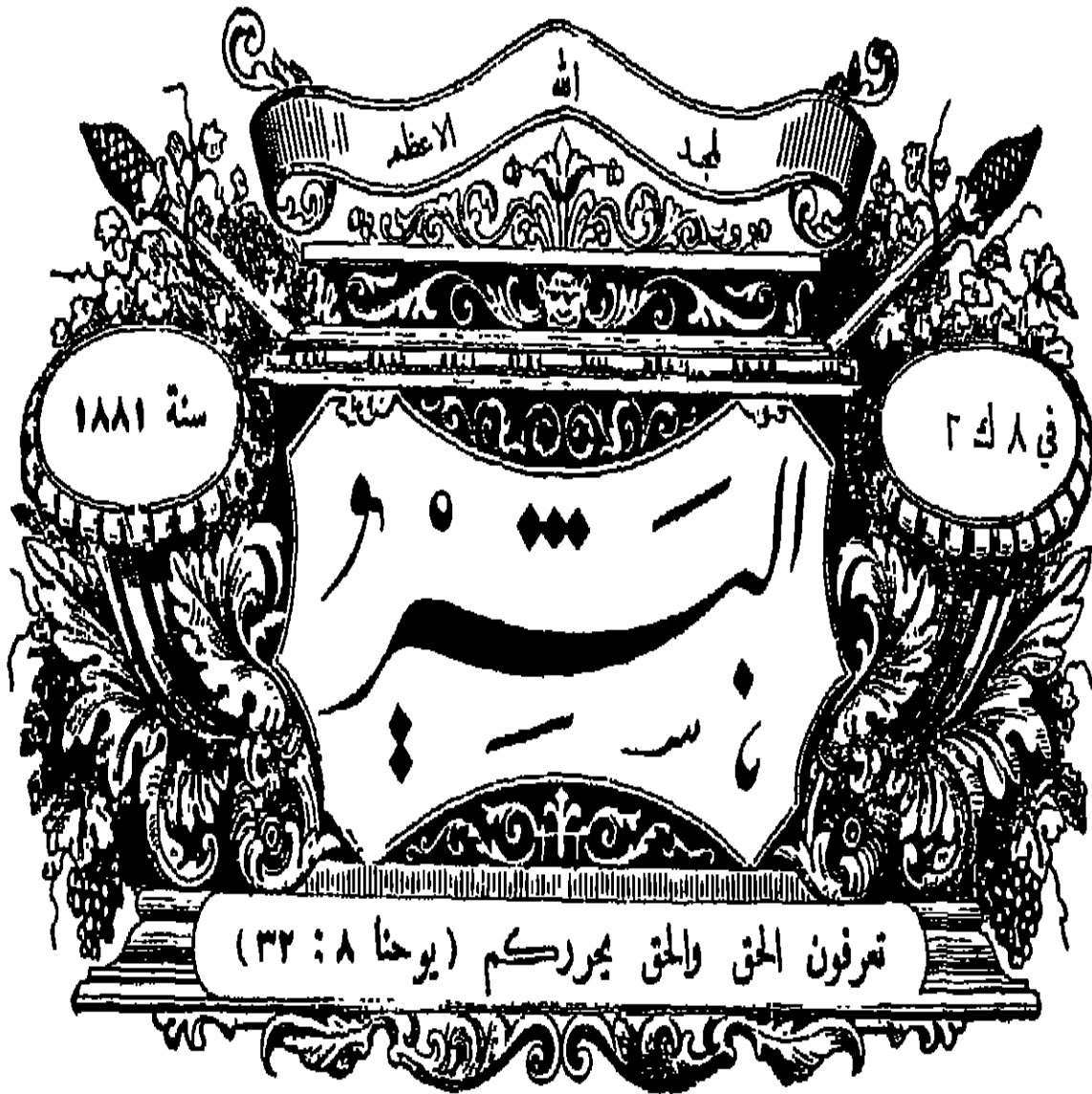
ملحق رقم 4: صورة لشعار جريد كوكب الصبح المنير للمرسلين الأمريكيين



رسم عنوان جريدة «كوكب الصبح المنير» للمرسلين الأمريكيين

دي طرازي: مرجع سابق، ج 2، ص 19.

ملحق رقم 5: صورة لشعار جريد المبشر للأباء اليسوعيين



رسم عنوان البشير في أوائل عهده

دي طرازي: مرجع سابق، ج 2، ص 12.

ملحق رقم 6: صورة للأباء المبشرين اليسوعيين الجزويت في حلب



Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

Jésuites d'Alep.Source gallica.bnf.fr./ Bibliothèque nationale de France

بيليو غرافيا

قائمة المصادر العربية

- 1-القران الكريم
- 2-بازيلي، قسطنطين: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، تر: طارق معصراني، دار
التقدم ، د ط، موسكو، 1989م.
- 3-الدويهي، اسفهان: تاريخ الأزمنة، تح: الاباتي بطرس فهد، المكتبة الفاتيكانية، منشورات
لحد خاطر، ط 3، بيروت، لبنان، د س ن.
- 4-دي طرازي، فليب: تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية، د ط، ج 1، ج 2، بيروت،
1913م.
- 5-زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، مر وتغ: شوقي ضيف، دار الهلال، د ط، د
م ن، د س ن.
- 6-زيدان، جرجي: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مؤسسة هنداوي للتعليم
والثقافة، د ط، ج 1، ج 2، القاهرة، د س ن.
- 7-شاتليه، ا. ل: الغارة على العالم الاسلامي، تر: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب،
منشورات العصر الحديث، ط 2، جدة، 1387هـ.
- 8-كرد علي، محمد: خطط الشام، مكتبة النوري، ط 2، ج 4، ج 6، دمشق، د س ن.

قائمة المراجع العربية

- 1-إبراهيم، أحمد خليل: المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، مكتبة
الوعي العربي، د ط، د م ن، 1964م.
- 2-الأبياري، فتحي: الصهيونية، دار المعارف، د ط، القاهرة، 1977م.
- 3-أحمد ياغي، اسماعيل وشاكر، محمود: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر
987هـ - 1400هـ / 1492م - 1980م، دار المريخ للنشر، د ط، ج 1، المملكة
العربية السعودية.

- 4- أحمد، عبد الوهاب: **حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر**، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 2001م.
- 5- أرسلان، الأمير شبيب: **سيرة ذاتية**، جم وتحر: سوسن النجار نعم، دار التقديمية، ط 1، لبنان، 2008م.
- 6- إميل، توما: **تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث**، دار الفرابي دار الآداب والفنون، ج 1، بيروت، 1979م.
- 7- أمين، الريحاني: **ملوك العرب**، دار الجبل، د ط، بيروت، ج 1، د ت ن، ص 17.
- 8- انطونيوس، جورج: **يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية**، تق: نبيه امين فارس، تر: ناصر الدين الاسد واحسان عباس، دار العلم للملايين، ط 8، بيروت، 1987م.
- 9- أوزتونا، يلماز: **تاريخ الدولة العثمانية**، تر: عدنان محمود سلمان، مر: محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، مج 1، تركيا، استانبول، 1988م.
- 10- أوزدمير، حسين: **فلسطين في العهد العثماني وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني**، تر: وليد عبد الله القط، دار النيل للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1434هـ / 2013م.
- 11- بروكلمان، كارل: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط 5، بيروت، 1973م.
- 12- بقطاش، خديجة: **الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 - 1870**، دحلب، د ط، الجزائر، د س ن.
- 13- بن إبراهيم العسكر، عبد العزيز: **التنصير في الخليج العربي**، الدار العربية للموسوعات، مكتبة الملك فهد الوطنية، د ط، الرياض، 1427هـ / 2007م.
- 14- بن عبد الله، ابو زيد بكر: **المدارس العالمية الأجنبية - الاستعمارية تاريخها ومخاطرها**، دار ابن حزم، ط 1، القاهرة، 2006م.

- 15- بن محمود السقار، منقذ: الاستعمار في العصر الحديث ودوافعه الدينية، د ط، مكة المكرمة، 1427هـ.
- 16- بن ناصر الشثري، محمد: التنصير في البلاد الإسلامية، أهدافه - ميادينه - آثاره، دار الحبيب، ط1، الرياض، 1418هـ / 1998م.
- 17- البهي محمد: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط 3، القاهرة، مارس 1961م.
- 18- البهي، محمد: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، مطبعة الأزهر، د ط، د م ن، د س ن.
- 19- بيات، فاضل: الدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا - مطلع العهد العثماني - أواسط القرن التاسع عشر)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت - لبنان، 2007م.
- 20- بيات، فاضل: المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني دراسة تاريخية إحصائية، في ضوء الوثائق العثمانية، تق: خالد أرن، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 2013م.
- 21- بيوض وآخرون، جميل: تاريخ العرب الحديث، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط 1، د م ن، 1991م.
- 22- الجندي، أنور: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، دار الأنصار، مج 5، مصر، 1983م.
- 23- جواد العزاوي، قيس: الدولة العثمانية قراءة جديد لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، ط 2، بيروت، 2003م.
- 24- جوزيف صقر: قصة وتاريخ الحضارات العربية، ط 2، د م ن، بيروت، ج 2، 1999م.

- 25- حامد إبراهيم القضاة، أحمد: نصارى القدس دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2007م.
- 26- حبنكة الميداني، عبد الرحمان: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير - الاستشراق - الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه، دار القلم، ط 8، دمشق، 2000م.
- 27- حتي، فليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر: كمال اليازجي، مر- تح: جبرائيل جبور، دار الثقافة، د ط، ج 2، بيروت، 1959م.
- 28- حنا، عبد الله: حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن والتاسع عشر، نموذج لحياة المدن في ظل الإقطاعية الشرقية، دار ابن خلدون، ط1، لبنان، 1985م.
- 29- حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة 1798 - 1939، دار النهار للنشر، د ط، بيروت، د س ن.
- 30- حيدر، ناصر: العلم العربي بين القومية العربية والجامعة الإسلامية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، عين مليلة، الجزائر، 2014م.
- 31- الخالدي، محمد فاروق: المؤامرة الكبرى على بلاد الشام (دراسة تحليلية للنصف الأول من القرن العشرين)، دار الراوي للنشر والتوزيع، ط1، المملكة العربية السعودية، 1421هـ - 2000م.
- 32- خالدي، مصطفى وفروخ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي الى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي، منشورات المكتبة العصرية، د ط، صيدا بيروت، 1953م.
- 33- خلف التميمي، عبد المالك: التبشير في منطقة الخليج العربي، دار الشباب، ط2، قبرص، ومؤسسة الكميل الكويت، 1988م.
- 34- خوري، اميل واسماعيل، عادل: السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 الى سنة 1958، دار النشر للسياسة والتاريخ، د ط، ج 2، ج 3، بيروت، 1960 - 1961م.

- 35- الدوري، عبد العزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 4، لبنان، 2003م.
- 36- رافق، عبد الكريم: العرب والعثمانيون 1516 - 1916، مكتبة أطلس، د ط، دمشق، 1974م.
- 37- الرفاعي، عبد العزيز وإبراهيم، عبد العال: دراسات في الشرق الأوسط، مكتبة النهضة المصرية، د ط، القاهرة، د س ن.
- 38- رياض نجيب الريس: لبنان تاريخ مسكوت عنه، ط 1، د م ن، 2001م.
- 39- ريمون، أندريه: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تر: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 1991م.
- 40- سعد أبو جابر، رؤوف: الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت، 2010م.
- 41- سعد الدين البساطي، أحمد: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، دار أبو المجد للطباعة بالهرم، د ط، د م ن، 1989م.
- 42- سعد الغالبي، سلوى: العلاقات العثمانية الأمريكية (1830 - 1918م/1246-1337هـ)، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، 2002م.
- 43- السعيد حبيب، كمال: الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة الأموية وحتى نهاية الدولة العثمانية (622م - 1908م) (1هـ - 1325هـ)، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، 2002م.
- 44- سلامة عبد المالك، سلمان: أضواء على التبشير والمبشرين، مطبعة الأمانة، ط 1، مصر، 1994م.
- 45- السليمان الجبهان، محمد: حقائق عن التبشير والنصرانية، د ط، الرياض، د س ن.
- 46- سليمان الصليبي، كمال: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ط 7، بيروت، 1991م.

- 47- سهيل طقوش، محمد: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، ط 3، بيروت 1434هـ / 2013م.
- 48- سيار، جميل: تكوين العرب الحديث، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1997م.
- 49- السيد الجليند، محمد: الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، مصر، 1999م.
- 50- السيد صالح، سعد الدين: احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، مكتبة الصحابة، ط1، الإمارات الشارقة، 1998م.
- 51- الشقيري، مصطفى: ماذا تريد الصليبية الحديثة؟، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط 1، القاهرة، 2003م.
- 52- شلبي، عبد الجليل: الإرساليات التبشيرية كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها، منشأة المعارف، د ط، الاسكندرية، د س ن.
- 53- شلبي، كرم: الإذاعات التنصيرية الموجهة الى المسلمين العرب، مكتبة التراث الإسلامي، ط 1، مصر، 1991م.
- 54- الشيخ حيدر، عبير: السياسة الألمانية تجاه القضية الفلسطينية وأطورها (1949 - 2008م)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، د ط، دمشق، 2012م.
- 55- صايغ، انيس: لبنان الطائفي، دار الصراع الفكري، د ط، بيروت، 1955م.
- 56- الصباغ، ليلي: الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر " العاشر والحادي عشر الهجريين"، مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 2، بيروت، 1989م.
- 57- طالب الخزايلة، ياسر: دور الإدارة الأمريكية والقوى الغربية في لبنان (1943 - 1961) دراسة تحليلية للأزمات اللبنانية في ضوء وثائق تكشف عنها لأول مرة، دار الخليج، ط1، الأردن، 2012م.

- 58- طربين، أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، المطبعة الجديدة، د ط، دمشق، 1985 - 1986م.
- 59- طعيمة، صابر: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي بحوث حول العقائد الوافدة، عالم الكتب، د ط، د م ن، 1404هـ.
- 60- العارف، عارف: تاريخ القدس، دار المعارف، د ط، مصر، د س ن.
- 61- العارف، عارف: تاريخ غزة، الناشر أضواء السلف، د ط، القدس، د س ن.
- 62- عبد الرحمان، محمود: التنصير والاستغلال السياسي، دار النفائس، ط 1، بيروت، 2009م.
- 63- عبد الرزاق عيسى، عبد الرزاق: التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834 - 1914، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، 2005م.
- 64- عبد العزيز عمر، عمر: تاريخ المشرق العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د ط، بيروت، د س ن.
- 65- عبد العزيز عمر، عمر: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815 - 1919، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، 2000م.
- 66- عبد العزيز عمر، عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، د ط، مصر، 2005م.
- 67- عبد القادر، محمد الخير: نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية دراسة للقضية العربية في خمسين عاما 1875م/ 1925م، مكتبة وهبة، ط 1، مصر، 1985م.
- 68- عبد الله عودة، محمد وياسين، الخطيب إبراهيم: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، د ط، عمان، 1989م.
- 69- عبد المنعم شعيب، علي: الصراع الإيطالي - الفرنسي على بلاد الشام 1860 - 1941، دار الفرابي، بيروت، ط 1، 2002م.
- 70- عبد فتوني، علي: تاريخ لبنان الطائفي، دار الفرابي، بيروت، ط 1، 2013م.

- 71- عتريسي، طلال: البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان دراسة وثائقية تاريخية، الوكالة العالمية للتوزيع، ط 1، د م ن، 1987م.
- 72- عزوي، محمد الطاهر: الغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي، دار الهدى، د ط، ميلة الجزائر، 1999م.
- 73- علي برو، توفيق: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908 - 1914م، دار الهناء للطباعة، د م ن، 1960م.
- 74- عمر عبد العزيز، عمر: في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، د ط، مصر، 2005م.
- 75- عميرة، عبد الرحمان: الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، دار الجيل، د ط، بيروت، د س ن.
- 76- العودات، حسين: العرب النصارى عرض تاريخي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، دمشق، 1992م.
- 77- غربي، الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288-1916، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، 2007م.
- 78- غليون، برهان: المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، د ط، دار الطليعة، بيروت، 1979م.
- 79- فريد بك المحامي، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس، ط 1، بيروت، 1981م.
- 80- كاصد الزيدي، وليد: سياسة فرنسا الثقافية دراسة حالة لبنان 1959 - 1986، منتدى المعارف، ط 1، بيروت، 2013م.
- 81- كافوري، م: نشأة الصهيونية وأثارها الاجتماعية، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة، 2002م.

- 82- كامل، مصطفى: **المسألة الشرقية**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، مصر، 2012م.
- 83- كساب، أكرم: **التنصير مفهومه جذوره، أهدافه، أنواعه، وسائله، صولاته، مركز التنوير الإسلامي**، د ط، القاهرة، د س ن.
- 84- الكيالي، عبد الوهاب: **تاريخ فلسطين الحديث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1970م.
- 85- المحافظة، علي: **الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798- 1914** **الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع**، ط 5، بيروت، 1987م.
- 86- محروس اسماعيل، حلمي: **تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني الى نهاية الحرب العالمية الأولى**، مؤسسة شباب الجامعة، د ط، الاسكندرية، 1997م.
- 87- محمد ابراهيم، مفيدة: **عصر النهضة العربية بين الحقيقة والوهم**، دار مجدلاوي للنشر، ط 1، عمان، الأردن، 1999م.
- 88- محمد الشناوي، عبد العزيز: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها**، مكتبة الانجلو المصرية، ج 1 ج 2، القاهرة، 2004م.
- 89- محمد شبارو، عصام: **تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين**، دار مصباح الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، بيروت، 1987م.
- 90- محمد عوض، عبد العزيز: **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864 - 1914م**، تق: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعرف، د ط، مصر، د س ن.
- 91- محمد نعيم، خالد: **الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر "دراسة وثائقية"**، نشر كتاب المختار، د ط، القاهرة، د س ن.
- 92- مرعب مصطفى، خالد: **قضايا لبنانية وعربية معصرة**، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، 2010م.

- 93- معطي، علي: تاريخ لبنان السياسي والاجتماعي- دراسة في العلاقات العربية التركية 1908-1918م، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط 1، بيروت، 1992م.
- 94- مؤنس، حسين: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، ط2، القاهرة، 1938م.
- 95- الناصر رائسي، إدريس: العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، 2007م.
- 96- نمير طه، ياسين: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الفكر، ط1، المملكة الهاشمية الأردنية، 2010م.
- 97- نوار، عبد العزيز وآخرون: المجتمع الغربي والقضية الفلسطينية، دار النهضة العربية، ط 1، بيروت، 1981م.
- 98- هامسلي لونغريغ، ستيفن: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، تر، بيار عقل، دار الحقيقة، د ط، بيروت، د س ن.
- 99- يحي، جلال: المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، دار المعارف، د ط، مصر، 1965م.

قائمة المعاجم

- 1- الزركشي، خير الدين: الأعلام، دار الملايين، د ط، بيروت، ج 8، 1986م.
- 2- صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، د ط، الرياض، 2000م.
- 3- عبد الكريم الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1996م.
- 4- كحالة عمر، رضا: معجم المؤلفين تراجم مصنف الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، د ط، ج 1، ج 2، دمشق، 1957م.

- 5- لكل، عبد الحفيظ: الحديث في شرح المصطلحات التاريخية (سياسية- اقتصادية - اجتماعية)، دار الحديث للكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، الجزائر، 2004م.

قائمة المجلات العربية

- 1- ابراهيم حسن، ابراهيم: « التنصير الغربي وأثره على الاسلام ودعوته - دراسة دعوية تحليلية»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الاسلامية، ع 55، ربيع الثاني 1433هـ.
- 2- هياجنة عبد الرحمان، ايمان وحنان، سليمان ملكاوي: «التبشير الفرنسي الكاثوليكي في ولاية الاناضول في القرن التاسع عشر (النشاط التعليمي نموذجاً)»، مجلة دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، مج 41، ملحق 2، 2014م.
- 3- الصائغ بان غانم، أحمد: «سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية (1839 - 1914م) دراسة تاريخية»، مجلة التربية والعلم، ع 5، مج 19، 2012م.
- 4- جابر، قميحة: «أثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم»، مجلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة العاشرة، ع 116، 1412هـ - 1991م.
- 5- جواد كاظم، نصر الله وشهيد، كريم الكعبي: «الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية لقاء الاستشراق والتبشير»، مجلة دراسات استشرافية، ع 4، ربيع 2015م.
- 6- جلول، فيصل: «عشر سنوات على الحرب الأهلية في لبنان، محاولة تحديد دور العناصر الخارجية في الأزمة اللبنانية»، مجلة السياسة الدولية، ع 82، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، د س ن.
- 7- حبيب محمود، صالح: «البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية وفلسطين) 1840 - 1914م»، مجلة دراسات تاريخية، ع 65 - 66، ايلول - كانون أول، 1998م.

- 8- سعيد اسماعيل، سعيد: «الفكر التربوي العربي الحديث»، عالم المعرفة، الكويت، ماي 1987م.
- 9- عتريسي، طلال: «السياسات الدينية للقوى الاستعمارية في البلاد الإسلامية»، مجلة دراسات استشرافية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ع 1، السنة الأولى، صيف 2014م.
- 10- بلو اسماعيل، عامر: «التعليم التبشيري الأمريكي في الموصل منذ اواخر العهد العثماني حتى عام 1932»، مجلة التربية والعلم، مركز دراسات الموصل، ع 2، مج 16، 2009م.
- 11- سنو، عبد الرؤوف: «العلاقات الروسية العثمانية (1687 - 1878) حرب القرم: مهادتها وتطوراتها ونتائجها (1853 - 1856) الحلقة الثالثة»، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت، ع 77 - 78، 1985م.
- 12- خالد رمضان الربيعي، عمار: «الانقسام الوطني اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (1920 - 1943)»، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، ع 16، حزيران، 2014م.
- 13- محمد إبراهيم الجنابي، ليث: «تغلغل الولايات المتحدة الأمريكية في بلاد الشام حتى 1920م»، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع 21، مج 7، حزيران 2015م.
- 14- محمد، أحمد: «الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876 - 1918)»، مجلة جامعة دمشق، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، ع الاول والثاني، مج 27، 2011م.
- 15- مفرح ظاهر الشمري، مشعل: «حركة التبشير الروسية الأرثوذكسية في القدس»، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، ع 7، أيار، 2012م.

- 16- رجب معد، صابر: «قراءة جديدة في الأسباب الحقيقية لضعف الدولة العثمانية من خلال الامتيازات الفرنسية والتوجه للمشرق العربي 1520 1798»، مجلة جامعة تكريت للعلوم، ع3، مج 20، آذار 2013م.
- 17- حسين علي الاسدي، ناهدة: «الإرساليات التبشيرية الأمريكية في العراق وموقف الدولة العثمانية»، مجلة السياسة والدولية، كلية الآداب الجامعة المستنصرية.
- 18- محيي طالب الجبوري، هيثم وزينب، حسن عبد الجبوري: «أثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر»، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية، مج 23، ع 3، 2015م.

الموسوعات:

- 1- الزيدي، مفيد: موسوعة التاريخ العربي المعاصر والحديث، دار أسامة للنشر والتوزيع، د ط، عمان، الأردن، ن.
- 2- أبو الخير حسن، عبد الحفيظ: الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، دار ابن الجوزي، د ط، ج 1، القاهرة، 2011م.
- 3- الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ج 3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990م.
- 4- المرعشلي، أحمد وآخرون: الموسوعة الفلسطينية، ط 1، ج 3، منشورات هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، 1984م.
- 5- الخوند، مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية، تص: شربل الخوند وآخرون، مؤسسة هانياد، د ط، ج 10، بيروت، د س ن.

الملتقيات والندوات:

- 1- أبو نهر، جوزيف: «المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني»، المؤتمر الدولي: خطاب الجماعات المسيحية في الشرق الأدنى في زمن التحولات، مركز الشرق المسيحي والمنشورات (CERPOC) جامعة القديس يوسف، 24 - 26 كانون الثاني 2013م.
- 2- زكي، مبارك: «الطب الاستعماري من عمل انساني الى أداة للتسرب الاستعماري السلمي»، أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمال بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007م.
- 3- عبد الوهاب حسن، حسن: «المحاولات التبشيرية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية»، هذا البحث قدم لمؤتمر تاريخ الأمة الإسلامية بين الموضوعية والتحيز، دار المعرفة الجامعية، د ط، الاسكندرية، 1989م.
- 4- سليم، سعاد: «مشكلة اللغة في المدارس الروسية في الشرق في أواخر القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين»، ندوة دراسية بعنوان روسيا وأرثوذكس الشرق، منشورات جامعة البلند، بيروت، 19 أكتوبر 1997م.

المحاضرات

- 1- نصيرات، فدوى: **المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر 1840 - 1918م**، محاضرة أقيمت بتاريخ 2010/4/12م في جامعة فيلادلفيا.

المذكرات والرسائل الجامعية:

- 1- إسماعيل غراب، عبد الفتاح: **العمل التصيري في العالم العربي، رصد لأهم مراحله التاريخية المعاصرة، ماجستير دعوة إسلامية، مكتبة البدر، د س ن.**

- 2- عاطف محمد الخضري، أمل: التنصير في فلسطين في العصر الحديث، بحث تكميلي
مقدم لنيل درجة الماجستير في العقيدة الإسلامية، اشراف: سعد عبد الله عاشور، كلية
اصول الدين، قسم العقيدة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1425هـ / 2004م.
- 3- بن خاطر عبد الرحمان البركي، هاشم: الدور التغريبي لبطرس البستاني في دائرة
المعارف العربية، (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير)، اشراف: عبد الله بن حسن بركات،
جامعة أم القرى، كلية الدعوة واصل الدين، قسم الدعوة والثقافة، تخصص الثقافة
الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
- 4- بن مسعود المالكي، ابراهيم: النشاط التنصيري في منطقة الخليج أهدافه وأبعاده وسبل
مقاومته، (بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة)، اشراف: يحي محمد ربيع، جامعة
أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، المملكة العربية السعودية، 1429هـ.
- 5- رحيم يوسف السامرائي، عبد الرؤوف: الدعوة الإسلامية في مواجهة التهويد والتنصير
وسبل النهوض بها، (رسالة تقدم بها الى المجلس كلية الإمام الأعظم وهي جزء من
متطلبات درجة الماجستير)، اشراف: عمر محمود السامرائي، رئاسة ديوان الوقف السني،
كلية الامام الاعظم الدراسات العليا، تخصص دعوة وخطابة، د س ن.
- 6- الشهري، عبد الرحمان: التبشير في بلاد الشام - لبنان - سوريا - فلسطين - الأردن،
(رسالة ماجستير)، إشراف: سعد أحمد، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الدعوة
والإعلام، قسم الدعوة، المملكة العربية السعودية، 1404هـ.
- 7- محمد سعيد درويش، ماهر: "هجرة الشوام الى مصر خلال النصف الثاني من القرن
التاسع عشر وبدايات القرن العشرين"، (بحث مقدم لاستكمال متطلبات درجة الماجستير
في التاريخ)، اشراف: بهجت صبري، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية،
نابلس، فلسطين، 2003م.

- 8- معاشي، جميلة: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر، (بحث تمهيدي لدخول السنة الأولى ماجستير)، اشراف: توفيق برو، معهد العلوم الاجتماعية، قسم الدراسات العليا، تاريخ، جامعة قسنطينة، 1981م - 1982م.
- 9- واعلي، محمد الطاهر: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 الى 1904م دراسة تاريخية تحليلية، (رسالة ماجستير في علوم التربية)، اشراف: تركي رابح، معهد علم النفس وعلوم التربية، جامعة الجزائر، 1988 - 1989م.

المقالات الإلكترونية

- 1- البخاري، محمد: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني (صفحات من تاريخ المشرق العربي في سياسة المصالح الخارجية للدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى)، ينظر: الموقع الإلكتروني: bukharimailru.bligspot.com ، السبت 04 أغسطس 2012م.
- 2- الجوهري، محمد: "علاقة التنصير بالصهيونية الغزو الفكري"، قسم الدعوة وأصول الدين، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية شاه علم، ماليزيا.

قائمة المصادر الأجنبية

- 1 .PAR J, DE HAMMER: Histoire L'EMPIRE OTTOMAN 1600-1623 .S .d, S. d, TOME HUITIEME, Paris.

قائمة المراجع الأجنبية

- 1- Gagnon, guillaume: la situation des arméniens ottomans d'anatolie orientale vue à travers les correspondances des missionnaires du american board of commissioners for foreign missions mémoire présenté comme exigence partielle de la maîtrise en histoire. université du québec à montréal avril 2008.

2-Sfeir, jihane: histoire de l'empire ottoman, S.d, S. E .d. 2014 – 2015.

قائمة المذكرات الأجنبية

1- Dogan, Mehmet Ali : american board of commissioners for foreign missions (abcfm) and “nominal christians”: elias riggs (1810-1901) and american missionary activities in the ottoman empire a dissertation submitted to the faculty of the university of utah in partial fulfillment of the requirements for the degree of.. doctor of philosophy in middle east studies/history . department of languages and literature the university of utah. may 2013.

قائمة المجلات الأجنبية

1- verdeil, Chantal, « unerévolution sociale dans la montagne » : la conversion des alaouites par les jésuites dans les années 1930. <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-0061562119> aug 2011.

2-devrim , ümitphd, «the american protestant missionary network in ottoman turkey, 1876-1914». *international journal of humanities and social science* vol. 4, no. 6(1); april 2014.

3- Paris, Edmond, Histoire secrete des jésuites. Editions I. P. B. Diffusion Fisch bascher 33, rue de Seine - paris 6ème.

4- Bischof , Franz Xaver: <http://www.hls-dhs-dss.ch/textes/f/F11718.php>© 1998-2019 DHS: tous les droits d'auteur de cette publication sont réservés au Dictionnaire historique de laSuisse, Berne. Les textes sursupport électroniques ont soumis aux memes règles que les textes imprimés, Droits d'utilisation et modalités de citation .

5- bocquet, Jérôme, «un exemple de minorité au levant à la fin de l'empire ottoman: les chrétiens du quartier de bâbtûma à damas», revue des mondes musulmans et de la méditerranée, N 107-110 . septembre 2005.

- 6- Sanchez-Summerer, «Karène: Pour Dieu et la Patrie, Formation des missionnaires français envoys au Levant (1880-1940), Le cas des frères des écoles chrétiennes», Open Edition journals, Edition électronique, 01 décembre 2015.
- 7-Le Liban Une identité complexe au risque de l'Histoire, 2019 CLIO voyages culturels, www.clio.fr.
- 8- Papaïliaki Chaire, Niki: *Christianisme orthodoxe* Conférences de Mme Chargée de conférences: La mission catholique française auprès des Grecs de l'Empire ottoman, xvii^e siècle, S. E, S.d.
- 9- Conrad, Philipe, «Le proche Orient sous mandats français et britannique», Historien rédacteur en chef de la nouvelle revue d'histoire ,février 2002.
- 10- Viénot , Pierre, Le mandat français sur le Levant, Politique étrangère, 21/04/2016.
- 11- Herzstein , Rafaél, «La France et le retour des jésuites au levant au sein de la communauté Journal d'étude des relations internationales au Moyen-Orient», Vol. 2, No.1 (janvier 2007).
- 12- Daccache , Salim, L'Univesité Saint- Joseph et ses trois Centenaires, en la fête de la Saint joseph , le mardi 19 mars 2013.

فهرس الأعلام

والأماكن

فهرس الأعلام

أ	
29	أبي شعيب محمد بن نصير النميري
118	أبو نوفل بن أبي نادر الماروني
-77 -40 -29 -16 -14 -13 -12 -11 -120 -83 -82 -81 -80 -79 -78 -224 -203 -182 -161 -160 -122 295 -194 -177	إبراهيم باشا
323	إبراهيم الحوراني
323 -322- 312 -251	إبراهيم اليازجي
27	أحمد باشا الجزار
222 -18	أحمد أرسلان
70	أحمد خان الأول
331 -312 -303 -296 -170	أحمد فارس الشدياق
305	اديب اسحاق
259	أراهارس
18 -17	أسعد باشا
298	أسعد طراد
311	أسعد شدودي
29 -13	اسماعيل بك
170	أسعد الشدياق
310	اسكندر الحريدي
291	أشيلي
137	ألكسندر الثاني
138	ألكسندر الثالث
271 -270 -16 -21	الأمير فيصل
234	أنا ميليفن
263	أنطوني بلوني
138	أنطونين

أوغوستا فكتوريا	105
ايراهاريس	255
ايفان الرابع	132
إيلي سميث	317 -250 -248 -246 -98 -95
ب	
بارفيري	144 -135 -134
بازيلي	219 -38 -15
بايزيد الثاني	36
برنارد جراف كابوجا	126
بشارة نقلا	305
بشارة زلزل	310
بشير قاسم	16 -14 -13
بشير الشهابي	256 -80 -15 -14 -13 -12
بطرس البستاني	-311 -304 -298 -297 -248 -237 331 -317 -315 -312
بطرس مبارك الفوسطاوي	118
بلانشيه	151 -121
بليني فسك	100 -97 -96 -95 -94 -93
بوين تومسن	242 -105
بواريه	276 -222-218 -207 -204 -203 -15
بوا نكاريه	198
بول إميل بوتاص	279
بول هوفلان	213
بيرد إسحاق	96 -95
ت	
تريزا	127
تشارلز ويليامسون	93
ج	
جامبتا	231

127 - 125	جان بابتيست دولاس
298	جبرائيل دلال الحلبي
70	جبريل درامون
311	جرجس باز
311	جرجس طنوس
317 - 306 - 299 - 299	جرجي زيدان
65	جريردي أولياك
311	جكسن
305 - 175	جمال الدين الأفغاني
96	جودل
310 - 304 - 304	جورج بوست
261	جورج فرنسيس بويهام بلايث
186	جوزيف
153	جوزيف فاليرغا
179	جون تاكلي
293	جون فان أس
113	جيروم
291	جيمس فين
ح	
24	الحاكم بأمر الله
173	حسن الأسير
221 - 18	حيدر أبي اللمع
298	حسين بيهم البيروتي
خ	
310	خليل حداد
302 - 301 - 299	خليل الخوري
304	خليل سرقيس
298 - 287	خليل اليازجي
د	

258 - 236 - 106 - 99	دانيال بلس
219	دوملواز
260	دي بيالا
106	دي فورست
121	ديكادونا
ر	
302	رزق الله حسون الحلبي
303	رشيد الدحداح
313	رشيد شكر الله
283	روبسون
109	روبنصن
295	روتشيلد
276 - 217 - 15	روز
286	روفائيل مشاقة
404	ريتشارد
275 - 217	رتشارد وود
201	ريلو
ز	
133	زافا لوج
210	زيفوس
س	
155	سبور
184	ستوارت دودج
184 - 178 - 40	ستيفن بنروز
283	سعيد بك جنبلاط
173	سلام الأسير
10	سليم الأول
217	سليم باشا

305	سليم تقلا
70	سليم الثاني
305	سليم حمودي باشا
313	سليم دياب
173	سليم سعد الدين
286	سليم عنحوري
313	سليم فريج
286 - 305	سليم النقاش
13	سليمان باشا الفرنسي
77 - 70 - 69 - 66	سليمان القانوني الأول
140	سيمون
ش	
70	شارل التاسع
186	الشاه عباس
298	شاكر شقير اللبناني
103	شبتلر الألماني
313 - 287	شبلي الشميل
29 - 12	شريف باشا
21	الشريف حسين
258 - 110	شكيب أرسلان
222 - 221 - 19	شكيب أفندي
132 - 104	شيك
ص	
58 - 9	صلاح الدين الأيوبي
181	صمويل زويمر
ظ	
120 - 27	ظاهر العمر
ع	
-304 - 300 - 175 - 165 - 140 - 75 - 74	عبد الحميد الثاني

323 -321 -305	
173	عبد الرحمان الأنسي
141	عبد العزيز
77	عبد الله باشا
283	عبد اللطيف صبحي
120	علي بك الكبير
283	علو باشا
162 -154 -74	عبد المجيد
299	عمر الأنيسي
222 -212 -17 -16	عمر باشا النمساوي
غ	
178	غارنر
117	غريغوري الخامس عشر
233 -121	غريغوريوس السادس عشر
189	غلادستون
105	غليوم الثاني
66	غليون بوستال
ف	
323 -317-305 -299 -288	فارس نمر
114 -76 -25	فخر الدين المعني
127	فرانس جوزيف
102	فردريك الرابع
182 -105	فردريك ويلهم
280	فرناند
299	فرناند أنجران
69	فرنسوا الأول
117	فرانسوا بيكه
112	فرنسيس الاسيسي
303	فرنسيس بورغاد

297	فرنسيس فتح الله مراش الحلبي
330	فرنك
104	فريدريخ أودلف ستراوس
102 - 105	فكتوريا
108	فوت
109	فورد بنتن
221	فون دي فكبيكير
38 - 44	فولني
133	فيشيناكوف
ق	
10	قانسوه الغوري
ك	
95 - 106 - 107 - 226 - 237 - 248 250 - 252 - 253 - 254 - 263 - 299 309 - 311 - 326	كارنيليوس فان ديك
132	كاكار
173	كامل قريطم
186	كانيلاك
109	كروفود الأمريكي
104	كلاين
214	كليبر
113 - 120	كليمنت الرابع عشر
313	كوزين ديبر
154	كيرك
135	كيرلس ناخومون
ل	
232	لافيجيري
199	لامارتين
21	اللنبي

191 - 189	لورانس
287	لوروا
197 - 61 - 60 - 59	لويس التاسع
72	لويس الخامس عشر
117	لويس الرابع عشر
306	لويس الصابونجي
192	ليفو نان فيري
93	ليفى بارسونز
251	ليولص
233	ليون الثالث
124	ليون الثالث عشر
138 - 137	ليونيد (كافلين)
م	
32	مارون
183 - 182	مايكل سولومون ألكسندر
222 - 212	مترنيخ
321 - 296	محمد أرسلان اللبناني
17	محمد باشا
24	محمد بن اسماعيل الدرزي
175	محمد سلطاني
-85 -82 -77 -47 -41 -15 -12 -11 -206 -204 -203 -202 -199 -98 291 -223 -217	محمد علي باشا
12	محمد علي شريف باشا
72	محمود الأول
174 - 172	مدحت باشا
17 - 16	مصطفى باشا
323 - 305 - 286	مكاربوس شاهين
133	مورافيون

330	موريس باريه
109	موط
291	مونتريري
312	ميخائيل أضاف
286	ميخائيل عبد السيد
133	ميليتي
281 - 192	مميز
ن	
198	نابليون الأول
19	نابليون الثالث
313	ناصر حليم
296	ناصريف المعلوم
-321 -317 -298 -296 -251 -248	ناصريف اليازجي
322	
298	نجيب الحداد
180	نلسون
154	نيقولا الأول
155 -146 -143 -142	نيكوديم
291 -290 -100 -96	نيكولايسن
ه	
258	هانز
121	هانز الألماني
192	هانوتو
294	هربرت صمويل
69	هنري الثاني
248 -207	هنري تشرشل
225 -152	هنري جب
263	هنري فان ديك
-275 -242 -211 -190 -184 -179	هنري هاريس جيب

فهرس الأعلام والأماكن

283	
180	هوارد بلس
و	
108	ولسن
324 - 323	وليم فاندريك
191	وليم الطرابلسي
227 - 107	وليم طمس
152	ويتج
ي	
199	اليانو
261	يتوفيلوس والدمير
323 - 317 - 305 - 299 - 288	يعقوب صروف
310 - 309 - 263	يوحنا ورتبات
265 - 105	يوحنا لودفيغ شنلر
276 - 275 - 223 - 204	يوسف حبيش
313	يوسف حجار
312	يوسف الدبس
304	يوسف الشلفون

فهرس الأماكن والبلدان

أ	
305 - 215 - 197 - 133	أدرنة
293 - 280 - 199 - 144 - 61	الأردن
94 - 93 - 91	أزمير
158 - 65 - 55	اسبانيا
-90 - 73 - 66 - 21 - 34 - 20 - 16 - 12	استانبول
-232 - 186 - 175 - 163 - 168 - 99 - 91	
322 - 304 - 284 - 262 - 233	
69	اسكتلندا
112 - 101 - 93 - 61 - 56	اسكندرية

أضنة	11 -12 -13 -144
اعزاز	11
إكسفر	65
ألمانيا	193 -211 -265
أمريكا	57 -65 -81 -87 -267 -270 -277 286 -290
إنجلترا	15 -65 -69 -71 -86 -96 -152 154 -201 -204 -206 -207 -210 218 -219 -249 -267 -276 -277 286
أنطاكية	281
إيطاليا	112 -113 -121 -130 -269 -281 -319
ب	
باريس	55 -65 -127 -296 -303 -327 -328
بتغرين	242
برلين	260
بروسيا	91 -102 -105 -183 -222 -244 -260 269
بريطانيا	13 -18 -19 -26 -36 -82 -84 -87 91 -102 -136 -151 -181 -182 194 -197 -199 -200 -205 -206 207 -214 -218 -219 -220 -222 223 -262 -269 -270 -275 -276 278 -279 -280 -281 -282 -283 290 -291 -292
بسكتا	242
بصر الحرير	169
بعلبك	23 -26 -27 -34 -45 -229 -247
البقاع	23 -26 -274
بكيفيا	121 -124 -229 -243

42	بلاد الجليل
11	بالس
111 -100 -93	بوسطن
143 -138 -135	بيت جالا
17	بيت الدين
126	بيت شباب
-134 -133 -127 -126 -125 -34 -33 -195 -189 -185 -181 -162 -142 -244 -215 -204 -203 -202 -197 262	بيت لحم
11	بيره جك
103	البيرة
103	بير الزيت
-16 -15 -14 -13 -12 -11 -10 -5 -35 -33 -27 -23 -21 -20 -18 -17 -61-57- 46 -43 -42 -40 -38 -36 -87 -82 -81 -80 -79-75-71-70 -106 -100 -99 -98 -97 -96 -95 -115 -114 -112 -110 -109 -107 -125 -123 -121 -120 -118 -116 -160 -152 -150 -149 -134 -130 -174 -173 -172 -169 -168 -161 -188 -184 -180 -177 -176 -175 -214 -213 -203 -202 -201 -196 -227 -223 -222 -221 -220 -218 -236 -235 -234 -233 -231 -229 -243 -242 -240 -239 -238 -237 -251 -249 -248 -247 -246 -244 -261 -259 -258 -254 -253 -252 -280 -270 -272 -271 -265 -264	بيروت

-300 -299 -298 -297 -292 -285 -311 -310 -309 -305 -304 -302 -318 -317 -316 -315 -313 -312 -327 -325 324 -323 -320 -319 331 -329	
ت	
11	تدمر
11	تركمان حلب
264 -229	تعنايل
ج	
12	جبال طورس
11	جبلة
27	جبل عامل
125 -18	جبيل
143	الجليل
125	جونية
ح	
261	الحازمية
228 -107	حاصبيا
114	الحبشة
11	حصن
-37 -35 -34 -20 -13 -12 -11 -10 -116 -114 -109 -102 -94 -46 -40 -171 -167 -123 -122 -119 -117 -243 -241 -229 -220 -195 -186 -302 -300 -297 -290 -279 -278 331 -326 -319 -318	حلب
-102 -45 -40 -39 -38 -25 -11 168 -145 -144	حماة
-102 -45 -40 -39 -34 -27 -25 -11	حمص

174 -172 -145 -144 -110	
173 -168 -39 -25 -24 -17	حوران
107	الحولة
-135 -127 -112 -103 -36 -33 -12	حيفا
211 -197 -140 -137 -136	
خ	
93	خيوس
241	خربوط
138 -102	الخليل
د	
169	درعة
-35 -34 -26 -23 -21 -20 -12 -11 -102 -44 -42 -41 -40 -39 -38 -36 -123 -122 -116 -114 -109 -103 -151 -145 -144 -136 -133 -127 -174 -173 -172 -169 -168 -160 -261 -229 -228 -227 -176 -175 -279 -278 -271 -270 -263 -262 -323 -317 -310 -286 -282 -281 324	دمشق
243 -125 -121 -120 -45 -16	دير القمر
ر	
229	رأس العين
141	راشيا
140 -103 -101	رام الله
137 -135 -126 -103 -45 -33	الرملة
9	الرها
-85 -84 -74 -73 -38 -34 -18 -15 -136 -135 -134 -133 -132 -92 -88 -144 -142 -141 -139 -138 -137	روسيا

-154 -152 -149 -148 -147 -145 -208 -205 -196 -194 -162 -155 -271 -242 -222 -220 -210 -209 283 -282 -281 -279 -278	
-115 -113 -85 -69 -65 -57 -55 -130 -129 -122 -121 -119 -117 283 -233 -195 -186	روما
ز	
-243 -229 -130 -124 -122 -121 278	زحلة
س	
133	السامرة
135	سردينيا
27 -11	سلمية
-20 -19 -16 -15 -13 -12 -10 -9 -6 -38 -35 -32 -28 -27 -24 -26 -21 -88 -81 -75 -61 -44 -42 -41 -40 -120 -113 -112 -110 -109 -89 -146 -145 -144 -136 -134 -122 -173 -169 -167 -164 -160 -147 -197 -196 -194 -186 -178 -176 -204 -203 -202 -200 -199 -198 -212 -217 -213 -209 -207 -205 -237 -236 -234 -232 -228 -223 -262 -261 -259 -249 -244 -241 -272 -271 -270 -269 -268 -267 -279 -278 -277 -276 -274 -273 -299 -297 -296 -285 -284 -281 -323 -318 -317 -315 -308 -304 332 -330 -328 -324	سوريا

سيناء	324 -133
ش	
الشام	-12 -11 -10 -9 -7 -6 -5 -4 -3 -2 -23 -22 -21 -20 -16 -15 -14 -13 -33 -32 -31 -30 -29 -27 -25 -24 -41 -40 -39 -38 -37 -36 -35 -34 -68 -58 -57 -51 -47 -45 -44 -43 -79 -78 -77 -76 -75 -72 -70 -69 -88 -86 -85 -84 -83 -82 -81 -80 -98 -97 -96 -95 -94 -93 -91 -89 -109 -108 -106 -105 -100 -99 -116 -115 -113 -112 -111 -110 -127 -125 -124 -122 -121 -120 -143 -142 -137 -132 -131 -130 -149 -148 -147 -146 -145 -144 -163 -162 -161 -160 -157 -150 -175 -174 -172 -171 -169 -167 -183 -182 -181 -179 -178 -176 -191 -190 -188 -186 -185 -184 -197 -196 -195 -194 -193 -192 -203 -202 -201 -200 -199 -198 -209 -208 -207 -206 -205 -204 -215 -214 -213 -212 -211 -210 -223 -220 -219 -218 -217 -216 -230 -229 -228 -227 -226 -224 -242 -239 -236 -234 -233 -232 -251 -250 -248 -274 -246 -245 -261 -260 -259 -255 -254 -252 -271 -269 -268 -267 -266 -263 -280 -279 -276 -275 -274 -273

-288 -286 -285 -284 -283 -282 -300 -299 -297 -295 -291 -290 -309 -308 -307 -306 -302 -301 -318 -317 -316 -315 -314 -312 -324 -323 -322 -321 -320 -319 -331 -330 -329 -328 -327 -326 334 -333 -332	
11	الشوبك
ص	
229 -42 -36 -11	صفد
-142 -136 -128 -116 -107 -42 -12 272 -264 -243 -229	صور
-42 -36 -27 -18 -14 -13 -12 -11 -114 -108 -107 -87 -78 -76 -45 -151 -125 -121 -120 -119 -116 -243 -241 -229 -220 -218 -186 -282 -272 -265 -264 -261 -247 324 -323 -313	صيدا
ط	
36	طبرية
-35 -34 -25 -23 -13 -12 -11 -9 -118 -116 -114 -108 -45 -43 -40 -195 -174 -142 -126 -123 -119 -312 -274 -263 -260 -241 -238 324 -323 -318 -313	طرابلس
241	طرسوس
55	طليطلة
ع	
-236 -227 -175 -171 -107 -106 242 -238 -237	عبية

عدلب	110
العراق	239 -114
عكا	-34 -33 -27 -23 -13 -12 -11 -9 195 -168 -107 -103 -77 -45
عكار	23
علجون	11
عمان	264
عمشيت	125
عينتاب	240
عين طورة	-124 -123 -119 -118 -116 -114 331 -226 -215
عين كارم	138 -33
غ	
غزة	-133 -104 -103 -45 -33 -12 -11 261 -260 -259
غزير	-314 -231-228-227-226 -123 -121 330
ف	
فارس	198 -187 -119 -114
فرنسا	-38 -32 -31 -26 -19 -18 -15 -13 -69 -65 -61 -60 -59 -51 -43 -42 -92 -88 -84 -83 -82 -72 -71 -70 -118 -117 -116 -115 -114 -113 -126 -124 -123 -122 -121 -119 -136 -131 -130 -129 -128 -127 -152 -151 -150 -149 -148 -147 -192 -168 -161 -158 -154 -153 -198 -197 -196 -195 -194 -193 -204 -203 -202 -201 -200 -199 -218 -212 -211 -208-207-205

-227 -226 -222 -221 -220 -219 -260 -253 -246 -233 -232 -231 -273 -272 -271 -270 -269 -267 -279 -278 -277 -276 -275 -274 -305 -303 -285 -284 -281 -280 -303 -329 -328 -327 -325 -306	
-26 -23 -21 -15 -12 -11 -10 -9 -6 -102 -88 -73 -61 -36 -34 -33 -27 -112 -111 -110 -105 -104 -103 -129 -128 -127 -126 -118 -114 -136 -134 -133 -132 -131 -130 -145 -144 -143 -142 -141 -139 -154 -153 -149 -148 -147 -146 -182 -181 -171 -157 -156 -155 -217 -212 -210 -198 -195 -191 -259 243 -249 -240 -235 -228 -279 -265 -264 -262 -263 -260 -293 -292 -291 -290 -289 -287 328 -327 -321 -304 -292	فلسطين
ق	
228	القاع
-305 -300 -299 -213 -189 -180 322	القاهرة
160 -114	قبرص
-35 -34 -33 -32 -20 -12 -11 -9 -6 -78 -74 -73 -72 -58 -51 -50 -36 -103 -102 -101 -100 -94 -85 -79 -128 -127 -126 -125 -105 -104 -135 -134 -133 -132 -130 -129 -142 -141 -140 -138 -137 -136	القدس

-153 -152 -148 -147 -146 -143 -169 -167 -161 -156 -155 -154 -181 -178 -175 -174 -172 -171 -219 -213 -209 -208 -207 -191 -279 -264 -261 -260 -259 -245 326 -304 -293 -292 -290	
12	قونية
ك	
168 -11	كرك
313 -106	كفر شيما
228	كسارة
142 -121 -119 -118 -114	كسروان
11	كلس
141	الكورة
ل	
220 -116 -109 -34 -29 -28 -11	اللاذقية
-15 -14 -13 -12 -11 -10 -9 -6 -5 -24 -23 -21 -20 -19 -18 -17 -16 -43 -42 -41 -40 -32 -28 -26 -25 -80 -77 -76 -75 -71 -61 -46 -45 -107 -106 -97 -93 -83 -82 -81 -119 -118 -117 -115 -114 -108 -125 -124 -123 -122 -121 -120 -149 -147 -145 -144 -141 -134 -171 -169 -168 -162 -160 -152 -194 -189 -179 -178 -175 -172 -201 -200 -198 -197 -196 -195 -211 -209 -206 -204 -203 -202 -220 -219 -218 -217 -216 -213 -229 -228 -226 -225 -222 -221	لبنان

-239 -237 -236 -233 -232 -230 -258 -253 -246 -245 -242 -240 -272 -271 -270 -269 -268 -267 -278 -277 -276 -275 -274 -273 -291 -286 -285 -284 -283 -280 -304 -302 -300 -298 -296 -295 -323 -314 -313 -312 -308 -305 -329 -328 -327 -326 -325 -324 332 -330	
11	اللجون
160	لارنقا
-217 -204 -195 -104 -103 -102 362 -236	لندن
267 -262 -233 -197 -124	ليون
م	
36	ماردين
-111 -102 -98 -97 -96 -95 -94 280 -119	مالطة
141	المتن
141	مرجعيون
305 -267 -262 -127	مرسيليا
240	مرعش
97	مسورة
-26 -24 -22 -16 -13 -12 -11 -9 -59 -52 -51 -44 -43 -42 -38 -31 -93 -88 -85 -83 -77 -71 -69 -68 -142 -123 -125 -114 -105 -95 -201 -199 -188 -186 -175 -173 -236 -232 -216 -214 -210 -203 -296 -294 -287 -286 -248 -247	مصر

-306 -305 -302 -300 -299 -298 323 -317 -308 -307	
11	معرة النعمان
11	منبج
59	المنصورة
ن	
-260 -259 -167 -141 -103 -78 -11 287 -279 -261	نابلس
-128 -127 -126 -125 -103 -34 -33 -143 -142 -140 -138 -137 -135 264 -262 -242	الناصره
-218 -127 -122 -121 -72 -18 -15 280 -269 -222 -221 -220	النمسا
هـ	
205 -119	الهند
71	هولندا
و	
24	وادي التيم
32	واد نهر العاصي
-207 -161 -160 -101 -99 -92 -91 293 -280 -231 -216 -210 -209	الولايات المتحدة الأمريكية
ي	
-128 -127 -117-36 -15 -13 -12 -197 -174 -171 -140 -137 -135 265 -244 -211	يافا
269 -169 -161 -162 -85	اليونان

فهرس الموضوعات

الصفحة	فهرس الموضوعات
	▪ الإهداء ▪ شكر وعرفان ▪ قائمة المختصرات ▪ مقدمة
7 - 2	
88 - 08	الباب الاول: أوضاع بلاد الشام في بداية القرن 19م وعوامل ظهور التبشير
47 - 9	الفصل الأول: أوضاع بلاد الشام في مستهل القرن 19م
21 - 9	1- سياسيا وإداريا
44 - 22	2- اجتماعيا واقتصاديا
47 - 44	3- ثقافيا
88 - 48	الفصل الثاني: عوامل ظهور التبشير في بلاد الشام
57 - 48	1 - تعريف التبشير
89 - 58	2 - عوامل ظهور التبشير
63 - 58	أ - فشل الحروب الصليبية وظهور فكرة التبشير
69 - 64	ب - الاستشراق
77 - 69	ج - الامتيازات الأجنبية
83 - 77	د - سياسة ابراهيم باشا بن محمد علي في الشام (1831 - 1840م)

89 - 83	ه - ضعف الدولة العثمانية.
179 - 90	الباب الثاني: الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام وموقف العثمانيين وأهل الشام منها
176 - 90	الفصل الأول- أهم الإرساليات التبشيرية
111 - 91	1 - الإرساليات التبشيرية البروتستانتية
131- 111	2 - الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية
147 - 132	3 - الإرساليات التبشيرية الأرثوذكسية
176- 148	الفصل الثاني: علاقتها فيما بينها وموقف العثمانيين وأهل الشام منها
156- 148	1 - طبيعة العلاقة بين الإرساليات التبشيرية
169- 157	2 - موقف العثمانيين
157- 149	3 - موقف أهل الشام
265 - 177	الباب الثالث: أهداف الإرساليات التبشيرية ووسائلها المستخدمة في بلاد الشام
215- 178	الفصل الأول: أهداف الإرساليات التبشيرية
185-178	1- التنصير وتحويل عقائد السكان
193 - 186	2- القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية واسترجاع الأراضي المقدسة
212 - 193	3- بسط نفوذ دولها على بلاد الشام
215 - 212	4- خلق فئة موالية للغرب في البلاد الشامية
265 - 216	الفصل الثاني: وسائل التبشير

222 - 216	1 - استعمال السياسة في التبشير
244 - 223	2- التعليم
246 - 244	3- المطابع
248 - 246	4- الجمعيات
250 - 248	5- ترجمة الكتب وإنشاء المكتبات
254 - 250	6- الصحف والمجلات
265 - 254	7 - المستشفيات والملاجئ
333 - 266	الباب الرابع: آثار الإرساليات التبشيرية في بلاد الشام
294-267	الفصل الأول: الآثار السياسية
274-267	1 - انفصال لبنان عن سوريا وظهور دولة لبنان الكبير
283 - 274	2 - اثارة الفتن والنعرات الطائفية
288 - 283	3 - ظهور فئة موالية للغرب من المسيحيين العرب
294 - 289	4 - التمكين اليهود في أرض فلسطين
312 - 295	الفصل الثاني: الآثار الثقافية والدينية
325 - 295	1 - ظهور النهضة العربية
302 - 300	أ - الطباعة
308 - 302	ب - ظهور الصحف والجرائد العربية
312-309	ج- ازدهار حركة الترجمة

316 - 312	د - كثرة المدارس وانتشار التعليم
325 - 316	هـ - ظهور الجمعيات الفكرية
330 - 326	2- تكريس اللغة الفرنسية في لبنان
332 - 330	3- آثار دينية
341- 333	الخاتمة
348- 342	الملاحق
367 - 349	ببليوغرافيا
390- 368	فهرس الأعلام والأماكن
395 - 391	فهرس الموضوعات